



دكتور قاسم عبده قاسم

الحملة الصليبية الأولى

نصوص ووثائق تاريخية



الحملة الصليبية الأولى

نصوص ووثائق

تحرير

د. قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

طبعة

٢٠٠١م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهواري

د . شوقي عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ه شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Td : 3871693

إهداء

إلى ابني عمرو .. بسمة اليوم ، وأمل الغد
قاسم عبده قاسم

مَقَرُّ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ

تمهيد

ماهية الحركة الصليبية - طبيعة الحملة الأولى -
الدوافع والأسباب - أحداث الحملة - مؤرخو الحملة
الأولى ومنظورهم التاريخي - عوامل اختيار
النصوص.

«الحروب الصليبية» عبارة ذات مدلول غامض بالنسبة للكثيرين. فالصورة التي تتمثلها أذهان عامة المثقفين في الغرب الأوربي عن الحملة الصليبية تشي بصورة فرسان بواسل ألهبتهم الحماسة الدينية، والشوق لتحرير قبر المسيح والأماكن التي شهدت قصته على الأرض، من أيدي المسلمين. ويتصور الكثيرون أن هؤلاء الفرسان قد فارقوا الأهل والوطن، وانطلقوا فوق جيادهم الفارحة يشنون حرباً مقدسة ضد العرب ذوي البشرة الداكنة الذين يفرون أمامهم في جبن وتخاذل.

هذه الصورة الأخاذة ليست صحيحة جملة وتفصيلاً. فقد جاءت نتاجاً للخيال الذي كان نصيب الحروب الصليبية منه أكبر من نصيب أية ظاهرة تاريخية أخرى. وعلى الرغم من أن هذه الصورة توافق المفاهيم الشعبية عن الحركة الصليبية في الغرب؛ فإنها تحمل من الخيال أكثر مما تحمل من التاريخ. فلم يكن الفرسان الصليبيون عمالقة يمتطون جياداً فارحة، لأنهم كانوا أبناء مجتمع يعاني من سوء التغذية بشكل عام، كما أن خيولهم كانت هزيلة ولم تتحسن سلالاتها إلا في وقت لاحق بفضل تهجينها بسلالات الخيول العربية. كذلك فإن المسلمين والعرب لم يكونوا جبناء أو متخاذلين، وإنما كان التشرذم السياسي، والنزاع والتخاضع بين حكام المنطقة العربية، العامل الحاسم في إقتصار الصليبيين، ومن ناحية أخرى، كان الصليبيون من أبناء الغرب الكاثوليك قد جاؤوا إلى المنطقة تحت راية الصليب حقاً، ولكن أهدافهم لم تكن أهدافاً دينية بالفعل.

والمفهوم الشعبى فى الغرب عن الحروب الصليبية لم ينشأ من فراغ، وإنما تكون عبر عشرات السنين بفعل تراث اجتمع على مر الزمان بفضل الدعاية التزقة التى روجتها البابوية ورجال الكنيسة الكاثوليكية ضد المسلمين من ناحية، والشعر الشعبى الذى تناول الحروب الصليبية من ناحية ثانية، ثم كتابات مؤرخى الحروب الصليبية اللاتين من ناحية ثالثة. وبينما كانت الدعاية البابوية سابقة على خروج الحملات الصليبية ومواكبة لها، فإن كتابات المؤرخين والشعراء لم تكتب سوى بعد نجاح الحملة الأولى. ويعنى هذا أن الأحداث قد كتبت من منظور غير واقعى يتشد النموزج والمثال ويحاول صياغة الظاهرة التاريخية فى إطاره.

وعلى الرغم من أن المنطقة العربية كانت هى المسرح الأساسى الذى جرت عليه أحداث هذه المواجهة الطويلة المضنية، فإن الكثيرين من عامة المثقفين العرب لا يكادون يعرفون شيئاً عن هذا الحدث التاريخى الهام؛ اللهم بعض أسماء قليلة من قادة حركة الجهاد ضد الصليبيين. والفكرة العامة عن «الحروب الصليبية» فى العالم العربى، فكرة عاطفية تدغغ الحواس القومية وتداعب مشاعر الزهو الكاذبة عن الإلتصاف العربى الإسلامى على الصليبيين وطردهم من المنطقة. وربما يكون من أسباب هذه الصورة الضبابية للحروب الصليبية فى العالم العربى، أن البحث التاريخى ظل قاصراً حتى الآن عن تكوين صورة صحيحة بشكل عام للحركة الصليبية التى كان هدفها الأساسى القضاء على العروبة والإسلام فى المنطقة العربية، وتحويلها إلى منطقة تابعة ومجال حيوى للتوسع والإستيطان الأوروبى. وربما يكون من الأسباب أيضاً، عدم محاولة معظم مؤرخى الحروب الصليبية فى العالم العربى، حتى اليوم دراسة الحركة الصليبية من منظور معاصر، يربط بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية. وهى ، على أية حال، محاولة غير تعسفية وتقوم على أسس علمية وطيدة.

وهكذا، نجد أنفسنا بالضرورة فى مواجهة سؤال هام يطرح نفسه عن ماهية الحركة الصليبية . لقد كانت الحركة الصليبية واحدة من القوى الكبرى المحركة لتاريخنا وتاريخ الغربى الأوروبى على السواء. فقد دارت معارك الحروب الصليبية على نطاق واسع؛ سواء من حيث النطاق الجغرافى، أو المدى الزمنى، أو من حيث الأعداد التى شاركت فى هذه المعارك، وسيطرت الحروب الصليبية وأخبارها وأحداثها على مشاعر الناس وأفكارهم فى الغرب الأوروبى فيما بين سنة ١٠٩٥ م ، وسنة ١٢٩١م على أقل تقدير. بل إننا لا نغالى إذا قلنا إن الأفكار والقيم والمثل التى تبلورت فى أتون الحروب الصليبية (والتي كانت بدورها من عوامل قيام الحركة الصليبية قبل ذلك) ظلت ماثلة فى أذهان الأوربيين ووجدانهم فترة طويلة من

الزمان، بحيث أن كل من كتب في الشئون الأوربية آنذاك، تقريباً، كان يشير بشكل أو بآخر إلى الحروب الصليبية، أو إلى الكيان الصليبي فوق الأرض العربية، أو إلى مشروع أو خطة صليبية جديدة. بل إن الفكرة الصليبية ظلت محتفظة بجاذبيتها في الغرب الأوربي حتى القرن الثامن عشر كما يقول جونتشان رايلي سميث. ومن ناحية أخرى، كان التصدي للصليبيين ومحاولة القضاء على الكيان الصليبي، هو الشغل الشاغل للأمة العربية الإسلامية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بل إن بقايا الصليبيين ظلوا يهددون السواحل العربية على البحر المتوسط خلال فترة طويلة شملت معظم سنوات القرنين التاليين.

وحتى اليوم لا يستطيع أحد في الغرب أو في المنطقة العربية أن يقف موقف اللامبالاة من تاريخ الحروب الصليبية سوى عن جهل أو جهالة، فعلى مر القرون كان الأوربيون ينظرون في تاريخ الحركة الصليبية ليستلهموا الأحداث والأفكار؛ ذلك أن الفرنسيين في العصر الحالي يرون في الحملات الصليبية أول مشروعاتهم الإستعمارية. والجدير بالذكر أن غالبية جيوش الحملة الأولى كانوا من الفرنج، أجداد الفرنسيين، بحيث صار الاسم مصطلحاً يدل على كل الصليبيين أيا كانت جنسيتهم. كما أن الصليبيين أطلقوا على الكيان الصليبي في فلسطين «فرنسا ما وراء البحار» باعتباره إمتداداً للوطن الفرنسي الأم، وهي نفعة إستعمارية ردها الفرنسيون بالنسبة للجزائر وكل مستعمراتهم، وما زالوا يرددونها بالنسبة لبقية مستعمراتهم حتى اليوم. كما أن الإنجليز حين احتلوا فلسطين سنة ١٩١٧ اعتبروا أنفسهم ورثة الصليبيين. بل إن الصهاينة عندما اغتصبوا الأرض العربية، وأقاموا دولتهم سنة ١٩٤٨، كانوا يتفنون مشروعاً شبيهاً بالمشروع الصليبي، ولكن في مصطلحات صهيونية.

وسواء بالخير أو بالشر، فقد جلبت الحركة الصليبية إلى منطقة شرق المتوسط قوى جديدة استمرت تتفاعل مع القوى القديمة في المنطقة على مدى قرون عديدة. كما أنها أدخلت عناصر جديدة في الغرب الأوربي وفي المسيحية الكاثوليكية، صارت اليوم من أهم مكوناتها. فقد كان التناج الأساسي بالنسبة للحروب الصليبية في الغرب، أن صارت الحرب الهجومية أمراً مشروعاً، بل ومقدساً في بعض الأحيان. وكان ذلك تكريساً للروح العسكرية العدوانية التي تميز الحضارة الأوربية حتى اليوم.

وعلى الرغم من مرور ما يقرب من ألف سنة على بدء الإهتمام العام بالحركة الصليبية، وعلى الرغم من مرور قرون طويلة من بدء محاولة الدراسة الأكاديمية لهذه الظاهرة التاريخية

الفظة، فإن عدداً قليلاً من الناس، فقط، لديهم فكرة واضحة عن «الحروب الصليبية»؛ سواء في الغرب أو في المنطقة العربية والعالم الإسلامي.

وتحديد مصطلح جامع مانع مشكلة ليست سهلة على أية حال بالنسبة لأية ظاهرة تاريخية. وفيما يتعلق بالحركة الصليبية، أو الحروب الصليبية، أو الحملات الصليبية، أو حتى لفظ «صليبي» تبدو المشكلة أكثر تعقيداً. ذلك أن محاولة صياغة تعريف محدد لأى منها محاولة محفوفة بالمخاطر الجسيمة. فوضع تعريف بسيط لظاهرة تاريخية معقدة وممتدة في رحاب الزمان والمكان مثل «الحركة الصليبية» أمر قد يجردها من الكثير من دلالاتها التاريخية ومضامينها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. فقد سيطرت هذه الحركة وأحداثها على الفكر والمشاعر في الغرب الأوربي وفي المنطقة العربية طوال عشرات السنين، كما نتجت عنها عشرات الأحداث الفرعية على كافة المستويات. كذلك فإن القيم والمثل والأفكار، التي سبقت أو صاحبت مولد الحركة الصليبية، تبلورت وتطورت في خضم أحداثها بحيث صارت أساساً لتيارات أخرى إنبتقت عنها، وصارت من أهم قوى التغيير في أوروبا ذاتها سواء على المستوى السياسي أو على المستوى الثقافي والاجتماعي. ومن ناحية أخرى، فإننا لا يمكن أن نعتد على ما كتبه المؤرخون المعاصرون للحملات الصليبية لوصفها، أو لتحديد مدلول «الحملة الصليبية»، وذلك لأن إشاراتهم في هذا الصدد كانت مختصرة جداً، فقد كانوا يتحدثون عن شيء يعايشونه ويفهمونه جيداً، ولم تكن بهم حاجة لوضع تعريف جامع مانع له. ولذلك فإننا لا نجد مصطلحاً واحداً استخدمه المعاصرون جميعاً بشكل مُنسّق لوصف «الحملة الصليبية» أو «الصليبيين». بل إن الكتاب اللاتين ظلوا حتى القرن الثالث عشر يستخدمون كلمة *Per-egrinus* (ومعناها الحاج) للدلالة على الصليبي وعلى الحاج المسلح معاً. ولم يحدث قبل القرن الثالث عشر أن ظهرت الكلمة الدارجة *Croisierie* في اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية، ومعناها «صليبي». وطوال الفترة السابقة استخدمت مصطلحات وكلمات عديدة للدلالة على «الحملة الصليبية»؛ فقد كانت تسمى أو *peregrinatio* أى الحج، كما استخدمت عبارة الحرب المقدسة *guerre sainte* أو *bellum sacrum* والرحلة *Passagium* أو الرحلة العامة *passagium generale*، وحملة الصليب *expeditio crucis*، أو عمل يسوع المسيح *negotium ihesu*، والجدير بالذكر أن كثيراً من هذه العبارات قد صيغت بدافع من الحذقة، ولم تكن مصطلحات اتفق عليها المعاصرون. ولم يحدث سوى في أخريات القرن الثاني عشر أن

ظهرت كلمة cruce signati (ومعناها الموسوم بعلامة الصليب) لتحديد الصليبي بشكل دقيق. بيد أن كلمة حاج لم تختف في تلك الفترة وإنما ظلت تدل على الصليبي بعد ذلك بوقت طويل، ولاسيما بالنسبة للمشاركين في الحملات الصليبية المتوجهة إلى المنطقة العربية.

ومشكلة المصطلح وتعريف «الحركة الصليبية» و«الحملة الصليبية» و«الصليبي» تستدعى إلى الذهن مباشرة مشكلة المصطلح والتعريف التي واجهها مؤرخو الإقطاع أيضاً. فقد إنتابتهم الحيرة وهم يحاولون تعريف فترة فائقة الأهمية من حيث التنظيم السياسي والإقتصادي والإجتماعي بسبب تلك الكثرة من الاختلافات ومدى التباين من إقليم لإقليم في تطبيق تلك النظم التي اصطلح هؤلاء المؤرخون على تسميتها بالنظام الإقطاعي. ولم يكن من عاصروا هذا «النظام الإقطاعي» وعاشوا في إطاره يعرفون أنه «نظام إقطاعي»، وإنما كانت لهم مسميات أخرى مختلفة ومتعددة، وليس من المدهش أنه يمكن وصف النظام الإقطاعي بعدة تعريفات مختلفة، ولكن المهم أن محاولة وضع مثل هذه التعريفات قد زاد من فهمنا للعصور الوسطى على الرغم من أنها لم تصل إلى نتيجة حاسمة.

ولا شك في أن المعاصرين لمولد الحركة الصليبية وتطوراتها المختلفة كانوا يعرفون ماهية «الحملة الصليبية» على الرغم من أنهم لم يستخدموا هذه المصطلح سوى في القرن الثالث عشر، وعلى الرغم من أنهم إستخدموه بجانب العبارات الأخرى التي أشرنا إليها. ولا يهمننا في هذه الدراسة أن نتناول التحديد أو التعريف القانوني «الحملة الصليبية» (وهو على أية حال تحديد ظل يتطور وفقاً لتطورات الحركة الصليبية ذاتها)، وإنما يهمننا في المقام الأول أن نحدد مدلولها بالنسبة لمن شاركوا فيها، وبالنسبة لمعاصريهم، وما أدى إليه ذلك على مستوى الواقع التاريخي. وهذه كلها يمكن أن نجدها في كتابات المؤرخين وخطب المبشرين، وخطابات البابوات ومراسيمهم ومنشوراتهم الدورية، فضلاً عن الأشعار الشعبية. فالبدائية دائماً هي دموة الناس لأخذ شارة الصليب؛ وهو ما يعنى أن يقسموا على الإنضمام لحملة عسكرية ذات هدف ديني معن، وكان هذا القسم يتم في إحتفال عام (كان يختلف من مكان لآخر) حيث يقوم الرجال والنساء، الأغنياء منهم والفقراء، والقساوسة والعلمانيون بالتطوع للمشاركة في الحملة. ومن المهم في هذا المقام أن نوضح أن الجيوش الصليبية لم تكن قاصرة على أولئك الذين أقسموا على حمل شارة الصليب، ولكنها كانت تضم أيضاً هذه الأعداد المألوفة من غير المحاربين الذين كانوا يسيرون في ركاب جيوش ذلك الزمان لأداء المهام والخدمات التي تؤديها

أسلحة الخدمات في الجيوش الحديثة من ناحية، كما كانوا يجدون رزقهم في ركاب تلك الجيوش من ناحية أخرى. كذلك كانت الجيوش الصليبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تضم أعداداً من المرتزقة؛ إذ صار من الممكن للصليبي أن يدفع مبلغاً من المال لتجنيد من يقوم بدلاً منه بالوفاء بقسمه الصليبي. وكان هذا في الواقع تطوراً هاماً أدى فيما بعد إلى ظهور «صكوك الغفران». على أية حال، كان الدعوة إلى المشاركة في الحملة الصليبية سمة أساسية من سماتها بشرط أن تكون هذه الدعوة صادرة عن البابا.

هذه هي أهم مدلولات عبارة «الحملة الصليبية»، وهي تكشف عن نوع من الإلتزام المتبادل بين الصليبي والبابوي. إذ يقوم الصليبي بتلبية دعوة البابوية، ويقسم على أداء المهمة المطلوبة، لقاء حصوله على الغفران وعدة امتيازات دينوية أخرى. وهذه العناصر الأساسية هي التي جعلت بعض مؤرخي الحروب الصليبية يمدون نطاق الحركة الصليبية بحيث تشمل أيضاً الحملات الصليبية التي جرت على حدود أوروبا أو داخل حدودها ضد المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية. بيد أننا لا نستطيع أن نوافق على هذا الرأي. فقد نشأت الحركة الصليبية أصلاً بهدف الزحف على الشرق لتخليص الأرض المقدسة من أيدي المسلمين والقضاء على الوجود الإسلامي في مناطق شرق المتوسط. وإذا فإننا نرى أن عبارة «الحركة الصليبية» تنطبق فقط على الحملات التي جرت صوب فلسطين والمنطقة العربية بهدف الإستيلاء عليها، كما تنطبق أيضاً على تلك الحملات التي أرسلها الغرب الأوربي دفاعاً عن مكاسب الحملة الأولى ومساندة للكيان الصليبي على الأرض العربية. كما أننا نرى أن الحملات «الصليبية» التي دعت إليها البابوية في داخل أوروبا أو على حدودها، كانت حملات سياسية بحتة ينبغي معالجتها بشكل منفصل، وذلك على الرغم من أن البابوية دعت إليها باعتبارها حملات صليبية من ناحية، وتوفر الأسس القانونية التي توفرت للحملات الشرقية من ناحية أخرى.

أما السمة الأساسية الثانية للحملة الصليبية فتتمثل في الإمتيازات القانونية التي كان يحصل عليها الصليبيون. فقد كان الصليبي يتمتع بحماية البابوية لأملكه وعائلته ومصالحه طوال فترة غيابه في الحملة الصليبية. ومع مرور الزمن تطورت هذه الإمتيازات واتسع نطاقها، ولكن الغفران ظل، منذ البداية، أهم هذه الإمتيازات؛ على الرغم من أنه صار يمنح في فترة متأخرة لقاء المال فقط.

ومن الخطأ أن ننكر المكانة الفريدة التي تبوأها القدس في الدعوة للحركة الصليبية؛ إذ

كانت للمدينة التي شهدت قصة المسيح جانبيتها الطاغية، والتي كانت أهم عناصر الدعاية البابوية لبدء الحركة الصليبية. فهل كان يمكن أن تكون لأية مدينة أخرى جانبيه القدس في ذلك العصر الذي كان أريجيه مزيجاً من الرؤى الإعجازية وأخبار التنبؤات، والذي كانت تحكمه مفاهيم غيبية وأخروية آمن بها المجتمع؟ لقد كانت جانبيه القدس الطاغية هي التي اجتذبت المشاركين في الحملة الأولى، ومن جاؤا بعدهم، وعلى الرغم من أن البابوات أنفسهم، ورجال القانون في البلاط البابوي، وعلماء اللاهوت - جميعاً كانوا يرون أن الحملات الصليبية التي جردت على أوروبا أو داخلها تستحق نفس المكانة القانونية التي تستحقها الحملات التي خرجت صوب المنطقة العربية، فإننا نرى أن التعريف القانوني وحده ليس عاملاً هاماً في تحديد ماهية الحركة الصليبية. لقد كانت الحركة الصليبية في نشأتها وأهدافها مرتبطة بالأرض المقدسة والمنطقة العربية والأهداف الإستيطانية، أكثر من إرتباطها بأية عناصر قانونية أخرى داخل أوروبا نفسها، وأكبر من ضمانات البابوية للصليبيين، والدليل على صدق هذا القول يبدو جلياً واضحاً من خلال أخبار الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين التي بذل البابا إريان محاولات كثيرة لمنع خروجهم، لقد كانت دعوة إريان الثاني في كليرمون تطرح أمام المجتمع الأوربي الذي مزقه الانقسام وأرهقته المشكلات هدفاً عاماً يمكن لكل قوة من القوى الفاعلة في هذا المجتمع أن تعبر عن نفسها من خلاله، وكان الطريق الذي سارت عليه الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين، ثم حملة الأمراء، طريقاً للآمل في الخلاص الدنيوي والأخروي معاً، ولم تكن الصياغات القانونية المتحذقة لتحول دون مسيرة الطمع والأمل تحت راية الصليب.

ومن ناحية أخرى، كانت الحملات الصليبية الأوربية أدوات سياسية استخمتها البابوية في صراعاتها ضد أعدائها من حكام الغرب الأوربي، أو ضد المذاهب الدينية المخالفة للمذهب الكاثوليكي، ولم تكن لها جانبيه الحملات الذاهبة إلى الشرق. وإذا كانت حماسة الأوربيين للحملات الصليبية ضد المنطقة العربية قد فترت بسبب نجاح المسلمين في القضاء على الكيان الصليبي نهائياً سنة ١٢٩١م، فإن ذلك لم يكن يعنى أن القدس قد فقدت جانبيتها بالنسبة لهم، والأهم من ذلك كله أن الحملات الصليبية الأوربية قد جاءت تطوراً متأخراً عن الحركة الصليبية الأصلية وأهدافها الإستيطانية للتوسع على حساب العروبة والإسلام.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن محاولة تحديد المصطلح، أو وضع تعريف للحملة الصليبية سوف يقتصر على الحملات التي جردت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقط، وذلك لأن الحملة

الأولى كانت في حد ذاتها مثلاً ونموذجاً تم تكريسه بعد نجاح هذه الحملة، بحيث صيغت على منوالها الحملات التالية. وبعبارة أخرى، فإن الحملة الأولى لم تكن هي «الحملة الصليبية الأولى» بالنسبة لمن شاركوا فيها، إذ إنهم خاضوا أحداثها دون أن تكون لديهم فكرة مسبقة عما ينبغي أن تكون عليه، وحين إنتهت هذه الحملة بالنجاح بدأ المعاصرون يحاولون إستخلاص المثل والنموذج النظري من الأحداث التي شكلت الحملة الأولى على أرض الواقع. فلم يكن المشاركون في الحملة الأولى يعرفون أنه سوف تتلوها حملات أخرى على مثالها ولكن النجاح المذهل الذي حققته هذه الحملة، جعلها نموذجاً ومثالاً جردت أوروبا الحملات التالية وهي تهتدي به، على الرغم من بعض التطورات والتعديلات التي طرأت عليه بفعل الظروف التاريخية المتغيرة. لقد عاشت الأفكار والمثل التي ميزت الحملة الأولى بعدها بزمان طويل حقاً، ولكن هذه الأفكار والمثل ظهرت وتطورت في خضم أحداث هذه الحملة.

وعلى الرغم من الخلاف الذي ثار بين المؤرخين حول المدى الزمني والمجال الجغرافي للحركة الصليبية، فالثابت تاريخياً أنها بدأت بالحملة الأولى ضد المنطقة العربية تحت زعم تحرير الأرض المقدسة من أيدي المسلمين. ويميل معظم المؤرخين في العصر الحديث إلى القول بأن المثل الصليبي يجمع في ثناياه بين عناصر قديمة وأخرى جديدة؛ وأهم العناصر القديمة في المثل لصليبي هو المفهوم القائل بأن الحملة الصليبية «حرب مقدسة»، يدعو إليها البابا «للدفاع» عن العالم المسيحي. أما العناصر الجديدة فتتمثل في إدخال مفهوم الحج وإسباغ الجانب الروحي عليه بسبب إزدياد حركة الحج المسيحي إلى فلسطين إبان القرن الحادي عشر. وأهم تلك العناصر الجديدة التي أدخلتها البابوية تتعلق بواقع البابوية نفسها ومحاولتها لفرض «حركة السلام» من خلال «هدنة الرب» و«سلام الرب» على الفرسان الإقطاعيين المتحاربين في فرنسا وبعض مناطق غرب أوروبا آنذاك.

وإذا كنا نرى أن الأيديولوجية الصليبية قد تشكلت من ثلاثة روافد أساسية؛ هي الحرب المقدسة والحج كتيار مسيحي، ثم الحروب الإقطاعية وحركة السلام التي كانت نتيجة مباشرة لها كتيار جرمانى، ثم المؤثرات الإسلامية غير المباشرة كتيار خارجي، فإن هذه التيارات والروافد الأساسية الثلاثة كانت متداخلة متشابكة بشكل يصعب تحديد مداها، وعلى نحو جعل تفاعلها سوياً يحول دون أية محاولة لفصل أى رافد من هذه الروافد الثلاثة عن غيره، ومن ناحية أخرى، ينبغي أن ندرك أن هذه الروافد الثلاثة لم تكن وحدها صانعة المثل الصليبي؛ أو

الخلفية الأيديولوجية التي خرج منها المثال الصليبي والحركة الصليبية في أخريات القرن الحادى عشر. فقد أسهمت عوامل فرعية كثيرة فى صياغة هذه الأيديولوجية بحيث جاءت فى النهاية تعبيراً عن المجتمع الأوربي فى تلك الفترة. وعلى الرغم من أن البابوية والدعاة الكنسيين قد لعبوا الدور الأكبر فى صياغة المثال الصليبي والترويج له، فإن البابوية لجأت إلى مخاطبة الأطماع الدنيوية فى نفوس الناس وهى تدعوهم إلى «العمل المقدسة».

وحين طرحت البابوية دعوتها فى كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥، كانت تستهدف من العمل الصليبي شيئاً، وفهم الفرسان الإقطاعيون شيئاً آخر، أما جماهير العامة من المقهورين والمطحونين من الفلاحين وسكان المدن الناشئة، فكانت الدعوة بالنسبة لهم تعنى شيئاً يختلف عما دعت إليه البابوية، وما فهمه الفرسان الإقطاعيون، ولم يكن ممكناً أن يجتمع هؤلاء وأولئك جميعاً سوى فى ظل الأيديولوجية السائدة والصياغة الفضفاضة للمثال الصليبي، كما طرحها إريان الثانى على جمهوره من الكنسيين والعلمانيين فى كليرمون.

والحركة الصليبية منذ بدايتها نتاج لمجموعة عوامل متشابكة ومعقدة إلى أقصى الحدود، كما أن هذه الحركة نفسها كانت ظاهرة بالغة التعقيد؛ ومن ثم فإن أية محاولة لتفسيرها فى ضوء عامل واحد، أو مجموعة عوامل محدودة؛ مثل التدين العاطفى والحماسة الدينية، أو جوع زعماء الصليبيين إلى الأرض، أو الأحوال والظروف الإجتماعية التعسة التى عاش فى ظلها الفلاحون وفقراء أوربا، أو رغبة تجار المدن الإيطالية فى الحصول على الإمتيازات التجارية، أو المآرب السياسية للبابوية، أو الطموح الشخصى.. وما إلى ذلك - هذه المحاولة سيكون مآلها الفشل؛ على الرغم من أن هذه العوامل جميعاً كانت بالفعل من بين العوامل والأسباب التى أدت إلى بروز الحركة الصليبية على سطح التاريخ.

ومن ناحية أخرى، فليس بمقدورنا أن نميز بخط فاصل بين أهداف الزعماء وأهداف العامة فى الحركة الصليبية؛ لأن كلاهما قد أظهر من دلائل التدين، ومن مظاهر الطمع الدنيوى ما يجعلنا نتخبط فى حيرة وارتباك إذا افترضنا سلفاً أن تصرفات العامة، أو تصرفات الزعماء، كانت تسير فى إتساق على نهج واحد. ففى تاريخ الحركة الصليبية، وفى تاريخ أوربا العصور الوسطى عموماً، يواجه المؤرخ خليطاً مذهلاً من التدين والوحشية، وهذا التناقض الصارخ غالباً ما يقف عائقاً فى طريق أية محاولة لفهم هذه الأمور.

ومن المسلم به، أنه ليست هناك أيديولوجية يمكن أن تجتذب الجماهير مثل الإيديولوجية التي ترتدى مسوح الدين؛ على الرغم من أن الدوافع الإقتصادية والسياسية والإجتماعية؛ بل والأهداف الشخصية، قد تكون أكثر أهمية من الدافع (المتسر بل برداء) الدين والذي يحظى بالقبول الشعبى الواسع، وفى الحركة الصليبية تمت صياغة الإيديولوجية على أساس دينى، وعندما أخذت مجلة الحرب فى الدوران بدأت تظهر الأهداف والدوافع الحقيقية التي كانت متوارية خلف غبار الضجة الإعلامية للحرب.

لقد كانت الحركة الصليبية إنعطافاً خطيراً فى الغرب الأوروبى؛ إذ كانت تلك هى أول حرب يخوضها الغرب تحت راية إيديولوجية معينة. وكان طبيعياً أن تفسد هذه الأيديولوجية وتُزيف بمرور الوقت. بيد أن الحقيقة تظل تفرض نفسها معلنة أن اعتناق القوى الإجتماعية المختلفة لهذه الأيديولوجية جاء تعبيراً عن صراع تلك القوى ضد بعضها البعض من ناحية، كما كان تعبيراً صريحاً عن التفاعلات الإجتماعية الناجمة عن هذا الصراع نفسه من ناحية أخرى. ولما كانت الحركة الصليبية إفرازاً للتفاعل بين الكنيسة والإقطاع، فإنها كانت تسعى لتحقيق أهداف هاتين المؤسستين الحاكمتين فى المجتمع الغربى آنذاك. وإذا كانت البابوية تمثل الكنيسة وتجسدها، فإن الفرسان والأقنان والفلاحين كانوا يمثلون الإقطاع ويجسدونه، على الرغم من تداخل كل من المؤسستين فى الأخرى. وقد شاركت القوى التجارية فى إيطاليا فى المشروع الصليبي أيضاً.

ولكن حين دعا البابا إربان الثانى إلى مشروعه بشن «حملة مقدسة» ضد المسلمين فى الشرق كانت هذه الدعوة رد فعل إزاء بعض الضرورات السياسية والدينية العاجلة. لقد كانت الحملة الصليبية مشروعاً كنسياً خالصاً؛ إذ كانت البابوية تهدف من ورائه إلى فرض سيطرتها على المسيحيين فى الشرق، وإنهاء الشقاق بين كنيسة بيزنطة وروما وتوحيدهما من جديد تحت زعامة البابا. كذلك استخدمت البابوية «المشروع الصليبي» كأداة من أدوات السياسة الداخلية أثناء صراع الكنيسة مع القوى الأخرى فى المجتمع الأوروبى فى القرن الحادى عشر. فقد أراد البابا أن يؤكد الزعامة البابوية وتثبيت وضعه إزاء الإمبراطور الألمانى الذى كان مشتبكاً معه فى صراع أورثه إياه سلفه البابا جريجورى السابع. وكان الصراع بين الإمبراطورية والبابوية من أهم حوافز البابا على هذه المحاولة لفرض زعامته على أوروبا من خلال مشروع دينى الطابع مثل «الحملة المقدسة». كذلك عمل البابا على توجيه طاقات الفرسان نحو أهداف خارج أوروبا ليضمن خروجهم من دائرة التبعية لعنوه الإمبراطور من

ناحية، ولربطهم وربط أملاكهم برباط التبعية للكنيسة من ناحية أخرى. وهكذا كان على البابا إربان الثاني أن يخاطب المحاربين فقط، في كليرمون سنة ١٠٩٥. لقد كانت الحملة الصليبية «فعلة كنسية»، ولكن العوامل الدنيوية هي التي حسمت أمرها وجعلتها أمراً واقعاً.

ومن ناحية أخرى كانت دوافع العلمانيين من الفرسان والفلاحين والأقنان على نفس الدرجة من التنوع والإختلاف. ومما لا شك فيه أن كثيرين من الفرسان الأوربيين الذين شاركوا في الحملة الأولى كانوا يتلظون شوقاً بالرغبة في قتل المسلمين الذين أشاعت الدعاية البابوية أنهم يقتلون المسيحيين الشرقيين ويدمرون الكنائس. وبفض النظر عن أن الخليفة التاريخية كانت أبعد ما تكون عن الدعاية الكنسية؛ فإن الأخبار والقصص التي روجتها الدعاية الكنسية جعلت الناس في غرب أوروبا يأخذون هذه الأنباء مأخذ الجد، وكانت صورة المسلمين لدى أهل الغرب تنطق بملامح وحشية عابسة قاسية بحيث تجعلهم يستحقون القتل والتدمير. ولكن هذا السبب لم يكن السبب الوحيد في استجابة الفرسان لدعوة إربان في المشروع البابوي، فقد كان الكثيرون منهم يتحرقون شوقاً للمغامرة في الخارج بعد أن باتت فرصة الفوز والتوسع في داخل أوروبا ضئيلة ومحفوفة بكثير من المخاطر بسبب حركة السلام التي كانت تتبعها البابوية، وبعض أمراء أوروبا، كما أن زيادة عدد السكان كان يعنى زيادة عدد الفرسان الذين لا يملكون أية إقطاعيات، وكان أولئك على استعداد للمشاركة في الحملة إلى فلسطين أملاً في الحصول على الأملاك والضيايع هناك. ومن بين الفرسان كان هناك من يريد إستعادة الهيبة التي فقدوها في وطنه من خلال إنتصار حريس يحققه في الشرق. بل إن ستيفن كونت بلوا وشارتر، شارك في الحملة الصليبية لأن زوجته أرادت له أن يشارك في أعظم مشروعات العصر، وإضططر للرحيل هرباً من سلطة لسان زوجته الطموح إبنة وايم الفاتح. ويخبرنا بعض المؤرخين اللاتين أن بعض الفرسان قد وجدوا في انضمامهم للحملة الذاهبة إلى الشرق فرصة للهرب من العدالة، أو الفرار من دائئهم. كما أن البعض إنضموا تحت راية الحملة خوفاً من أن يظن الناس أنهم كسالى، أو رغبة منهم في محبة أصدقائهم، أو لأى سبب آخر من هذه الأسباب التافهة.

وكانت الظروف الإجتماعية والإقتصادية السيئة في غرب أوروبا القرن الحادى عشر وراء مشاركة تلك الأعداد الغفيرة من عامة الناس في ريف أوروبا ومنهنا الناشئة آنذاك، ولأن أحلام المهودين في أوروبا العصور الوسطى لم تكن تتحقق سوى في القليل النادر، فقد اعتقد العامة

والفقراء أن هجرتهم إلى الشرق المقدس في ظل مباركة الكنيسة ورعايتها لن تجعلهم يخسرون شيئاً، فلم يكن ينتظروهم في غرب أوربا سوى الموت جوعاً أو قهرًا تحت وطأة السيطرة الإقطاعية. لقد كانوا يأملون في أن تتحسن أحوالهم المعيشية في فلسطين «الأرض التي تفيض باللبن والعسل» كما يقول الكتاب المقدس. أما الموت فقد كان يعنى الخلاص في الآخرة كما وعدهم البابا في خطبته. لقد جاءت فكرة «الحرب المقدسة» لتحرير قبر المسيح من أيدي المسلمين فرصة هائلة لتحرير المهجورين في غرب أوربا؛ إذ لم يكن من المعقول أو المقبول أن يحرر قبر المسيح من تقيدهم الأغلال والقيود الإقطاعية.

ويرى بعض المؤرخين أن الحملة الشعبية، التي ضمت هؤلاء المهجورين، قد خرجت ضد أهداف الكنيسة. فمن الواضح أن البابا كان يوجه خطابه في كليرمون إلى المحاربين فقط، ولم يكن ليتصور أن يخرج غيرهم للمشاركة في هذه الحرب، بل إنه بذل جهده لكي يحول دون خروج جماهير العامة والفلاحين بدعوى أنهم سيكونون عائقاً في سبيل تحقيق الهدف بضرب المسلمين، والذي لا يستطيع تحقيقه سوى الفرسان كما ذكر في خطباته. ولكن الحافز على الرحيل كان أقوى من هذه الإجراءات. فقد كانت الأوضاع الاجتماعية السيئة آنذاك في صالحي الحركة الصليبية، ولكن بوافع الفلاحين والعامة كانت تتناقض تماماً مع أهداف الكنيسة والنبلاء. فبينما رأت الكنيسة والنبلاء الإقطاعيون في الحملة الصليبية فرصة لزيادة سلطانهم وتوسيع رقعة نفوذهم، رأى الفلاحون في هذه الحملة نفسها فرصة هروبية من إفسار الطبقة الإقطاعية، وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية المتردية.

والحقيقة أن كثيرين من الناس في العالم الغربي ما يزالون ينظرون إلى الحروب الصليبية نظرة رومانسية حتى اليوم؛ لأنهم يتصورون أنها كانت تجسد العقيدة وهي تسير بأسلحتها المشرعة تتألق تحت الشمس، ويرون في الجيش الصليبي جيشاً من الرجال النبلاء الذين هذبهم تقاليد الفروسية على الرغم من حبهم للقتال. ولكن الصورة الفعلية للحروب الصليبية تحمل الكثير من الملامح القاتمة، كما أن قصتها حافلة بمشاهد الطمع والخسة وصور الخزي والعار؛ فقد كان الصليبيون قوماً من الهمج المتوحشين، حتى بمقاييس ذلك الزمان، وكما صورتهم أقلام المؤرخين من بنى جلتهم. وعلى الرغم من أنهم زعموا أنهم جنود الرب العاملون في خدمته، فإن الصور التي ترسمها المصادر التاريخية الصليبية نفسها، تكشف عن أنهم قد حسدوا أحقادهم وحروبهم الإقطاعية إلى الأرض التي شهدت خطوات المسيح.

ويميل معظم مؤرخى الحروب الصليبية إلى إتخاذ خطبة البابا إريان الثانى فى كليرمون نقطة بداية لبحثهم . وقد ثار جدل كبيرين المؤرخين حول ما قاله إريان فى خطبته، ذلك أن النص الأصيل لهذه الخطبة لم يصلنا، وإنما وصلتنا صياغات لها كتبت بعد نجاح الحملة الأولى ، وفى ضوء هذا النجاح، بحيث جعلها كل مؤرخ تنطق بمفاهيمه وتصوراته الشخصية لما كان ينبغي للبابا أن يقوله فى هذا المناسبة، بغض النظر عما قال إريان الثانى بالفعل، ولكن قراءة هذه الروايات جميعاً تكشف عن عدة نقاط أساسية اتفقت عليها الروايات بشكل يكشف عن أنها وردت فى خطاب الباب الأصيل. لقد خاطب إريان الجمهور المحتشد فى الحقول الفسيحة خارج الكنيسة باسم الرب باعتباره نائباً عنه، وبرز دعوته للحرب بأنها حرب مقدسة لتحرير المسيحيين والأرض المقدسة فى الشرق، كما امتدح الفرنجة وحثهم على عدم محاربة بعضهم البعض ووجههم إلى قتال المسلمين، ووعدهم بالغفران لقاء المشاق والصعاب التى سوف يلاقونها فى الطريق إلى بيت المقدس.

وتخبرنا المصادر التاريخية أن الإستجابة كانت حماسية وعاطفية أثناء خطبة البابا وبعد أن أنتهى منها . وسرعان ما سرت الأخبار بهذا المشروع البابوى فى شتى أرجاء الغرب الأوروبى كما تسرى النار فى الهشيم. وكانت الإستجابة الشعبية لخطبة البابا أكثر من كل التوقعات. ففى أنحاء فرنسا ، وفى الأراضى الواطئة وألمانيا وغرب إيطاليا، ترددت أصداء الدعوة التى أطلقها البابا فى كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥م. وإذا كانت إستجابة النبلاء متوقعة إلى حد ما؛ فإن إستجابة جماهير العامة فاقت كل التوقعات. فقد كان الجو الفكرى والنفسى والظروف الإجتماعية البائسة وراء هذه الإستجابة الجماهيرية المذهلة. لقد فهم الناس دعوة إريان باعتبارها فرصة لمستقبل جديد فى الشرق المقدس، وفرصة لخلص الروح فى الآخرة إذا مات الإنسان وهو على الطريق إلى هذا الشرق المقدس نفسه. ومن المحتمل أن الصليبيين الفقراء وقعوا فى شباك الطمع وراودتهم أحلام امتلاك الضياع فى الأرض المقدسة.

ومن الخطأ أن نظن أن الموقف الشعبى من الحملة الصليبية كان موقفاً دينيواً خالصاً يتذرع بالدين مثل موقف الكنيسة والنبلاء الذين كانوا يفضلون مصالحهم الشخصية على الأهداف المشتركة للحركة الصليبية. أما جماهير العامة فكانوا يعتبرون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء. وكان هذا المظهر الدينى العاطفى هو الذى ميز موقف الفقراء من الحركة الصليبية؛ ولكن ذلك لم يمنعهم فى الوقت نفسه من ارتكاب أخطأ ضروب الجرائم بالشكل الذى

كشفت من أبشع الشرور الننيوية والأطماع المادية. لقد كان تدينهم من ذلك النوع العاطفى الذى يشوبه التعصب المقيت، وظنوا أن التدين يعنى التعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى، بل ضد كل من لا يؤمنون بالعقيدة الكاثوليكية. ومن ناحية أخرى، كانت جماهير العامة تخلط بين التدين العاطفى المتعصب وحقائق حياتهم التعسة فى ظل المجتمع الإقطاعى الذى يظلم الطبقة الفقيرة ظلماً فاحشاً.

لقد كانت إستجابة الناس من أبناء الطبقة الدنيا سريعة وحماسية، وسرعان ما تكونت حركة شعبية ارتبطت باسم «بطرس الناسك» فى بداية الأمر. وكان بطرس هذا راهباً ترك ديريه وأخذ يقوم بدور الواعظ الجوال مثل كثيرين غيره فى تلك الفترة التى شهدت صحوة وإنتعاش المشاعر الدينية، وانتشار حركة التدين الشعبى العاطفى فى شتى أرجاء أوروبا. وقد تكونت حول هذا الراهب أسطورة ظلت مراحاً لخيال الأدباء والفنانين من جهة، كما تعامل معها المؤرخون الأوروبيون باعتبارها حقيقة تاريخية من جهة ثانية. وقد نسبت الأسطورة إلى بطرس فضل الدعوى إلى الحملة الصليبية. وإذا كانت الدراسات التاريخية النقدية منذ منتصف القرن التاسع عشر قد كشفت عن زيف هذه الأسطورة؛ فإن بطرس الناسك ما يزال يحظى بإهتمام المؤرخين باعتباره تجسيداً للحماسة الدينية الشعبية فى الحركة الصليبية من ناحية، ويسبب تناقض تصرفاته من ناحية أخرى. ذلك أن هذا الرجل الذى يعتبره بعض المؤرخين الفرنسيين نبى الحركة الصليبية قد بادر إلى الفرار من المعسكر الصليبي فى أنطاكية حين اشتدت المتاعب التى واجهها الصليبيون، وتم القبض عليه وأعيد إلى المعسكر فى شكل مهين.

لقد أطلق البابا إربان الثانى فى كليرمون دعوته الشهيرة للحروب الصليبية. وبدأ المبشرون الشعبيون يواصلون الدعوة إستجابة لخطبة إربان. وبدأ بطرس تجواله للدعوة قبل نهاية ١٠٩٥م. وكان خطيباً مفوهاً فصيحاً، قادراً على تحريك الجماهير، على الرغم من أنه كان زرى الهيئة. وكان وجهه الطويل المتفضع يجعله شبيهاً بحماره الذى اعتاد أن يصحبه فى جولاته. وعندما كان يتواجد فى منطقة ما، كان الناس يتدافعون لسماعه، وتمتد أياديهم تتسابق فى انتزاع شعيرات من جسد حماره الهزيل أو ذيله على سبيل البركة.

ومع تباشير ربيع سنة ١٠٩٦م. بدأت رحلات الفلاحين والعامة التى عرفت باسم الحملة الشعبية صوب الشرق. فممن أطلق البابا دعوته أخذ النبلاء يدبرون الأموال ويستعدون للرحيل فى حملة البابا التى تحدد الخامس عشر من أغسطس سنة ١٠٩٦م. موعداً لرحيلها. ومن هذه

القمم الإجتماعية كانت الأنباء تتسرب إلى أكواخ الفلاحين الطينية مشوبة بقدر كبير من الإثارة والخيال، وبات الريف الأوربي فى حال من التوتر والقلق من أخريات شتاء تلك السنة. وحين جمع الفلاحون محاصيلهم لم يخزنوها تحسباً لشتاء الجوع الطويل كما جرت عادتهم عبر سنوات طوال، وإنما حملوها فوق عرباتهم التى تجرها الثيران، مع زوجاتهم وأطفالهم ومتاعهم الهزيل، لتكون لهم الزاد والقوت فى رحلتهم صوب الشرق المقدس، وتحركت مجموعات كبيرة من الفلاحين ومن جماهير العامة فى مدن الراين القذرة.

وتزايدت أعداد هذه الجماعات بحيث صارت فرقاً وجيوشاً، واختار بعضهم قادة من أقرانهم، على حين سار البعض الآخر تحت قيادة أحد الفرسان، وتحرك بعضهم دون قيادة، وكانت أول فرقة من فرقهم هى تلك التى قادها فارس شرس نبيل المولد هو والتر المفلس، وقد تألف جيشه من عدد كبير من المشاة وغير المحاربين، ولم يكن يضم سوى ثمانية فرسان فقط، ولم تواجه هذه المجموعة سوى متاعب قليلة فى نهاية رحلتها عبر بلاد المجر، ولكن الصليبيين بدأوا يقومون بأعمال السلب والنهب فى بلغاريا، فهاجمهم البلغاريون وقتلوا منهم أعداداً كبيرة وتفرقوا هاربين فى غابات بلغاريا، وأخيراً انتهت رحلة الألف ومائتى ميل بالنسبة لحملة والتر المفلس، بأن أقام تحت أسوار مدينة القسطنطينية إنتظاراً لوصول جيش بطرس الناسك، بعد أن أذن الإمبراطور البيزنطى له بأن يعسكر خارج العاصمة الإمبراطورية.

وغادر بطرس ألمانيا فى حوالى ٢٠ أبريل سنة ١٠٩٦م، بجيش كبير من المشاة والفرسان ترافقهم أعداد كبيرة من المعدمين من أهل الريف وسكان المدن، وسمح له ملك المجر بعبور بلاده على شرط ألا يقوم الصليبيون بإثارة المتاعب، وعبر بلاد المجر كان بطرس يقود مسيرة الفقراء وهو يمتطى حماره الذى يشبهه، وخلفه الفرسان يعتلون جيادهم، تتبعهم العربات الثقيلة التى تحمل المؤن، وخلفهم جميعاً سارت غالبية جيش الفقراء على أقدامهم. وعند مدينة سملين على حدود المجر المشتركة مع الإمبراطورية البيزنطية كشف «جيش الرب» عن وجهه القبيح، فارتكب مذبحه راح ضحيتها أربعة آلاف قتيل، وعدد لا يحصى من الجرحى. وتحولت مدينة سملين إلى خراب يتصاعد دخان الحرائق التى أشعلها الصليبيون فى كل ركن منها أنفاساً غاضبة من الجريمة التى ارتكبتها «جيش المسيح». وكانت هذه المذبحة ضد «الأخوة المسيحيين» الذين زعم الصليبيون أنهم جاؤا لتحريرهم.

وخشى بطرس من إنتقام ملك المجر فأثر أن يسير بجيشه فى ظلمات الغابات حتى وصل

إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية. وخاف حاكم مدينة نيش البيزنطية على مدينته عندما علم بإقتراب هذه الجموع الخرقاء التي اكتسبت سمعة سيئة للغاية في تلك الأنحاء، وعلى الرغم من أن الحاكم سمح للصليبيين بالشراء واستقبلهم بود شديد؛ فإن بعض صانعي المشكلات أحرقوا عدداً من مساكن القرويين في تلك الأنحاء وأحرقوا سكانها أحياء بداخلها. وقد وجد الحاكم البيزنطي أن كرم الضيافة الذي قابل به الصليبيين لم يثمر غير الدمار لبلاده، فهاجم مؤخرة جيش بطرس، وأعمل الجنود سيوفهم في جنود الحملة الشعبية وأسروا منهم أعداداً كبيرة. وعاد بطرس أدراجة لمهاجمة المدينة ولكن جيشه لقي هزيمة نكراء فقد فيها الكثير من رجاله فضلاً عن الأموال التي قد جمعها من أثرياء الغرب الأوربي لتمويل حملته.

وأخيراً وصلت الشرائم المتبقية من حملة بطرس إلى أسوار القسطنطينية. وقابل هذا الناسك العجيب عاهل الإمبراطورية البيزنطية «اليكسيوس كومنيوس» الذي أدرك بخبرته أن هذه الجموع الهوجاء لن تصمد أمام المسلمين الذين طالما أذاقوا جيوشه المدرية المنظمة مرارة الهزيمة. وتصح بطرس بأن ينضم إلى جيش والتر المفلس ويقع في إنتظار حملة الأمراء، ولكن بطرس الذي غرته كثرة أتباعه تقبل هدايا الإمبراطور البيزنطي ورفض نصيحته.

وكان على الإمبراطورية البيزنطية أن تعاني من جموح الجماهير المشاغبة القادمة من الغرب الكاثوليكي بحجة مساعدة البيزنطيين وتحرير المسيحيين الشرقيين. فقد أخذ الصليبيون ينهبون قصور المدينة ويحرقونها، ويسرقون محتويات الكنائس، ووجد الإمبراطور نفسه مضطراً لنقلهم على وجه السرعة إلى آسيا الصغرى. وهناك تصرف «جنود الرب» بطريقة لا يرضى عنها الرب، وارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين. وتكفل الطمع والجشع وسيوف الأتراك السلاجقة بهؤلاء الذين قطعوا رحلة الألف ومائتي ميل. واستضافت أرض الشرق المضيافة أجسادهم التي حصدها سيوف الأتراك. وفي هذه المعركة قتل والتر المفلس ونجا بطرس الناسك من الموت لسبب أو لآخر. وهكذا إنتهت الحملة الشعبية على تراب الشرق الذي داعب خيال الفقراء منذ بداية الدعوة الصليبية وعلى طول الألف ومائتي ميل..

وفي تلك الأثناء كانت جماعات شعبية أخرى تتجمع في غرب أوروبا بقصد الرحيل إلى الشرق المقدس، ولكن هذه الجماعات أخذت على عاتقها مهمة قتل اليهود في مدن الراين وسائر أنحاء الغرب الأوربي. وعندما إنتهت من هذه المهمة، بدأت تسير على نفس طريق حملة والتر المفلس ويطرس الناسك، ولكن ملك المجر الذي تجرع مرارة التجربة من مسلك جيش كل

من والتر ويطرس، تصدى لهذه الفرق المشاغبة وقضى عليها تماماً قبل أن تحاول الخروج من مملكته. وبرزت أسماء جوتشوك وفولكمار واميكو في تاريخ الحملة الصليبية الشعبية التي ارتكبت كثيراً من القذائع على الطريق إلى بيت المقدس. وحيثما تواجدت جيوش الحملة الشعبية؛ في حوض الراين، وفي المجر والبلقان، وضواحي القسطنطينية، وآسيا الصغرى... ترك أفرادها بيوتاً تحترق، وقرى تنمى سكانها، وخرائب، وجثثاً ترصع طريق «جيش الرب»؛ فقد كان الطريق الذي سارت عليه تلك الفرق الهائجة، مرصعاً بالقرى المحترقة والمدن المنهوبة، وأكوام جثث الضحايا....

كانت البابوية والفرسان مشغولين آنذاك بالإستعداد لخروج حملة الفرسان، وقد غضوا النظر عن ذلك الزلزال الإجتماعي الذي أحدثته حملة الفقراء أو الحملة الشعبية. وكانت مشكلة تمويل الحملة الرسمية من أكبر المشكلات التي واجهت حملة الفرسان؛ وكان على كل أمير ممن أخذوا شارة الصليب أن يبحث عن حل لمشكلة التمويل بطريقته الخاصة. فقد لجأ جودفري البويوني أمير اللورين إلى إبتزاز اليهود وحصل منهم على مساعدة مالية كبيرة لتمويل حملته إلى فلسطين، وقام آخرون بمن الفرسان الذين أخذوا شارة الصليب بالتخلي عن أملاكهم للكنيسة ومؤسساتها نظير الحصول على النفقات اللازمة لهذه «الحملة المقدسة».

وعلى أية حال، كانت جيوش الأمراء جاهزة للتحرك صوب فلسطين في أواخر صيف سنة ١٠٩٦م. وتكونت عدة جيوش على أساس من التقسيمات اللغوية والجنسية من ناحية، وعلى أساس من الروابط الإقطاعية من ناحية ثانية. فقد تولى جودفري البويوني دوق اللورين الأدنى قيادة الجيش الذي جمعه من هذه المناطق وانضمت إليه فرسان الفلاندرز وإقليم اللورين كله فضلاً عن فرسان المناطق الشمالية الغربية من فرنسا، واشترك معه أخوه بلدوين، وتولى روبرت دوق نورماندى، شقيق الملك الإنجليزي، قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا، ونورماندى، وبعض مناطق الشمال، فضلاً عن الكثير من الفرسان الإنجليز من أتباع أخيه وإيم روفوس. أما الجيش الثالث الذي تولى قيادته هوف أمير فرماندوا فكان أصغر الجيوش الصليبية عدداً وأولها في الرحيل. وتولى هذا الأمير قيادة الفرسان الذين تجمعوا من إقليم وسط فرنسا. وتكون الجيش الرابع تحت قيادة ريمون السانجيلي أمير تولوز الذي كانت قواته تتألف أساساً من فرسان جنوب فرنسا وإقليم البروفنس. ومن إيطاليا خرج جيش خامس من النورمان تحت قيادة بوهيموند ومعه ابن أخيه تنكرد.

وكان هوف أول الراحلين، وأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى رسالة تفيض غروراً وغطرسة يطلب فيها مقابلته بما يليق بمكانته السامية. وفى الطريق انضم إليه بعض الناجين من الحملة الصليبية الشعبية. وعندما وصل هذا الأمير إلى مدينة درازو البحرية البيزنطية أحاطت به قوات المدينة فيما يشبه الحراسة، وأخذوا إلى القسطنطينية حيث أحسن الإمبراطور استقباله ثم جعله يقسم له يمين الولاء على الطريقة الإقطاعية. وكان جيش جودفرى البويونى هو ثانى الجيوش الصليبية التى تصل إلى القسطنطينية بعد أن عبر بلاد المجر دون مشاكل بسبب إصرار الملك المجرى على أخذ بلدين شقيق الدوق وعدد آخر من الفرسان رهينة لديه. وبعد مسيرة هائلة وصل جيش جودفرى إلى أسوار القسطنطينية ثم جاءت رسل الإمبراطور تدعوه للقاء. ولكن جودفرى رفض فأمر الإمبراطور بمنع المؤن عن الصليبيين. وبعد أن لقت القوات البيزنطية جيش الصليبيين درساً قاسياً ، رنخ الدوق وأقسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى.

لقد أثر الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس أن يتعامل مع قادة الصليبيين بشكل إنفرادى، وعقد اتفاقية معهم الواحد تلو الآخر. وتتوعد أساليبه فى التفاهم معهم ما بين الهدايا، وقطع المؤن والإمدادات، وتوجيه الضربات العسكرية حتى نجح فى أن يحصل منهم جميعاً على يمين الولاء باستثناء ريمون السانجيلى الذى أقسم بحماية شرف الإمبراطور وحياته.

ثم بدأ الصليبيون الذين تكاملت جيوشهم فى عبور المضيق إلى آسيا الصغرى. وهناك على بعد أميال قليلة من القسطنطينية وجد الصليبيون أنفسهم فى «أرض العدو» للمرة الأولى. وهناك انضم إليهم بطرس الناسك وشرادم الناجين من حملته. واعتذر الإمبراطور عن قيادة جيوش الصليبيين، ولكنه زودهم بالأدلاء والمرشدين الخبراء بالطريق ، وواصل إرسال المؤن والإمدادات لهم براً وبحراً.

وفرض الصليبيون حصارهم على مدينة نيقية ولكن أهلها سلموها للبيزنطيين بعد أن رأوا أن فرصتهم فى النجاة ضئيلة. وعوض الإمبراطور الصليبيين بالهدايا التى أغدقها عليهم بدلاً من الغنائم والأسلاب التى كانوا ينتظرون الحصول عليها عند استيلائهم على المدينة. وبعد ذلك انقسم جيش الصليبيين إلى قسمين ؛ ضم أحدهما بوهيموند وتكرد وروبرت النورماندى، على حين ضم الجيش الآخر ريمون السانجيلى وأديمار المنسوب البايوى، وهوف، وروبرت كونت الفلاندرز. وفى خسروايوم أحرز الصليبيون نصراً منوياً. وكانت تلك معركة فاصلة حسمت

مصيب الحملة الأولى إلى حد كبير؛ إذ توقفت كل مقاومة منظمة منذ ذلك الحين، ولكن الهجمات الخاطفة التي كان الفرسان المسلمون يشنونها كلفت الصليبيين كثيراً من جنودهم وأرهفت أعصابهم، أما المناخ فكان هو العدو الرئيسي للصليبيين، لاسيما عندما كانوا يعانون من نقص الطعام والمياه.

وفي الطريق إلى أنطاكية انفصل كل من بلووين وتكرود بقواتهما عن الجيش الرئيسي، وراح كل منهما ينافس الآخر في الإستيلاء على بعض المدن والمناطق لنفسه، ووصل التنافس بينهما إلى حافة القتال، بل إنهما قاتلا بعضهما في وحشية أمام مدينة المصيصة في أعالي الشام، كما لو كانا من ألد الأعداء. ثم استطاع بلووين أن يحصل لنفسه على مدينة الرها بعد أن تبناه حاكمها الأرمني، فرد له الجميل واشترك في مؤامرة راح الحاكم الأرمني العجوز ضحية لها. وهكذا قامت أول إمارة صليبية في الشرق، ورفعت شعار بيت اللورين في أعالي سجلة والفرات.

وواصل الجيش الصليبي مسيرته حتى وصل أنطاكية. وفي ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧م. بدأ الصليبيون في فرض حصارهم على المدينة. وعندما كان الصليبيون يحتفلون بعيد الميلاد في نهاية ذلك العام، كانت المجاعة قد أنشبت مخالبتها القاسية في معسكرهم. واتفق الزعماء على تشكيل فرق للسلب والنهب من المناطق الريفية المجاورة. كما أن المسلمين من العرب والأتراك، من ناحية أخرى، أخنوا ينظمون وسائل الدفاع عن أملاكهم، وهو الأمر الذي جعل الصليبيين في مأزق حقيقي لأنهم لم يجدوا ما ينهبونه، كما أن المسلمين قضوا على بعض هذه الفرق الصليبية بأكملها في بعض الأحيان.

وفي غمرة البؤس الذي حاق بالصليبيين حاك بوهيموند النورماندي خيوط المؤامرة التي رأى فيها تحقيقاً لحلمه الشخصي ببناء إمارة نورماندية في الشرق. وأعلن القائد النورماندي الداهية عن عزمه على الرحيل، وارتعدت فرائص الصليبيين الآخرين هلعاً على حين تظاهر هو بالإستجابة لمطالبهم. وبدأ كثيرون من «جيش الرب» يهريون، وكان بطرس الناسك من بينهم.

وكان بوهيموند قد تأمر مع أحد الأرمن على فتح البرج الذي يتولى حراسته. وتحت جنح الليل ثم تنفيذ المؤامرة وسقطت المدينة. ولكن القلعة صمدت في مواجهة الهجوم الصليبي. وفي اليوم التالي مباشرة شن جيش الإنقاذ الإسلامي، الذي كان قد جاء من الشرق بقيادة كربوغا، هجوماً سريعاً على المدينة، ولكنه فشل في إنقاذها. وفي داخل المدينة التي اكتظت بالجثث

وعرضها الجوع، بدأت متاعب الحصار المزبوج الذي تعرض له الصليبيون. ثم بدأت عمليات الهروب الكبير داخل المعسكر الصليبي. وبدا أن الصليبيين بحاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة. وخرج أحد رجال الدين الصغار من إقليم البروفنسال على الفرنج بحكاية عن رؤيا مقدسة تخبره عن مكان العربية التي كانت قد اخترقت جسد المسيح منذ أحد عشر قرناً. وتم العثور على العربية المقدسة بسهولة. وقد أدت هذه الحادثة إلى رفع معنويات الصليبيين فخرجوا لملاقاة جيش كوبروا الذي كانت قد مزقته الإنقسامات. وتفرق الجيش التركي المهزوم. ولم يكن هناك جيش إسلامي آخر يمكنه سد الطريق إلى القدس.

وحين توقفت الحرب كشف الطمع الإنساني عن نفسه في أبشع صورة، وتجلى الإنفلاس الأيديولوجي للحركة الصليبية. وتجسد في بؤرة شريرة من الصراعات والدسائس والمؤامرات التي امتدت خيوطها بين الزعماء الصليبيين. فقد تحدى ريمون السانجيلي بوهيموند، صاحب الفضل في الإستيلاء على أنطاكية، وأدعى أن المدينة من حقه. واجتمع الزعماء الصليبيون وقرروا تأجيل السير إلى بيت المقدس حتى نوفمبر سنة ١٠٩٨م. ثم تفرق الجيش الصليبي، وأخذ كل أمير يحاول أن يحقق أماله ببناء إمارة خاصة به. وتجدد النزاع بين بوهيموند وريمون السانجيلي الذي كان قد استولى على أحد أبراج أنطاكية. وأخيراً استخدم بوهيموند القوة لطرده أتباع ريمون من هذا البرج. وتسبب هذه في تأجيل مسيرة الحملة صوب القدس مرة أخرى.

ويبدو أن زعماء الحملة قد استطاعوا المقام في هذه المنطقة من شمال الشام، فنسوا القدس، هدف رحلتهم الكبير. وثار بين عامة الصليبيين مشاعر الإحباط عندما رأوا الزعماء يختلقون الأعذار لتأجيل الزحف صوب بيت المقدس، واتهمهم بنسيان القدس، ثم هددوهم بعزل ريمون السانجيلي من قيادة الجيش وإحراق مدينة أنطاكية. وهنا تذكر القادة هدف الرحلة الأصلي الذي أعلنوه في أوروبا. وبعد تسعة أشهر أو يزيد تحركت جموعهم صوب مدينة بيت المقدس. وبعد التكفير والتوبة تحرك الجيش الصليبي صوب فلسطين ولبنان وجنوب بلاد الشام. ولم تبذل القوى الإسلامية في هذه المناطق أية محاولات لوقف تقدمهم. ومر الصليبيون في طريقهم إلى القدس بمدن مثل طرابلس التي فرضوا عليها الحصار ولم ينجحوا في الإستيلاء عليها، وبيروت وحيدا وصور. وأخيراً وصلوا إلى فلسطين، وساروا بحذاء الساحل حتى وصلوا إلى عكا التي أمدتهم حاكمها الفاطمي ببعض المؤن والأموال ليتقوا شرهم. وتملك الخوف سكان يافا والرملة فهجروا المدينتين اللتين سقطتا فريسة باردة في أيدي الصليبيين.

وأخيراً صافحت عيون الصليبيين المدينة المقدسة من فوق ذلك التل الذي أطلقوا عليه اسم «تل الفرح».

كان الفصل الأخير فى قصة الحملة الصليبية الأولى هو الحصار الذى فرضه الصليبيون على بيت المقدس على مدى خمسة أسابيع (٧ يوليو سنة ١٠٩٩ م). ومرة أخرى شاعت أنباء الأحلام المقدسة والرؤى الدينية لتشد من أزر الصليبيين. وفى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو سنة ١٠٩٩ م، تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة. وجرت على السكان مذبحة فظيعة تحدث عنها المؤرخون الصليبيون من شهودها بفخر...

وفى هذا الجو الموحش الذى يلفه الصمت الرهيب، والعفن المنبعث من الجثث الطريحة فى شوارع المدينة، اجتمع الصليبيون لأداء صلاة الشكر فى كنيسة القيامة. وأيديهم تقطر دماً. وهكذا انتهت الحملة الصليبية الأولى...

* * *

وقصة هذه الحملة هى التى نتناولها من خلال النصوص التاريخية المعاصرة والوثائق التى أوردها فى هذا الكتاب. وقد حرصنا على تتبع قصة الحملة الأولى منذ البداية، وقبل البداية. وأعنى بهذا أننى تناولت قصة هذه الحملة، منذ بداية القرن الحادى عشر. فقد كان هذه القرن فترة التفاعلات العميقة السريعة التى خلقت أوروبا فى صورتها الأولى، كما كانت هذه التفاعلات هى التى أنجبت الحملة الصليبية. ولذا فإن النصوص تحاول رصد ملامح المجتمع على كافة المستويات ، إجتماعية أو إقتصادية، أو سياسية، أو ثقافية. ثم تتبعنا الدعوة إلى الحملة ، فأحداثها – حتى تحقيق هدفها النهائى بالإستيلاء على مدينة بيت المقدس.

بيد أننا ينبغى أن نتوقف قليلاً للحديث عن مؤرخى الحروب الصليبية، وفكرة التاريخ لديهم. فقد كانت للحروب الصليبية أثرها على التكوين التاريخى فى أوروبا العصور الوسطى. إذ كان المؤرخون الأوروبيون حتى عصر الحروب الصليبية أسرى الأطر القديمة التى ورثوها عن الرومان أو التى فرضها فلاسفة المسيحية الكاثوليكية ، وجاءت الحروب الصليبية لتحرير المؤرخين من هذا الأسر. ذلك أنها كانت تجديداً تاريخياً كبيراً فى الحضارة الأوروبية. وبسبب ما تتسم به قصة الحروب الصليبية من جدة وطرافة، وما تحفل به من إثارة، تحرر المؤرخون الأوروبيون من الإعتماد على تقليد النماذج القديمة. وذلك لأن العصور الوسطى الباكرا لم تشهد حرباً يمكن مقارنتها بالحروب الصليبية. ومن ثم تعين على كل مؤرخ حاول أن يكتب

قصة الحروب الصليبية أن يكتب بطريقته الخاصة. وهكذا صارت الكتابة التاريخية أقل نمطية وأكثر تلقائية بفضل الحروب الصليبية. وكذلك وجد الحافز إلى كتابة التاريخ بفضل اتساع أفاق الحروب الصليبية ورحابة مجالها. فقد اكتسب المؤرخون الذين كتبوا هذه القصة خبرات جديدة، ذلك أنهم كانوا في حال تمكنهم من التعرف على حضارتين في مرحلة الصدام والتفاعل المتبادل. ولأن الحروب الصليبية كانت متداخلة وطويلة الأمد، فقد كانت لدى المؤرخين فرصة طيبة للتعرف على أن أعداءهم بشر وليسوا من الشياطين كما أوهمتهم الدعاية البابوية.

لقد أنتجت الحروب الصليبية كُتُاباً علمانيين، كما تطور الأدب العلماني بفضلها. وكان النمط الجديد من التكوين التاريخي، الذي أوجدته الحروب الصليبية، مناقضاً للتكوين التاريخي اللاتيني الكنسي التقليدي من عدة وجوه. وفي الوقت نفسه كان هذا النمط الجديد من التكوين التاريخي أبعد ما يكون عن الملاحم الوطنية، أو ما يعرف باسم أغاني المائثر Chansons degeste لأن هذه الملاحم كانت تتناول القصص الخيالية التي نسجت حول مضمون تاريخي حقيقي، على حين كان تاريخ الحروب الصليبية يبدأ بتناول الحقائق.

ومن ناحية أخرى، كانت الحروب الصليبية إلهاماً لأعداد لا تحصى من المؤلفات التاريخية. وربما لم يحظ أي موضوع آخر بمثل ما حظيت به قصة الحروب الصليبية من اهتمام. فمنذ بدأت عجلة الحروب الصليبية في الدوران والمؤرخون يكتبون عن هذه الحروب، وأخرجت لنا أقلام النساخين وآلات الطباعة أعداداً لا تحصى من الكتب والمؤلفات التي تدور جميعها حول موضوع واحد؛ هو «الحروب الصليبية». وعلى الرغم من أن الكتابات التاريخية المعاصرة للحروب الصليبية لم تكن وفقاً على اللاتين؛ إذ ساهم المؤرخون العرب والبيزنطيون والأرمن والسوريان في كتابة هذه القصة المثيرة، فإن المؤرخين اللاتين يكتسبون أهمية أكثر من غيرهم من حيث أنهم كانوا شهوداً لبداية هذه الظاهرة التاريخية التي غيرت مجرى التاريخ وما تزال تؤثر على أحداثه حتى اليوم.

إن الحروب الصليبية تقدم لنا نموذجاً فذاً لدى ما يمكن أن ينتج من استجابات في مجتمع يجعل العنف شريعته. ويلبس الحرب ثوب الدين، لتصدير فائض حيويته الحضارية خارج حدوده التي ضاقت من إستيعاب تفاعلاته الحضارية على كافة المستويات. وفي هذا المجال، تكتسب كتابات المؤرخين اللاتين أهمية متزايدة؛ من حيث أن كتاباتهم تقدم لنا المادة التي تساعدنا على رصد هذه التفاعلات داخل أوروبا نفسها، وقبل أن تصدرها إلى المنطقة العربية.

وهو ما لا تقدمه لنا مؤلفات المؤرخين غير اللاتين. وعلى الرغم من الإنحياز الواضح فى رواية أولئك المؤرخين - وهو أمر نراه طبيعياً فى ضوء الحقيقة القائلة بأن غالبيتهم كانوا من رجال الكنيسة - فإن أهمية التعرف على موقفهم من العرب والمسلمين من ناحية، وتوفير المصادر العربية من ناحية أخرى، تعطى لهذا العمل الذى اضطلعنا به مبرراً طيباً.

والمؤرخون الذين اخترنا النصوص الواردة فى هذا الكتاب من مؤلفاتهم ، جميعاً من شهود العيان ومن المؤرخين اللاتين، باستثناء المؤرخة البيزنطية أناكومينا، ابنة الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومينيوس وأحد أبطال قصة الحملة الصليبية الأولى. وقد اخترنا أناكومينا لنقدم روايتها فيما يتعلق بأحداث المواجهة الحضارية والسياسية (والعسكرية أحياناً)، والتى جرت بين الإمبراطور وجنود الغرب الذين زعموا أنهم جاؤا لحمايته ضد الخطر الإسلامى.

هؤلاء المؤرخون اللاتين الذين قدمنا رواياتهم عن قصة الحملة الأولى (١٠٩٥-١٠٩٩م) فى صفحات هذا الكتاب يمثلون المصادر التاريخية لهذه الحملة. ومنذ البداية اعتمدنا عليهم باعتبارهم شهود عيان؛ ولذا فإننا اقتصرنا على روايات ثلاثة منهم فقط بعد عبور الصليبيين إلى آسيا الصغرى. فقد كانوا هؤلاء الثلاثة هم شهود العيان لما جرى بعد ذلك وحتى سقوط القدس فى أيدي الصليبيين فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م، على الرغم من أننا اعتمدنا عليهم جميعاً لرصد بداية الحركة فى أوروبا ومسيرة الحملة الشعبية. وإذا كنا قد أوردنا رواية وليم الصورى بخصوص الحملة الشعبية وما راج من أساطير حول بطرس الناسك؛ فقد كان السبب فى ذلك راجعاً إلى أن وليم الصورى يعتبر واحداً من الذين صاغوا أسطورة «بطرس الناسك».

كان الفارس الوحيد، بل الرجل المدنى الوحيد، ممن سجلوا قصة الحملة الأولى، هو «الكاتب المجهول» الذى كتب المؤلف المعروف باسم «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس الآخرين»^(١). Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitanorum وهو كتاب يبدأ بمجمع كليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥م، وينتهى بمعركة عسقلان ضد القوات المصرية فى أغسطس سنة ١٠٩٩م. وقد قسمه مؤلفه إلى عشرة كتب فرعية، تضمنت قصة هذه المرحلة

١- اعتمدنا على الترجمة الإنجليزية التى أصدرتها روزاليند هيل. انظر

Rosalind Hill, The deeds of the Franks and the other pilgrims to Jerusalem, (Thomas Nelson and Sons), London, 1962.

الرئيسية من الحملة الأولى. وكان المؤلف أحد شهود العيان لهذه الحملة. ويبدو أنه كان من عائلة نورمانية استقرت في جزيرة صقلية بعد غزو النورمان لها. وانضم إلى الحملة التي قادها بوهيموند النورمانى وتنكرد. وفي هذا الكتاب يروى لنا المؤلف تجربته الشخصية كواحد من الصليبيين؛ شاهد تطورات الحملة الأولى منذ البداية وحتى سقوط بيت المقدس وانتخاب حاكم ويطيريك للمدينة المقدسة ولحكم الملكة الجديدة على أرض فلسطين. ثم يتحدث عن إلتصاف الصليبيين قرب عسقلان سنة ١٠٩٩. وربما يكون قد مات عقب ذلك مباشرة لأن الكتاب ينتهى بذكر هذه المعركة.

ويبدو من ثنايا الكتاب أن المؤلف كان فارساً من المرتبة الدنيا. ولكتاب قيمة كبرى من حيث أنه أول كتاب تاريخي يؤلفه رجل علماني منذ كتب إينهارد سيرة شارلمان في القرن التاسع. وربما يكون هذا هو سبب ذلك التمايز الذي تتسم به كتابة المؤرخ المجهول. فهو صاحب أسلوب فريد يكشف بوضوح عن تناقضه وتعارضه مع المؤلفات التاريخية التقليدية التي عرفت أوريا في تلك العصور. فهو يخوض في تفاصيل قصته مباشرة، وبدون تلك المقدمات الإعتدالية التي درج عليها المؤرخون في أوريا العصور الوسطى. وعلى الرغم من التستر وراء الهدف الدينى للحملة الصليبية، فإن المؤرخ المجهول أمداً بلوصاف حية للمعارك العسكرية التي كان يفهم أساليبها على نحو أفضل من أى كاتب كنسى عادى، فهو يجعلنا نتسلق معه أسوار أنطاكية ليلاً بعد خيانة فيروز وتسليمها لعصبة بوهيموند. كما أنه يصف لنا مشاق الرحلة وكيف أن الصليبيين اضطروا لوضع أحمالهم فوق الماعز والكلاب بعد أن نفقت دواب الحمل وكيف كان منظر الفرسان بدروعهم مضحكاً مبكياً وقد اضطروا إلى ركوب الثيران بدلاً من الخيول التي هلك. وهو يكشف لنا بلا موارد من عدائه للبيزنطيين، وكرهيته للمميتة للمسلمين، ولكنه يعترف بشجاعة المقاتلين من الأتراك السلاجقة.

على أن أهم ما في هذا الكتاب أنه ينقل لنا انطباعات جندي عن أعدائه من «الكفار» الذين يستحقون «الموت»، وأعدائه من المسيحيين «الهرطقة» مثل البيزنطيين. كما أن هذا الكتاب أوضح بجلاء أن الحملة الصليبية كانت عملاً معقداً للغاية. وأية محاولة لتفسيرها في ضوء عامل واحد، أو دافع بعينه سوف تبوء بالفشل.

أما بقية مؤرخى الحملة الأولى، فكانوا من رجال الكنيسة، والمثال البارز فيهم هو فوشيه

الشارترى الذى ألف كتاباً أسماه «أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس»^(١)

Gesta Francorum Iherusalem Peregrinatum.

وكان فوشيه واحداً من كثيرين لبوا نداء البابا إريان الثانى لشن حرب مقدسة ضد المسلمين فى كليرمون. وكان فوشيه من منطقة شارتر فى مقاطعة إير واللوار. وقد تبع روبرت أمير نورماندى وستيفن أمير شارتر وبلوا. وفى بداية الأمر كان هو القسيس الخاص لستيفن، ثم عمل فى خدمة بلدوين الأول، الذى تولى حكم إمارة الرها الصليبية من ١٠٩٨-١١٠٠م، ثم صار أول ملك صليبي يحكم فى القدس من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١١٨م. وقد أقام فوشيه بمدينة بيت المقدس منذ نهاية سنة ١١٠٠م وحتى سنة ١١٢٧ حينما اختفى من مسرح الأحداث.

وتعتبر روايته من مجمع كليرمون وتقدم جيوش الصليبيين التى قادها روبرت النورماندى وستيفن أمير شارتر وبلوا، من أكمل الروايات التى كتبها المؤرخون الصليبيون الذين شاركوا فى أحداث الحملة الأولى. وبعض أجزاء مدونته الطويلة كتبها اعتماداً على تجربته الشخصية. لكون أن يستعين بأحد غيره من مؤرخى الحملة، ولكنه استعان بما كتبه المؤرخ المجهول وريمون الأجويلرى لكى يغطى أحداث تقدم الجيش الصليبي فى الفترة من مايو ١٠٩٧ إلى أغسطس ١٠٩٩م، لأنه كان آنذاك فى مدينة الرها مع بلدوين. وقد وصل فوشيه بمدونته التاريخية حتى سنة ١١٢٧م، أى أنه غطى الأحداث التى جرت للجيل الثانى من الصليبيين.

ويتميز فوشيه بأنه كان شاهد عيان على الحملة الأولى منذ بدايتها، كما أنه عاش بعد نجاحها فى الشرق العربى حتى سنة ١١٢٧ على الأقل. أما أسلوب معالجته لتاريخ الحملة الأولى فهو ذلك الأسلوب الذى يميز المؤرخين الكنسيين عموماً. فهو، مثل ريمون الأجويلرى، يميل إلى تصوير الحملة الصليبية على أنها تحكى قصة أعمال الرب التى أتاها من خلال شعبه الذى اختاره لهذه المهمة؛ فحين ينتصر الصليبيون تكون الملائكة والقديسون إلى جانبهم

١- إعتدنا على الترجمة الإنجليزية الواردة فى كتاب

Edward Peters (ed.), *The First Crusade - The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source materials.* (Univeristy of Pennsylvania press. Philadelphia), 1971, pp. 23-90.

وكذلك:

Harold S. Fink (ed.), *A history of the expedition to Jerusalem 1095-1127*, (Konzville 1969).

فى ميدان المعركة؛ أما الهزائم التى تعرض لها الصليبيون، فقد فسرها فوشيه على أنها توضيح كيف يعاقب الرب شعبه جزاء الخطايا والذنوب التى اقترفوها، فقد كان فوشيه رجلاً متديناً على طريقة الصليبيين؛ إذ كان متعصباً ضد أصحاب الديانات الأخرى، وضد أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى أيضاً. وكانت الحملة الصليبية بالنسبة له حرياً مقدسة. ومن هذا المنطلق كان يرى فى الصليبيين مجموعة من الحجاج، كما كان يرى قتلى المعارك من الصليبيين شهداء، ومن ناحية أخرى، كانت عداوته صريحة للمسلمين من الأتراك والعرب. بل إنه كان يبدى سروره، فى عبارات بليغة، لما يرتكبه الصليبيون من أعمال وحشية ضد المسلمين. ولم يخطر بباله أبداً أن يكون لهؤلاء الناس الحق فى أوطانهم، فقد كان يرى فيهم مجموعة من الوثنيين القساة الغلاظ الذين يستحقون القتل والفناء.

وعلى الرغم من التحيز الواضح فى قصة الشارتري عن الحملة الأولى، إلا أنها تظل قصة مهمة كنموذج دال على كتابات المؤرخين الكنسيين من ناحية، ولكشف بعض أحداث القصة التى لم يدونها سواه من ناحية أخرى. وفوشيه الشارتري نموذج جيد للدلالة على نمط المؤرخين الكنسيين الذين بنوا قصة الحروب الصليبية من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية. ذلك أن التعصب المقيت، والعنصرية والتباهى بالفظائع التى ارتكبها جنود الرب - كلها كانت من السمات الواضحة فى كتابات أولئك المؤرخين؛ ومنهم فوشيه بطبيعة الحال.

ولم يكن فوشيه الشارتري هو القسيس الوحيد الذى كتب قصة الحملة الأولى فقد كانوا جميعاً من رجال الكنيسة بإستثناء الفارس المجهول صاحب «أعمال الفرنجة» كما أوضحنا من قبل. إذ اعتمدنا فى القسم الخاص بالدعوة إلى الحملة الصليبية على رواية روبير الراهب. وكان راهباً من بين رهبان دير Marmoutier lez-Tours ثم صار مقدماً لرهبان دير سان ريمى، أى رئيساً للدير، وبعد نزاع حول رئاسته للدير استقال وقضى بقية أيامه راهباً فى سينوك حيث كتب لنا واحدة من أشهر القصص التى كتبت عن الحروب الصليبية^(١). وكان روبير الراهب بين من حضروا مجمع كليرمون، والخطبة التى وضعها على لسان أوربان فى

Robert the Monk. "Historia Iherosolimitana", RHC. Oc. III. pp. 717-782.

- ١

وقد اعتمدنا على الترجمة الإنجليزية التى أوردها رابلى سميث للخطاب الذى كتبه روبير الراهب:

Louis and Jonathan Riley-Smith (eds.), The Crusades - Idea and Reality 1095-1247. (Edward Arnold. London 1981). pp. 42-45.

هذا المجمع ، تعكس الموضوع الأول الذى يهتم به فى روايته، ذلك أنه رأى أن الحملة الصليبية كانت أعظم تجلى للتدخل الربانى فى شئون العالم وتحقيق النبوءات الواردة فى الكتاب المقدس؛ وهى بهذا تلتى مباشرة بعد الخلق وبعد تجسد المسيح.

وما يقال عن روبرت الراهب ينسحب على جيويرت النوجنتى، وبلدريك الدوالى، وألبرت الأيكسى. وكان جيويرت فرنسياً من كليرمون، وبعد حياة لاهية عابثة فى مطلع شبابه، انكب على الدراسة، وانغمس فى الحياة الدينية فى بلاده. ومن المحتمل أنه لم يكن بين الحاضرين فى مجمع كليرمون، على الرغم من أن ما كتبه عن كليرمون يمتاز عما كتبه الآخرون حول هذا الموضوع.

وقد تأثر أسلوبه فى الكتابة بالمنهج الذى سارت عليه حياته. فقد بدأ حياة العلم والتدين راهباً فى دير فلان. وحاز شهرة واسعة بفضل تعليمه وثقافته فاختر مقدماً لنير نوجنت سنة ١١٠٤م. وهو ، مثل روبرت الراهب، يجعل موضوعه الأساسى بيان كيفية تجلى الرب من خلال الفرنج، الشعب الذى اختاره الرب. ومن ناحية أخرى، فإن ثقافته كواحد من علماء اللاهوت تفرض نفسها على سطور ما كتبه عن الحملة الأولى. ذلك أنه يركز فيما كتبه على لسان البابا إريان الثانى فى كليرمون على الأفكار الأخروية، ويربط هذه الفكرة بالفكرة القائلة بأن القدس، باعتبارها بؤرة الإهتمام الربانى بهذا العالم، هى السبب فى شن الحملة الصليبية. فقد كتب فقرة تحدث فيها، على لسان البابا، عن سوء معاملة الحجاج إلى المدينة المقدسة على أيدى المسلمين، كما نسب إلى البابا كلمات عن معاناة المسيحيين الشرقيين، وهو السبب الذى قال المؤرخون الآخرون إنه كان من أسباب الدعوة إلى الحملة الصليبية.

وقد ألف جيويرت النوجنتى كتابه عن أعمال الفرنجة^(١)، وعنوانه بالكامل «تاريخ الأعمال التى أتاها الرب من خلال الفرنج». ومن المهم أن نشير إلى أن جيويرت لم يذهب إلى القدس، ولم يشاهد شيئاً مما سجله، وإنما اعتمد على من سبقوه من المؤرخين. ولكننا أوردنا روايته من خطبة إريان لأنها تعكس الأفكار التى كانت شائعة فى أوروبا حول الحملة الصليبية بعد نجاحها.

أما بلدريك، فقد كان مقدماً لنير سان بييردى بوجيى من سنة ١٠٨٩ إلى سنة ١١٠٧م.

Guibert of Nogent. "Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos" RHC. Oc., IV, pp. 113-263.

وقد حضر مجمع كليرمون واستمع إلى خطبة البابا إريان الثاني. وفي سنة ١١٠٧ تم إنتخابه رئيساً لأساقفة بول في إقليم بريتاني.

وقد إنتقص الباحثون في تاريخ الحروب الصليبية من شأن بلديك على نحو لم يحدث لأى مؤرخ آخر من مؤرخي الحملة الأولى. فقد كان كاتباً ذكياً رشيق الأسلوب، ولكن كتابه يعتبر محدود القيمة حتى اليوم. وهذا تقييم ظالم للتاريخ الذى كتبه بلديك. ولكن بلديك ، الراهب وكبير الأساقفة، أضفى مسحة لاهوتية واضحة على كتاباته. فقد خلط مادته التاريخية بالأفكار اللاهوتية، كما أنه ركز فى روايته لخطبة إريان على فكرة الأخوة التى تجمع المسيحيين الشرقيين والغربيين. وكتابه المعروف باسم «تاريخ بيت المقدس»^(١) يمتاز بأن صاحبه كان من شهود العيان لكثير مما سجله قلمه من أحداث الحملة الصليبية الأولى. وهو يبدأ الكتاب بالحديث من مجمع كليرمون وينتهي بسقوط بيت المقدس فى أيدي الصليبيين، والمركة التى أعقبت ذلك ضد المصريين.

ويحتل كتاب ألبرت الايكسى مكانة خاصة بين تواريخ الحملة الصليبية الأولى. وعلى الرغم من أن ألبرت لم يذهب أبداً إلى الأرض المقدسة، فإنه دون تاريخ الحملة الأولى والأحداث التى أعقبها حتى سنة ١١٢٠ ميلادية إعتياداً على روايات شهود العيان والمصادر الأدبية الأخرى. وقد ألف كتابه تحت عنوان «تاريخ القدس»^(٢). لكى يؤرخ لحملة جودفرى دوق اللوردين الأدنى، وكان ألبرت هذا أحد رجال الدين فى مدينة اكس لاشابيل (آخن). ويتميز هذا المؤرخ بأن كتابه يعتبر من أكثر ما كتب عن الحملة الأولى فائدة بالنسبة للمؤرخين فى العصر الحديث؛ إذ إن ألبرت الايكسى استعان فى كتابه بمصادر لم تصلنا وفقدت عبر العصور، كما استمع إلى روايات شهود العيان؛ فضلاً عن المصادر المعروفة التى استعان بها غيره من مؤرخي الحملة الأولى. ولما كان ألبرت المانيا من المنطقة التى شهدت خروج الحملات الصليبية الشعبية؛ فقد كانت التفاصيل التى أمدنا بها عن تفاصيل هذه الأحداث ذات قيمة كبيرة. وقد قصرنا إعتيادنا على ألبرت فى الجزء الخاص بالحملة الشعبية لهذا السبب. والجدير بالذكر أن ألبرت الايكسى كان أول من نسج أسطورة بطرس الناسك وقد اعتمد عليه وليم الصورى إعتياداً مطلقاً، بل وزاد فى تفاصيل الأسطورة التى لم يكتشف العلماء زيفها سوى فى القرن التاسع عشر.

Baldric of Bourgueil, "Historia Jerosolimitana". RHC. Oc. IV. pp. 1-111. (١)

Albert of Aix. "Historia Hierosolymitana". RHC. Oc. IV. pp. 265-713. (٢)

وثمة مؤرخ كنسى كان ممن رحلوا إلى فلسطين، وكان من ضمن المشاركين في أحداث الحملة الأولى. فقد كان ريمون الأجويلرى، هو المؤرخ الذى صاحب جيش ريمون السانجيلى أمير تولوز. وكتابه يحمل عنوان «تاريخ الفرنجة الذى استولوا على بيت المقدس»^(١) وكان ريمون هو القس الخاص لريمون كونت تولوز قائد الجيش البروفنسالى فى الحملة الصليبية الأولى. وكتاب ريمون لا يحمل أهمية خاصة سوى بعد أحداث سقوط أنطاكية، وهو يمدنا بمعلومات قيمة عن المراحل الأخيرة من هذه الحملة. وفى أجزاء كثيرة من الكتاب يتحدث ريمون بصيغة المتكلم باعتباره واحداً ممن شاركوا فى صنع الأحداث. فقد أورد لنا تفاصيل قصة الحرية المقدسة على نحو لم يفعله مؤرخ غيره من مؤرخى الحملة. وتكشف سطور كتابه عن مدى سطحية ثقافته، وضيق أفقه؛ فهو يفرد صفحات كثيرة لأخبار الأحلام والرؤى المقدسة، ويورد نصوصاً لما تصور أنه حوار دار بين القديسين أو العنراء أو المسيح من ناحية والأشخاص الذين اختارهم هؤلاء ليلفوا رسالتهم إلى الصليبيين من ناحية أخرى. حقيقة أن المؤرخين الصليبيين جميعاً قد طعموا كتاباتهم بمثل هذه الأخبار الغيبية والإعجازية، ولكن ريمون كتب هذه الأخبار بطريقة فجّة تفضح مدى الإصطناع والتلفيق الذى يميزها.

وكان ريمون قد بدأ فى تدوين قصة حملة ريمون السانجيلى وأديمار أسقف لوبوى مع زميل له يدعى بيونس البلازونى، ولكن هذا الزميل لقى حتفه سنة ١٠٩٩م، فأخذ ريمون الأجويلرى على عاتقه مهمة إتمام هذا العمل بعد أن عاد إلى وطنه.

يبقى بعد ذلك أن نتحدث عن إثنين من المؤرخين أحدهما عاش فى القرن الثانى عشر؛ أى أنه لم يكن معاصراً للحملة الصليبية الأولى، والمؤرخة الثانية ليست لاتينية وإنما بيزنطية عاصرت أحداث الحملة الأولى وهى بعد فى مطلع صباها.

المؤرخ هو وليم الصورى، وعلى الرغم من أنه لم يعاصر الحملة الأولى، فإن كتابه يعتبر من المصادر الهامة لتاريخ هذه الحملة. فقد كتب تاريخه بعد مرور حوالى ثمانين سنة على الحملة الصليبية الأولى، جاءت خلالها حملات أخرى صوب المنطقة العربية ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً لمساندة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس. ويتسم الكتاب الذى ألفه وليم الصورى تحت عنوان «تاريخ الأعمال التى تمت فيما وراء البحار»^(١) بأنه كتاب تاريخ أدبى كتبه أحد كبار

Raymond d'Aguilers, "Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem" RHC. Oc., III, pp. (١) 231-309.

الأساقفة بلغة المثقفين. ولكن أهميته الأساسية تتمثل في أن وليم هو المؤرخ الوحيد الذي ولد على أرض فلسطين، فقد كان سليل أسرة من المستوطنين الغربيين الذي استقروا في فلسطين بعد الغزو الصليبي لها. وقد أمضى حوالي عشرين سنة كطالباً يدرس في فرنسا حيث تلقى تعليمه في الفنون الحرة، والفلسفة واللاهوت، والقانون الكنسي والمدني (والفنون الحرة هي المواد التي كانت الكنيسة في العصور الوسطى تسمح بتعليمها في مجموعتين؛ الثلاثية Trivium والرابعة quadrivium وتضم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى).

وقد تدرج وليم الصوري في الوظائف الكنسية بعد عودته إلى فلسطين حيث نال إعجاب ملك بيت المقدس أمالريك (هموري)، ثم صار قاضى المملكة، ثم كبير أساقفة صور (١١٧٤-١١٧٥) وكان مستشاراً لأمالريك ومريباً لابنه، وتوفي سنة ١١٨٥م دون أن يتمكن من تحقيق حلمه في أن يصبح بطريرك بيت المقدس. ومات قبل أن يشهد استرداد المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي لمدينة بيت المقدس.

وتفوح من صفحات كتاب وليم الصوري رائحة الغم والحزن والكتابة بسبب تردى أحوال الصليبيين في مملكة بيت المقدس. وكان وليم مؤرخاً مثقفاً واسع الثقافة يعرف العربية واليونانية، فضلاً عن إلمامه باللغة العبرية. وقد ألف كتابه بهدف أخلاقى هو أن يوضح لمعاصريه من الصليبيين ما كان عليه الصليبيون الأوائل من إخلاص وشجاعة. وإلى جانب هذا العيب الذي جعله يكتب التاريخ كما كان ينبغي أن يحدث، وليس كما حدث بالفعل، كانت تشوب وليم الصوري العيوب المشتركة بين كل المؤرخين الكنسيين من تحامل وتحيز. ولكن يبقى أن هذا المؤرخ كشف عن فهم حقيقى لعلاقة السببية في الحوادث التاريخية؛ فقد كتب موضحاً أن الصليبيين لم يكونوا جميعاً يتصرفون بوازع ديني؛ إذ شارك البعض في هذه الحركة مجارة لأصدقائهم، وتظاهراً بالشجاعة حتى لا يتهمهم الناس بالتخاذل والجبن. كما أن البعض فعلوا ذلك رغبة في الفرار من دانتنيهم، على حين أخذ فريق آخر شارة الصليب هرباً من العدالة.

وقد أوردنا بعض النصوص التي توضح الخروج الصليبي من أوربا، وبعض جوانب قصة

(١) William of Tyre. A History of the deeds done beyond the see. (transil. and annnotated by: Emily Atwater and A.C. Krery) Colombia University Press. 1943. (2 Vols.).

الحملة الشعبية من كتاب وإيم الصوري، الذي اعتمد على المصادر السابقة وصاغ مادته في إطار أدبي رفيع يسرته له ثقافته وخبرته الواسعة.

أما الأميرة البيزنطية كومنيننا Anna Comnena، ابنة الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس أحد أبطال قصة الحملة الصليبية الأولى، فهي المؤرخ البيزنطي الوحيد الذي أورثنا له نصوصاً حول الحملة الأولى. وقد ثار جدل شديد بين المؤرخين المحدثين حول قيمة ما كتبتة كومنيننا. ولكن الجدل قد حسم الآن لصالح أنا وكتابها عن أبيها الإمبراطور والذي أعطته عنواناً معبراً عن قصة حياة أبيها^(١).

ولدت أنا في ديسمبر سنة ١٠٨٢م، وكانت أكبر سبعة أبناء للإمبراطور اليكسيوس، وقد كتبت مؤلفاتها في سن متأخرة بعد وفاة والديها، وكانت آنذاك امرأة مسنة ترثي نفسها، وحتى سنة ١١٤٨ كانت ما تزال عاكفة على كتابة الكتاب الذي كرسته لحياة أبيها، وعلى الرغم من البؤس الكامن بين سطور هذا الكتاب وميلها إلى المبالغة في منيع والدها، فإن الكتاب مايزال مؤلفاً تاريخياً جيد الطراز.

وتتميز أنا كونينا بالحيوية الدافئة في أسلوبها، وبقدرتها الفذة على تصوير الشخصيات التي تتناولها. وقد قدمت لنا تقارير ممتازة تعبر عن وجهة النظر البيزنطية في أحداث الحملة الأولى وأبطالها، مما يتيح لنا قدرًا من التوازن في مواجهة الإنحياز والتحامل اللاتينيين الواضح. وقد إعتمدنا على ما كتبتة أنا عن الحملة الصليبية الشعبية، ومن زعماء الجيوش الصليبية الذين استقبلهم الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس في القصر الإمبراطوري في القسطنطينية، ثم ما قدمته لنا من تفاصيل عن نهاية الحملة الشعبية، والإستيلاء على نيقية.

وأنا كومنيننا كانت شاهدة على كل ما كتبتة من الحملة الأولى، على الرغم من أن هذه الأحداث قد جرت وأنا كومنيننا في الرابعة عشرة من عمرها، ولم تكون ذكرياتها عن حياة أبيها الحافلة، وبينها قصة الحروب الصليبية بطبيعة الحال، سوى بعد أن مضت حوالى خمسين سنة على تلك الأحداث.

أولئك هم المؤرخون الذين اعتمدنا على كتاباتهم في هذا الكتاب الذي يحاول رسم صورة

Anna Comnena. The Alexiad, (transl. from Greek by: E. R. A. Sewter) Penguin 1979. (١)

حية من خلال النصوص التاريخية والوثائق الأصلية للحملة الصليبية الأولى. وبطبيعة الحال، فإننا اعتمدنا على نصوص أخرى لمؤرخين آخرين، كما اعتمدنا على بعض الوثائق والخطابات التي سيجدها القارئ مثبتة في أسفل كل نص مع تعريف بسيط بالمؤرخ أو المصدر الذي أخذنا عنه تلك النصوص أو الوثائق.

وقد إتبعنا منهجاً موضوعياً في اختيار هذه النصوص، إذ قسمنا الكتاب إلى أربعة أقسام يتناول كل قسم منها موضوعاً من موضوعات الحملة الصليبية الأولى وفقاً لموقعها الزماني: **القسم الأول:** يتناول أحوال أوروبا السياسية والإقتصادية والإجتماعية والفكرية، على إعتبار أن الفكرة الصليبية والحملة الصليبية نفسها كانت نتاجاً للتفاعلات التي جرت على هذه المستويات داخل أوروبا القرن الحادى عشر. وقد أوردنا نصوصاً عن الحج، والحرب الإقطاعية، وسلام الرب وهدنة الرب، وحياة الفلاحين، والجو الفكرى والنفسى السائد فى أوروبا حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية، ثم أوردنا بعض النصوص التي تتناول النزاع بين البابوية والإمبراطورية؛ محاولين بذلك رصد الظروف التي أفرزت الحركة الصليبية.

ويتناول **القسم الثانى:** الدعوة إلى الحملة الصليبية ؛ فنورد فيه الروايات المختلفة للخطاب الذى القاه البابا إريان الثانى فى كليرمون ، موضحين كيف أن كل مؤرخ كتب بعد نجاح الحملة ما تصور أن البابا كان ينبغى أن يقوله فى هذه المناسبة، كذلك تناولنا بعض خطابات البابا إريان الثانى حول الحملة التي اقترحها .

أما **القسم الثالث ،** فيتناول قصة الحملة الشعبية ، أو حملة الفلاحين ، بأقسامها المختلفة. وفى هذا القسم حاولنا تقديم النصوص التي تتناول أحداث هذه الحملة من ناحية، وترسم صورة حية لزعماء جيوش الحملة الشعبية من ناحية أخرى. وقد عمدنا إلى جمع أكبر عدد ممكن من روايات المصادر التاريخية المختلفة للحدث الواحد منذ بدء خروج هذه الجيوش الشعبية حتى نهايتها على أرض آسيا الصغرى.

و**القسم الرابع والأخير:** يتناول قصة حملة الفرسان منذ خروجها من غرب أوروبا حتى نجاح الصليبيين فى الإستيلاء على مدينة بيت المقدس، والمذبحة المروعة التي ارتكبوها فى حق سكان المدينة. وفى هذا القسم حرصنا على تقييم الموضوع كوحدة واحدة لدى كل مؤرخ كما حرصنا على توفير أكبر قدر من المقارنة بين الروايات المختلفة، كما أننا لم نعتمد فى هذا القسم سوى

٣٧

على روايات المؤرخين الذين شاهدوا الأحداث وشاركوا فيها، لاسيما بعد سقوط أنطاكية
بأيدي القوات الصليبية.

وقد اتبعت منهجاً يقوم على أساس تقديم موضوع كل قسم، ثم تقديم كل نص على حدة
بحيث تتضح للقارئ الفكرة التي يقوم عليها كل نص من نصوص الكتاب؛ وذلك في إطار
الحفاظ على وحدة الموضوع ككل. وإنني إذ أقدم هذا الكتاب للقارئ العربي في وطننا الكبير
أرجو أن أكون قد وفقت إلى إسهامة متواضعة في المكتبة العربية عن الحروب الصليبية، والله
الموفق والمستعان.

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم ٢٠٠١م

القسم الاول

ما قبل الحركة الصليبية

الحج إلى الأراضي المقدسة (*)

كانت الحركة الصليبية إفراناً لأحوال أوروبا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية في القرن الحادي عشر. هذه الأحوال كانت، بدورها ، نتاجاً للتفاعلات التي جرت على أرض الواقع الأوربي طيلة العصور الوسطى الباكورة. وإذا كان بعض الباحثين يرى في الحركة الصليبية نتاجاً للتفاعل بين المؤسستين الوثيسيتين في أوروبا العصور الوسطى؛ أمضى الكنيسة والإقطاع، فإن هناك روافد جانبية خلقت الأفكار والقيم والمثل والظروف التي جعلت الحركة الصليبية أمراً واقعاً. ومن أهم روافد هذه الحركة الحج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين؛ فقد تطور الحج المسيحي من ممارسة فردية، بفعل الشوق والحنين إلى الأرض التي شهدت خطوات المسيح، إلى ممارسة تكفيرية تباركها الكنيسة وتنظمها لأولئك الخطاة الراغبين في التوبة. وهذا النص المأخوذ عن جلابير الذي كان من رهبان دير كلوني بعد سنة ١٠٠٠ ميلادية يكشف عن أن المسيحيين الكاثوليك في غرب أوروبا اعتبروا الحج تنويراً لإنجازات المرء في الحياة الدنيا. والجدير بالذكر أن المصادر اللاتينية المعاصرة للحملة الأولى كانت تطلق على جنود الصليبيين إسم «الحاج»، وهو مصطلح ظل يرد في ثنايا المصادر التاريخية اللاتينية حتى أواخر القرن الثاني عشر على الأقل.

* * *

«.. في الوقت نفسه بدأت أعداد لا تحصى تتجه إلى ضريح سيدنا المخلص في القدس قادمين من شتى أنحاء المعمورة، وكانت أعدادهم أكبر مما كان أي إنسان يظن أنها يمكن أن تكون في الماضي. ولم يكن العامة وأبناء الطبقات الوسطى فقط هم الذين يذهبون إلى هناك، بل كان بينهم العديد من الملوك الكبار والكونتات والنبلاء. وفي النهاية انطلق بعض الفقراء - وهذا لم يحدث من قبل. وكان كثيرون يتمنون أن يلاقوا الموت هناك بدلاً من العودة إلى الوطن.

Rodulf. Glabert, History _ Extracts, in Jerusalem Pilgrims p. 147.

(*)

«وهكذا، حدث أن رجلاً من أهل أوتون في برجنديا، وكان اسمه لتباله، كان من بين الذين سافروا إلى هناك، وبعد أن شاهد كل هذه الأماكن المقدسة وصل في النهاية إلى المكان الذي صعد فيه السيد المسيح إلى السماء فوق جبل الزيتون، وكان ذلك على مرأى من الجميع، وهناك وعد بأن المسيح سوف يأتى إلى هذا المكان ليعدل بين الأحياء والموتى.

«هناك وجد نفسه طريحاً على الأرض، منتشراً مثل الصليب، واندمج مع الرب في فرح يفوق الوصف. ثم انتصب قائماً، ورفع يديه إلى السماء، وحاول قدر طاقته الوصول إليها. ثم نطق بهذه الكلمات التى تعبر عن الرغبة التى تعتمل فى قلبه: «سيدى يسوع، يا من نزلت من أجلا عن عرش جلالتك إلى الأرض لتتقذ بنى الإنسان. يا من تجسدت فى هذا المكان الذى تتحمل عيائى بمرأه لهماً بشرياً ثم عدت إلى السموات التى جئت منها. إننى أصلى راجياً رحمتك الفائقة وسلطانك العظيم، أنه إذا قدر لروحى أن تقارق جسدى هذا العام، فلا تدعنى أذهب بعيداً عن هذا المكان، ولكن ليحدث هذا فى إطار المكان الذى شهد صعودك. لأننى أومن إننى تبعتك بالجسد إلى هذا المكان، لكى تتبعك روحى فى الفريوس هانئة فرحة». وبعد هذه الكلمات ذهب الرجل مع رفاقه إلى المنزل.

« ثم حان وقت الغداء، وجلس الآخرون حول المائدة، ولكنه ذهب إلى فراشه وهو يبدو فى أتم صحة وعافية، مثل أى شخص يريد أن يغفو فترة. وبينما هو يتأهب للنوم حدث أن رأى شيئاً. وتحدث فى نومه قائلاً: «المجد لك يا إلهى، المجد لك يا إلهى». وسمعه رفاقه، وطلبوا منه أن يستيقظ لياكل شيئاً، ولكنه لم يكن يريد. واستدار قائلاً إنه يشعر بوعكة. ثم رقد حتى المساء.

«ثم جمع رفاق سفره، وطلب التناول، وتقبل القريان والطعام المقدس، ثم ودعهم وأسلم الروح. وعلى الرغم من أن كثيرين ممن يعمدون من القدس لا ينشدون سوى إعجاب الناس، فإنه كان متحرراً من هذه الآفة بحق. وباسم الرب يسوع طلب بثقة ما ناله. وقد أخبرنا رفاقه بهذه الأخبار عندما رجعوا هنا».

الأخبار والرؤى الإعجازية والأفكار الآلفية والأخروية (*)

كانت الكتب التي تتناول تاريخ أوروبا العصور الوسطى حتى حوالي خمسين سنة مضت تقرّر أنه حوالي سنة ألف (١٠٠٠ ميلادية) كان الناس في أوروبا مقتنعين بأن العالم يقترب من نهايته، وأن يوم الدينونة الأخيريات وشيكاً. والواضح أن هذا الاعتقاد قد نشأ لدى الناس بسبب الفكرة الشهيرة في سفر الرؤيا (رؤيا يوحنا اللاهوتي) التي تنبأ بأن نهاية العالم سوف تأتي بعد ألف سنة من موت المسيح، ويسبب ذلك العدد الذي لا يحصى من المصائب المادية والبشرية التي حلت بأوروبا آنذاك. وعلى أية حال، فإنه عندما مرت سنة ١٠٠٠ ميلادية ولم ينته العالم، تشجع الناس وأخذوا يملكون يجد ويخططون للمستقبل، هذه الحمية والنشاط المتجدد كان السبب في الإحياء الاقتصادي والسياسي والديني والثقافي الكبير الذي بدأ في القرن الحادي عشر، وازدهر خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وعلى الرغم من المؤرخين في وقتنا هذا لا يأخذون بهذا التفسير ويقدمون أسباباً أكثر حذقة لتفسير النمو الذي شهدته أوروبا القرن الحادي عشر، فإنهم يقبلون الرواية القائلة بأن الرعب الناجم عن الكوارث التي جرت حول سنة الألف (١٠٠٠ ميلادية)، وهي الرواية التي أوردها الراهب البرجندي رالف (رودلف) جلابير، دليل على حال أوروبا الغربية الخمسة قبل التحسن للمعوس الذي طرأ على الحياة فيها في القرن الحادي عشر. وكانت أحداث هذه الفترة، وما شاع أثناءها من أفكار وتوقعات حول الألف الأولى بعد المسيح ونهاية العالم من أهم روافد الأيديولوجية التي أفرزت الحركة الصليبية في أخريات القرن الحادي عشر. وهذا النص من كتاب «كتب التواريخ الخمسة» لجلابير يعطينا صورة واضحة عن هذه الأفكار والتوقعات.

* * *

«... وبفضل تحذير الكتاب المقدس، نرى بشكل أوضح من ضوء النهار أن الحب قد تلاشى وصار جامداً مثل الشمع على مدى الأيام، كما استشرى الاضطراب والقلق بين الناس، وهو نذير باقتراب القيامة وبأن زمن الهلاك وشيك يتهدد أرواح البشر. ولأن آباء الكنيسة القدامى

(١) Ralph Glaber, Historiarum Libri Quinque -- in the High Middle Ages. 1000-1300. edit- (١) ed by: Bryce D. Lyon (U. S. A. 1964), pp. 34- 39.

حذرونا مراراً وتكراراً ، على حين كان الطمع يتفشى، استطاعت النواميس والأوامر الإلهية أن تتقذ من نشأوا على التقدم والإرتقاء من مخاطر التدهور والفساد.. ومن هذا الطمع، أيضاً، اندلعت الجلبة والفضوضاء المستمرة والتي نجمت عن المشاجرات والمنازعات القانونية، واثارت فضائح عديدة، كما أن منازعات الرهبان كسرت رقابة صوت النظم الرهبانية المختلفة. وهكذا، فبينما تتفشى مظاهر عدم التقوى بين الكنسيين، ينمو بين رعاياهم تيار من الرغبات العارمة، لدرجة أن الأكاذيب والخداع والتزوير وارتكاب المذابح صارت أموراً شائعة فيما بينهم، تقود الجميع تقريباً إلى الجحيم! ولأن ضباب العمى المطلق أظلم عين العقيدة الكاثوليكية (أى قساوسة الكنيسة) فإن رعاياهم الجهلة الغافلين عن سبل الخلاص يسقطون فى خرائب الهلاك... ذلك أن العقيدة حين تفشل بين القساوسة، ويغفل مقدمو الأديرة عن دستورهم الرهبانى، تخبر حماسة النظم الديرية بالتالى، ثم تسير بقية الرعية على منوالهم فتعصى أوامر الرب، فماذا، إذن ، يمكن أن نفكر فيه سوى أن الجنس البشرى كله، جنوره وفروعه، ينزلق فى خضم الفوضى المتناهية؟.. ولأن تحقيق رؤيا يوحنا سيسبب أن يتجمد الحب مثل الشمع كما يستشرى القلق بين الناس الذى يحبون أنفسهم، فإن هذه الأمور التى ذكرناها من قبل صارت تحدث بمعدلات أكثر من ذى قبل فى شتى أنحاء العالم مع إقتراب السنة الألف بعد ميلاد سيدنا ومنقذنا.

«ذلك أنه فى السنة السابعة قبل هذا التاريخ، ثار بركان فيزوفىوس (الذى يسمى أيضاً كالديرون البركان) بصورة تفوق المعتاد، وقذف عدداً لا يحصى من الحمم الصخرية التى اختلطت بالأسنة اللهب المتأججة لتسقط على مسافة قدرها ثلاثة أضعاف المنطقة المحيطة بالبركان؛ وهكذا تسببت ثورته فى هروب السكان من المناطق المجاورة.. حدث هذا فى الوقت الذى تعرضت كل مدن إيطاليا وغاله لنيران الحرائق، بل إن الشطر الأكبر من مدينة روما التهمت نيران هائلة. وأثناء ذلك الحريق أحاطت النيران بكنيسة القديس بطرس، وبدأت تزحف تحت السطح البرونزى لتلتهم الأجزاء الخشبية. وعندما عرفت الجموع التى كانت واقفة هناك بهذا الأمر، وعندما أدركوا أنه لا توجد وسيلة ممكنة لمنع هذه الكارثة، التفتوا سوياً، وصرخوا فى صوت مرعب، وأسرعوا إلى مكان الإعتراف فى الكنيسة حتى وصلوا إلى مكان أمير الرسل (بطرس)، وصاحوا وهم يلعنونه، بأنه إن لم يهتم بنفسه ويوضح أنه يحمى كنيسته، سوف يدفع الكثيرين فى شتى أنحاء العالم إلى التخلّى عن إيمانهم بالعقيدة المسيحية. وعند

ذلك خبت النيرات وتلاشت... وفى ذلك الوقت أنشب وباء مخيف أنيابه فى الناس، وهو عبارة عن نار خفية إذا سقطت على أطراف أحد الأشخاص، التهمتها وفصلتها عن الجسد^(١). وقضى الكثيرون نحسهم فى غضون ليلة واحدة بسبب هذا الوباء الفتاك.. كما وقعت مجاعة رهيبة استمرت خمس سنوات فى شتى أنحاء العالم الرومانى، بحيث لم ينج إقليم واحد من المجاعة ونقص الخبز، وقد مات الكثيرون بسبب الجوع، فى تلك الأيام أيضاً، وفى مناطق كثيرة، أجبرت المجاعة الناس على أن يعتمدوا فى غذائهم على الحيوانات القذرة والزواحف؛ بل وإحوم النساء والرجال والأطفال حتى لو كانوا من أقاربهم؛ وبلغت قسوة المجاعة أن التهم الأبناء الكبار أمهاتهم، كما نسيت الأمهات حب الأمومة فالتهمن أطفالهن الصغار... [تستطرد الحولية بعد ذلك فى الحديث عن مذهبين معارضين للكنيسة ظهرا فى فرنسا وإيطاليا، ثم تتحدث عن تقوى روبريك ملك فرنسا..].

« وهكذا، أعيد بناء الكنائس عند أعتاب سنة ألف بعد المسيح، وبعدها بحوالى سنتين أو ثلاث سنوات، فى جميع أنحاء العالم، لاسيما فى غالة وإيطاليا، على الرغم من أن كثيراً من هذه الكنائس كانت ما تزال بحالة جيدة ولا تحتاج إلى مثل هذه العناية، بيد أن كل أمة من الأمم المسيحية أخذت تناقش الأخرى فى بناء أفضل دور العبادة، ومن ثم بدا الأمر وكأن العالم قد هز نفسه نافضاً عن العمر التلبد ومظاهر الشيخوخة، وبدأ يلبس ثياب الكنائس البيضاء فى كل مكان. وعندئذ قام المؤمنون بإعادة الكنائس الكاتدرائية وحسبونها، كما تم تكريس أديرة أخرى للعديد من القديسين، وشيدت كنائس أبرشية صغيرة... ومن ثم، فإنه عندما ازدادت الدنيا كلها بالكنائس الجديدة، كما قلنا، حدث فى الأيام التالية - أى فى السنة الثامنة بعد ألف سنة من تجسد مخلصنا المسيح - أن تم الكشف عن الذخائر المقدسة والرفات لمختلف القديسين بعد أن ظلت دفينة فترة طويلة؛ لأن هذه الذخائر المقدسة كشفت عن نفسها وتجلت أمام عيون المؤمنين بمشيئة الرب، كما لو كانت زينة تزين حركة الأحياء هذه، وكانت بذلك سلوى وجزاء للمؤمنين. وقد بدأ هذا التجلى، كما هو معروف، فى مدينة سان Sens فى غالة بكنيسة ستيفن المبارك، التى كانت تحكم حكم ليوتريك كبير الأساقفة فى تلك الأيام، وهو الذى اكتشف هناك بعض الذخائر الإجمازية المقدسة بين الأشياء المقدسة القديمة؛ ويقال إنه

(١) كان هذا الوباء يعرف فى العصور الوسطى بنار القديس أنطونيوس.

جد جزءاً من مصا موسى، وعندما شاع الخبر توافدت جموع المؤمنين من شتى أنحاء بلاد الغال، بل ومن إيطاليا وبلاد ما وراء البحر أيضاً؛ وفي الوقت نفسه استرد بعض المرضى صحتهم وعافيتهم بفضل تدخل القديسين، ولكن كما كان يحدث غالباً، اندفع الناس من هذا التبع الذي يفيض خيراً نحو تدمير أنفسهم بسبب روح الطمع التي استولت على قلوبهم وعقولهم؛ ذلك أن المدينة المذكورة حصلت، كما حكينا، على ثروة كبيرة بفضل جموع الناس التي توافدت على المدينة بدوافع تقواهم، ولكن سكانها أنوهم بإهانات كثيرة مقابل الفوائد الجمة التي كسبوها منهم.. وفي ذلك الوقت أيضاً، أي في السنة التاسعة بعد سنة الألف المذكورة، فإن كنيسة بيت المقدس التي تضم القبر المقدس لسيدنا ومخلصنا وقعت تحت حكم أمير بابليون [مصر]... ويعد ذلك الذي حدث كما ذكرنا، وفي غضون فترة زمنية قصيرة، اتضح جلياً أن سبب هذا الإضطراب راجع إلى جنس اليهود الشرير. وعندما شاع هذا الأمر في شتى بقاع العالم، قرر الشعب المسيحي كله طرد اليهود تماماً من الأراضي والمدن المسيحية. وهكذا كانوا محط الكراهية العالمية فطردوا من المدن، وذبح بعضهم بالسيوف وهلكوا بأنماط متعددة من طرق القتل، بل إن بعضهم قتلوا أنفسهم بوسائل مختلفة، لدرجة أن اليهود نادراً ما كانوا يتواجدون في أنحاء العالم الروماني، بعد أن وقع عليهم العقاب الذي يستحقونه عن جدارة. ثم قام الأساقفة بإذاعة مراسيم تحظر على كافة المسيحيين أن يرتبطوا مع اليهود في أية علاقات، كما صدرت الأوامر بالألا يقبل منهم في المجتمع سوى من ينال نعمة المعمودية [أي يمتنع المسيحية] ويطرح نهائياً العادات والتقاليد اليهودية. وهذا ما فعله اليهود جميعاً حباً في حياتهم الدنيا، وتحت وطأة الخوف من الموت، ولم يكن ذلك رغبة منهم في مباهاة الحياة الخالدة؛ لأن كل اليهود الذين اعتنقوا المسيحية بهذا الشكل سرعان ما عادوا إلى أسلوب حياتهم السابقة...

» وبعد هذه الإشارات والخوارق العديدة التي مرت على العالم، بعضها مبكر وبعضها متأخر، حوالي سنة ألف بعد ميلاد سيدنا المسيح، فمن المؤكد أنه كان هناك رجال حريصون وواعون تنبأوا بعدد آخر من الخوارق التي سيتزايد عددها عندما تقترب سنة عذاب المسيح على الصليب [هنا يبدأ جلابير في سرد الإدعاءات والمزايم المناوئة للكنيسة البيزنطية، ويتحدث عن إزدياد الهرطقة في إيطاليا، ثم تتابع ونجاح المعجزات المزيفة التي دبرتها الأرواح الشريرة، ويحكي لنا عن مجاعة أخرى استمرت ثلاث سنوات، وبعدها عُقدت عدة مجامع كنسية لإقرار السلام والإصلاح].. حينذاك شفى عدد لا يحصى من المرضى في هذه

الاجتماعات التي ضمت الرجال المقدسين، وحتى لا يستخف الناس بالجلد المفتوح أو اللحم المشقوق في الأيدي والأرجل، كان الدم الغزير يندفع أيضاً عند علاج الأطراف المكسورة ، وهو الأمر الذي قوى الإيمان في نفوس أولئك الذين قد ساورتهم الشكوك.. هذه الأمور جميعاً أذكتها حماسة متوقدة لدرجة أن الناس رفعوا الإكليروس عالياً بأيدي الأساقفة، على حين أخذوا يتضرعون إلى الرب وقد امتدت أيديهم، وصاحوا بصوت واحد؛ السلام! السلام! السلام. وهو ما قد يبدو دليلاً على ميثاق دائم لما عاهدوا الله عليه، وعلى شرط أن يتجدد الميثاق نفسه بعد سنوات خمس بين الناس في أنحاء العالم من أجل تدعيم السلام. وفي تلك السنة أيضاً، كانت هناك وفرة عظيمة في الغلال والنبذ وغيرهما من ثمار الأرض، بحيث أن الناس لم يتصوروا إمكانية تكرار هذا المحصول طوال السنوات الخمس القادمة، إذ لم يكن هناك طعام يمكن إدخاره كمؤونة، وفي هذه السنة كان الأمر شبيهاً بما حدث في عيد التحرير اليهودي القديم في أيام موسى [عندما خرج اليهود من مصر وأعطاهم الله المن والسلوى]. وفي السنة التالية، والثالثة والرابعة أيضاً لم تكن الثمار أقل وفرة، ولكن وأسفاه! إنه لشيء مخجل حقاً؛ إذ إن الجنس البشري ينسى رحمة الرب المحبة، لأن الناس نزعوا صوب الشر منذ البداية، فكانوا مثل الكلب الذي يعود لياكل قيئه، أو أنثى الخنزير التي تتمرغ في الوحل ، فقد نكثوا عهدهم وميثاقهم الذي قطعوه على أنفسهم بعدة طرق، وصاروا غلاتاً أجلاًفاً وارتكبوا كما هو مكتوب، لأن أمراء العلمانيين وأمراء الكنسيين تحولوا إلى الطمع، وبدأوا ينزلون في خطيئة السرقة والطمع مثلما كان الحال من قبل، بل وعلى نحو أسوأ من ذي قبل. أما الناس من الطبقة الوسطى والفقراء، فقد ساروا على منوال كبارهم وتدنوا إلى مستوى الجريمة المرعبة. فمن ذا الذي نسمع قبل ذلك عن جرائم غشيان المحارم وارتكاب الزنا، فضلاً عن الزيجات المحرمة بين الأقارب المقربين، ومساخر المحظيات، والتشبه بالأشرار؟ وأسد هذه الفجوة الناجمة عن هذا الشر المستفحل، كان هناك عدد ضئيل بين الناس يمكنهم تقويمهم، وربما لم يكن هناك من يستطيع إصلاح الناس إطلاقاً، أو يكبح هذه الجرائم. فقد تحققت النبوة القائلة بأن ذلك سيكون بين الناس والقساوسة على حد سواء. وسيرى الحكام جميعهم، بصفة خاصة، كنسيين وعلمانيين، أنهم كانوا مجرد أولاد عابثين. لأنه في تلك الأيام، وبسبب خطايا الناس ، تحققت كلمات سليمان «ويل لك أيها الأرض إذا كان ملكك ولداً»^(١)، لأنه حتى

البابا العالمى نفسه فى روما كان ابن أخى إثنين من البابوات هما بندكت وحنا، اللذين سبقاه على العرش البابوى، وكان صبيًا لا يتعدى عشر سنوات عمراً، وكان الفضل لأمواله فى إنتخابه بابا من قبل الرومان؛ وهم أنفسهم الذين أهانوه وخلعوه عن عرشه عدة مرات على مر الأيام، بحيث صار لا حول له ولا قوة. وفضلاً عن ذلك، وكما قلنا فعلاً، كان بقية الكرادلة فى تلك الأيام يرقون بفضل ما يملكون من ذهب وفضة، لا عن جدارة وإستحقاق. فبالأسف وبالعار! فالكتاب المقدس يتحدث عن مثل هذه الأمور على لسان الرب الذى يقول إنهم كانوا أمراء ولم يكن يعرف، وفى هذه الوقت نفسه كانت أعداد لا تحصى من الناس قد بدأوا يتوجهون من شتى أرجاء الدنيا إلى ضريح سيدنا المخلص فى القدس، وبشكل لم يكن أحد يتوقعه؛ لأن الطبقات الدنيا من الناس كانت قد بدأت السفر والرحلة على الطريق؛ ثم تبعهم كل الملوك والكونتات والأساقفة الكبار، وأخيراً (وهو شئ لم يحدث من قبل) قامت كتثيرات من السيدات النبيلات، والنساء الفقيرات بالرحلة إلى القدس. لأن كثيرين كانوا راغبين فى الموت قبل العودة لأوطانهم.. وفضلاً عن ذلك، فإن بعض الذين اهتموا بهذه الأمور استشارهم الكثيرون ممن لفت انتباههم هذه الحشود المتجهة إلى القدس والتي كانت أكبر مما حدث فى الماضى، ولم يسمع عن مثلها من قبل، أجابوا بقدر من الحذر أن هذا نذير بقنوم المسيح النجال الفاسق، الذى تنبأ الكتاب المقدس بقنومه عند نهاية العالم....».

٢- الصراع بين الكنيسة والدولة

شهد القرن الحادى عشر الميلادى إحياء وبعثاً فى شتى جوانب الحياة الأوربية؛ فبالى جانب النمو الاقتصادى والاستقرار السياسى شهدت أوربا القرن الحادى عشر ازدهار الحياة الروحية وصمود البابوية إلى مكانة الزعامة الحقيقية للعالم المسيحى الغربى. هذه الزعامة مكنت البابوية من شن حرب ضد المسلمين فى الشرق العربى فيما عرف باسم الحروب الصليبية. وكانت صحوة الكنيسة، التى كانت قد تدهورت على مدى القرنين السابقين وخضعت لسيطرة الحكام العلمانيين، إنجازاً تم من خلال الصراع ذلك أن الحكام العلمانيين الأقوياء من أمثال أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذين كانوا مسئولين جزئياً عن إصلاح الكنيسة وانتخاب البابوات القادرين لم يكونوا ليعترفون بأن سلطتهم الإمبراطورية أدنى من سلطة البابوية، أو أن يعترفوا بأنه ليس من حقهم تعيين الأساقفة ومقدسى الأديرة واستغلالهم بما لأسقفياهم وأديرتهم من أراض شاسعة. ومنذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر، نشب نزاع عنيف عرف باسم «النزاع العلمانى» بين الملوك والبابوات حول هذه القضايا.

ولأن البابوية استخدمت الفكرة الصليبية أداة من أدوات السياسة الداخلية والخارجية لتعيم موقفها تجاه الإمبراطورية، فمن المهم أن تقدم بعض النصوص حول النزاع بين الكنيسة والدولة. وهذه النصوص تقدم لنا صورة واضحة عن النزاع الذى جرى بين الطرفين ومزاعم كل منهما، كما تصور لنا بعض مراحل هذا الصراع قبل الحملة الصليبية الأولى. وتتناول النصوص التالية المرسوم البابوى الصادر سنة ١٠٥٩م ليحدد شروط انتخاب البابا، وآراء جريجورى السابع بشأن سلطة البابوية سنة ١٠٧٥م، وخلع طاعة هنرى الرابع بمقتضى التنازل الذى قدمه للبابا جريجورى السابع سنة ١٠٧٦م، ثم عزل هنرى الرابع بقرار من جريجورى السابع فى كانونى سنة ١٠٧٧م، ثم خطاب جريجورى السابع البليغ فى بيان السلطة البابوية سنة ١٠٨١م

* * *

(١) البابا نقولا الثانى، مرسوم الانتخابات البابوية سنة ١٠٥٩م (*)

«.. نحن البابا نيقولاس الثانى، تقرر: (٢) أنه فى حالة موت البابا فى هذه الكنيسة

Henry Bettenson, Documents of the Christian Church, (London 1950), pp. 140-41.

(*)

الرومانية العالمية، يجب أن يجتمع الكرادلة في اهتمام دؤوب أولاً، ثم يجمعون باقى رجال الكنيسة في روما في اجتماع عام، وبعد ذلك بقية الكنسيين والرعية على الإنتخاب الجديد. (٤) كذلك ، ولكي لا يزحف مرض الرشوة إلى داخل الكنيسة بأية وسيلة، ينبغي على رجال الرب أن يقوموا بالجزء الأساسى في عملية الإنتخاب البابوى، وعلى الآخرين أن يترسموا خطاهم. هذه الطريقة الإنتخابية صحيحة وتتوافق مع أحكام الآباء ومراسيمهم.. لاسيما وإن كلمات سان ليو تقول: «لا يمكن لأولئك الذين لم ينتخبهم الكنسيون، ولم يطلبهم الشعب، أو يكرسهم الأساقفة بموافقة كبار الأساقفة، أن يعتبروا من الأساقفة مهما كانت حجتهم». ولكن ، بما أن الكرسي قد يُرفع فوق كافة كنائس العالم، فليس هناك إذن أسقف أكبر من صاحب هذا الكرسي، ولا شك في أن أساقفة روما يصلحون لهذا الدور، حين يرفعون البابا المنتخب إلى درجة السمو الرسولى. (٥) يجب أن ينتخبوا شخصاً من هذه الكنيسة الرومانية، إذا ما وجد المرشح المناسب فإذا لم يوجد ، يتم اختياره من كنيسة أخرى. (٦) ولحفظ شرف واحترام إبننا الحبيب هنرى (١)، الذى تم الإعتراف به ملكاً في الوقت الحالى، فإننا نأمل أن يصبح إمبراطوراً بفضل الرب، مثلما أنعمنا عليه وعلى من هو مثله من خلفائه بفضل هذا الحق الذى حصلنا عليه شخصياً بسلطة الكرسي الرسولى . (٧) ولكن، إذا كان عناد الأشرار سيجعل من المستحيل أن نقوم بانتخابات نظيفة ونزيهة وحررة في هذه المدينة، فإن قساوسة روما ورجال الكنيسة المقدسين ومعهم العلمانيون الكاثوليك، حتى وإن كانوا قلة، من سلطتهم أن ينتخبوا البابا للكرسي الرسولى في أى مكان آخر، ويعتبر هذا إنتخاباً صحيحاً. (٨) وبعد أن تتم عملية الإنتخاب، إذا كانت شراسة الحرب أو المحاولات الحقودة ستحول بين البابا المنتخب وعرشه الرسولى، يكون من حق المنتخب أن يتمتع بسلطة البابا في حكم الكنيسة المقدسة وأن يتصرف في مواردها مثلما فعل جويجورى المبارك قبل تكريسه على ما نعلم...».

(ب) الإملاء البابوى Dictatus Papae ١٠٧٥م (*)

— إن الكنيسة الرومانية أسسها الرب وحده.

— إن البابا الرومانى هو وحده الذى يمكن أن يوصف بأنه عالمى بحق.

- إن له ، وحده، الحق فى عزل وإعادة تعيين الأساقفة.
- إن مندوبه، فى مجمع كنسى، حتى وإن كانت درجته الكنسية أقل، يسمو فوق جميع الأساقفة، ويمكنه أن يصدر أحكام العزل ضدهم.
- إن من حق البابا أن يعزل من يتقرب.
- إنه، بين أشياء أخرى، لا ينبغي لنا أن نبقى فى المنزل نفسه مع أولئك الذين أصدر الباب قرار الحرمان ضدهم.
- إنه يحق له، وحده، بمقتضى الضرورة التى يفرضها الوقت، أن يسن القوانين الجديدة، وأن يدعو لمعد مجامع جديدة، وأن ينشئ ديراً لأية منظمة رهبانية؛ ومن ناحية أخرى، من حقه أن يقسم الأسقفيات الغنية، ويضم الأسقفيات الفقيرة سوياً.
- إن من حقه أن يستخدم الشارات الإمبراطورية وحده.
- إنه يجب على الأمراء تقبيل قدمى البابا وحده.
- إنه لا ينبغي أن يُنطق إسم غير اسمه فى الكنائس.
- إن إسمه هو الاسم العالمى الوحيد فى العالم.
- إنه قد يسمح له بعزل الأباطرة.
- إنه قد يحق له نقل الأساقفة إذا اقتضت الضرورة.
- إن له سلطة رسامة أى قسيس فى أية كنيسة يريد.
- إن من تتم رسامته قسيساً على يديه يمكنه أن يرأس أية كنيسة أخرى، ولكنه لا يتولى منصباً أدنى، ولا ينبغي لمثل هذا الشخص أن يقبل أية درجة أعلى من أى أسقف آخر.
- لا يجب أن يسمى أى مجمع كنسى مجعاً عاماً بدون أمره.
- لا يجب اعتبار أى كتاب، أو فصل فى كتاب، قانونياً دون أمره.
- لا ينبغي لأحد أن يلغى أى حكم صادر منه، وهو وحده الذى يحق له سحب هذا الحكم.
- إنه هو نفسه لا يحاكمه أحد.
- لا يجب أن يجرؤ أحد على إدانة شخص لجأ إلى الكرسي الرسولى.

- إن الكنيسة الرومانية لم تخطئ، أبداً؛ وإن تخطئ، أبداً ، بشهادة الكتاب المقدس.
- إن البابا الروماني، إذا تمت رسامته بشكل قانوني، يكون قد صار قديساً دونما شك وذلك بفضل سان بطرس؛ ويشهد على ذلك سان إنوديوس أسقف بافيا ويوافقه كثيرون من الآباء المقدسين. على نحو ما ورد في مراسيم البابا سان سيماخوس.
- أنه بأمره وموافقه يمكن للخاضعين لسلطته، قانوناً، أن يوجهوا الاتهامات.
- أنه يمكن أن يعزل الأساقفة ويعينهم دون أن يدعو مجعاً كنسياً لذلك.
- إن ذلك الذي لا يتعايش سلمياً مع الكنيسة الرومانية لن يعتبر كاثوليكياً.
- أنه هو الذي يمكنه أن يحرر الرعايا من التزاماتهم تجاه الأشرار من الرجال.

(ج) خطاب مجمع ورمس إلى البابا جريجوري السابع (يناير ١٠٧٦م) (*).

«... من سيجفريد كبير أساقفة ماينز، وأبو أسقف تريير، ووليم أسقف أوترخت، وهرمان أسقف ميتز، وهنري أسقف لياج، وريتشارد أسقف فيرون، وبيبو أسقف تول، وهوزمان أسقف سباير، وبوركهارد أسقف هالبرشتد، وفيرنر أسقف ستراسبورج، وبورشارد أسقف بازل، وأوتو أسقف كونستانس، وأدالبرو أسقف فورنبرج، وروبرت أسقف بامبرج، وأوتو أسقف ريجنسبرج، والينارد أسقف فريزيا، وأودالبريك أسقف إيشتاد، وفردريك أسقف مونستر، وإيلبرت أسقف مندن، وهيزيل أسقف هيلدشيم، وبيبو أسقف أوزنبروك، وإيبو أسقف ناومبرج، وإيمادوس أسقف بانبورن، وتينو أسقف بادنبورج، وبورشاد أسقف لوسان، وبرونو أسقف فيرونا - إلى الأخ هيلدبراند،

«على الرغم من أنه كان واضحاً، عندما توليت السلطة على الكنيسة في بادئ الأمر كيف أن ثمة شيء غير عادي وشديد قد بادرت بعمله مناقضاً الصواب والعدل بفطرسك المشهورة، فقد ظننا، مع هذا ، أنه من الأنسب أن نسدل ستاراً من صمت الغفران على البدايات الشريرة لبابويك ، أمليين أن تنمحي هذه البدايات المضطربة بعد فترة من المثابرة والاستمرار في بقية فترة حكمك. ولكنك ما زلت حتى الآن سادراً في غيبك وماضيّاً على طريق بدايتك، كما يتضح

من أحوال الكنيسة المحزنة التي تستحق الرثاء، وهو ما تكشفه حال الاضطرابات المتزايد الناجمة عن تصرفاتك وقراراتك... إن شعبة الفوضى، التي أشعلتها أنت والفئات المخربة في الكنيسة الرومانية، والتي أشعتها ونشرتها في غضب متهور في كافة كنائس إيطاليا وألمانيا وبلاد الغال وإسبانيا، فقد جردت الأساقفة من كل سلطة من أجل تكريس سلطتك أنت، وهي السلطة التي يعرف الناس أنها منحت لهم بفضل الروح القدس، التي تسمو فوق الجميع وهي تعمل لرسمه الأساقفة، لقد تفاضيت عن كل الشئون الكنسية استرضاء لمشاعر الغوغاء العاطفية، وليس هناك أحد يجد من يعترف به قسيساً أو أسقفاً ما لم يحصل على منصبه من نيافتكم لقاء خضوعه المزرى لك، لقد رميت الحماسة للنظام الرسولى برمته في أتون الفوضى الشريرة، الذى ألقى فيه أيضاً بذلك التراحم التام الكامل بين أعضاء شركة المسيح التي كثيراً ما امتدحها معلم الأميين، وهكذا ، كاد إسم المسيح أن يتلاشى بسبب قراراتك الطموحة، وهو ما يجب أن نقوله بالدموع، من ذا الذى لم يروعه سلوكك المشين عندما انتزعت لنفسك سلطة غير قانونية ومبتدعة تفرضها على كافة الإخوان؟ لأنك تؤكد إذا ما ترامت إلى سمعك شائعة عن واحد منا، أنه ليس لأحد منا أن يربط أو يحل فى أمره، وإنما تقول إن هذا حق لك أنت وحدك أو من ينوب عنك لهذا الغرض بصفة خاصة، فمن ممن قرأوا الكتاب المقدس لا يرى أن هذا القرار قد تعدى حدود الجنون؟ وبناء على ذلك، قررنا بالإجماع، أن نحيطك علماً، بأن ما سكتنا عنه حتى الآن ، وهو رئاسة الكرسي الرسولى، لن يكون فى مقدورك أبداً أن تتولاه بعد الآن. فقد ألزمت نفسك بيمين شخصى، وأقسمت على ألا تقبل منصب البابوية لنفسك، ولن تدفع أحداً غيرك إلى قبوله، سواء فى زمن الإمبراطور هنرى (١) طيب الذكر، أو ابنه مليكنا الحالى (٢)، دون موافقة الإمبراطور الأب عندما كان حياً، أو بغير موافقة الإبن، ويوجد اليوم أساقفة كثيرون ممن شهدوا على هذا القسم الذى أقسمته؛ فقد رأوا بعيونهم وسمعوا بأذانهم، وتذكر أيضاً كيف أنه عندما حرك الطمع عدة كرادلة للتطلع إلى كرسي البابوية، أقسمت أن لا تتولى البابوية أبداً بشرط أن يقسموا مثلك ، وذلك لكى تزيج كل منافسة من طريقك، وتأمل كيف حافظت بأمانة على قسمك وعهودك!

(١) الإمبراطور هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦)

(٢) هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦م).

«وفضلاً عن ذلك، فعندما عقد مجمع كنسى فى عهد البابا نيقولاس واجتمع ١٢٥ أسقفًا، تقرر ألا يعتلى العرش البابوي أحد دون أن ينتخبه الكرادلة وإلا تعرض لعقوبة الحرمان، كما يجب أن يحظى بقبول الرعية وموافقة الملك الذى يمنحه السلطة. وكنت أنت نفسك الذى صغت هذا القرار والمرسوم وأعلنته وتبنيته ووقعت عليه.

«كما أنك تسببت فى فضيحة فاحت رائحتها التنتة فى كل الكنائس بسبب علاقتك العاطفية الوطنية بامرأة غربية عنك. وهذه مسألة سلوك قويم أكثر منها مسألة أخلاق، ومع ذلك ارتفعت الشكوى فى كل مكان بأن كافة الأحكام والقرارات الصادرة عن الكرسي الرسولى من صنع امرأة، وأن الكنيسة بأسرها تحكمها هذه المرأة...»

«ومن ثم، وبناء على ما تقدم، نعلن الآن، والمستقبل، أننا نخلع طاعتنا عنك - وهى الطاعة التى لم نعدك بها إطلاقاً فى حقيقة الأمر، وبما أنك لم تعترف بأحد منا أسقفًا، كما أعلنت على الملأ، فإنك لا تعتبر البابا فى نظر أى منا».

(د) البابا جريجورى السابع يخلع هنرى الرابع عن عرشه (فبراير ١٠٧٦م) (٥).

«يا بطرس المقدس، يا أمير الحواريين، استمع لنا، أتوسل، أتوسل إليك أن تصفى لى أنا خادمك الذى أخذت بيده منذ الطفولة، والذى خلصته حتى هذا اليوم من يد الشرير الذى كرهنى ويكرهنى بسبب إخلاصى لك.

«... وخصوصاً بالنسبة لى أنا نائبك، بفضل نعمة الرب عليك، أعطيت أنا سلطة الحل والعقد فى السماء وعلى الأرض. ومن ثم، فإننى اعتماداً على هذا الإعتقاد، وفى سبيل شرف الكنيسة ودفاعاً عنها وباسم الرب العظيم، والآب، والإبن، والروح القدس، وبفضل القوة والسلطة أسحب صلاحيات الحكم فى كل مملكة الألمان وفى إيطاليا من هنرى الملك إبن هنرى الإمبراطور. لأنه تصدى لكنيستك بحمية لم يسمع عنها من قبل. وأنتى أحل كافة المسيحيين من قيود اليمين الذى قطعوه له، أو سوف يقسمون له به. كما أنتى أمتنع أى فرد من خدمته كملك. لأنه حق أن ذلك الذى يحاول النيل من شرف أية كنيسة، سوف يفقد هو نفسه الشرف

(*) Ephraim Emerton, The correspondence of Pope Gregory VII. Selected letters from the Registrum (New York 1932), pp. 111 - 112.

الذى يبدو أنه يتمتع به. وبما أنه احتقر المسيحية وتعالى عن طاعتها، ولم يرجع إلى الرب الذى هجره محتفظاً بعلاقاته مع المحرومين ومرتكباً قلاقل واضطرابات عديدة، ضارباً عرض الحائط بالتحذيرات التى أرسلتها إليه لضمان روحه، وأنت شاهدى على هذا، فاصلاً نفسه من كنيسك ومحاولاً أن يبيت فيها الفرقة والشقاق – فإننى باسمك أوقع عليه عقوبة الحرمان، وإننى إذ أثق فيك أوقع عليه هذه العقوبة حتى يعرف الناس ويعترفون بأنك أنت بطرس وأنه على صخرتك بنى ابن الإله الحى كنيسته، وأن بوابات الجحيم لن تقف فى مواجهتها.»

(هـ) خطاب من جريجورى السابع – إلى الأمراء الألمان يصف خضوع هنرى الرابع فى كانوسا (١٠٧٧) (*).

« بما أنكم، بدافع من حب العدالة ، قد عملتم قضية مشتركة معنا وأخذتم على عاتقكم نفس المخاطر فى الحروب من أجل خدمة المسيحية، فإننا أولينا اهتماماً خاصاً بأن نرسل إليكم هذا التقرير الدقيق عن إذلال الملك وتحقيره طلباً للتوبة، وخضوعه، ومجرى الموضوع كله منذ الدخول إلى إيطاليا حتى الوقت الحالى.

« فوقها للترتيبات التى تم إقرارها مع المندوبين الذين أرسلوا إلينا من جانبكم جئنا إلى لمبارديا قبل حوالى عشرين يوماً من التاريخ الذى كان محدداً للمقابلة بعض زعمائكم عند الممر [فى جبال الألب] وانتظرت وصولهم لكى يساعدونا على عبور هذه المنطقة، ولكن عندما مضى الوقت وعرفنا أنه بسبب الاضطرابات – وهو ما نصدقه فعلاً – لن يمكن إرسال أية فرقة عسكرية لنا، وإذ لم يكن هناك وسيلة أخرى للقدوم إليكم، فقد غشيننا قلق كثير حول الطريق الواجب أن نسلكه.

«فى الوقت نفسه تلقينا معلومات مؤكدة أن الملك قادم فى الطريق إلينا. وقبل أن يدخل إيطاليا أرسل أنه سوف يقدم ترضية إلى الرب والقديس بطرس وعرض أن يعدل أسلوب حياته وأن يستمر فى طاعته لنا، بشرط أن يحصل منا على الغفران والبركة الرسولية. وقد أجلنا إجابتنا فترة طويلة وقمنا بمشاورات مطولة، وأنبناه تائبين مريراً من خلال الرسل المتبادلة بيننا بسبب سلوكه الخاطئ الطائش، حتى جاء فى نهاية الأمر ومعه عدة من رفاقه إلى قلعة كانوسا التى كنا نقيم بها، وهناك، وعلى مدى ثلاثة أيام متوالية، كان واقفاً أمام بوابة القلعة وقد خلع كل شارات الملك، حافى القدمين مرتدياً كسوة خشنة، وأراق دموعاً كثيرة وهو يبكى طالباً

المساعدة الرسولية والراحة لدرجة أن كل الحاضرين وكل من سمعوا القصة حركتهم نوازع الشفقة والعطف لدرجة أنهم أيدوا مطالبه بالصلوات والدموع. وقد تعجب الجميع لقسوتنا غير المألوفة، بل إن البعض صاح بأننا لا نظهر جدية السلطة الرسولية، ولكننا نظهر قسوة طاغية متوحش.

«وأخيراً تغلبت علينا مظاهر التوبة التي أبدأها هنرى وإلحاح الحاضرين، فحررناه من قيود عقوبة الحرمان، وتقبلناه فى رحمة الكنيسة الأم المقدسة، وقبلنا منه الضمانات الواردة أدناه (١) وشهد عليه مقدم دير كلونى بتوقيعه، كما شهدت أيضاً إبنتنا الكونتيسة ماتيلدا وإبنتنا الكونتيسة أوديل، وغيرهما من الأمراء والأساقفة والعلمانيين الذين كانوا فى خدمتنا.

والآن، وبعد أن تم ترتيب هذه الأمور، فإننا نرغب فى القدوم إلى بلادكم عند أول فرصة وبمساعدة الرب قد نتمكن من إرساء كل الأمور المتعلقة بسلام الكنيسة وبحسن النظام فى البلاد. لأننا نريدكم أن تفهموا بوضوح أن المفاوضات كلها قد تمت فى جو من الإثارة كما ترون من خلال الضمانات المكتوبة، وهو ما يجعل قدومنا وموافقتكم المطلقة أمراً ضرورياً للغاية. ومن ثم، فيجب عليكم جميعاً أن تناضلوا، بدافع من حبكم للعدالة، فى سبيل الحفاظ على الإلتزامات التى التزمتم بها. وتذكروا أننا لم نربط أنفسنا بالملك بأية وسيلة سوى بالعبارات الصريحة - كما هى عادتنا - أنه يمكن أن يعول على مساعدتنا لضمان سلامته وشرفه، عن طريق العدالة أو عن طريق الرحمة، ودون أن يعرض روحه أو روحنا لخطر التهلكة.

(١) الإشارة هنا إلى القسم الذى أقسمه هنرى الرابع فى كانوسا.

النظم والمثل الإقطاعية

تسببت القلاقل السياسية والإجتماعية التي شهدتها أوروبا في العصور الوسطى الباكرة في مولد مجموعة من النظم - مثل السيادة والتبعية الإقطاعية، والإقطاعيات - عرفت منذ القرن الثامن عشر باسم الإقطاع Feudalism. والإقطاع يعنى بالتحديد شكلاً من أشكال الحكومة اللامركزية التي تنتقل فيها السلطة الإدارية والعسكرية والقضائية إلى أيدي الإقطاعيين. وعلى مستوى أكثر اتساعاً فإن الإقطاع يعنى مجموعة الأخلاقيات والمثل التي تحرك الطبقة الحاكمة في مجتمع العصور الوسطى؛ كان هو أسلوب حياة النبلاء الأوربيين منذ القرن التاسع على الأقل (إن لم يكن قبل ذلك) وحتى القرن الثالث عشر (إن لم يكن بعد ذلك). ولأن الحروب الصليبية كانت في جانب منها على الأقل نتاجاً لمثل وقيم ومفاهيم الطبقة الإقطاعية من جهة ، كما كانت حلاً لمشكلة الحروب الإقطاعية من جهة أخرى، فقد اخترنا هذا النص الذي يرسم لنا صورة أخاذة عن بداية واحدة من تلك الحروب الإقطاعية العنيفة والتي كانت تبدو بلا نهاية، وهي الحروب التي كانت تمثل الشغل الشاغل والحرفة الوحيدة لمعظم النبلاء الأوربيين حتى مطلع القرن الثاني عشر على الأقل. هذه الرواية مأخوذة من الملحمة الفرنسية الكبيرة راؤول الكامبري Raoul de Combrai ، التي كُتبت في صورتها الحالية في مطلع القرن الثاني عشر. وإن كانت قد بنيت على أساس من الأحداث التاريخية التي وقعت في أخريات العصر الكارولنجي. ويمكن الاعتماد عليها كمصورة معبرة عن سلوك ومواقف النبلاء الأوربيين في عصر الإقطاع.

* * *

١- راؤول الكامبري: أصول الحرب الإقطاعية (*)

«سوف تسمع الآن عن القلق والفوضى التي تسببت فيها الحرب الكبرى التي لا تنتهي،

(*) Raoul de Combrai, transl. J. Crossland (London, 1926), pp. 4-10, 11, 17-20, 22-6. Norman F. Cantor, (ed.), Med. World, (Macmillan New York 1968) 2nd ed., pp. 177-183.

كان لدى ملك فرنسا شاب نبيل فى خدمته يسميه الفرنسيون جيبوان المانسى Gibouin de Mans وكان يخدم الملك بسيفه الطيب، ويُنم الكثيرين خلال الحروب التى خاضها، وخدم ملكنا النبيل خدمة جيدة وبأسلوب الفرسان لدرجة أهلتة للحصول على مكافأة كاملة. وتشاور أولئك القادمون من وراء نهر الراين واتفقوا على أنه يجب أن يأخذ إقطاع كامبرى الذى كان بحوزة Alais قاهرة قلوب الرجال، من عائلة لافاردين. والآن إذا لم يمنع الرب الذى يحول الماء إلى نبيذ حدوث هذا فإن الإقطاع الذى سيمنح سوف يتسبب فى أن يتسريل فرسان كثيرون برداء الموت.

« واستمع إمبراطورنا إلى البارونات وهم يتحدثون وينصحونه بأن يعطى أليس الجميلة إلى بارون مانس الذى كان يخدمه جيداً. وعمل بمشورتهم، وهو ما ينبغى لومه عليه؛ وأعطى القفاز إلى جيبوان الذى شكره من أجل ذلك وانحنى ليقبل حذاءه. ثم قال ملك فرنسا : «يا أخى جيبوان إننى استحق شكرك، لأننى منحتك هبة عظيمة. ولكن بشرط واحد أمنحها: لا أريد أن أحرِم الصبى راؤول من ميراثه. إنه ما يزال صغيراً ، فتول حمايته جيداً حتى يأتى الوقت الذى يمكنه فيه أن يحمل السلاح. وسوف يأخذ كامبرى؛ ولا يستطيع أحد أن يمنعها عنه وسوف أعطيك أرضاً غيرها» قال جيبوان: «إننى أقبل على شرط أن تزوجنى من السيدة» ولكنه تصرف بحماقة لأنه جرو على أن يتوقع ذلك، لأن هذا كان سبباً فى القضاء على حياة كثيرين من الفرسان الشجعان فيما بعد. إذ أن السيدة الجميلة لم تكن لتقبله حتى وإن مزقوها إرباً.

« وفعل الملك شيئاً غاية فى الحماقة عندما إنتزع ميراث ابن أخته، كا أن جيبوان من جانبه تصرف كمجرم عندما رغب فى أن يأخذ أرض غيره كإقطاع له. وكان هذا سبباً فى أن يموت ميتة مزرية فيما بعد. وعندئذ استدعى الإمبراطور رسوله وقال له : «إذهب وأسرج الفرس العربى وأخبر أختى الجميلة واردة كامبرى أن تتزوج جيبوان المانسى الشجاع. وبين هذه البلاد وبين قرطاج لن تجد فارساً مثله، وأخبرها أننى أعطيتها كل الأرض مهراً للزواج. وأخبرها أن تأتى بسرعة إلى بلاطى وأن تحضر حرسها معها، وسوف أجمع عدداً كبيراً من أقاربنى. ولكن إذا خذلتنى بسبب كبريائها ، فإننى سوف استولى على الأرض والميراث».

« ورحل الرسول فوق فرسه؛ ثم ترك باريس وتجه مباشرة صوب كامبرى، ودخل المدينة من البوابة الرئيسية عند كنيسة سان جيرى. ووجد السيدة النبيلة فى الفضاء المفتوح أمام

الكنيسة وبصحبتها عدد من الفرسان. فلوقف حصانه وترجل عنه، ثم حيا السيدة بإسم الملك قائلاً: «إن الملك، راعينا وحامينا، يصلى للرب الذى خلق السماء والأرض وكل ما بينهما من مخلوقات، أن يحمى الكونتيسة وكل من تحبهم» فردت قائلة «حماك الله ورعاك يا أخى أخبرنى بطلبات الملك ولا تخف شيئاً» - «باسم الرب، ياسيدتى، سوف أخبرك. رسالة الملك أنه سوف يزورك من جيبوان. وتعلمى حقاً أن هذا أمر الملك» وانهارت السيدة أليس على الأرض، وتساقطت الدموع من عينيها وتنهت بعمق. ثم استدعت مستشاريها وقالت «يا إلهى، إليك هذه الرسالة الشريرة..».

« قال البارون جيرى «أيها الإمبراطور هل قررت أن تحرّم ابن أختك من ميراثه لأنه لا يستطيع أن يمشى أو يركب فرساً؟ بحق الإخلاص الذى أدين لك به، فأنتك سوف ترى ألف فارس قد انقلبوا عليك قبل أن يستطيع فارس مانس هذا أن يخطو مختالاً فى البلاط. أيها الإمبراطور العادل، إننى أعلن أنه إذا شوهد فى كامبرى فمن المؤكد أنه سوف يفقد رأسه. وأنت أيضاً، أيها الملك الأحق، تستحق اللوم على هذا. إن الطفل ابن أختك، وكان الواجب عليك ألا تفكر فى شيء من هذا القليل أبداً». ولكن الملك أجاب «ليكن ما يكون! لقد منحت الهبة ولا أستطيع الرجوع فيها الآن». وهكذا رحل جيرى إذ لم يكن يرفض فى البقاء، وكان رحيله مشنوماً فقد كانت الجياد جاهزة أسفل الدرج وركب البارون فرسه. وصاح جيرى بأعلى صوته: «والآن فلتستعدوا أيها المحاربون الشبان الراغبون فى القتال المحتدم لأننى أقسمت بالرب الذى سمح لنفسه أن يعانى، أننى أفضل أن أمزق إرباً على أن أتخلى عن ابن أختى طالما كنت حياً».

امتلا جيرى الأحمر غضباً وحنقاً. وعاد إلى كامبرى وترجل أمام الكنيسة. ورأت السيدة أليس الفارس قادماً وتحدثت معه نحو ما تسمع أنت الآن : « سيدى جيرى هل تخبرنى بحقيقة ما حدث؟» قال «سيدتى ! إننى لا أريد أن أكذب عليك، إن الملك مصمم على أن يستولى على ميراثك لصالح جيبوان، لعنة الله عليه - فلتخذه زوجاً لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى يمكنك أن تقيمي بها السلام مع لويس ملك فرنسا». وقالت السيدة «يا إلهى إننى يمكن أن أموت غماً وحنناً! إننى أفضل أن أحرق حية على أن يجبر الملك كلبة سلوقية على أن ترقد مع كلب حراسة، إن الرب سوف يسمح لى أن أربى طفلى حتى يأتى الوقت الذى يستطيع فيه أن يحمل السلاح». وعندئذ قال جيرى «سيدتى، فليباركك الله لجرأتك على هذا القول، وإن أتخلى عنك فى محتك الكبرى».

« وتكلم جيري نو القلب الجسور مرة أخرى: «سيدتي أليس، إنني أقسم بالرب المخلص أنني لن أخذلك ما حييت، أين ابن أخي؟ أحضره هنا أتوسل إليك» وصعد سيدان شابان إلى أعلى واحضرا الطفل إلى الفناء الأمامي. كان عمره ثلاث سنوات، وأنا أقول لكم الحق، وكان يرتدي حريراً ناصعاً وعليه سترة من قماش قرمزي. ولا يمكن أن يكون هناك طفل أجمل منه. وأخذ جيري بين ذراعيه في الحال وتهد من أعماق قلبه، وقال «أيها الطفل، إنك لم تكبر بعد. وفارس مانس يحمل نوايا سيئة تجاهك، لأنه يحرمك من أرضك». وقال الطفل «يا عم، سوف أسترده هذه الأرض، إذا ما عشت حتى أحمل السلاح الموضوع في خزانتي». قال جيري: «حقاً لن تفقد قداماً من هذه الأرض قبل أن يموت في سبيله عشرون ألفاً من الفرسان أولاً» ثم طلب الفرسان ماء وجلسوا إلى المائدة.

« تجلس السيدة أليس والطفل جيري والبارونات إلى المائدة. وقد قام خدم القصر بواجبهم خير قيام، لأنهم كانوا مدربين على الخدمة جيداً. وبعد الوليمة أعطت السيدة ثياباً غالية للبارونات، ثم رحل جيري القوي؛ وهو يقبل السيدة قبل أن يرحل. وذهب مباشرة إلى أرامس بسرعة فائقة. وبعد ذلك مرت سنوات كثيرة وأيام عديدة ولم يكن هناك صوت حرب أو قتال في البلاد. وعندما بلغ راؤول الكابري الخامسة عشرة من عمره صار شاباً نبيلاً مهذباً للغاية، وأحبه رجاله والنبلاء حباً جماً.

« مضت الآن خمس عشرة سنة والسيدة أليس ترى ابنها طويلاً عريضاً حسن الهيئة، وكان هناك رجل نبيل في المملكة. إسمه بيرت، وهو رجل نو روح مقدامة. وكان له ولد سمي بيرنييه عندما كان صغيراً. وقد كبر الآن وصار محبوباً، وعندما بلغ الخامسة عشرة كان هو أيضاً طويلاً وقوياً. وقد أحبه الكونت راؤول كما أن السيدة أليس بدافع من طيبة قلبها تعهدته بالرعاية منذ نعومة أظفاره. وذهب الإثنين إلى باريس لكي يتعرفا على فرسان النبلاء، وكان يقوم على خدمة راؤول بالتبذير والكأس المعطر. وكان من الأفضل له، وأنا أقول لكم هذا، أن تفصل رأسه عن جسده، على أن يذبحه بطريقة محزنة مزرية في النهاية.

« كان الكونت راؤول الشاب المذهب يحمل وداً كبير للشباب برنييه. وكان برنييه ابن بيرت أمير ريممورت ولم يكن هناك شاب أجمل منه في أي أرض، كما لم يكن هناك من يفوقه في استخدام الترس والرمح، ولم يكن هناك من يفوقه في الكلام الحكيم في بلاط الملك، ومع ذلك فكان يعرف بابن الزنا. وقد أحبه راؤول ورحب به وصيفاً لمراقبته، ولكنهما برهنا على إتهما وفاق سوء.

« وكانت السيدة أليس ترقب ابنها وهو ينمو، وهي الآن ترى أنه قادر على حمل السلاح، وهكذا خاطبته قائلة : «اجمع رجالك حتى يجتمعوا في كامبرى، وسوف نرى من ذا الذى يتخلف عن الخدمة». وجمعهم راؤول وحدثهم بما يدور فى خلدته قائلاً: «يجب ألا تخذلوا. عندما أحتاج إليكم».

« لقد نصب الإمبراطور الصبى فارساً وهو الآن يستدعى خدم القصر قائلاً: «إحضروا السلاح، فهذا أمر منى لكم»... ثم تحدث الإمبراطور إلى ابن أخته: «يا ابن اختى، يا راؤول إننى أراك قد كبرت وصرت طويلاً قوياً شكراً لله الأب القادر على كل شىء»...

« ثم قلده الملك سيفاً قوياً. كان مقبضه وحده من الذهب وكان قد تشكل فى وادى مظلم على يد كالاتن، الذى بذل فى صناعته كل ما يستطيع. وفيما عدا ديورندال، الذى كان أفضل السيوف جميعاً، كان هذا السيف أفضل من كل السيوف الأخرى، ولم يكن هناك سلاح فى العالم يمكن أن يصمد أمامه. وهكذا كانت الأسلحة التى تقلدها. لأن راؤول كان جميلاً ونبيلاً فى هيئته، ولكن بسبب التطرف الكامن فى شخصيته، فلم يكن بوسع أى فصل(*) آخر أن يحكم أرضه بطريقة أفضل. ولكن بسبب تطرفه كان الحصاد حزيناً، لأن الرجل الطائش يقضى أيامه فى حزن وأسف...

« وتكلم راؤول، الذى كان ممثلاً بالغيظ، كما يلى : «أيها الإمبراطور العادل، بحق القديس أمانت أقسم أننى خدمتك منذ حملت السلاح وأنت لم تمنحنى أبداً شروى نقيير. والآن فلتعطنى القفاز على الأقل تعهداً بأننى سوف أملك أرضى التى كان أبى الباسل يمتلكها من قبل». وأجاب الملك : «إننى لا أستطيع أن أمنحك هذه الأرض، فقد أعطيتها لفارس مانس، وإن أستردها منه حتى ولو أخذت كل ثروة ميلانو مقابل ذلك». وكان جيرى ينصت ثم صاح : «إننى سأحارب من أجلها أولاً، وأنا فى كامل سلاحى فوق فرسى، ضد ذلك المرتزق جيبوان المانسى». وصاح راؤول، الذى أفلتت أعصابه، وتجهم وجهه، قائلاً: «بحق الحوارى الذى يسعى التائبون إليه، إذ لم تأخذ أرضى الآن، اليوم أو غداً قبل غروب الشمس، فلن أحارب أبداً، أنا أو رجالى، دفاعاً عنك». هذه هى الكلمات التى كان راؤول قد حفظها جيداً والتى تسببت فى الموت العاجل لكثير من البارونات. «أيها الإمبراطور العادل، إننى أخبرك بكل ذلك أولاً: فكل إمريء يعرف أن أرض الأب يجب أن تؤول إلى ابنه. وبحق القديس أمانت، فإن كان إمريء

(*) الفصل هو التابع الإقطاعى، والكلمة Vassal من أصل قلتى، ومعناها « الولد ».

صغيراً كان أم كبيراً، سوف يحتقرنى منذ الآن، إذا ما مرغت كرامتى أكثر من ذلك وأنا أرى رجلاً آخر يستولى على أرضى، بحق الرب الذى خلق السماء، إننى إذا وجدت ذلك المرتزق المانسى، فإن ميقتة بسيفى ستكون غير عادية». وعندما سمع الملك هذه الكلمات حزن قلبه.

« كان فارس مانس جالساً إلى منضدة فى القصر. وسمع التهديدات فامتلاً خوفاً. وارتدى عباة المصنوعة من الفرو، وجاء إلى الملك قائلاً: «أيها الإمبراطور العادل، إننى الآن فى مأزق حرج، لقد منحتنى أرض كامبرى بجوار أرتوا؛ ولكنك الآن لا تستطيع ضمان ملكيتها لى. وهنا الآن المتفطرس الكونت راؤول ومعه سلاحه الماضى (فهو ابن أختك كما يعرف جميع الفرنسيين)، ومعه أيضاً جيرى الأحمر صديقه المخلص. وليس لى صديق يمثل هذه الخصال الطيبة فى كل هذه الأرض يستحق أن يسأوى شيئاً بالنسبة لى فى مواجهة هذين الاثنين. لقد خنمتك طويلاً بسيفى الفيينى، ولم يحدث أن حصلت منك على شروى نقيير. سوف أمضى فوق فرسى النرويجى الجيد أفقر مما جئت، والألمان والجرمان، ورجال برجنديا ونورماندى وفرنسا جميعاً سوف يتحدثون عن هذا الأمر، كما أن خنمتى كلها لم تكسب لى شيئاً». وامتلاً قلب الملك لويس أسى، وأوما بقفازه المطرز إلى راؤول ليقترّب منه وقال له: «يا ابن أختى الجميل بحق الرب، مانح القوانين، أتوسل إليك أن تتركه يحوز الأرض لمدة سنتين أو ثلاث سنوات بالشروط التى سأخبرك بها وهى: إذا مات أى كونت فىا بين هذه المنطقة وفيرماندوا، أو فيما بين إكس لاشابل وستليس، أو فيما بين مونيلون وأورليانز، فإتلك سوف تراث الحقوق والأرض التى كانت له. ولكن لن تخسر شيئاً على الإطلاق فى هذه المبادلة». واستمع راؤول ولكنه لم يتردد وبناء على نصيحة جيرى الارتوى قبل هذا الموعد - وكان هذا هو السبب فى أنه رقد متشعاً ببرودة الموت فى النهاية.

« واستدعى الكونت راؤول جيرى ليحادثه فى هذا الأمر، وقال له «يا عم ، إننى أعتمد على مؤازرتك. سوف أقبل هذه المنحة وإن يحدث تراجع عنها». لقد كان شيئاً كبيراً ذلك الذى طلبه فى مقابل إقطاعية أبيه، كما كان هذا أمراً خطيراً قضى على العديد من البارونات فى نهاية الأمر. وعندئذ طلبوا رهائن من الملك لويس؛ وانصاع لويس للنصيحة السيئة وسمح لراؤول أن يختار بعضاً من أفضل الفرسان وأعلامه شيئاً...

« والآن، فإن الرهائن ملك يمينه؛ وكان عددهم كبيراً مثلما أراد ، وعلى مدى فترة من الزمان ظل الأمر على هذا النحو - وهى فترة امتدت سنة وأسبوعين على ما أعلم - ثم عاد

راؤول إلى كامبرى. ولكن خلال الفترة التي أتحدث عنها مات كونت هيريت القوى وكان رجلاً مخلصاً وحكيماً وله أصدقاء عديون. وكانت فيرماندوا بأسرها تمثل الميراث الذي تركه، إلى جانب روى، وبيرون، وأوريجنى، ورييمونت، وسان كوينتال، وكيرى. وهو رجل محظوظ له أصدقاء كثيرون! وسمع راؤول بموته وتحرك من فوره، وسرعان ما اعتلى ظهر حصانه وجمع رهائنه؛ وصحبه معه جيرى الأحمر ومعه مائة وأربعون رجلاً فى أغلى الملابس، ولم يتوقف لكى يطلب من الملك لويس المنحة القاتلة. كان راؤول على حق كما أخبركم، أما المخطئ فكان هو ملك سان نوى^(١). عندما يكون الملك سيئاً يعانى الكثيرون من الرجال المخلصين من هذا السوء. ووصل البارونات إلى البلاط الملكى فى باريس وترجلوا عن خيولهم تحت أشجار الزيتون، ثم صعدوا درج القصر وطلبوا مقابلة الملك. ووجدوا الملك لويس جالساً على عرشه، فنظر وشاهد جميع أولئك النبلاء قادمين، يتزعمهم راؤول القلق الذى قال : «تحياتى إلى الملك العظيم لويس بحق الرب الذى هانى فوق الصليب». وأجاب الملك فى بطة: «فليسيف الرب الذى خلق الفريوس حمايته عليك يا ابن اختى».

« وتحدث راؤول البارونى النبيل وقال: «أيها الإمبراطور العادل! إننى أرغب فقط فى الحديث معك: إننى ابن أختك ويجب ألا تظلمنى. لقد سمعت بوفاة هيريت سيد فيرماندوا وحاكمها. والآن أعطنى أرضه فى الحال، لأن هذا هو ما أقسمت بأن تفعله، وقد تعهدت بذلك لى وأعطيتى الرهائن ضماناً لذلك». وقال البارون لويس: «لا أستطيع يا أختى. فإن هذا النبيل الذى تتحدث عنه له أربعة أبناء شجعان، لا يمكن أن تجد فرساناً أفضل منهم، فإذا ما أعطيتك أرضهم الآن، فسوف يلومنى كل رجل عاقل لهذا ولا أستطيع جمعهم فى بلاطى، لأنهم سيرفضون خدمتى أو تكريمى. وفضلاً عن ذلك، فإننى أخبرك إننى لا أرغب فى تجريدهم من ميراثهم ولا أريد أن أغضب أربعة رجال من أجل رجل واحد». وكان راؤول ينصت وقد ظن أنه سيصاب بالجنون. وكان عاجزاً عن التفكير فقد كان غاضباً ومهتاجاً، ويتصرف فى ثورة غضبه ولا يتوقف حتى يصل إلى قصره ويجد الرهائن فى إنتظاره، ودعاهم إلى الإنضمام إليه وفاء بمهودهم.

« كان الكونت راؤول غاضباً جداً. واستدعى درون وجيوفرى الجسور أمير أنجو، اللذين

(١) نظراً للملاقة الوطيدة بين التاج الفرنسى، وبيرون سان نوى فى باريس، حيث كانت شعائر البيت المالک الفرنسى تحفظ فى هذا البير.

أفزعهم الأنبياء، وكذلك استدعى هربرت الميني وجيرارد وهنري وسمسون وبرنار العجوز «تعالوا أيها البارونات، أننى أطلب منكم، بناء على عهودكم التى قطعتموها لى. فغدأ عند بزوغ النهار أجمعكم بمقتضى عهودكم إلى برجى، وبحق القديس جيرى، سوف تمتثلون يأساً، وعندما سمع جيوفرى هذه الكلمات إرتجف فزعاً ، وقال : «أيها الصديق لماذا تهددنى هكذا؟» وأجاب راؤول : «سوف أخبرك .. فإن هربرت الذى كان يملك أوريجنى ، وسان كوينتن، وبيرون وكليرى ، وهام وروى، ونسل وفاليفى، قد مات. فهل تظنون أننى أخذت هذه الإقطاعية الفنية؟! إننى أخبركم بأن هذا لم يحدث، لأن الإمبراطور خذلى تماماً». وأجاب البارونات جميعاً: «إمنحنا بعض الوقت : لأننا سوف نذهب إلى لويس ونسمع من شفتيه هو كيف يعترم حمايتنا». وقال راؤول « إننى أمنحكم هذا بمقتضى إيمانى». وذهب برنييه إلى القصر، على حين توجه الرهائن مباشرة إلى الملك. وكان جيوفرى أول المتحدثين وناشد الملك الرحمة قائلاً: «أيها الإمبراطور العادل، إننا فى مأزق حرج شديداً، لماذا جعلتنا رهائن لهذا الشيطان، أكبر مجرم أرتدى لباس الفروسية على الإطلاق؟ إن هربرت أفضل البارونات قد مات، وهو يريد أن يستولى على كل إقطاعه».

ثم تحدث جيوفرى الجسور مرة أخرى فقال: «أيها الإمبراطور العادل لقد ارتكبت حماقة كبرى حين أعطيت ابن أختك ميراثاً ولقباً بأرض شخص آخر. إن الكونت هربرت قد مات، وكان يحكم ضيعة كبيرة. إن راؤول محق فى موقفه؛ والمخطئ هو أنت. يجب عليك أن تمنحه هذه الضيعات – فإننا رهائن لنيه فى مقابل ذلك». وقال الملك «يا إلهى لقد كنت أجن من جراء التفكير فى أن أربعة رجال سيفقدون ميراثهم إرضاء لرجل واحد! إننى أقسم بالذى أنطلق التمثال أن هذه الهبة سوف تؤدى إلى هلاكه. وإذا لم تحدث زيجة تكبح جماحه، فإن الحزن سوف يخيم على بيوت العديد من النبلاء».

« ويتحدث الملك والحزن يعتصر قلبه؛ فيقول : «يا ابن أختى العادل، تعال هنا. أننى أعطيك القفاز، ولكن الأرض لك بالشروط التى سألوها عليك: أنت تتأكد أننى لن أساعدك أنا أو رجالى بأية وسيلة». ويجب راؤول: «إننى لا أطلب ما هو أفضل من ذلك». ولكن برنييه سمع كلماته ووثب واقفاً، وتكلم بصوت عال ليسمعه الجميع: «إن أبناء هربرت فرسان أشاوس، وأغنياء ولهم أصدقاء كثيرون، وإن يهزموا على يديك». ويتكلم الفرنسيون الموجودون فى القصر حول المسألة، سواء كانوا كباراً أم من الشباب» ويقولون : «إن الصبى راؤول يملك عقل رجل،

إنه يطلب بدلاً عادلاً لأرض أبيه. إن الملك يحرك حرياً سوف تكسر بالحنن قلوب الكثير من السيدات الجميلات».

« ويتكلم برنبيه الشجاع بصوت عال مرة أخرى: «أيها الإمبراطور العادل، أنتظر ما إذا كان هناك سبب في كل هذا، إن أبناء هربرت لم يرتكبوا أى خطأ، ولا يجب أن يظلموا في بلاطك. فلماذا تفرط في أرضهم هكذا؟ إن الرب لن يسامحهم إذا لم يدافعوا عن أرضهم ضد رافول». وقال الملك بسرمة «فيلكن، ما دام قد قبل الهبة ضد إرادتي، وإن أخرج للقتال من أجله أبداً».

ويتحدث برنبيه إلى رافول الكاميري: «إنني رجلك ولا أنكر ذلك، ولكني لا أنصحك أبداً بأن تأخذ أرضهم، الجأ الآن إلى القانون قبل أن يرتكب أحد خطأ ما، فإذا ما سفهوك فسوف أصبح لهم. إنني بدافع من حبي لك سوف أكون ضامناً لهم». وأجاب رافول «بحق ديني لن أفكر في هذا، لقد تمت الهبة، وإن أتنازل عنها بأى ثمن» فقال برنبيه: «إذن يا سيدي، لن أزيد في الكلام حتى يأتى الوقت الذى أرى فيه دفاعهم القوي».

حركة السلام

عندما كانت الحروب الإقطاعية تمزق أوروبا بسبب حال الجوع إلى الأرض في القرنين العاشر والحادي عشر، ظهرت حركة تدعو إلى السلام من خلال تيارين أساسيين: سلام الرب، وهدنة الرب. وهذه الحركة هدفت إلى تقييد الحروب الإقطاعية في أيام معينة لتحديد نطاقها ومحاصرة أضرارها، ومن ناحية أخرى، كانت هذه الحركة تهدف إلى حماية العناصر المنتجة والتجار ورجال الدين من الحرب وأضرارها. وقد تولت الكنيسة الكاثوليكية دوراً هاماً في حركة السلام هذه، واستخدمتها كوسيلة لزيادة سلطانها ونفوذها. بل إن الكنيسة كونت لنفسها فرقاً لفرض السلام بالحرب ضد من ينتهكون هدنة الرب وسلام الرب، وكانت هذه خطوة هامة نحو عسكرة الكنيسة الكاثوليكية، وإرهاصاً لدورها الكبير في الدعوة إلى الحروب الصليبية وتوجيهها واستخدامها أداة في خدمة سياستها الداخلية والخارجية على السواء. وقد أوردنا نصين لمعاهدتين. إحداهما تتعلق بسلام الرب والأخرى تتعلق بهدنة الرب.

* * *

سلام الرب في مجمع شارو سنة ٩٨٩م (*)

«سيراً على نهج أسلافي، دعوت أنا جنبالد كبير أساقفة بورجو، الأساقفة لحضور مجمع ديني في شارو. وهناك اجتمعنا باسم الرب وأصدرنا القرارات التالية:

١- الحرمان ضد أولئك الذين يقتحمون الكنائس: إذا اقتحم أي فرد كنيسة، أو سرقها، سوف يكون محروماً من الكنيسة ما لم يقدم ترضية.

٢- الحرمان ضد أولئك الذين يسرقون الفقراء: إذا سرق أي فرد من فلاح، أو أي شخص فقير آخر، خروفاً، أو ثوراً، أو بغلاً، أو بقره، أو عنزة، أو خنزيراً، يحرم من الكنيسة ما لم يقدم ما ترضيه.

٣- الحرمان ضد من يسيئون لرجال الكنيسة: إذا قام شخص ما بمهاجمة، أو إمساك، أو

ضرب ، قسيس أو شماس، أو أى فرد من رجال الكنيسة الذين لا يحملون سلاحاً (مثل درع أو سيف ، أو رداء معدنى، أو خوذة)، وهو يمشى مسالماً، أو يقبع فى منزله، فإن المعتدى يجب أن يحرم ويقطع من الكنيسة، ما لم يقدم ترضية، أو ما لم يكتشف الأسقف أن رجل الكنيسة قد جلب هذا على نفسه نتيجة لخطأ إرتكبه».

هنة الرب – أسقفية تيروان سنة ١٠٦٣ (٥)

«دروجو، أسقف تيروان، والكونت بلدوين أرسيا هذا السلام بالتعاون مع رجال الكنيسة والشعب فى هذه الأرض.

«أيها الأخوة الاعزاء فى الرب، هذه هى الشروط التى يجب عليكم مراعاتها خلال فترة السلام التى تسمى عادة هنة الرب، والتى تبدأ بغروب شمس الأربعاء وتمتد حتى شروق شمس الاثنين.

١- خلال هذه الأيام الأربعة والليالى الخمس لا يجب أن يهاجم رجل، أو امرأة، أو يجرح، أو يذبح آخر. كما يجب ألا يهاجم أو يستولى على، أو يدمر قلعة، أو حصناً، أو قرية، بالحيلة أو بالعنف.

٢- إذا خرق أى فرد هذا السلام وحصى أوامرنا هذه، ينفى ثلاثين يوماً للتكفير عن ذنبه، وقبل أن يترك الأسقفية يجب أن يقدم تعويضاً عما سببه من أذى، ولا سيحرم من الرب ويطرد من الشركة المسيحية.

٣- وكل من يساعده، أو يشاركه ، بطريقة ما، سواء بمشورتهم أو بالمعاونة أو بالمناقشة، ما لم يكن ذلك بقصد نصحة بالتكفير عن ذنبه وترك الأسقفية، سيحرمون ما لم يقدموا ترضية.

٤- إذا سقط أى مخالف للسلام مريضاً، أو مات، قبل أن يتم التكفير عن ذنبه، فلا يجب أن يزوره أى مسيحى، ولا يجب أن يحرك جثمانه من المكان الذى رقد به، أو أن يتقبل شيئاً من أملاكه.

٥ - بالإضافة إلى ذلك ، أيها الأخوة يجب مراعاة السلام بالحفاظ على الأراضى والحيوانات وكافة الممتلكات. وإذا أخذ أحد من آخر حيواناً، أو مالاً أو ثوباً خلال أيام الهدنة،

يحرم ما لم يقدم ترضية. فإذا أراد أن يقدم ترضية عن جرائمه فيجب عليه أولاً أن يعيد ما سرقه من أشياء، أو قيمتها ذهباً. ويجب أن يكفر عن ذنبه سبع سنوات داخل الأسقية، فإذا مات قبل أن يقوم بالترضية ويتم التكفير عن ذنبه، يجب ألا يدفن جسده، أو ينقل من موضعه، ما لم تقم عائلته بالترضية عنه للشخص الذى آذاه.

٦- خلال أيام هذا السلام. لا يجب أن يقوم أحد بغارة عدوانية على ظهور الخيل، ما لم يكن ذلك باستدعاء من الكونت، وكل من يذهبون فى سبيل الكونت يأخذون ما يكفيهم وحيولهم فقط من المؤن.

٧- كل التجار الذين يمرون عبر أراضيهم يجب أن يتمتعوا بالسلام فى ظلكم.

٨- يجب عليكم أيضاً حفظ هذا السلام طوال أيام الأسبوع من الآحاد الأربعة التى تسبق عيد الميلاد، حتى عيد الفطاس، ومن عيد التراتيل حتى عيد الخمسين.

٩- ونحن نأمر جميع القساوسة فى أيام الأعياد ويوم الأحد أن يصلوا من أجل جميع من يحفظون السلام، وأن يلعنوا جميع من يخرقونه، أو يساندون من يخرقونه.

١٠- إذا اتهم أى فرد بانتهاك السلام، وأنكر هذه التهمة، فيجب أن يتناول ويتعرض لحنة الحديد الساخن^(١)، وإذا وجد مذنباً يجب أن يكفر عن ذنبه داخل الأسقية، طوال سنوات سبع.

حياة الفن فى العصور الوسطى^(*)

صورة طبيعية للطريقة التى كان الأتقان يمارسون بها مختلف مهامهم من خلال حوارين سيد إقطاعى وواحد من أقبانه، والنص يرجع إلى حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية.

* * *

* السيد : ما الذى يعرفه رفاقك؟

* الفلاح : إنهم يعملون على المحراث، ورعاة أغنام، ومربوا ثيران، وقناصون وصيادو

سمك، ومدربو صقور، وتجار محليون، وإسكافيون، وملاحون ، وخبازون.

Wright, Thomas, Anglo -- Saxon and old English Vocabularies, Trubner and Co., (*)
London 1884), VOL., I, P. 88.

(١) كانت هناك محاكمة جرمانية تقضى أن يمسك المتهم بقطعة من الحديد المثلث، فإذا شفت يده قبل مرور ثلاثة أيام كان بريئاً، وإذا لم تشف كان مذنباً. ومع تدهور مستوى العلاج آنذاك ، لم يكن أحد ينجو من العقاب .

- * السيد: فما الذى تقوله أنت يا رجل المحراث؟ كيف تؤدى عملك؟
- * رجل المحراث: سيدى ، إننى أبذل جهداً فائقاً ، فإننى أخرج مع ضوء الفجر، أسوق الماشية إلى الحقل. ثم أربطها فى المحراث. وحتى لو كانت الطقس سيئاً فى الشتاء؛ فإننى لا أجري على البقاء بالمنزل خوفاً من سيدى.. ولكن عندما أضع النير فى أعناق الثيران، وأثبت سلاح المحراث به، يجب أن أحرث حقلاً كاملاً، أو أكثر، فى اليوم .
- * السيد : هل لك مساعون؟
- * رجل المحراث : معى صبي يقود الثيران بمنخس، وهو أيضاً مبحوح الصوت بفعل البرد والصياح.
- * السيد : ماذا تفعل غير ذلك فى يومك؟
- * رجل المحراث: من المؤكد أننى أودى مزيداً من العمل. إذ يجب أن أملاً منود الثيران بالتبن، ثم أسقيها وأخرج الروث.
- * السيد : إن هذا لعمل شاق حقاً.
- * رجل المحراث: ومع هذا ، فإنه عمل شاق لأننى لست حراً.
- * السيد : ماذا لديك لتقوله أيها الراعى؟ هل عملك شاق أيضاً ؟
- * الراعى: إنه كذلك بالفعل. فى الفجر الرمادى أقود أغنامى إلى المرعى وأقف لأراقبها، سواء فى الحر أو فى البرد، ومعى كلابى، حتى لا تلتهمها الذئاب. ثم أعيدها إلى الحظيرة وأحلبها مرتين يومياً. ثم أنظف حظيرتها، وأصنع الجبن والزبد، كما أننى مخلص لسيدى.
- * السيد : يا مربى الثيران ما هو عملك؟
- * مربى الثيران: يا سيدى إن عملى مرهق. فعندما يحل رجل المحراث الثيران من المحراث، أقودها إلى المرعى، وأظل أحرصها من اللصوص طوال الليل. ثم أسلمها فى الصباح لرجل المحراث وقد أكلت وشربت جيداً.
- * السيد : ما هى حرفتك؟
- * صياد السمك : إننى صياد سمك.
- * السيد : ما الذى تحصل عليه من عملك؟
- * صياد السمك: الطعام والملابس والنقود.

٧.

- * السيد : كيف تصيد السمك؟
- * صياد السمك: أذهب فى قارب، وأضع شباكى فى الماء، ثم أرمى مرساتى وخيوطى، وأحتفظ بما فيها.
- * السيد : كيف يكون الحال لو أن السمك لم يكن نظيفاً؟
- * صياد السمك: أرمى السمك غير النظيف وأكل النظيف.
- * السيد : كيف تباع أسماكك؟
- * صياد السمك : فى المدينة.
- * السيد : من يشتريها؟
- * صياد السمك: سكان المدينة، فانا لا أستطيع أن أصيد القدر الذى يمكننى أن أتاجر فيه،
- * السيد : ما هى الأسماك التى تصيدها؟
- * صياد السمك: الرنجة والسلمون، وخنزير البحر، وسمك الحفش ، والمحار، وأبو جلمبو.
- * السيد: هل تحب صيد العوت؟
- * صياد السمك: لا.
- * السيد : لماذا ؟
- * صياد السمك: لأننى أفضل أن آخذ سمكة أستطيع قتلها بدلاً من سمكة تستطيع بضربة واحدة أن تقتلنى، أو تفرقنى، أنا وجميع رفاقى.
- * السيد ومع ذلك فإن كثرة من الناس يمكن أن تصيد الحيتان دون أن تتعرض للخطر، ويحصلون على ثمن كبير لقاء عملهم.
- * صياد السمك: حقاً حقاً ما تقول، ولكنى لا أجرؤ بسبب جبنى.

القسم الثانى

الدعوة إلى الحملة الصليبية

١- البابا إريان الثانى فى مجمع كليرمون

كان إريان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) من أكبر البابوات المصلحين فى القرن الحادى عشر؛ ذلك أن إصلاحاته البعيدة المدى على المستوى الإدارى والقضائى، والمالى، أعادت للبابوية سلطتها وفعاليتها بعد ذلك الانكسار الذى حاق بها بعد بابوية جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥م). وقد استمدى مجمع كليرمون ليواصل عملية الإصلاح الكنسى. وفى الجلسة الأخيرة فقط سمع العلمائين أن يستمعوا إلى الدعوة الكبرى التى أطلقها للدفاع عن العالم المسيحى ضد الفساد فى الداخل، والمسلمين فى الخارج. وكانت هذه أول دعوة للحروب الصليبية.

وكل الروايات التى تحدثت عن خطبة إريان فى كليرمون فى فرنسا، كتبت بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى؛ ومن ثم فإن الكلمات التى وضعها المؤرخون على لسان البابا فى رواياتهم لهذه الخطبة تمكس الأحداث التاريخية التى كانت قد وقعت بالفعل بعد الحملة الأولى. ونحن نقدم فى الصفحات التالية خمس روايات، وكان ثلاثة ممن كتبوها قد حضروا مجمع كليرمون.

١- رواية فوشيه الشارترى

(كتبت ما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٦) (*)

كان فوشيه ممن حضروا مجمع كليرمون وشارك فى الحملة الصليبية حيث كان قسيساً خاصاً لستيفن بلوا، ثم صار القسيس الخاص لبلدوين البولونى، وذهب معه إلى الرها. وهو الأمر الذى يفسر لنا لماذا كان هو المؤرخ الوحيد الذى لم يجعل خطبة إريان تتناول احتلال المسلمين للقدس كسبب للحملة الصليبية. وهو فى كتابه يكشف عن إخبارى ومراقب واقعى، وإن كان لم يتخلص من التأثير الدينى والغيبى لعصره، وكان واحداً من

Fulcher of Chartres, Historia Hierosolymitana -- A history of the expedition to Jerusalem 1095 -- 1127 (transl. by : Frances Rita Ryan. with an introduction by Harlod S. Fink) Knoxville, Tenn. 1969, pp. 61 - 69.

اثنين من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى أدياً شكوكاً حول قصة الحربة المقدسة التي
وجدتها الصليبيون في أنطاكية. ويرى بعض المؤرخين أن فوهيه كان يمتلك نُسخاً
لقرارات مجمع كليرمون.

* * *

« في سنة ١٠٩٥ بعد تجسد سيدنا، بينما كان هنري الإمبراطور المزعوم يحكم المانيا،
والملك فيليب يحكم في فرنسا، وكانت الشرور من كل جنس ونوع تتكاثر في شتى أنحاء أوروبا
بسبب تآرجح العقيدة، في ذلك الحين كان البابا إريان الثاني يحكم في مدينة روما، وكان رجلاً
يستحق الإعجاب بحياته وعاداته، وقد ناضل بشدة وجسارة ليرفع من شأن الكنيسة المقدسة
أكثر فأكثر.

« وفضلاً عن ذلك ، فإنه رأى الجميع يتجرون على العقيدة المسيحية بشكل متزايد سواء
من الأكليروس أو من العلمانيين، وانتكح السلام تماماً، لأن أمراء الأرض كانوا في حال من
التحارب الدائم ضد بعضهم البعض. ورأى الناس يسرقون متاع الدنيا من بعضهم، لدرجة
أن بعض الأسرى أخذوا ظمأً وغدراً، وألقى بهم في غياهب السجون في همجية شديدة طلباً
لفدية باهظة ولا تعرضوا في سجونهم للعذاب بشرور ثلاثة: هي الجوع والعطش والبرد، ثم
يعدمون سرّاً. كما أنه رأى الأماكن المقدسة تستباح، والأديرة والقصور تفترسها النيران التي
لا تبقى ولا تذر ، وكذلك وجد الأمور الإنسانية والإلهية محط المهانة والإزدراء.

« وعندما سمع أن المناطق الداخلية من رومانيا^(١) قد احتلها الأتراك، وأن المسيحيون قد
خضعوا لغزو مدمر ساحق، اهتز إريان كثيراً بسبب تقواه وتدينه العميق وزيادة حبه للرب،
فعبر الجبال، وهبط في بلاد الغال، وأمر بعقد مجمع في أوفريني بكليرمون، كما هو اسم
المدينة. وقد تم الإعلان عن هذا المجمع بطريقة سليمة من خلال الرسل الذين أرسلوا إلى كافة
الأنحاء ، وحضره ثلاثمائة وعشرة من الأساقفة ومقدمي الأديرة الذين يحملون العصا
المعقوفة...

«وعندما تم إقرار هذه الأمور، وأمور غيرها كثيرة على نحو طيب، شكر كل الحاضرين،
سواء من رجال الكنيسة أو من الشعب، شكروا الرب بحرارة على كلمات السيد البابا، ووعده

(١) يقصد الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) آنذاك.

مخلصين بالحفاظ على قراراته ومراسيمه التي أصدرها في هذا المجمع. ولكن البابا أريد قائلاً في الحال إن هناك محنة أخرى ليست أقل شأناً ، وإنما هي أعظم وقعا مما ذكره؛ بل إنها من أسوأ ما عرف من محن ومصائب تمسك بخناق المسيحية الآن في جزء آخر من العالم.

«قال: بما أنكم يا أبناء الرب قد وعدتموه بحفظ السلام فيما بينكم، وأن تخلصوا في الحفاظ على حق الكنيسة المقدسة أكثر من ذي قبل، فإنه ما يزال أمامكم، يا من بعثتم الإصلاح المقدس حديثاً، مهمة عاجلة منوطة بكم وتتعلق بالرب أيضاً، ومن خلال هذه المهمة يمكنكم إظهار قوة إرادتكم وحسن نواياكم، إذ يجب أن تسارعوا بمساعدة إخوتكم المسيحيين في الشرق والذين يحتاجون مساعدتكم وطالما طلبوها.

«وذلك لأن الأتراك ، وهم شعب فارسي^(١)، كما يعلم الكثيرون منكم، والذين توغلوا داخل الأراضي الرومانية حتى ذلك الجزء من البحر المتوسط والمعروف باسم ذراع القديس جورج^(٢)، وقد استولوا على المزيد من أرض المسيحيين، وهزمهم سبع مرات وفي معارك عديدة، وقتلوا وأسروا الكثيرين، ودمروا الكنائس، وخرّبوا مملكة الرب. وإذا سمحتم لهم بالتمادي في ذلك أكثر فأهم سوف يهزمون شعب الرب من المؤمنين أكثر وأكثر.

«ومن ثم فإنني بصلاة خاشعة، لست أنا ولكن الرب هو الذي يحتكم باعتباركم قساوسة المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات؛ من الفرسان ومن الجنود المشاة، من الأغنياء والفقراء، بأن يسارعوا لاستئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا، وأن تساعدوا السكان المسيحيين قبل قوات الأوان.

« إنني أخاطب الحاضرين؛ وأعلن لأولئك الغائبين ، فضلاً عن أن المسيح يأمر بهذا، أنه ستغفر ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك إذا ما انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء في مسيرتهم على الأرض أو أثناء عبورهم البحر أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين. هذا الغفران أمناه لكل من يذهب بمقتضى السلطان الذي أسبغه الرب على،

(١) هذا الخلط بين الأتراك والفرس يمكن تفسيره في ضوء ما نعرفه عن جهل ذلك الزمان بحقائق الجغرافيا والتاريخ في الشرق الإسلامي. هذا الجهل الذي كان من أسباب التعصب المقيت الذي ميز العرب الصليبية التي شنّها الغرب ضد الشرق، كان أيضاً من مظاهر هذا التعصب. وقد ظن فوشيه أن الترك شعب فارسي لأنهم نخلوا الأناضول وبلاد الشام عن طريق فارس، كما أنهم تأثروا بمظاهر ثقافية فارسية.

(٢) يقصد بذراع القديس جورج البسفور وبحر مرمرة.

« ياله من عار إذا ما قام جنس مثل هذا خسيس، منحل تستعبده الشياطين، بالتقلب على شعب يتحلى بالإيمان بالرب العظيم ويزهو ويتألق باسم المسيح، يا لها من تهم ستوجه ضدكم من الرب نفسه إذا لم تساعدوا أولئك الذين يعدون مثلكم من أتباع الديانة المسيحية.

وقال «فليبادر أولئك الذين اعتادوا شن الحرب الخاصة ضد المؤمنين بالمسير ضد الكفار فى حرب يجب أن تبدأ الآن لتنتهى بالنصر. وأولئك الذين ظلوا لصوحاً لفترة طويلة ينبغي أن يتحولوا الآن إلى جنود للمسيح، وليبادر الذين حاربوا ذات مرة ضد الإخوة والأقارب فيحاربون الآن بحق ضد البرابرة. وأولئك الذين كانوا مرتزقة مأجورين من أجل حفنة من النقود الفضية يجب أن يسرعوا للحصول على مكافأة خالدة. وأولئك الذين كانوا يجهدون أنفسهم لإيذاء الجسد والروح، ينبغي أن يعملوا من أجل مجد الجسد الروح معاً، بلى فى ناحية سيكون الحزانى والفقراء ، وفى ناحية أخرى سيكون الفرعون والأثرياء؛ هنا أعداء الرب، وهناك أصدقاء».

«لا ينبغي لشيء أن يؤجل سفر الراغبين فى الرحيل. فلينتهوا من تدبير شئونهم، ويجمعوا الأموال، وعندما ينتقضى الشتاء وبهل الربيع، فليبدأوا رحلتهم فى حماسة برعاية الرب».

(ب) رواية المارخ المجهول (كتبت حوالى سنة ١١٠٠ - ١١٠١ م) (*)

«عندما حان الوقت الذى كان السيد المسيح يحدده يوماً للمؤمنين به لاسيما فى الإنجيل بقوله: إن أراد أحد أن يأتى ورأى فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى^(١) كانت هناك حركة هائلة تعتمل فى قلوب الناس فى شتى أنحاء الأرض الفرنجية، بحيث إذا كان ثمة رجل، بكامل قلبه وعقله، مستعداً حقاً لأن يتبع الرب وأن يحمل الصليب خلفه بإيمان، فإن مثل هذا الرجل لم يكن قادراً على أن يتأخر فى السير على طريق الضريح المقدس بأسرع ما يمكن. لأن البابا نفسه^(٢) عبر جبال الألب بأسرع ما يستطيع ، ومعه كبار أساقفته، والأساقفة ومقدمو الأديرة والقساوسة وبدأ يلقي عدة خطب فصيحة قال فيها «إذا كان هناك رجل يبتغى إنقاذ روحه، فيجب ألا يتردد فى أن يأخذ طريق الرب فى تواضع، وإذا ما كان بحاجة إلى المال، فإن

(*) Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum: The Deeds of the Franks and other pilgrims to Jerusalem (edited and transl. by Rosalind M. Hill, London 1962). pp. 1-2.

(١) إنجيل متى - ١٦ : ٢٤.

(٢) إربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩).

الرحمة الإلهية سوف تعملية ما يكفي» وقال السيد البابا أيضاً «يا أيها الأخوة، يجب أن تعانوا أموراً كثيرة في سبيل اسم الرب مثل الشر، والفقر، والعري، والاضطهاد، والحاجة، والمرضى والعطش وما شابه ذلك من متاعب ومصاعب. لأن الرب يقول لحوارييه: يجب أن تعانوا عدة أمور من أجلى»^(١) ويقول أيضاً: لا تخجلوا من الكلام أمام الناس «لأننى أنا أعطيتكم فما وحكمة»^(٢) ثم قال فيما بعد: «لأن أجركم عظيم فى السموات»^(٣). وحينما بدأت هذه الكلمة تنتشر وتشيع فى شتى أنحاء بوقيات وكونتيات الأراضى الفرنجية. بدأ الفرنجة بمجرد سماع هذه الكلمات، يخطبون الصليب على الكتف الأيمن لعباءاتهم قائلين إنهم جميعاً سوف يقتفون أثر خطوات المسيح سوياً، لأنه هو الذى خلصهم من سلطان الجحيم. ولذا فإنهم إنطلقوا فوراً من منازلهم فى أراضى الفرنجة.

(ج) روبر الراهب (كتب سنة ١١٠٧م) (*)

كان راهباً فى دير مارموتيه - ليز - تور Marmoutier_Lez_Tours، ويعرف عادة باسم روبر الراهب، وأحياناً باسم روبر الريمسى نظراً لأنه تولى رئاسة ديرسان ريمى حيث كتب Senuc. ولكنه بعد نزاع حول قيادته للدير تركه إلى دير سينوك Saint_Rémi واحداً من أكثر الكتب التى عاصرت الحملة الصليبية رواجاً. فقد كان حاضراً فى مجمع كليرمون، والخطبة التى وضعها على لسان إريان الثانى تعكس الموضوع الرئيسى لروايته حيث يدور الموضوع حول الرب القادر الذى اختار الفرنجة ليعمل من خلالهم، وبذلك فهو يرى أن الحملة الصليبية هى أكبر دليل على تدخل العناية الإلهية فى أمور هذا العالم وتحقيق النبوءات التى وردت فى الكتاب المقدس، بعد أن تجلت هذه العناية من قبل فى الخلق ثم تجسد المسيح. وقد تميزت روايته بذلك النوع من المبالغة فى تصوير المسلمين ووحشيتهم، وهى المبالغة التى كانت تميز كتابات رهبان العصور الوسطى عموماً بما تحمله من تعصب وجهل.

* * *

(١) جاء فى أعمال الرسل ٩: ١٦ «لأنى سأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمى». ويجب أن نلاحظ أن المؤرخ المجهول دأب على تحريف اقتباساته من الأناجيل بسبب طبيعته كفارس، وربما كان يعتمد على سماعها فقط.

(٢) لوقا: ٢١ : ١٥.

(٣) متى ٥ : ١٢.

Robert of Rheims, "Historia Iberosolimitana", RHC., Oc., III, pp. 727-30.

(*)

«يا شعب الفرنجة، أنتم يا من تعيشون خلف جبال الألب، يا من اختاركم الرب وأحبكم، كما تجلى واضحاً من خلال أعمالكم الكثيرة. يا من تميزتم عن سائر الأمم بموقع أرضكم ويعقيدتكم الكاثوليكية وكذلك بالشرف الذي أوليتموه للكنيسة؛ فلکم نوجه خطابنا ونستحثكم، نريدكم أن تعلموا أن سبباً محزناً أتى بنا إلى بلادكم، والسبب الذي جاء بنا إلى هنا هو الحاجة إليكم وإلى كل المؤمنين. فقد ورد خبر حزين من البلاد المحيطة بالقدس ومن مدينة القسطنطينية - وسمعنا هذا الخبر يتردد بالفعل - مؤداه أن شعباً من مملكة الفرس^(١) وهو جنس أجنبي، جنس غريب على الرب تماماً، جيل لا يضع قلبه على طريق الحق، وروحه ليست مخلصه للرب، قد غزا أرض أولئك المسيحيين، وأخضع الناس بالسيف، والتدمير والحريق، كما حمل بعضاً منهم أسرى إلى بلاده، وذبح البعض الآخر يوحشية كما سوى كنائس الرب بالأرض، أو استخدمها ليمارس فيها شعائر ديانتهم. هؤلاء الناس قد دمروا المذابح التي نجستها ممارستهم الخرقاء، لقد أجروا عمليات الختان للمسيحيين وكانوا يسكبون دماء الختان على المذابح أو يصبونها في أواني التعميد. وقد شقوا بطون أولئك الذين اختاروا أن يعذبهم بالموت البطيء المثير للإشمئزاز، وكان ينزعون معظم الأعضاء الحية ويربطون ضحاياهم إلى العصي المنيعة، ثم يسحبهم وهم يضربونهم بالسياط قبل أن يقتلهم وهم راقدون على الأرض وقد خرجت أحشائهم. ويربطون البعض إلى الأعمدة ويرمونهم بالسهام؛ ويلامسون الآخرين بتعرية رقابهم ثم يهاجمونهم بالسيوف المسلوطة، ليروا ما إذا كان بوسعهم أن يفصلوا رقابهم بضرية واحدة. ترى ماذا أقول عن العنف الذي يمارسونه ضد النساء؟ فالحديث عنه أكثر شراً من الصمت. لقد تعرضت مملكة اليونان لهجمات عديدة منهم وخضعت لممارستهم بحيث لا يمكن عبورها في شهرين. فعلى من إذن تقع مهمة الانتقام من هذا، ومهمة الخلاص من هذا الموقف، إذا لم يكن على عاتقكم أنتم يا من اختاركم الرب دون سائر الأمم ليسبغ عليكم نعمة المجد في السلاح وجسارة القلب، وقوة الجسد، والقدرة على من يتعرض لكم بالمقاومة؟

لتكن قصص أسلافكم العظام حافزاً لكم يحرككم ويثير أرواحكم صوب القوة؛ من أمثال شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوككم الذي دمروا ممالك الوثنيين ومدوا حدود الكنيسة المقدسة داخلها. وربما تتحركون بشكل خاص بحافز من الضريح المقدس لسيدنا ومنقذنا الذي

(١) انظر ما سبق تعليقا على رواية فوشيه الشارترى.

يرقد أسيراً في أيدي أجناس قذرة، وربما حركتكم الأماكن المقدسة التي تنتهك حرمتها الآن بممارستهم القذرة، يا أيها الجنود يا من تتمتعون بالقوة وتتحدرون من صلب آباء لا يشق لهم غبار، لا ترضوا لأنفسكم مظهرًا أضعف من أسلافكم ولكن تذكروا قوتهم، إذا كان حب الأطفال والوالدين والزوجات سوف يعوقكم تذكروا ما يقوله سيدنا في الإنجيل: «من أحب أباً أو أمًّا أكثر مني فلا يستحقني. ومن أحب إبناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني»^(١). وكل من ترك بيته أو أباه أو أمه أو زوجته أو أطفاله في سبيل إسم المسيح سوف ينال قدرها مائة مرة وسوف يستحق الحياة الدائمة. فلا تجعلوا أية ممتلكات تقعد بكم عن المضي في سبيله، ولا تعبوا بالشئون المنزلية، لأن هذه الأرض التي تعيشون عليها محاطة بالبحر من كل جانب، وتحولها سلاسل الجبال، وتضيق بأعدادكم الكثيرة؛ وهي لا تفيض بالثروة الطائلة وإنما لا تكاد تحقق من الطعام ما يكفي زراعتها فقط. وهذا هو السبب في أنكم تشنون الحرب ضد بعضكم البعض، بل وتقتلون بعضكم بعضاً وأنتم تتبادلون الضربات، فلتوقفوا هذه الكراهية فيما بينكم، وكفوا عن النزاع، واخمدوا نيران الحرب، وضعوا حداً لكل المشاحنات. انطلقوا على طريق الضريح المقدس، إنقلوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب واحكموها بأنفسكم، لأن هذه الأرض التي تفيض باللبن والعسل كما يقول الكتاب المقدس أعطها الرب ملكاً لبني إسرائيل^(٢).

القدس هي مركز العالم، وهي الأرض التي تسمو فوق غيرها، مثل جنة أخرى حافلة بالمتع. لقد جعلها مخلص البشرية مشهورة بميلاده، وزانها بحياته، وقدها بعذابه ومعاناته، ثم طهرها بموته، وترك خاتمه عليها حين دفن بها. هذه المدينة الملكية، مكانها في مركز العالم، أسيرة الآن في أيدي أعدائها، ومسخرة لخدمة الطقوس الوثنية لشعب لا يعترف بالرب. ولذا فهي تسأل وتصلى من أجل تحريرها، وتناديكم يوماً لتهبوا لنجدتها. والحقيقة أنها تسألكم أنتم بصفة أساسية لمساعدتها، لأن الرب، كما ذكرنا من قبل، قد أسبغ عليكم نون سائر الأمم مجدداً فائقاً في السلاح. ولذا سيروا على هذا الطريق من أجل التطهر من خطاياكم، وكونوا على ثقة في المجد الخالد لمملكة السماء.

(١) متى ١٠ : ٢٧ : ٢٨.

(٢) يقصد المسيحيين لا اليهود. وذلك لأن المسيحية نزلت لهداية اليهود فقد جاء بإنجيل متى ٢٤: ١٥، على لسان المسيح «لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة» وعلى هذا سميت الجماعات المسيحية الأولى باسم الإنكليزية أي المختارين من بني إسرائيل؛ على حين فقد اليهود امتيازهم بسبب اضطهادهم للمسيح وعدم إيمانهم به.

« وحينما ذكر البابا إريان هذه الأمور وكثيراً غيرها بطريقة بليغة، كان كل إمرئ يتحرك بدافع من شعور موحد وصاح الجميع في صوت واحد «الرب يريدنا! الرب يريدنا! وحينما سمع البابا المبجل هذه الصيحة رفع عينيه صوب السماء، وشكر الرب، وأشار بيديه طالباً الصمت، ثم قال: (يا أيها الأخوة الأعزاء لقد وضع لنا اليوم ما قاله الرب في الإنجيل: «لأنه حينما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم»^(١) لو لم يكن الرب حاضراً في عقولكم لما نطقتم بصوت واحد، فعلى الرغم من أن الصيحة خرجت من أفواه كثيرين منكم، فإن مصدر الصوت كان واحداً؛ وإذا فأننا أقول لكم إن الرب الذي بذر هذا الشعور في قلوبكم، هو الذي أخرجه الآن علناً. فليكن هذا النداء في الحرب هو صيحة القتال التي تجمعكم، لأن الرب هو الذي صاغها. وعندما يزحف الجيش ليهاجم العدو سوف تتطلق هذه الصيحة من أجل الرب تتردد في كل الجنبات «الرب يريدنا! الرب يريدنا» ولكننا لا نأمر بحث الرجال المسنين أو العاجزين أو غير اللائقين لحمل السلاح على الذهاب في هذه الرحلة كما لا ينبغي للنسوة أن تذهبن إطلاقاً دون موافقة أزواجهن أو أخواتهن أو بإذن رسمي؛ فإن مثل أولئك الناس سيكونون عقبة أكثر منهم عوناً، وعبئاً أكثر منهم فائدة. ويجب على الغنى أن يساعد من هو أقل ثروة من قادة القتال الذين يجهزون أنفسهم بأنفسهم، والقساوسة ورجال الكنيسة أيا كان النظام الذي ينتمون إليه ممنوعون من الذهاب دون إذن من أساقفتهم، لأن هذه الرحلة لن تفيدهم ما لم يكن لديهم تصريح بها. أما العلمانيون، فلا ينبغي أن يذهبوا لرحلة الحج دون مباركة قساوستهم. وكل من قرر القيام بهذه الرحلة، وقطع وعداً للرب وأقسم أنه سوف يقدم نفسه له ضحية حية مسرورة مقدسة يجب أن يحمل شارة صليب الرب على جيبته أو صدره. وكل من يفى بقسمه ويرغب في العودة يجب أن يضع الشارة على ظهره بين كتفيه. مثل هؤلاء الناس، سوف ينفذون أمر الرب إذا فعلوا هذا، وهو الأمر الذي أمر به الإنجيل حيث يقول: «ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني»^(٢).

(١) إنجيل متى ١٨ : ٢٠.

(٢) إنجيل متى : ١٠ : ٢٨.

(د) رواية جيويرت النوجنتي (كتب قبل سنة ١١٠٨ م) (*)

من المحتمل أن جيويرت لم يكن حاضراً في مجمع كليرمون، ولكنه من عدة جوانب كان أبرز الذين كتبوا عن هذا المجمع. وقد ولد سنة ١٠٥٣م، وانضم إلى دير فلاي Flay. وقد تفوق على أقرانه بسمعته وعلمه وثقافته بحيث انتخب مقدماً لدير نوجنت سنة ١١٠٤م. وهو مثل روبرت الراهب يدور موضوعه الأساسي في كتابه حول دور الفرنجة كشعب اختاره الرب. ومن أهم ما يميز ما كتبه عن خطبة إريان هو العناية على الجوانب الأخروية، ويطه بين هذا الجانب وبين أن بيت المقدس هي بذرة تدخلات الرب في هذا العالم من أجل الحركة الصليبية. والواقع أنه قد وضع فقرة عن سوء معاملة الحجاج في بيت المقدس محل الأخبار المعتادة في كتابات الآخرين عن معاناة المسيحيين الشرقيين، وهي المعاناة التي جعلوها سبباً للحملة الصليبية.

* * *

« إذا كانت بعض الكنائس مبعثرة في شتى أنحاء العالم تستحق التبجيل أكثر من غيرها بسبب الشعب والأرض التي ترتبط بها – أقول بسبب الشعب، لأن أعظم الميراث ورثتها تلك الأماكن التي أسس بها الحواريون أسقفياتهم؛ وأقول بسبب الأرض لأن نفس الكرامة قد أضيفت على المدن الملكية مثل مدينة القسطنطينية بالنسبة للملوك – ولذا يجب أن نكرس أعظم تكريم لكنيسة تلك المدينة التي تلقينا منها نعمة الخلاص والتي كانت منبعاً للمسيحية. وإذا كان ما قاله الرب ما يزال صحيحاً، أن الخلاص من اليهود حق، وإذا كان ما يزال صحيحاً من أن رب الجيوش قد ترك لنا البذرة لئلا نصبح مثل سلوم ونصير مثل مدينة (عمورة)^(١) – والمسيح هو بذرتنا الذي فيه خلاص وبركة جميع الأمم – فالأرض نفسها والمدينة التي عاش فيها المسيح وعانى معروفة بقدسيتهما بدليل من الكتاب المقدس. والواقع ، أن المرء إذا قرأ في الكتابات المقدسة والنبؤات أن هذه الأرض كانت هي الميراث وأن المعبد المقدس للرب قبل أن يمشى السيد المسيح ويظهر هناك، فكم تكون القداسة والتبجيل التي يجب أن نكرسها إذا ما وضعنا في إعتبارنا أن رب الجلالة قد تجسد هناك، وأنه ترعرع ونما، وفي طبيعته المادية مشى هنا وسافر من مكان لمكان؟ وهكذا فيما يتعلق بالإختصار في أمور يمكن أن نحكيها في فترة طويلة، فما هو التبجيل الذي سنضعه في حسابنا للمكان الذي شهد إراقة دم ابن الرب،

Guibert of Nogent, "Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos", RHC, Oc., IV., pp. (*) 137_40.

(١) مثال للمدينة الشريرة.

الأكثر قداسة من السماء والأرض، وشهد جسده الميت يتوارى في المقبرة؟ فإذا كانت المدينة تسمى مقدسة، على حين كان رينا قد قتل منذ فترة يسيرة، وكانت المدينة ما تزال بأيدي اليهود، وكان الإنجيلي هو الذي أسماها مقدسة حين قال: «والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين، وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة، وظهروا لكثيرين(*)» وكما قال النبي أشعيا أن ضريحه سيكون ممجداً ، فإن أى شر لاحق لن يستطيع أن يزيل عن المدينة قداستها طالما الرب نفسه هو الذى أضفى عليها القدسية. كما أن شيئاً لا يمكن أن ينقص من مجد ضريحه.

« أنتم أيها الأخوة الأعزاء، يجب أن تقوموا بأكبر جهدا لتؤكدوا أن قداسة المدينة ومجد ضريحه سوف تتحرر من نير الأميين الذين يدينسون المدينة والضريح بوجودهم بقدر ما يستطيعون. وسوف يحققون ذلك إذا كانت لديكم الرغبة فى التقرب من هذه القدسية وهذا المجد، وإذا كنتم تحبون هذه الأشياء التى تركت على الأرض أثاراً دالة على خطواته، وإذا كنتم تبحثون عنها والرب أمامكم يحارب من أجلكم. وإذا كان المكابيون فى سالف العصر والزمان قد اشتهروا بتقواهم بسبب قتالهم من أجل المعبد المقدس، فإنكم أيضاً، أيها الجنود المسيحيون يجب أن تدافعوا بالسلاح عن حرية أرض الآباء حقاً وعدلاً. وإذا كنتم تعتبرون أنكم يجب أن تتحملوا مشاق كبيرة للقيام برحلة حج إلى مقابر الحواريين [فى روما] أو إلى أضرحة غيرهم من القديسين، فما هو الثمن الروحي الذى ترفضون دفعه فى سبيل إنقاذ الصليب والدم والضريح، والقيام برحلة حج؟ فحتى الآن خضتم حروباً غير عادلة: غالباً ما وجهتم حرايبكم فى وحشية ضد بعضكم البعض فى مجازر متبادلة بسبب الطمع والكبرياء فقط، وهو الأمر الذى تستحقون بسببه الدمار الأبدى واللعنة الأبدية! والآن نحن نقترح عليكم أن تشنوا الحرب التى تجلب لكم مجد الشهادة، التى يمكنكم من خلالها أن تحوزوا لقب المجد الحاضر والمجد الأبدى. إفرضوا فقط أن المسيح لم يمت أبداً، ولم يدفن، ولم يعيش فى أى زمن فى القدس. إذا لم يكن أى من هذه الأمور قد حدث بالفعل، فإنكم مع هذا مطالبون بالتحرك لنجدة الأرض والمدينة بهذه الفكرة فقط : فكرة أن الناموس سوف يخرج من صهيون وأن كلمة الرب سوف تخرج من بيت المقدس. وإذا ما كان حقاً وصدقاً أننا نستمند كل تعاليمنا المسيحية من نبع القدس، فإن قلوب الكاثوليك أجمعين يجب أن تتحرك بوازع من الروافد التى تنتشر

(*) متى ٢٧/٥٢ : ٥٣.

فى شتى أنحاء الدنيا لتذكر بالدين الذى يدينون به لهذا التبع السخى. وإذا كانت الأنهار تعود إلى المكان الذى نبعث منه، لكى تفيض مرة أخرى، على حد تعبير كلمات سليمان الحكيم، فيجب عليكم أن تفكروا فى أنه أمر مجيد أن تتظفوا مرة أخرى المكان الذى منه رتب الرب لكم قوة التعميد التى تطهركم ورضى لكم بهذه الديانة.

« ويجب أن تفكروا وتتبروا بقدر ما يمكنكم فى هذا : إذا كان الرب يتصرف من خلالكم ، بحيث تنتعش أم الكنائس من جديد بفضل تعاونكم لتتشر المسيحية فى أفاق جديدة، فهل يرغب الرب فى إستعادة بعض أقاليم الشرق إلى رحاب العقيدة فى مواجهة إقترب زمن المسيح الدجال؟ لأنه من الواضح أن المسيح الدجال لن يشن الحرب ضد اليهود أو الأميين، ولكن وفقاً لمذلول إسمه سوف يهاجم المسيحيين، ولكن إذا لم يجد المسيح الدجال أى مسيحي هناك، مثلما هو الحال اليوم؛ إذ أن الإعتقاد الشائع أنه ربما يكون هناك مسيحي واحد فى المكان، فلن يكون هناك من يقاومه ولا حتى من يتعرض لهجومه. ووفقاً لما ذكره دانيال، وما ذكره جيروم الذى شرح ما قال دانيال وفسره، فإن المسيح الدجال سوف يقيم خيامه فوق جبل الزيتون. ومن المؤكد، كما يقول القديس بولس، أنه سوف يجلس فى أورشليم فى معبد الرب، كما لو كان هو الرب، وكما يقول النبى دانيال نفسه، لا شك فى أن كل من سيقتلهم سيكونون ثلاثة ملوك، ملك مصر ، وملك أفريقيا، وملك الحبشة، وسيقتلهم أمام الآخرين جميعاً لأنهم مسيحيون. ولا يمكن أن يحدث هذا ما لم تحل المسيحية محل الوثنية. ومن ثم، فإذا كرستم أنفسكم لخوض المعارك المقدسة، بحيث تسدون لأورشليم الدين الذى به تدينون لها بسبب الرحمة التى منحتها لكم – فمن هذا المكان غرست فيكم معرفة الرب لأول مرة – وبفضلكم يمكن للإسم الكاثوليكي، الذى سيقاوم غدر وخيانة المسيح الدجال وأعوانه، أن ينتشر. هذا الإسم الذى لا يمكنه إلا أن يستنتج أن الرب، الذى يفوق قدرته وسلطانه آمال الجميع، سوف يحرق بشرارتكم مثل الشراذم الوثنية بحيث ينشر مبادئ قانونية فى كل من مصر ، وأفريقيا والحبشة، التى انتزعت من عالمنا المسيحى. وهل سيجد الرجل الخاطئ ابن الجحيم عصاة آخرين؟ تأمل ما يصرخ به الحواري من أن أورشليم يجب أن تكون موطناً لأقدام الأميين حتى يأتى زمن الأمم، وزمن الأمم هذه عبارة يمكن أن تفهم بطريقتين. إما أنها أظهرت المسيحيين فى مسراتهم وتتبع تمرغهم بأساليبهم الدنسة وراء شهواتهم، بحيث لم يوقفهم شئ. عن هذه الأمور جميعاً؛ لأن الذين يتبعون أهواءهم فى كل الأمور يقال إنهم يأخذون وقتهم وفى هذا «وقتى لم يأت بعد، ولكن وقتكم جاهز دائماً» وهى العبارة التى بسببها نقول لن يتبع شهواته

«الآن أنت تأخذ زمنا»، أو من ناحية أخرى، تعنى بكلمة زمن الأمم إنجاز الأميين الذين سيدخلون خلصة قبل إنقاذ إسرائيل. أيها الأخوة الأعزاء، ربما ان تتحقق هذه الأزمنة سوى حين يتم دفع الوثنيين على أيديكم، وبمساعدة الرب لكم. ونهاية العالم وشيكة حقاً، على الرغم من أن الوثنيين لم يتحولوا إلى الرب: ووفقاً لما يقوله بولس الرسول يجب أن تكون هناك ثورة من الدين، ولكن أولاً قبل قدوم المسيح الدجال لابد من تجديد الإمبراطورية المسيحية في هذه الأرجاء وفقاً لما تقوله النبؤات، سواء عن طريقكم أو عن طريق أولئك الذين يختارهم الرب، حتى يكتشف رئيس الأشرار، الذي سيعتلى عرش المملكة في هذا المكان، أن هناك دعماً للمقيدة التي يحاربها. واعتبروا وتدبروا في أن الرب العظيم ربما اختاركم لهذه المهمة، حتى يمكن أن يُعيد القدس بعد أن عانت كثيراً من الإمتحان. فكروا ، أتوسل إليكم، في الفرح الذي سيفرمل القلوب حين نرى المدينة المقدسة تعاود الحياة بمساعدتكم ، وحين نرى النبوءات الرسولية ، تتحقق في زماننا، وربما ينبه ذاكرتكم ما قاله السيد المسيح نفسه للكنيسة. حيث قال إنه سيحضر بذرتكم من الشرق، وسوف يجمعكم من الغرب. لقد قاد الرب بذرتنا من الشرق، لأن هذا الأقليم الشرقي منحنا نمو الكنيسة الباكر عن طريقين. ولكن لأننا نظن أنه يمكن فعله بواسطتكم وبمساعدة الرب، فإنه يجمع الكنيسة سوياً من الغرب حين يعيد خرائب أورشليم عن طريق أولئك الذين آمنوا أخيراً بمبادئ العقيدة: وهم الغربيون.

وإذا لم تكن أقوال الكتاب المقدس تحرككم، وإذا لم تكن تحذيراتنا تصل إلى عقولكم، فإن البؤس الشديد الذي يعانيه أولئك الذي يرغبون في زيارة الأماكن المقدسة ينبغى أن يكون حافزاً لكم. فكروا في أولئك الذين يسافرون للحج عبر البحر المتوسط. كم من النفقات، وأى عنف يخضع له الأغنياء منهم، حين يجبرون على دفع إتاوات وخرائب في كل ميل تقريباً عند بوابات المدن، ومداخل الكنائس والمعابد يضطرون إلى دفع الرسوم؛ وكيف يضطرون إلى الرحيل من مكان لآخر وقد اتهموا بإرتكاب شيء ما؛ وكيف أن عادة حكام الأميين أن يجبروهم بوحشية وبالضربات على أن يدفعوا لإطلاق سراحهم إذا ما رفضوا الرشوة؛ وما الذي يمكن أن نقوله عن أولئك الذين لا يملكون شروى نقيير والذين يسمعون للحج في فقر وعري، وليس لديهم شيء يخسرونه سوى أجسادهم؛ فالتقود غير الموجودة تستخرج منهم بالتعذيب القاسى، فيشق جلد كعوبهم الخشن وينزع لئلا يكونوا قد دبسوا شيئاً تحت هذا الجلد. بل إن قسوة هؤلاء الرجال الكفار لتصل إلى حد أنهم يظنون أولئك التمساء قد ابتلعوا الذهب أو الفضة، فيضعون في شرابهم مادة مسهلة ويجبرونهم على أن يتقيأوا أو يتبرزوا، أو

— وهذا شيء لا يمكن الحديث عنه — يمزقون إرباً كل الأمعاء بعد أن يبقروا بطونهم بحيث ينكشف كل سر مخبوء، أتوسل إليكم أن تتذكروا الآلاف الذين قضوا نحبتهم بطريقة مرعبة، وأن تتصرفوا من أجل أورشلیم التي جاءت منها الأسس الأولى لديانتكم. وأمنوا أن المسيح، مرشدكم وحامل رايتكم وسوف يتقدمكم أنتم يا من ستذهبون في حربه».

* * *

(هـ) رواية بلدريك الدولي (كتبت حوالي سنة ١١٠٨م) (٥)

اعتمد بصفة أساسية على المؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنجة. وهو أقل مؤرخي الحملة الصليبية الأولى شأناً، وكان مقدماً لدير سان بييردي بورجي من سنة ١٠٨٩ حتى سنة ١١٠٧ وحضر مجمع كليرمون. وفي سنة ١١٠٧ أنتخب كبيراً لأساقفة دول في بريطانيا. وكان كاتباً رشيق العبارة، ولكن كتابه عن الحملة الصليبية يعتبر اليوم عملاً ضئيل القيمة، ولكن بعض الباحثين يرون أن هذا ظلم لأن بلدريك يفيد من مادته بشكل ممتع، وأنه يكتب روايته من وجهة نظر لاهوتية للغاية. وفي روايته عن خطبة إريان يركز على أخوة جميع المسيحيين؛ شرقيين وغربيين على السواء.

* * *

«لقد سمعنا أيها الأخوة الأحباء، وسمعت أنتم أيضاً، ما لا نستطيع أن نحكيه مرة أخرى دون أن تعترينا مشاعر الأسف العميق — لقد سمعتم أن أخوتنا المسيحيين، تعرضوا للقمع، والضرب بالسياط، والإيذاء في أورشلیم، وفي أنطاكية، وغيرها من مدن الشرق. إن إخوتكم في الدم، رفاقكم، شركاكم (لأنكم جميعاً أبناء نفس المسيح ونفس الكنيسة) يتعرضون إما للإخضاع في إوطانهم الموروثة لسلادة آخرين، وإما يطردون من ديارهم، أو يقدون إلينا كشحاذين؛ أو ما هو أسوأ من ذلك كله، يضربون بالسياط وينفون كعبيد يباعون بسوق النخاسة في أوطانهم، إن الدم المسيحي، الذي اقتداه المسيح بدمه، قد أريق، واللحم المسيحي، الذي يرتبط بلحم المسيح قد أخضع لمهانة وعبودية لا توصف. ففي كل مكان بهذه المدن يشيع الأسى، والبؤس، والأنين (وهو أمر أذكره وأنا أتهدد). إن الكنائس التي كانت تحتفل بالأسرار المقدسة في الأيام الخوالي، تستخدم كحظائر لحيوانات هذه الشعوب بكل أسفاً إن الرجال المقدسين لا يملكون مدنها؛ ولكن الأتراك السفلة، أولاد الحرام، يتحكمون في رقاب إخواننا. إن بطرس المبارك كان يقيم أولاً هناك أسقفًا لأنطاكية، تذكروا أن الأميين

أقاموا خرافاتهم في كنيسته، أما الديانة المسيحية، التي كانت أولى بهم أن يرفعوها فقد حالوا بينها وبين كل المؤمنين بالرب، في خسة ووضاعة. والضياح التي منحت لدعم القديسين وميراث النبلاء الذي خصص لإعالة الفقراء كلها خضعت لطغيان الوثنيين، على حين يقوم السادة القساة بإساءة استخدام عوائد هذه الأراضى. وقد تمرغ قساوسة الرب في تراب الأرض، وقديسة الرب (يا للعار الذي لا يوصف) قد انتهكت في كل مكان، وإذا كان ما يزال هناك مسيحيون في الخفاء، فإن وسائل التعذيب التي لم يسمع عنها تستخدم للكشف عنهم.

ونحن لا نجرؤ أيها الأخوة أن نتحدث عن أورشليم، لأننا في خوف وخجل متزايد من أن نتكلم عنها، إن هذه المدينة نفسها، التي عانى المسيح نفسه فيها من أجلنا، كما تعلمون جميعاً، لأن خطايانا استجبت ذلك، قد أخضعت لندس الوثنية، وسحبت من خدمة الرب، وهو ما أقوله لعارنا وخزينا. كم هو كبير رزء اللوم الذي يقع على عاتقنا وكما نستحقه! من يخدم الآن كنيسة مريم المباركة في وادي يوشيفاط، التي دفن جسدها بداخلها؟ ولكن لماذا نمر على معبد سليمان، بل معبد الرب، الذي يضع فيه البرابرة أصنامهم مخالفين بذلك الناموس البشرى والإلهي؟ لقد أحجمنا عن الكلام عن ضريح الرب، طالما أن بعضكم رأوا بعيونهم مدى الفظائع التي حاقّت به، لقد أخذ الأتراك بعنف الهبات التي قدمتموها هناك كصنقات ونذور بكميات كبيرة فضلاً عن أنهم كثيراً ما يهزأون بدينكم. ومع ذلك فإن في هذا المكان (أنتى أتحدث فقط عما تعرفونه بالفعل) استقر الرب؛ وهناك مات من أجلنا؛ وهناك دفن. كم سيكون غالياً المكان الذي نشأت إلى، المكان الذي لا يُضاهى حيث دفن الرب، حتى إذا لم يشأ الرب أن يتم هناك معجزته السنوية! لأنه في أيام عذابه ومعاناته، أضاعت كل الأنوار في الضريح وحول الكنيسة، وهي التي قد أطفئت، فأعيد ضوؤها بأمر إلهي. فمن هو صاحب القلب الحجري، أيها الأخوة، بحيث لا تحركه معجزة عظيمة كهذه؟ صدقوني، إنه رجل معتوه ولا عقل له الذي لا تحرك قلبه للإيمان حالة كهذه تتبدى فيها الرحمة الإلهية واضحة! ومع هذا فإن الأمميين يرون هذا مع المسيحيين ولا يتحولون عن طريقهم. والواقع أنهم خائفون، ولكنهم لم يعتنقوا الدين المسيحي، كما يجب ألا تندموا لأن عمى العقول يسيطر عليهم. ما المصائب التي أخطأوا بها في حقكم يا من عدتم وموجودون هنا الآن؟ إنكم تعرفون تماماً، أنتم يا من ضحيتم بمالككم وبيدائكم هناك من أجل الرب.

«هذا أيها الأخوة الأحباء هو ما يجعلنا نقول إنكم شهود على كلماتنا. إن حجم معاناة إخوتنا وتخريب الكنائس أكبر من أن نتحدث عنه بحيث نذكر كل حالة، لأن الدموع والأنين يقهرنا، وتمتصرتنا التهنيدات والزفرات. وأسفاه إننا نبكي ونتنحب أيها الأخوة، مثل داود

النبى، فى أعماق قلوبنا! إننا نساء لا نعرف السعادة، وفينا تحققت النبوة: «أيها الرب، إن الأمم جاءت لميراثك، وقد دنسوا معبدك المقدس، وقد حولوا أورشليم إلى أكوام، وصارت أجساد خدامك طعاماً لطيور السماء ولحم أجساد قديسيك صار طعاماً لوحوش الأرض، وقد أريقتم دماؤك كالماء من حول أورشليم حيث لم يكن هناك من يواريهم التراب». عار علينا أيها الأخوة، نحن الذين صرنا بالفعل مصدر خزي لجيراننا، ومحلاً لسخريتهم واستهزائهم، ويجب علينا على الأقل أن نطلب لهم الرحمة والمغفرة بدموعنا. نحن الذين أصبحنا محطاً لاحتقار كل الشعوب، بل وما هو أسوأ من ذلك، ينبغى علينا أن نندب الخراب الوحشى الذى حاق بالأرض المقدسة. هذه الأرض التى أسميناها مقدسة عن جدارة حيث باركتها كل خطوة واحدة لجسد المخلص أو روحه كما مجدّها؛ هذه الأرض التى احتضنت الجسد المبارك لأم الرب، وإجتماعات الحواريين والرسل، وتشربت بدماء الشهداء التى أريقتم هناك. يا لها من أحجار مقدسة تلك التى تتوجك، يا اسطفان يا أول الشهداء، كم هى سعيدة، يا يوحنا المعمدان، مياه نهر الأردن التى خدمتك وأنت تعمد المسيح المخلص! إن بنى إسرائيل الذين سيقوا خارج مصر، والذين كانوا سابقاً لكم حين عبروا البحر الأحمر، قد استولوا على هذه الأرض بسلاحهم، والمسيح يقودهم، طردوا اليبوسيين وغيرهم من السكان وسكنوا أورشليم الأرضية التى هى صورة أورشليم السماوية^(١).

« ما الذى نقوله؟ اسمعوا أنتم يا من تختالون بشارة الفروسية، وقد ملاكم الغرور الشديد؛ إنكم تحاربون أخوتكم وتمزقون بعضكم البعض إرباً. ليست هذه هى الجندية الحقّة فى سبيل المسيح لأنها تمزق قطع خراف المسيح. إن الكنيسة المقدسة حفظت لنفسها نمطاً من الجندية لمساعدة شعبها، ولكنكم ترتكبون الشر الذى يؤذيها ويهبط بها. فلنعترف بالحقيقة، من الذى يجب أن نكون مساعديه؟ حقاً أنكم لا تسيرون فى الطريق الذى يؤدى إلى الحياة. أنتم يامن تقهرون الأطفال، وتنهبون النساء الأرامل، أنتم يا من غرقتم فى خطيئة الزنا، يا من تسرقون حقوق الآخرين؛ أنتم يا من تنتظرون ما يدفع اللصوص مقابل إراقة الدم المسيحى – ومثلما تشم التسود الجثث العفنة، فإنكم أيضاً تحسون بالمعارك من بعيد وتندفعون إليها بشغف وشوق. حقاً إن هذه هى أسوأ طريقة، لأنها بعيدة تماماً عن الرب. وإذا كنتم حقاً تريدون أن تحرصوا على أرواحكم، فإما أن تطرحوا شارة هذا النمط من الفروسية، وإما أن تتقدموا بجسارة، فرساناً للمسيح، وتندفعوا بأقصى سرعة ممكنة للدفاع عن الكنيسة الشرقية. لأن منها نبعث كل أفراح خلاصكم، وصبت فى أفواهكم ألبان الحكمة المقدسة، وهى التى وضعت

(١) اليبوسيون هم أول شعب استوطن القدس وهم من العرب الكنعانيين والنص هنا يشير إلى استيلاء داود عليها بعد ألف وخمسمائة سنة من بنائها.

أمامكم تعاليم الأناجيل المقدسة. إننا نقول هذا أيها الأخوة، لعلكم تكفون أياديكم القائلة عن تدمير إخوانكم، وتعادون الأمميين من أجل إخوانكم في الدين، وتحت قيادة يسوع المسيح قائدنا تناضلون من أجل مدينتكم أورشليم، في خط قتال مسيحي، خط منيع، بل وينجاح أكثر مما فعل أبناء يعقوب في الزمن القديم - ناضلوا فريما هزمت الأتراك وطردهتموهم، بطريقة أفلح من طرد اليبوسيين من هذه البلاد، وربما اكتشفتم أنه أمر جميل أن نموت من أجل المسيح في الأرض التي مات فيها هو من أجلنا، وسواء جاءتكم المنية في المدينة أو في الطريق إليها، فالأمر واحد إذ وجدكم المسيح بين جنود جيشه، فالرب يعطى الثواب نفسه، سواء في الساعة الأولى أو في الساعة الحادية عشرة. أيها الأخوة يجب أن ترجفوا فزعاً حين ترفعون يداً بالعنف ضد المسيحيين؛ فإن تجريد سيوفكم ضد المسلمين أقل شراً. إنها الحرب الوحيدة الصائبة؛ لأنه من الخير والإحسان أن تخاطروا بحياتكم من أجل إخوانكم. وكونكم لا تهتمون بما قد يأتي به الغد من متاعب، فاعلموا أن أولئك الذين يخشون الرب لا يريدون شيئاً، وكذلك أولئك الذين يتقونه بالحق. كما أن أملاك العدو ستكون لكم، طالما أنكم ستغفنون كنوزهم وترجعون ظافرين إلى ذويكم، وإذا ما خضبتكم دماؤكم، فقد كسبتم المجد الأبدي. يجب أن تحاربوا في سبيل مثل هذا القائد، فهو قائد لا تعوزه القوة أو الثروة ليكافئكم. قصير هو الطريق، وقليل هو العمل، ومع ذلك فسوف تثابون عليه بالتاج الذي لا يذبل. ومن ثم فإننا نتكلم بسلطان النبوة التي تقول للرب أن يتقلد سيفه، فنقلوا سيوفكم، أولها لكم جميعاً، وكونوا أبناء شجعان؛ لأنه من الأفضل لكم أن تموتوا في المعركة من أن تتحملوا وزر الأسف لجنسكم ولأماكنكم المقدسة. لا تدموا الممتلكات، ولا سحر زوجاتكم الأخاذ يقعد بكم عن الذهاب؛ ولا تدموا المحاولات التي سوف تجرى تعويكم بحيث تبقون هنا.

والتفت إلى الأساقفة، وقال « أنتم أيها الأخوة الأساقفة، أيها الأخوة القساوسة وشركائنا في المسيح، أعلنوا هذا في كل الكنائس الخاضعة لكم، ويشرؤا بالرحلة إلى أورشليم بكل ما في نفوسكم من حماسة. وحينما يعترفون بعار خطاياهم، فليتمنحوهم أنتم غفراناً سريعاً يا من أنتم المسيح. وفضلاً عن ذلك فيجب عليكم يا من ستذهبون أن تجعلونا نصلى من أجلكم؛ لأنكم ستقاتلون من أجل شعب الرب. إنه واجبنا أن نصلى، وواجبكم أن تحاربوا ضد المسلمين، ومع موسى، سوف نعد يداً لا تكل في صلاة وابتهاال إلى السماء، على حين تتقدمون وتمتشقون السيوف مثل المحاربين المغاوير ضد أعداء بني إسرائيل ».

وعندما سمع الحاضرون هذه الكلمات وغيرها مما قاله السيد الرسولى، أغرورقت عيون البعض بالدموع، وارتعش البعض الآخر، ومع ذلك فإن البعض ناقشوا الأمر. على أية حال، فإنه بحضور الجميع في نفس المجمع، وأمام عيوننا، قام أسقف لى بوى، وهو رجل ذو سمعة

رثانة، ومقدرة فائقة ، وتوجه صوب البابا ووجهه يتهلل فرحاً ثم ركع على ركبته طالباً البركة والإذن بالرحيل ، وفضلاً عن ذلك ، كسب من البابا ، رئاسة كل من سوف يطيعونه، وقيادة الجيش بأسره لحساب البابا، لأن الجميع عرفوا عنه أنه كان أسقفاً ذا تقوى وإجتهد غير عادي...»

٢ - خطابات إربان للدعوة إلى الحملة الصليبية.

قضى البابا إربان الثاني ثمانية شهور عقب مجمع كليرمون في محاولة نشر دعوته لشن حملة صليبية في أرجاء الغرب الأوربي ولاسيما غرب وجنوب فرنسا. وقد تنوعت وسائل البابوية ما بين المراجع الدينية، والخطابات الصادرة عن البلاط البابوي، وحث رجال الكنيسة على الدعوة للحملة. وفي خطباته جدد البابا دعوته إلى الحملة الصليبية وحدد بعض تصورات هذه الحملة وكيفية المساهمة فيها. ونحن نقدم هنا أربعة خطابات لإربان الثاني بهذا الخصوص.

* * *

٤) خطاب من إربان إلى كوثات بيسالوا ، وامبورياس ، ووسيلتون، وسردانيا، وفرسانهم

(ما بين يناير ١٠٩٦ إلى ٢٩ يوليو ١٠٩٩ تقريباً) (*)

« إننا نتوسل إلى سيادتكم بحرص شديد لصالح المدينة أو لصالح كنيسة تراجونا، ونأمركم أن تبذلوا جهداً حماسياً لاستعادتها بكل وسيلة ممكنة لمحو خطاياكم. لأنكم تعلمون كم ستكون دفاعاً عظيماً لشعب الرب وكيف ستكون ضريبة مرعبة للمسلمين، إذا ما شاعت رحمة الرب، إذا ما تمت استعادة موقع هذه المدينة الشهيرة. وإذا كان الفرسان في ولاية أخرى قد قروا جميعاً أن يذهبوا لمساعدة الكنيسة الآسيوية وأن يحرروا إخوانهم من طغيان المسلمين، فذلك يجب عليكم جميعاً وتشجيعنا أن تبذلوا قصارى جهدكم لمساعدة كنيسة قريبة منكم هكذا لمقاومة غزوات المسلمين. ولا ينبغي لأحد أن يشك في أنه لو مات في هذه الحملة حباً في الرب وفي إخوانه، فإن خطاياه سوف تغتفر، وسوف ينال بالتأكيد نصيبه في الحياة الخالدة بفضل رحمة الرب الواسعة. ولذا ، فإذا كان أحكم قد قرر أن يذهب إلى آسيا، فإنه يجب أن يفى بقسمه هنا وليس هناك، لأنه ليس من الخير في شيء أن تنقذ

Riley-Smith, The Crusades, p. 40.

(*)

وهذه الرسالة موجهة إلى الفرسان الذين يقاتلون ضد المسلمين في الأندلس.

المسيحيين من المسلمين، فقط لكي تعرضهم في مكان آخر لطغيان المسلمين واضطهادهم. فليوقظ الرب العظيم في قلوبكم حب إخوتكم ويكافنكم على بسالتكم بالنصر على الأعداء.

خطاب البابا إريان الثاني إلى كل المؤمنين

في الفلاندرز ديسمبر ١٠٩٥ (*)

«إننا نعتقد، أيها الأخوة، أنكم علمتم منذ زمن طويل من مصادر عديدة بالأخبار المحزنة عن أن البرابرة، في هياجهم، قد غزوا ونهبوا كنائس الرب في الأقاليم الشرقية. والأسوأ من ذلك أنهم استولوا على مدينة الرب المقدسة التي ازدانت بعذابه وقيامته، وأنهم - وهذا قول فيه تجديف - باعوا كنائسها في عبودية مقيتة. وإذا فكرنا بإخلاص في هذا المصيبة، وحرزنا بسببها، فإننا زرنا بلاد الغال وحرزنا السادة والرعايا بحماسة في هذا الأقليم على تحرير الكنائس الشرقية. وفي مجتمع عقد في أوفرني، كما هو معلوم، فرضنا عليهم التزامات بأن ينجزوا مثل هذا المشروع العسكري لمحو كافة خطاياهم. وعينا نائباً عنا قائداً لهذه الحملة وهذا العمل، وهو إبننا العزيز أنميوار، أسقف لى بوى. ويترتب على هذا أن كل من يقرر أن يذهب في هذه الرحلة يجب أن يطيع أوامره كما لو كانت صادرة منا، ويجب أن يخضع لسلطانه تماماً في الحل والعقد في أية قرارات صادرة منه ومتصلة بعمله. وإذا نادى الرب أو رجال من بينكم لأخذ هذا العهد [بالذهاب في الحملة]، فإنهم يجب أن يعلموا أنهم سوف ينطلقون، بعون الرب في عيد صعود مريم العذراء (١٥ أغسطس) وأن ينضموا إلى رفاقهم في هذا اليوم».

خطاب إريان الثاني إلى أتباعه في بولونيا

١٥ سبتمبر ١٠٩٦ م (*)

«نقدم شكرنا إلى نيافتكم، لأنكم على الرغم من وجودكم بين الإنشقاقيين والهرطقة، وقف بعضكم دائماً بصلابة في الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية، على حين أن الآخرين ممن تجلت لهم الحقيقة برحمة الرب تركوا سبيل الخطأ، وهم الآن حكماء في مذاهب العقيدة الكاثوليكية.

Riley - Smith, op. cit., p. 38. (*)

Ibid. pp. 38 - 39. (*)

ومن ثم فإننا نشجعكم يا أحبباء الرب على أن تواصلوا بشجاعة السير على درب الحقيقة، وأن تحاولوا إنهاء ما بدأتوه على هذا الشكل الطيب، في نهاية أفضل، لأنه ليس ذلك الذي يبدأ، وإنما ذلك الذي يواصل حتى النهاية هو الذي سينال الخلاص. وقد عينا خاصة لمحببتكم أخانا الميجل الأسقف برنارد، الذي تناسب رعايته المقدسة، نيابة عنا، جماعتكم كرعية. وإذا كنتم تحبون الرب، فإنكم يجب أن تظهروا هذا الحب لنا، لأن المسيح نفسه قال عن مثل هذا الشخص: أن من يسمعكم يسمعني. وقد سمعنا أن كثيرين منكم قد هاجموا الشوق للذهاب إلى أورشليم، وهو ما يجب أن تفهموا أنه قد سرنا كثيراً. ويجب أن تعلموا أيضاً أنه إذا ذهب أى رجال منكم إلى هناك، لا لرغبتهم في المكاسب الدنيوية، وإنما فقط لخلص أرواحهم تحرير الكنيسة، فإننا بمقتضى سلطتنا، وسلطة كل كبار الأساقفة، وكل أساقفة بلاد الغال، بفضل رحمة الرب العظيم وصلوات الكنيسة الكاثوليكية، نعفيهم من التكفير المفروض عليهم لقاء خطاياهم التي اعترفوا بها اعترافاً كاملاً، لأنهم خاطروا بأموالهم وحياتهم في حب الرب بحب جيرانهم. ولكننا لا نسمح للرهبان أو القساوسة بالذهاب ما لم يحصلوا على إذن من أساقفتهم ومقدمي أديرتهم. كذلك يجب على الأساقفة أن يحرصوا على عدم السماح لرعايا برشياتهم بالذهاب بدون النصيحة وبدون علم القساوسة المسبق. كما يجب أن تراعوا أن لشباب المتزوجين لا يجب أن يندفعوا في رحلة طويلة كهذه دون موافقة زوجاتهم. وليساعدكم الرب العظيم. في خشيته وفي حبه، وليقويكم هو وقد تحررت من الأثام والأخطاء، وليرشدكم لي أن تفهموا كيف تحبونه فوق كافة الأشياء، وتبدون له الإخلاص الحقيقي».

من إريان الثاني إلى جماعة دير فالومبروسا

٧ أكتوبر ١٠٩٦ م (٥)

«لقد سمعنا أن بعضكم يريدون الإنطلاق مع الفرسان الزاهبين إلى القدس بقصد طيب تحرير المسيحية. وهذا نوع من التضحية الحق، ولكن خطته جاءت من أشخاص غير ناسيين. لأننا كنا نستفز أذهان الفرسان للذهاب إلى هذه الحملة، لأنهم قد يكونون قادرين على كبح وحشية المسلمين بسلاحهم ويعيدون للمسيحيين حريتهم السابقة: ونحن لا نريد أولئك الذين هجروا العالم وندروا أنفسهم للحرب الروحية أن يحملوا السلاح أو يذهبوا في

هذه الرحلة، بل إننا نمنعهم من عمل ذلك. كما أننا نمنع المتدينين - من القساوسة الرهبان - من أن ينطلقوا في هذه الصحبة دون إذن من أساقفتهم أو مقدمى أديرتهم وفقاً لحكم القوانين الكنسية المقدسة. فإن سلامة التقدير في مهنتكم الدينية يجب أن تمنعكم من المخاطر بإهانة الكرسي الأسقفى أو تعريض أرواحكم للخطر. وقد سمعنا أن زميلكم، مقدم ديرسان ريبارتو، يفكر في ترك جماعتكم وترك نظامكم الديرى بأسره. وهكذا، فإننا في هذا الخطاب نرسل له أمراً، وبه نعى أننا نمنعه من أن يجرؤ على حكم نفس الدير بعد ذلك دون إذن من رئيسكم العام، الذى تسمونه المقدم الأسمى. وإذا لم يمتثل بالطاعة، هو وكل من يجرؤ على ترك جماعتكم، يجب قطعه بسيف الحرمان الرسولى.

تحرر في كريمونا في السابع من أكتوبر. ونحن نريد منكم قراءة هذا الخطاب على الرهبان المجتمعين والأخوة العلمانيين، ولتعلم الأديرة الأخرى بمحتواه.

شاعر مجهول يعبر عن حب الصليبي للرب (*)

١

أنتم يا من تحبون الحب الحقيقى
أفيقوا وكفاكم نوماً
فقد أعلن الطائر عن النهار
ويقول لنا في أغنياته
أن يوم السلام قد جاء
وسيمنحه الرب برحمته الواسعة
لأولئك الذين في حبه
سوف يأخذون الصليب ومن أجل خطاياهم
سوف يعانون الألم أثناء الليل وأطراف النهار
والآن سنتنظر صوب أولئك الذين هم حقاً أحياء

"Vous qui ameïs de vraie amour

(*) قصيدة عنوانها : «أنتم يا من تحبون الحب الحقيقى»

J. Bédier and P. Aubry, Les Chansons des Croisades (Paris, 1909), pp. 20 - 22.

٢

إن من يهجر سيده وقت الحاجة
يستحق الدينونة
وسوف يكون هكذا، وتذكروا جيداً
وسوف يتحمل الألم ويعانى إهانات كثيرة
فى يوم حسابنا الأخير
حينما ينظر الرب مخضباً بالدم
حيث أن ذلك الذى سيكون له الفعل الأحسن
فى هذه الحياة، سوف يرتعد هلعاً
سواء من رضى أو كراهة

٣

ذلك الذى وضع على الصليب من أجلنا
لم يحبنا حباً مزيفاً
ولكن فى حب كامل
ومن أجلنا ، فى رحمة هائلة
وفى رقة ، حمل الصليب المقدس
بين ذراعيه وأمام صدره، رغم الكرب
ثم سُمِّرَ من نواحٍ ثلاث...
من اليدين والقدمين التى تثبت بالألم تماماً

٤

لقد سمعت مثلاً سائراً يقول:
« التاجر العاقل يتفق المال من حافظته »
وه صاحب القلب الطائش هو
الذى يرى الحسن فيختار القبيح»

هل تعرفون بم وعد الرب
أولئك الذين سيأخذون صليبه؟
إنه لثواب حسن بالتأكيد
الفريوس، وكان وعداً صادقاً
ذلك الذى يمكنه أن يربح مكافأته
أحمق إذا انتظر حتى الغد

0

فليس الغد لنا
ويمكن أن نتأكد من ذلك
فكم رجل يتصور أن قلبه سليم تماماً
وبعد أربعة أيام لا يستطيع أن يأخذ
شيئاً من أملاكه أو معرفته
لأنه يرى الموت يمسك بلجامه
حتى أنه لا يستطيع أن يحرك يداً ولا قدماً
ويترك فراشه الوثير
ويفضل مرقداً من القش
ولكنه يثوب إلى الإقرار بذنبه بعد فوات الأوان.

القسم الثالث

الحملة الشعبية

الحملة الشعبية (مارس / أكتوبر ١٠٩٦)

كان الفلاحون الذين استجابوا لدعوة إريان الثاني للقيام بالحملة الصليبية قد تشبعوا منذ وقت طويل بالفكر الوعظي الجوالين الذين نشروا الدعوة إلى التفشيف والبساطة، وتوقع قيام القيامة. ولذلك كان الأمر الذي أصدره إريان في كليرمون أشبه بأمر إلهي بالنسبة لفلاحى أوروبا في ذلك الزمان، ورأوا فيه أول المعجزات في سلسلة الأحداث التي تمهد للمجيء الثاني للمسيح. لقد فهم العامة دعوة البابا باعتبارها فرصة لمستقبل جديد في الشرق المقدس، أو لخلاص الروح إذا مات المرء وهو في طريقه إلى هذا الشرق، وكانت تلك فرصة تجسد فيها التعصب الديني لأبناء الطبقة الدنيا، كما تبلورت فيها أيضاً الثورة ضد الأوضاع الاجتماعية المحبطة.

كان العامة يعتبرون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء، وكان هذا هو المظهر الديني المميز لموقفهم من الحركة الصليبية. ولكن هذا لم يكن ليمنعهم من إنتهاك الفكرة التي تحركوا في إطارها وارتكاب أخطأ شروب الجرائم والكشف عن أبشع الشرور المادية والدينية. وكانت الحركة الصليبية متفكراً لجماهير الفلاحين، وعامة سكان المدن الذين كانت وسيلتهم الوحيدة المتاحة للتفريج عن خوفهم الدائم، وقلقهم المستمر، وإفتقارهم للأمن، أن يطلقوا العنان لعواطفهم الجياشة الهادرة العنيفة. وغالباً ما يرى أولئك الناس في التصرفات العنيفة المفاجئة مناسبة ووسيلة فعالة للتفيس عن القلق الجاثم على صدورهم من جراء مصاعب حياتهم اليومية الرهيبة. ولا يكون ذلك ممكناً عادة سوى في ظل حركة جماعية؛ وإذا جاءت هذه الحركة تحت ستار الدين، فإنها تكون فرصة مثالية..

وهكذا كان الأمر في الحركة الشعبية التي أعقبت كليرمون. فإن مشهد الحملة الشعبية بتطوراتها المختلفة يوحى بأن روحاً من الجنون كانت تحلق في سماء الغرب الأوربي آنذاك. وقد تصدى لقيادة هذه الحركة الشعبية زعماء وقادة من طراز بطرس الناسك والوتر المفلس وجوتشولوك وأميوخو الذين عكسوا روح التعصب المقيت الذي ميز الحركة الصليبية كلها.

ولما كانت جماهير الناس في ريف ومدن أوروبا الغربية قد فهمت الدعوة إلى الحملة الصليبية على أنها تعبير عن آمالها وطموحها؛ فقد كان طبيعياً أن تجيء الحملة الشعبية ضد أهداف

الكنيسة. ومن ثم يحاول البابا أن يمنع هذه الأعداد الففيرة من التحرك صوب الشرق، ولكنه فشل لأن محاولته كانت أضعف كثيراً من الحافز الذي دفع المظنونين من أبناء الغرب على الرحيل.

وفي الأيام الأخيرة من شتاء ١٠٩٦م ، بدأت الجموع في الريف والقلاع والمدن تتحرك إستعداداً للرحيل. وبينما كان هذه الجماعات الجائعة الهائجة تتحرك صوب حوض الراين والبلقان كانت أعدادها تتزايد بحيث صارت فرقاً وجيوشاً. ومجموعة النصوح التي تقدمها في الصفحات التالية تتبع مسيرة الفرق المختلفة لحملة العامة.

بطرس الناسك

منذ القرن الثاني عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان بطرس زعيم الحملة الشعبية يعتبر بمثابة التجسيد الحي للروحانية الشعبية؛ بل إنه كان يعتبر بمثابة نبى هذه الحركة ومبشرها الأول. وقد كشفت الدراسة التي قام بها هنريخ فون سايل سنة ١٨٤١م زيف هذه الأسطورة التي أحاطت ببطرس الناسك. ومع ذلك فإن بطرس هو الذي بدأ الحملة الصليبية في المناطق التي شهدت نشاطه وهي مناطق شمال فرنسا وإقليم الراين في المانيا وكان ألبرت الأيكسى الذي عاش في هذه الأرجاء هو صاحب أقدم نص مكتوب عن هذه الأسطورة . وتقبلها وإيم الصوري وزاد عليها. والنصوص التي تقدمها عن هذه الشخصية تكشف مراحل تطور هذه الأسطورة.

١- رواية جيورج التوجنتى (*)

«... ومن ثم، ففي أثناء استعداد الأمراء، الذين أحسوا أنهم بحاجة إلى نفقات كثيرة وخدمات كبيرة لمرافقتهم ، فإن عامة الناس أصحاب الأملاك الضئيلة ولكن أعدادهم كبيرة انضموا إلى شخص يدعى بطرس الناسك، وأطاعوه كسيد حين كانت هذه الأمور تجري بيننا...»

«كان من مدينة أميان، إذا لم تخنى الذاكرة، وعلمنا أنه كان ناسكاً، يرتدى مسوح الرهبان في إحدى مناطق بلاد الغال. وبعد أن رحل هناك - واست أدرى بأى قصد - رأيناه يجوب أنحاء المدن

والريف بدعوى التبشير، والتفت حوله جموع كبيرة من الناس، وتلقى هدايا وهبات ضخمة وقد تضخمت قدسيته بدرجة عالية لم يصل إليها أحد ولم ينل هذا التشريف أحد فيما أنكر.

« وكان سخيًّا جواداً في توزيع ما يتلقاه على الفقراء، وأعاد الخاطئات إلى أزواجهن محملات بالهبات والعطايا. وبسلطته المدهشة أعاد السلام للجميع، وأحل الوثام محل الخصام. لأنه في كل ما يقوله أو يفعله كان يبدو وكأن هناك شيئاً مقدساً، لاسيما حين كانت الشعيرات تنتزع من حماره على سبيل التبرك، ونحن لا نروى هذا باعتباره حقيقة، ولكننا نرويه لعامة الناس الذين تستهويهم الطرائف. كان يرتدى قميصاً من الصوف، وفوقه عباءة بلا أكمام تصل حتى عقبيه؛ وذراعاه عاريان وقدماه حافيتان، وكان يعيش على النبيذ والسّمك، ونادراً، أو ربما لم يأكل الخبز على الإطلاق».

٢- بطرس الناسك

رواية قوشيه الشارترى (*)

« وثمة شخص يدعى بطرس الناسك، جمع حوله جمهرة من الناس المشاة وعدداً قليلاً من الفرسان، كان هو أول من رحل عبر بلاد المجر».

٣- رواية ألبرت الأيكس (*)

كان ألبرت راهباً في أيكس لاشابل (أخن) في ألمانيا في منتصف القرن الثاني عشر. ولم يبق ألبرت بزيارة الشرق أبداً، ولكنه جمع مدونته التاريخية التي تحكى قصة الحملة الصليبية الأولى ومملكة بيت المقدس اللاتينية حتى سنة ١١٢٠م من شهود العيان ومن المصادر الأدبية الأخرى. ومدونته في مجموعة الحروب الصليبية.

ولهذا الكتاب قيمة خاصة فيما يتعلق بالحملات الشعبية التي سبقت حملة الأمراء إلى الأراضي المقدسة.

* * *

Fulcher de Chartres, pp. 72 - 73.

(*)

Albert d'Aix, The English Translation from Peters, pp. 94- 99.

(*)

«كان هناك قس، اسمه بطرس، وكان ناسكاً قبل ذلك. ولد بمدينة أميان، التي تقع في الجزء الغربي من مملكة الفرنجة، وقد عين واعظاً في بيرو في المملكة المذكورة. وفي كل خطبة وموعظة، وبكل ما كان يتمتع به من قدرة على الإقناع، كان يحض على الرحيل بأسرع ما يمكن. وعلى سبيل الإستجابة لدعوته وخطبه سافر الأساقفة، ومقدمو الأديرة، والقساوسة والرهبان؛ ثم تبعهم كبار النبلاء والأمراء من مختلف الممالك، ثم عامة الناس، الأطنهار منهم والأخيار، الزناة والقتلة واللصوص، والنصابون وقطاع الطرق. والواقع أن كل الذين خرجوا كانوا ينتمون لكافة الطبقات المسيحية، فضلاً عن النساء وأولئك الذين مستهم روح التوبة - وقد انضموا جميعاً إلى هذه الحملة بسرور غامر...».

٤- بطرس الناسك

رواية وليم الصوري (٥)

كان وليم سليل أسرة من المستعمرين ولد في الأرض المقدسة لوالدين فرنسيين، وتلقى تعليمه في بلاد الشام وفي الغرب الأوربي. وقد أمضى ما يقرب من عشرين سنة طالباً في فرنسا وإيطاليا (١١٤٥-١١٦٥)، وعند عودته أصبح قسيساً بمدينة صور، ثم ترقى حتى صار كبير قضاة مملكة بيت المقدس اللاتينية وكبيراً أساقفة صور. وقد استحوذ على إعجاب أمالريك، ملك بيت المقدس، وعلى ثقته فعهد إليه بتربية ابنه وأرسله في عدة بعثات دبلوماسية إلى روما وبيزنطة ولكن وفاة أمالريك جعلت وليم يفقد حظوته في البلاط، ويفقد أمله في أن يصير بطريك مدينة بيت المقدس. ويعتبر أكبر مؤرخي الحروب الصليبية على الرغم من أنه عاش في القرن الثاني عشر، ومن حسن حظه أنه لم يعيش ليشهد استرداد صلاح الدين لمدينة القدس؛ وقد مات سنة ١١٨٥م تقريباً. والنص الذي نورد هنا يوضح كيف تضاخت أسطورة بطرس الناسك بعد حوالي مائة سنة من أحداث الحملة الصليبية الأولى.

* * *

«في الوقت الذي كانت المدينة التي يحبها الرب تتعرض للمتعاب التي وصفناها، كان هناك بين الكثيرين الذين سافروا إلى الأماكن المقدسة من أجل التقوى والصلاة، قس يدعى بطرس من أسقفية أميان في مملكة الفرنجة. وكان معروفاً باسم «الناسك» إسماعاً وحقيقة، وقادته إلى اورشليم الحمية الدينية التي تتأجج بها روحه. وفيما يتعلق بالمظهر الخارجي للرجل، كان

ضئيل البنية زرى الهيئة؛ ولكن «فى هذا الجسد الصغير، تسود حماسته الهائلة» وكان ذا حيوية دافقة كما كانت له عينان ثاقبتان، وتميز بفصاحة بالغة.

« وبعد أن دفع الضريبة التى جرت العادة على فرضها على المسيحيين الذين يريدون دخول المدينة [القدس] استضافه أحد المؤمنين من أتباع المسيح، كان بطرس رجلاً مثابراً، وكان يطرح أسئلة عديدة على مضيفه حول أوضاع المسيحيين، وعرف منه تفاصيل كاملة، لا عن الأخطار الماثلة فى الوقت الحالى فحسب، ولكن أيضاً عن الاضطهادات التى تعرض لها أسلافهم عبر سنوات كثيرة مضت. أما المعلومات التى لم يمكنه الحصول عليها بالكلمات، فقد حصل عليها من خلال الملاحظة الأمنية لما شاهده بعينى رأسه، وبينما كان يتجول بين الكنائس فى المدينة، أوضحت له تحرياته حقيقة ما سمعه من الآخرين، وعندما سمع أن بطريرك المدينة رجل تقى يخشى الرب، أراد أن يجتمع وإياه ليحادثه فى الأحوال التى كانت سائدة فى أورشليم، وكان يأمل فى الحصول على مزيد من المعلومات الكاملة فى أمور أخرى بعينها، وبناءً على ذلك، ذهب للقائه وسمح له بالثول فى حضرتة، وبفضل جهود مترجم مؤمن، استمتع الرجلان بحوار جيد، فقد عرف سمعان البطريرك من كلمات بطرس أنه رجل حصيف كثير التجارب له قدرة على الإقناع قولاً وفعلًا، وبدأ يشرح له بود المتاعب والشروء الكثيرة التى يتعرض لها بقسوة شعب الرب الساكن فى أورشليم، وقد تحركت مشاعر التعاطف الأخوية فى نفس بطرس بقوة بهذه الحكايات لدرجة أنه لم يتمكن من حبس دموعه، وبدأ يسأل بشغف أكثر ما إذا كان ممكنًا أم لا إيجاد وسيلة للخروج بهم من خضم المتاعب التى تحيط بهم.

« وأجاب الرجل الطيب «يا بطرس، إن الرب الرؤوف يرفض أن يستمع إلى نحيبنا الباكى وتهيداتنا، بسبب الخطايا التى تكبلنا. لأننا لم نتطهر بعد من شقائنا، ومن ثم، فإن المصائب لم تتوقف فى الحاضر، ولكن بفضل رحمة الرب الأبدية، فإن قوة شعبكم الذين يعبدون الرب حقًا ما تزال قائمة ومملكتكم التى تشكل رعباً للأعداء تزدهر وتزداد اتساعًا، فإذا ما تعاطفوا معنا بفضل الحب الأخوى فى موقفنا الراهن قدموا علاجًا للمصائب التى تضغط علينا، وإذا تشفعوا لنا على الأقل عند المسيح فربما يكون لدينا أمل فى أن تنتهى متاعبنا، ولا أمل لدينا فى تلقى أية مساعدة من إمبراطورية اليونان (البيزنطيين)، على الرغم من أنهم كانوا أقرب إلينا بحكم رابطة الدم والجوار، فضلًا عن أن ثروتهم أكبر من ثرواتكم، فإنهم لا يكاون يقدرّون على الدفاع عن أنفسهم، وقد اضمحلت قوتهم على نحو ما سمعتم أيها الأخوة، لدرجة أنهم فقدوا أكثر من نصف إمبراطوريتهم فى غضون سنوات قليلة.

« أجاب بطرس «فلتعلم أيها الأب المقدس، أنه إذا كانت كنيسة روما وأمراء الغرب يجنون رجل ثقة يخبرهم عن الكوارث التي تحيق بكم، فلا شك في أنهم سيعملون على تقديم العلاج السريع قولا وفعلاً لتخليصكم من متاعبكم. فلتكتب بفصاحة إلى السيد البابا وكنيسة روما وكذلك إلى ملوك وأمراء الغرب، وضع خاتمك على الخطاب لتأكيدده، والواقع أنني ، رغبة في تطهير روحي، لن أتردد في القيام بهذا العمل بنفسى، ويعون الله وبسلطانه، فإننى على إستعداد لزيارة الجميع، وأن أتوسل للجميع، وأن أحمل شهادتى على فداحة معاناتكم بكل حذر وكياسة، وأن أبعو الجميع فرداً فرداً دون تردد أو تأخير لمساعدتكم.

« هذه الكلمات جلبت السرور على قلب البطريرك وبدت له كلمات طيبة، مثلما بدت أمام المسيحيين الذين كانوا حوله. ومن ثم، شكروا للرجل تعاطفه، وأعطوه الكتاب الذى طلبه.

حقاً إنك عظيم أيها الرب سيدنا، ورحمتك بلا حدود. حقاً أيها المسيح الطيب، إن أولئك الذين يثقون فيك لن ينالهم الخذلان. لأنه متى تتأتى مثل هذه الثقة إلى حاج فقير ولا حول له، ويحتاج إلى الصفات التي تصنع التأثير، ويعيداً عن وطنه بحيث يجرؤ على أن يأخذ على عاتقه القيام بمهمة تفوق حدود قدراته، بثقة جعلته يرغب في أن يقوم بها بنجاح! والتفسير الوحيد هو أنه وجه أفكاره تجاهك، أنت حاميه؛ لدرجة أنه توهج بالحب، فتعاطف مع أخوته، وأحب جاره كما يحب نفسه، وبذلك تصرف لكى يحقق الناموس. ولم تكن قوته الذاتية وحدها كافية، ومع ذلك فإنه روح الإحسان هي التي أقنعتة . وعلى الرغم من أن المهمة التي وضعها أخوته على عاتقه بدت صعبة وتكاد تكون مستحيلة، فإن حبه للرب ولجاره سهل هذه المهمة، لأن «الحب قوى كالموت». إنه الدين الذي يعمل من خلال الحب الذى يتبدى من خلالكم، والخدمات التي أسديت لم تكن عبثاً. إنك لا تسمح لخادمك أن يتردد طويلاً . ولكنك تكشف ذاك له بحيث شجعتة برؤيا تجليت أنت فيها الرب، حتى لا يخور ويتراجع بل وينهض بقوة لينجز عمل الحب.

« وقد حدث ذات يوم أن هذا الخادم من خدام الرب الذى أحدث عنه تشوش ذهنه بدرجة غير عادية بسبب التفكير في العودة إلى وطنه وتحمل مسئولية البعثة. ومن ثم فإنه دخل كنيسة القيامة وتحول بتقوى عميقة صوب ينبوع الرحمة. وأمضى الليل في صلاة وتبتل وأخيراً غلبته العاطفة فاستسلم للنوم العميق الذى غلبه. وحط عليه الكرى، كما هي عادته ، رأى فيما يرى النائم سيدنا يسوع المسيح واقفاً أمامه، وهو يقول : «إنهض يا بطرس، أسرع ونفذ المهام التي أوكلت إليك دون خوف، لأننى ساكون معك. لقد أن أوأن تطهير الأماكن المقدسة ومساعدة خدامى».

ونهض بطرس من نومه مستريحاً في الرب بسبب الرؤيا التي رآها، وصار أكثر استعداداً للطاعة. وفي استجابة للتجلي الإلهي، لم يتأخر ولكن استعد بنشاط للعودة في الحال. وبعد أن قدم الصلوات المعتادة، استأذن في الرحيل من السيد البطريرك، الذي منحه بركاته، ثم توجه صوب البحر. وهناك وجد سفينة تجارية كانت على وشك الإبحار إلى أبوليا، فركبها وبعد رحلة مريحة وصل إلى بارى. وبينما كان على استعداد للرحيل من هناك إلى روما، عرف أن البابا إريبان في تلك البقاع. ومن ثم فإنه قدم إليه الخطاب الذي أرسله البطريرك والمسيحيون في أورشليم، ووصف معاناتهم والفظائع التي يرتكبها الشعب غير التنظيف في الأماكن المقدسة وأتم بكياسة وفصاحة المهمة التي أوكلت إليه».

والتر المفلس

كانت مدينة كولون الألمانية واحدة من أهم ميادين نشاط بطرس الناسك الذي أثر أن يبقى بهذه المدينة فترة من الوقت على أمل أن يستميل بعض أمرائها، ولكن قلة الموارد الغذائية المتاحة للأعداد الغفيرة التي سارت وراء بطرس جعلت الرحيل أمراً حتمياً. هكذا انطلقت أول مجموعة من العامة تحت قيادة والتر المفلس الذي كان فارساً نبيل المولد، ولكنه امتاز بالشراسة الفائقة.

١- رواية وليم الصوري (*)

«كان والتر المفلس، وهو رجل نبيل المولد، شجاع في القتال، هو أول من انطلق في رحلة الحج. في ٨ مارس سنة ١٠٩٦ من تجسد الرب، وكان بصحبته عدد كبير من المشاة، ونفر قليل جداً من الفرسان. وبعد أن عبر مملكة التيتوتون دخل المجر التي كانت بلاداً وعرّة لأن المستنقعات في كل مكان، وتحيط بها أنهار كثيرة، وهكذا لا يجد المسافرون وسيلة للخروج من المملكة أو الدخول إليها سوى في أماكن قليلة وضيقة للغاية.

«في تلك الأثناء كانت المجر تحت حكم ملك مسيحي هو كولمان. وعندما عرف باقتراب والتر سمح له الملك بدخول المملكة بعد أن عرف بمهمة والتر ووافق تماماً على غرضه التقى، كما

منحه الإذن بالمرور بحملته عبر البحر. ومنحه امتياز الشراء العام. ومر والتر بسلام عبر البلاد ووصل إلى نهر ماروس. وهذه هي الحدود المتعارف عليها بين المجر والشرق. وعبر هذا النهر ووصل بقواته أرض البلغار، في مكان يدعى بلجراد.

«وعلى أية حال، فإنه لم يدرك أن بعض رفاقه قد تخلفوا على ضفة النهر في مكان يدعى مالفيل (سملين) لشراء الطعام وغيره من ضروريات الرحلة. وأمسك المجريون بهم وجربوهم مما معهم وضربوهم ثم أرسلوهم إلى رفاقهم بعد أن سلبوا كل ما معهم. وشعرت الجماعة كلها بتعاطف عميق تجاه رفاقهم في هذه الكارثة التبعة وحزنوا لما أصابهم. ومع ذلك أدركوا أنه سيكون من الصعب تماماً، بل من المستحيل، أن يوافقوا على اقتراح إعادة عبور النهر من أجل الانتقام...»

«ومن ثم وصلوا سيرهم حتى وصلوا بلجراد كما ذكرنا، وهنا طلب والتر امتياز الشراء من دوق البلغار الذي رفض. ولذا عسكر قبالة المدينة، ولأنه لم يستطع كبح جماح رجاله الجوعى خسر كثيرين منهم. وإذا لم يستطع أن يحصل من البلغاريين على شيء بأي ثمن خرج رجاله بحثاً عن الطعام بأية وسيلة حتى لا يموتوا جوعاً. وعندما وجدوا قطعان الماشية والأغنام المملوكة للبلغاريين ساقوها إلى معسكرهم بالقوة. وبمجرد أن عرف البلغاريون هذا، امتشقوا سلاحهم وتقدموا بروح عدائية. ولأنهم صمموا على استعادة المسروقات انهلوا على اللصوص الذين سرقوا ماشيتهم وأفئوهم عن بكرة أبيهم. وكانت مجموعة من حوالي مائة وخمسين قد انفصلوا عن الذين سبقوهم دون تدبر أو تفكير، ولجأوا إلى إحدى الكتائب. وأشعل العدو النار في هذه الكنيسة، ومات المسيحيون بداخلها حرقاً. واضطرت بقية العصابة إلى الهرب.

«وإذاً أيقن والتر أنه يقود مجموعة من الجامحين، ترك أولئك الذين اتبعوا أهواءهم بحيث صاروا لا يخضعون لأية قيادة، وقاد جيشه بحكمة وحذر عبر غابات بلغاريا المكثفة...»

«وعندما وصلوا إلى القسطنطينية، مثل والتر بحضرة الإمبراطور ونجح في الحصول على إذن من جلالته بأن يعسكر جيشه قرب المدينة مع امتياز البيع والشراء. وقد منحهم الإمبراطور هذا الإذن مؤقتاً، حتى يصل بطرس الذي تحرك والتر بأمر منه»

٢- رواية ألبرت الآيكس (*)

«فى سنة ١٠٩٦ من تجسد السيد، فى الفترة الرابعة، فى السنة الثالثة عشرة من حكم هنرى الرابع، الإمبراطور الثالث على الإمبراطورية الرومانية، فى السنة الثالثة والأربعين من عمر الإمبراطورية فى عهد البابا إريان الثانى، الذى عرف فى العلمانية باسم أوبورد.

«فى اليوم الثامن من شهر مارس، انطلق وليم وكنيته المفلس، وهو جندى معروف، فى رحلته نتيجة لتبشير بطرس الناسك، ومعه جموع كبيرة من الجنود الفرنج المشاة، وحوالى ثمانية فرسان فقط، وفى بداية رحلته إلى أورشليم دخل مملكة المجر. وحينما علم الملك كولمان ملك المجر المسيحى التقى بقصدده وسبب قيامه بالرحلة، استقبله بترحاب، ومر بسلام خلال المملكة وسمح له واجيشه بحرية التجارة، وهكذا نون أن يشن هجوماً، ودون أن يتعرض لهجوم انطلق من بلجراد^(١)، وهى مدينة بلغارية، ثم مر بمالفيلا^(٢) حيث تنتهى حدود مملكة المجر. ثم عبر نهر مورافا فى سلام

« ولكن ستة عشر رجلاً من أتباع والتر تخلفوا فى مالفيلا، لكى يشتروا بعض الأسلحة. ولم يكن والتر يدرى شيئاً عن هذا، لأنه كان قد عبر النهر قبلهم بوقت طويل، وحينئذ قام بعض المجرين من أصحاب العقول المنحرفة بالهجوم على أولئك الأشخاص الستة عشر، منتهزين غياب والتر وجيشه، وسرقوهم واستولوا على أسلحتهم وعتادهم وما معهم من ذهب وفضة، ثم تركوهم يرحلون عرايا خاويى الوفاض، وأسرع أولئك الحجاج التعساء الذين جربوا من سلاحهم وممتلكاتهم حتى وصلوا إلى بلجراد، التى ذكرت من قبل، حيث كان يعسكر والتر بكامل جيشه، وأخبروه بما جرى عليهم من سوء، ولكن والتر استمع إلى شكواهم دون مبالاة لأن الرجوع للإنتقام كان سيسغرق وقتاً طويلاً.

« وفى نفس الليلة التى استقبل فيها أولئك الرفاق العرايا خاويى الوفاض، فكر والتر فى أن

(*) Peters, pp. 95 - 96.

(١) كانت جزءاً من بلغاريا فى العصور الوسطى، وهى الآن عاصمة يوغسلافيا.

(٢) سملين Semlin الحالية.

يشترى الضروريات من رئيس البلغار وحاكم المدينة؛ ولكن أولئك الرجال ظنوا أن هذه خدمة واعتبروهم جواسيس ومنعوا بيع أى شيء [للمصليبيين]. وحينئذ، فإن والتر وأتباعه الذى ملك عليهم الغضب مشاعرهم، بدأوا يستولون على قطعان الماشية والأغنام التى كانت تمر هنا وهناك خلال الحقول بحثاً عن المرعى. ونتيجة لهذا نشب نزاع خطير بين البلغار وبين الحجاج الذين كانوا يسوقون قطعان الماشية والأغنام، واحتكموا إلى السلاح. وعلى أية حال، فإنه بينما وصلت قوة البلغاريين إلى مائة وأربعين، انفصل جزء من جيش الحجاج عن الجيش الرئيسى، ولانوا بإحدى الكنائس هرباً من البلغاريين. ولكن البلغاريين الذين كان جيشهم يتزايد عدداً، على حين كانت عصابة والتر تضعف ويتبعثر رفاقه، حاصروا الكنيسة وأحرقوا ستين شخصاً [من الصليبيين] بداخلها، وألحق البلغاريون جروحاً خطيرة بمعظم الآخرين الذين هربوا بحياتهم فراراً من الأعداء ومن الكنيسة.

« وبعد هذه المصيبة والخسارة التى لحقت بجماعته، وبعد أن قضى حوالى ثمانية أيام هارباً فى غابات بلغاريا، انسحب والتر صوب نيش، وهى مدينة ثرية وسط مملكة بلغاريا، تاركاً رجاله مبعثرين فى الأرجاء. وفى نيش وجد دوق البلاد وأميرها وأخبره بما جرى عليه من أذى وخسارة، وحصل من الدوق على العدل للجميع، بل إن الدوق منحه أسلحة ونقوداً على سبيل التعويض، كما قام سيد هذه البلاد نفسه بتأمين رحلته عبر مدن بلغاريا، صوفيا، فليبيوبوليس، وأدرنة، كما منحه تصريحاً بالشراء والتجارة.

« وواصل سيره بعصبته كاملة حتى مدينة القسطنطينية الإمبراطورية، وهى عاصمة الإمبراطورية اليونانية بأسرها. وعندما وصل إلى هناك، بكل شفقت وبكل تواضع طلب من السيد الإمبراطور نفسه السماح بأن يبقوا بسلام فى مملكته، وأن يسمح لهم بشراء ضروريات الحياة، حتى يصل بطرس الناسك، الذى بدأ رحلته بسبب قوة إقناعه وفصاحته بيبانه، ليكون له رفيقاً، وتوصل إلى الإمبراطور أيضاً، أنه عندما تتوحد القوات، تعبر على السفن البحر المسمى مجرى سان جورج^(٥) وبذلك يمكنهم أن يقاوموا جيوش الأتراك والأمميين. وكانت النتيجة أن وافق الإمبراطور اليكسيوس على الطلبات التى قدمها له.

حملة بطرس الناسك (*)

« ولم يمض وقت طويل بعد هذه الحوادث، حتى كان بطرس بجيشه الكبير، الذي يفوق الحصر مثل رمال البحر - وهو جيش جمعه من مختلف أقاليم وممالك الفرنجة، والسوابيين، والبارفارين واللوثنجيين - يشق طريقه صوب أورشليم، وفي هذه المسيرة وصل إلى مملكة المجر، وعسكر بجيشه قبالة أبواب أودنبرج...

« وسمع بطرس عن هذا [ما جرى للرجال الستة عشر من أتباع والتر المفلس في سملين] ولكنه رفض تماماً أن يصدق أن مثل هذه الجريمة الشنعاء يمكن أن تكون من فعل المجرين والبلغاريين لأنهم كانوا أخوة في المسيحية، حتى وصل رجاله إلى مالفيللا، ورأوا أسلحة ومتاع رفاق والتر الستة عشر معلقة على الأسوار، وهم الذين كانوا قد تخلفوا فترة قصيرة من قبل، والذين خطط المجريون لسرقتهم غيلة وغدراً. ولكن حينما تحقق بطرس من الضرر والأذى الذي حاق بأخوته، عند مشاهدة أسلحتهم ومتاعهم، حرض رفاقه على الإنتقام لهم.

« ودق هؤلاء الطبول، واندفعوا وبيارقهم تخفق عالياً صوب الأسوار وهاجموا العدو بوابل من السهام. وبسرعة فائقة، وبأعداد لا تحصى أطلقوا السهام في وجوه أولئك الواقفين على الأسوار، لدرجة أن المجرين لم يقدرُوا على مقاومة قوة الفرنجة الذين حاصروهم فتركوا الأسوار على أمل أنهم قد يستطيعوا الصمود داخل المدينة أمام قوة الغاليين. وإذا رأى جودفرى والشهير باسم بورييل - وهو من مواطني مدينة ايتاميس، وكان سيداً وحاملاً لراية مائتين من الجنود المشاة، وكان هو نفسه جندياً من المشاة ورجلاً ذا قوة خارقة - هروب المجرين من الأسوار، تسلق هذه الأسوار بواسطة سلم تصادف أن وجده هناك، ثم صعد رينالد البرويي، الذي كان فارساً ممتازاً يرتدى خوذة ومعطفاً من الزرد، بعد جودفرى مباشرة وسرعان ما استبق الفرسان وجنود المشاة جميعاً لدخول المدينة. وعندما أيقن المجريون بهلاكهم، جمعوا سبعة آلاف رجل قوى للدفاع، ومروا من خلال بوابة أخرى للمدينة تتجه صوب الشرق، وتمركزوا فوق قمة جرف شاهق الإرتفاع، يتدفق من ورائها نهر الدانوب، وهناك تحصنوا تحصيناً منيعاً. وقسم كبير منهم لم يستطيعوا الهرب بسرعة عبر الممر الضيق

وسقطوا أمام البوابة. والبعض الذين أملوا في أن يجدوا ملجأ لهم فوق قمة الجبل استأصل الحجاج شأفتهم أثناء المطاردة؛ ومع ذلك فإن البعض سقطوا أمام البوابة. والبعض الذين أملوا في أن يجدوا ملجأ لهم فوق قمة الجبل استأصل الحجاج شأفتهم أثناء المطاردة؛ ومع ذلك فإن البعض سقطوا من فوق الجبل، حيث دفنوا في موجات نهر الدانوب، ولكن العبيدين هربوا بالقوارب. وسقط هناك حوالي أربعة آلاف مجرى، ولكن قتلى الحجاج كانوا مائة فقط، بخلاف الجرحى.

« ويعد أن تم إحراز هذا النصر، بقى بطرس مع رفاقه في نفس القلعة خمسة أيام، لأنه وجد هناك وفرة من الحبوب، وقطعان الماشية، والأغنام، وكمية وافرة من النبيذ، وعدداً لا يحصى من الخيول...»

« وعندما عرف بطرس بغضب الملك، وأنه يجمع قواته غادر مالبيفيلا بكل أتباعه وخطط لعبور نهر مورافا بكل الغنائم وقطعان الماشية والخيول التي نهبها. ولكنه لم يجد على الشاطئ كله سوى عدد قليل من القوارب، حوالي مائة وخمسين قارباً فقط، يجب أن تعبر هذه الأعداد الغفيرة بواسطتها وتهرب، حتى لا يدهمهم الملك بقواته. ومن ثم حاول كثيرون ممن لم يتمكنوا من العبور بالقوارب أن يعبروا على العوامات التي صنعوها من جذوع الأشجار والأعمدة التي ربطوها سوياً. ولكن الأمواج تقاومتهم هنا وهناك لعدم وجود دفة في كل من هذه العوامات، وكانوا يتفصلون عن رفاقهم أحياناً، فهلك كثيرون، حين أصابتهم سهام البشناق، الذين كانوا يسكنون بلغاريا، وعندما رأى بطرس ما حل برجاله من غرق ودمار، أمر البافاريين، والأليمانى وغيرهم من التوتون، بمقتضى الوعد الذي قطعوه على أنفسهم بالطاعة، أن يهبوا لمساعدة إخوانهم من الفرنجة. وحملتهم إلى ذلك المكان سبع طوافات، ثم أغرقوا سبعة قوارب صغيرة للبشناق بمن فيها، ولكنهم لم يأخذوا سوى سبعة رجال. وقادوا أولئك الرجال السبعة إلى حضرة بطرس الذى أمر بقتلهم.

« وعندما انتقم لرجالهم على هذا النحو، عبر بطرس نهر المورافا ودخل الغابات الكبيرة الكثيفة في بلغاريا ومعه مؤن الطعام، وكل ما هو ضرورى، فضلاً عن الغنائم التي نهبها من بلجراد. وبعد تأخير ثمانية أيام في هذه الغابات والمرامى الشاسعة اقترب هو ورجاله من نيش، وهي مدينة ذات أسوار محصنة جيدة. وبعد أن عبروا النهر قبالة المدينة على جسر حجرى احتلوا الحقل واستمتعوا بامتداده ونضارته، وأقاموا خيامهم على ضفة النهر..

« وأطاع بطرس مرسوم الإمبراطور، فتقدم من مدينة صوفيا وانسحب هو ورجاله جميعاً

إلى مدينة فليبيوبوليس. وعندما حكى كل ما تعرض له من سوء للمواطنين اليونانيين، تلقى منهم هدايا عديدة باسم المسيح وخوفاً من الرب. ثم سار إلى أدرنة بعد ثلاثة أيام وقد ضمّره الفرع والسرور لوفرة كل ما يحتاج إليه. وهناك أقام في معسكر خارج أسوار المدينة لمدة يومين فقط، ثم انسحب بعد شروق الشمس في اليوم الثالث. ووصلت رسالة ثانية من الإمبراطور تستحثه على أن يسرع بالمسير إلى القسطنطينية، لأن الإمبراطور كان يتحرق بالرغبة في رؤية بطرس هذا بسبب التقارير التي وصلتته. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية، صدرت الأوامر إلى جيش بطرس بأن يعسكر على مسافة من المدينة، وتم منحهم تصريحاً بالتجارة.

وليم الصوري - حملة بطرس الناسك (٥)

« ... ولم يمض وقت طويل بعد الحوادث التي حكينا عنها، حتى بدأ بطرس مسيرته عبر لوثرنجيا وفرانكونيا وبافاريا، وذلك الإقليم الذي يسمى أوستريا. وكان يقود جيشاً ضخماً يصل عدده إلى حوالي أربعين ألفاً، جمعه من كل شعب وقبيلة ولغة ووطن. وعندما وصل إلى حدود المجر أرسل رسالة إلى ملك تلك البلاد وحصل منه بدون صعوبة على إذن بالدخول شريطة أن يمر بالبلاد دون أن يسبب اضطراباً أو صراعاً. ووافق بطرس على ذلك الشرط، وأفاد من الإذن ويدخل المملكة بقوته. وقدم السكان طعاماً وفيراً بأسعار معقولة وبشروط مقبولة. وتقدم الجيش بهدوء حتى سملين، وهو المكان الذي ذكرناه من قبل. وعلى أية حال، فإنهم عرفوا في ذلك المكان بما جرى على رفاقهم الذين سبقوهم تحت قيادة والتر من معاناة على أيدي سكان هذا المكان والمعاملة السيئة التي لاقوها منهم. فضلاً عن ذلك، فإن القوات عندما تعرفت على أمتعة وأسلحة أصدقائهم التي نهبها السكان وعلقوها على الأسوار كفنائم حرب، استشاطوا غضباً. ولقى معظم السكان حتفهم إما بالسيف وإما غرقاً في النهر القريب. وفي الشعب الذي ثار ذلك اليوم هلك حوالي أربعة آلاف بلغاري على ما يقال، وهو عقاب يستحقونه عن جدارة. وتقول الرواية إن بطرس فقد مائة فقط من رجاله. وبعد هذا الاستيلاء على المدينة بقوة السلاح، ظل الحجاج هناك خمسة أيام هائنة بسبب وفرة الطعام في ذلك المكان.

« وكذا نيكيتا [نكيتاس] دوق البلغاريين هو الذي منع البيع لوالتر وجيشه. وعندما علم بالانتقام الذي أوقعه جيش بطرس على سكان مدينة سملين جزاء المعاملة التي عاملوا بها جيش والتر، خشى أن لا يقوم هؤلاء بتوقيع نفس العقوبة عليه، لأنه لم يكن بريئاً من الذنب في هذه

المسألة. ولأنه لم يكن يثق في دفاعات بلجراد، المدينة التي يحكمها، ترك المكان. وكذلك غادرها السكان بعائلاتهم، ومعهم ماشيتهم وأغنامهم، وتقهقروا في أعماق الغابات ويدرونها السرية.

« وبينما كان بطرس ما يزال يتسكع في المدينة الأسيرة ، وصلته تقارير بأن ملك المجر الذي أغضبه المذبحة التي حلت بشعبه، قد جمع قواته العسكرية من كافة أنحاء ذلك الإقليم وأخذ يستعد للانتقام من المذبحة. وفي الحال جمع بطرس القوارب التي وجدها على ضفتي النهر وجعل جيشه يعبر عليها بأسرع ما يمكن. وأخذوا معهم الأغنام والمناشية والمنهويات القيمة التي نهبوا من المدينة المقهورة، وأخذوا ما يفوق حاجتهم من المؤن والأغذية. وعندما تم نقل الجميع إلى الشاطئ المقابل، أقاموا معسكرهم قبالة بلجراد، التي وجدها خاوية مهجورة. ومن هناك قاد بطرس جيشه في رحلة على مدى ثمانية أيام خلال غابة كثيفة شاسعة حتى نيش. وكان الجيش بأسره يتبعه بالعربات والمناشية والأغنام. وكانت هذه المدينة جيدة التحصين تحرسها حامية قوية من الرجال الشجعان. وعبر الجيش النهر فوق قنطرة حجرية وعسكر قريباً من المكان. وبدأت الأقوات تتناقص ، وواجه الجيش مشكلة نقص الأقوات . ومن ثم أرسلت رسالة إلى حاكم المدينة تطلب في أدب السماح بالشراء من الأسواق، لاسيما المواد الضرورية للحياة اليومية، بأثمان عادلة وتحت شروط حسنة، وذلك من أجل قوم من الحجاج ينفذون الأوامر الإلهية. وأجاب الحاكم أن هذا الإذن غير ممكن ما لم يضمن الجيش أولاً، بتقديم الرهائن، أنه لن يحدث أذى أو عنف ضد السكان في السوق. وقبل الفريقان هذا الشرط، وتم تقديم الرهائن. وحينئذ خرج السكان من المدينة ومعهم بضائعهم.

« والآن صارت هناك وفرة من الطعام في متناول الجيش، وكانت عمليات البيع والشراء تتم بروح من الود المتبادل. ومضى الليل في هدوء بينما جرت عمليات التبادل التجارية في جو من الصداقة، وفي الصباح الباكر عاد الرهائن واستعد الجيش للمسير. وكانوا على وشك السير - والواقع أن معظم الجيش، بل إن الجيش كله، كان قد انطلق بالفعل - عندما أخذ بعض صناع المشاكل، ممن يستحقون العقاب الإلهي، يذكرونهم بمشاجرة تافهة حدثت في الليلة السابقة عندما كانوا يشتررون من أحد البلغاريين. ولذا فإنهم انسحبوا قليلاً من خطوط الجيش الذي كان قد سار في طريقه فعلاً ، وأضرموا النيران في سبع طواحين كانت بالقرب من القنطرة المقامة على النهر الذي ذكرناه من قبل. وسرعان ما تحولت هذه الطواحين إلى رماد.

« هؤلاء الأشرار كان عددهم حوالي مائة من التيتوتون، وحتى هذا الفعل الشرير لم يرض غضبهم المجنون. ولذا فإنهم أضرموا النيران أيضاً في منازل بعض الناس خارج أسوار

المدينة وأحرقوها بوحشية ماثلة. وبعد أن ارتكبوا هذه الجريمة، أسرعوا ليلحقوا بالجيش، كما لو كانوا غير مدركين للخطأ الذي ارتكبوه.

« وعندما عرف حاكم المدينة، الذي استقبلهم بود وترحاب كامل في الليلة الماضية، أنهم لم يحفظوا له الجميل، اضطر إلى إنزال العقاب بهم بدلاً من أن يسدى إليهم مزيداً من المساعدة. ومن ثم، فإنه بحكم غير عادل اعتبرهم جميعاً لصوصاً واعتبرهم مستولين من الحرائق، فقد الصق خطايا قلة من الأفراد بالجيش كله. وجمع سكان المدينة وأمرهم بحمل السلاح. وقادهم بنفسه على الطريق وشجعهم بالكلمة والقوة على الإنتقام من المسيحيين بسبب تدينسهم للحرمان. وكما لو كانوا يتحركون بعقل واحد، اندفع سكان المدينة وهاجموا القوات التي كانت قد سارت في طريقها بالفعل. وانقضوا بوحشية على مؤخرة الجيش وأعملوا فيهم سيوفهم. ووجدوا المجموعة المذبحة التي لم تكن قد لحقت بعد بالجيش، وكانت بعيدة عن الجيش إلى حد ما، وبغضب شديد قضوا عليهم. ولكنهم وقعوا نفس العقوبة على كثيرين من الأبرياء سواء من قصد أو مصادفة، وهكذا أخذوا البريء بذنب المجرم. واستولوا على العربات التي كانت محملة بالطعام وشتى المعدات، وريطوا بها الرجال المسنين والمرضى والنساء والأولاء والبنات الذين لم يستطيعوا البقاء مع بقية الجيش. وبعد هذه المذبحة عادوا إلى المدينة ملطخين بدماء المذبحة، ومعهم غنائمهم.

« وفي الوقت نفسه كان بطرس قد سار مع مقدمة الجيش ورؤساء حملته، ولم يعرف على الإطلاق بالكارثة التي جرت على رفاقه. وفجأة وصل رسول ينهب الأرض مسرعاً نبأ الكارثة. وحكى التفاصيل الحزينة لقصة القبض على رفاقه والمذبحة التي راحوا ضحية لها. وعندما سمع بطرس هذه الأنباء، استدعى فرق الجيش، وبناء على نصيحة رجاله المجريين عاد الجيش على نفس الطريق الذي تقدموا عليه طوال النهار. وبينما كانت عيونهم تقع على أجساد إخوتهم القتلى، التي كانت بمثابة برهان ساطع على المذبحة، لم يتمكنوا من حبس دموعهم أو كبت نحيبهم. وأخيراً، وقفوا مرة أخرى قبالة المدينة حيث كانوا يعسكرون في الليلة الماضية.

« وكان بطرس ومن يتحكمون في مشاعرهم من رجاله مشغولين بأمر واحد وغرض واحد فيما يتعلق بهذه المسألة. فقد رجعوا ليعرفوا سبب هذه المصيبة وليعملوا على إزالة أسباب النزاع والشقاق. وكانوا يأملون في أنه إذا ما حل السلام تماماً بين الشعبين، ويتصافى الجميع فإنهم سيواصلون حجهم في أمان أكثر. وبناء على هذه الرغبة أرسلوا عدة رجال عقلاء

ومستولين إلى حاكم المدينة وكبارها ليحققوها الظروف التي أدت إلى نشوب الشغب المفاجئ وإلى إراقة كل هذه الدماء البريئة.

« وعندما عرفوا السبب، اقتنع الرسل بأن سكان المدينة لم يلجأوا إلى السلاح إلا بسبب الغضب، ولأنه لم يكن وقتاً مناسباً لطلب الثأر من أخطائهم،، جاهد الرسل في سبيل إقرار السلام من جديد بكل طاقاتهم، حتى يعود لرفاقهم كل ما خسروه من متاع وبضائع، وكان هذا الاضطراب بسبب الحمية المجنونة واندفاع بعض الأفراد المتهورين الذين كانوا يرغبون في أن ينتقموا بالقوة من الأخطاء التي عانوها.

« وعلى أمل تهدئة غضبهم وإزالة كل الأسباب التي يمكن أن تؤدي إلى مذبة جديدة، أرسل بطرس بعض الرجال المستولين من أصحاب النفوذ القوي في محاولة لمنع الغوغاء في غضبهم المجنون من مهاجمة سكان المدينة. ولكن هذه المحاولة لم تفلح لأنهم رفضوا الاستماع إلى نصيحته. وحينئذ أصدر أوامر صارمة إلى الجيش، بأنه لا ينبغي لأحد، بمقتضى قسم الطاعة الذي أقسموه له، أن يساعد بأي وسيلة أولئك الذين جروا على انتهاك السلام الذي تم إقراره مرة أخرى لأنهم تعادوا في سلوكهم الخاطيء.

« وتقبل الجيش هذا الأمر كما لو كان صادراً عن أحد القضاة. وفي الوقت نفسه، ظل الجميع ساكنين إنتظاراً لنهاية الشغب المفاجئ ونهاية الأمر برمته، ورأى الرسل الذين كانوا قد أرسلوا إلى الحاكم لكي يرتبوا المعاهدة أن الإثارة بين الناس لا يمكن تهدئتها، ولكنها على العكس كانت تزداد عنفاً. وإذا أدركوا أن مهمتهم لن تنجح كما كان مقدراً، أوقفوا المعاهدة وعادوا إلى المعسكر لمساعدة بطرس، رجل الرب، في إخضاع الشغب. ولكن هذا كان مستحيلاً. فقد انطلق حوالي ألف رجل في هذه المحاولة المجنونة. وجابه هؤلاء عدداً مماثلاً من سكان المدينة، وكانت النتيجة معركة كبرى جرت أمام المدينة.

« وأدرك الناس بداخل المدينة أن قسماً من الجيش قد قام لقتال أولئك الذين خارج المدينة. ولأن الشغب حدث ضد رغبة بطرس وأوامره المباشرة، فقد راودهم الأمل في ألا يقدم الجيش أية مساعدة للمشغبين. وفتحوا البوابات واندفعوا ليقتلوا حوالي خمسمائة من رجالنا فوق القنطرة، وكل الباقيين تقريباً غرقوا في النهر بسبب جهلهم بالمكان ومسالكه. وعند هذا المشهد، اندفع الجيش كله إلى سلاحه، لأن الجنود لم يتحملوا ما كان يجري على رفاقهم. وتقابلت القوات المتعادية في معركة رهيبة، وجرت مذبة مرعبة لدرجة أن هذه الكارثة كانت أشد وطأة

من الكارثة السابقة، وكان عامة الناس والغوغاء غير قادرين على التصدي لضغوط الهنغارين، فانهاروا وهربوا. وتأثر بهروبهم المجنون آخرون ممن كانوا يحاربون ببسالة وهربوا مثلهم.

وهكذا هرب الجيش كله، وإذا. انهارت الصفوف لم يبق أحد يقاوم، وفي خضم الفوضى، فقد بطرس كل الثروة التي كان قد جمعها من عطايا الأمراء المتدينين، والنقود التي كان ينوي استخدامها لشراء الضروريات للفقراء والمحتاجين على الطريق، لأن العربة التي كانت تحمل كل متاعه سقطت بأيدي الأعداء وضاع كل شيء.

« واستمر البلغاريون في غضب؛ وقتلوا حوالي عشرة آلاف مسيحي واستولوا على العربات وكافة البضائع والأمتعة، وسبوا كثيراً من الناس والأطفال. أما أولئك الذين هربوا فقد اختبأوا في الأماكن الكثيفة من الغابات التي لا يمكن اختراقها، وبصعوبة تم تجميعهم في اليوم الثالث بأصوات الطبول والنفير. وتجمعوا حول بطرس والآخرين الذين هربوا معه ولجأوا إلى تل منخفض يرتفع برفق فوق الوادي.

« وأخيراً، وفي اليوم الرابع، عندما تم تجميع القوات المبعثرة، وظهر الهاربون من الأماكن السرية التي قبعوا فيها ثلاثة أيام، تجهز الجيش للمسير، وعنده الآن حوالي ثلاثين ألفاً. وعلى الرغم من أن سلوكهم المتهور قد أفقدهم حوالي ألفى عربة، فإنهم رأوا أنه سيكون عاراً عليهم أن يتخلوا عن رحلة الحج التي يقومون بها؛ ولذا فإنهم واصلوا رحلتهم، على الرغم من الصعوبات العنيفة التي اكتتفتها وكانوا على وشك البدء، على الرغم من افتقارهم الشديد للمؤن والأغذية، عندما وصل رسول من الإمبراطور إلى المعسكر، ومعه أوامر الإمبراطورية إلى بطرس وغيره من قادة جيشه، وخاطبهم علانية فقال: «أيها الرجال النابهين، هناك إشاعة بلغت مسامع الإمبراطور الصقت بكم تهماً خطيرة ذات طبيعة رديئة، فهناك زعم بأنكم ارتكبتم أعمال عنف كبيرة في إمبراطوريته ضد سكان البلاد، رعاياءه، وسببت المنازعات والاضطرابات، ولهذا، فإذا كنتم تأملون في أن تجدوا ترحيباً من جلالته، فإننا نبلغكم بسلطته بأنه لا ينبغي لكم البقاء أكثر من ثلاثة أيام في أيام مدينة من مدائنه، وأن تتوجوا بحملتكم بأسرع ما تستطيعون صوب القسطنطينية في نظام وانضباط تام. وسوف ندل الجيش على الطريق، وسوف نمدكم بما تحتاجونه من الطعام بأسعار عادلة.

« هذه الكلمات رفعت من معنويات الناس، الذين كانوا قد بدأوا فعلاً يحسون بالضيق بسبب نقص الطعام؛ وجعلتهم رحمة الإمبراطور في حالة عقلية تنبض بالأمل، وشرحوا

لِلرَّسُولِ الْإِمْبَرَاطُورِيِّ بِمَعْضِ الظُّرُوفِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمَتَاعِبِ الَّتِي جَابِهَتْهُمْ مُؤَخَّرًا، وَأَكْدُوا عَلَى بَرَاةِهِمْ وَتَكَلَّمُوا عَنِ الصَّبْرِ الَّذِي تَحْمَلُوا بِهِ إِيْذَاءَ الْبُلْغَارِيِّينَ لَهُمْ، ثُمَّ تَخَلَّصُوا مِنْ كُلِّ الْمَعْوَقَاتِ وَتَبِعُوا دَلِيلَهُمْ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ. وَهَنَّاكَ وَجَدُوا وَالتَّرَاقِيُوتَ حَيْثُ كَانُوا فِي ائْتِظَارِهِمْ. وَانْضَمَّتْ قُوَّاتُ الْجَيْشِيَّينَ وَمَسْكُورَا فِي الْمَكَانِ الْمَحْدَدِ لَهُمْ.

« وَبِنَاءً عَلَى اسْتِئْذَانِ الْإِمْبَرَاطُورِ ذَهَبَ بِطَرَسُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمَثَلَ أَمَامَ الْحَضْرَةِ الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ. وَعِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ قَصْدِهِ وَالْدَّافِعِ وَرَاءَ مِثْلِ هَذَا الْمَشْرُوعِ الْعَظِيمِ، نَاقَشَ الْمَوْضُوعَ طَوِيلًا، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ رَجُلٌ يَتَمَتَّعُ بِالْقَصَاحَةِ وَثَبَاتِ الرُّوحِ. وَأَوْضَحَ أَنَّهُ سَوْفَ يَتَّبِعُهُ أَمْرَاءُ الْغُرَبِ الْكِبَارِ، وَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّبِّ. وَقَدْ أَبْدَى مِنَ الْفَصَاحَةِ وَثَبَاتِ الْجَنَانِ مَا جَعَلَ حَتَّى رُؤَسَاءَ رِجَالِ الْقَصْرِ يَعْجَبُونَ بِحِكْمَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ. وَكَانَ الْإِمْبَرَاطُورُ نَفْسَهُ مَعْجَبًا بِهِ وَأَثْنَى عَلَى هَدَفِهِ. وَبَعْدَ هَذَا ائْتِظَابِ الطَّيِّبِ، أُنْعِمَ عَلَيْهِ بِعَطَايَا كَرِيمَةٍ، وَأَمَرَ الْإِمْبَرَاطُورُ بِالْعُودَةِ إِلَى قُوَّاتِهِ.

« وَبَقِيَ الْجَيْشُ فِي هَذَا الْمَكَانِ مَدَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى يَحْصُلَ النَّاسُ عَلَى خُطْمِهِمْ مِنَ الرَّاحَةِ، وَيَسْتَمْتَعُوا بِالطَّعَامِ وَالرَّاحَةِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ عَبَرُوا الْبَسْفُورَ فَوْقَ سَفْنِ أَمْرِ بِإِعْدَادِهَا الْإِمْبَرَاطُورُ، إِلَى بِيْثِينِيَا، أَوَّلِ مَقَاطِعَاتِ وَلايَةِ أَسِيَا الَّتِي يَحْدُهَا الْبَحْرُ (الْبَسْفُورُ). وَفِي مَكَانٍ يَدْعَى كَيْفَبْتُوتَ عَلَى الْبَحْرِ، أَقَامُوا مَعْسَكَرَهُمْ.

فولكمار وجوتشولك (*)

١- رواية البرت الأيكس (*)

بَعْدَ رَحِيلِ بَطَرَسَ مِنَ الْمَانِيَا ظَلَّتْ جَنُودُ الْحِمَاسَةِ الصَّلِيبِيَّةِ مُشْتَغَلَةً فِي نَفُوسِ الْعَامَةِ. وَلَمْ يَكُنْ يَمْضِي وَقْتُ طَوِيلٍ عَلَى رَحِيلِ النَّاسِكِ الْعَجُوزِ وَجَيْشِهِ الْعَجِيبِ حَتَّى قَامَ قَسِيْسُ الْمَانِي مِنَ أَهْلِ الرَّاوِينِ بِالسَّيْرِ عَلَى هَدْيِ خَطَاةٍ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ فُولْكَمَارُ. وَقَدْ ارْتَكَبَ جَيْشَاهُمَا مِنَ الْفُظَّائِحِ وَالْأَهْوَالِ مَا جَعَلَ جَيْشَ الْمَجْرِ يَمْزِقُ عَصَابَاتِ فُولْكَمَارِ وَبَعْدَهَا بِأَقْلَ مِنْ يَوْمَيْنِ فَتَكَ بِعَصَابَةِ جُوتْشُولْكَ. وَالنَّصُّ الَّذِي نَقَدَّمَهُ بِرَوَايَةِ الْبَرْتِ الْإِيْكَسِيِّ يَكْشِفُ كَيْفَ كَشَفَتْ مَسِيرَةَ «جَيْشِ الرَّبِّ» عَنْ وَجْهِهَا الْقَبِيْحِ، وَبَدَأَ الْوَاقِعَ يَظَلُّ بِوَجْهِهِ سَاخِرًا مِنَ الْمِثَالِ الَّذِي أَهَانَتْهُ أَصْحَابُهُ.

* * *

«لم يمض وقت طويل بعد رحيل بطرس، حتى قام قس يدعى جوتشوك، من التيوتون ومن سكان بلاد الراين، ألهمته دعوة بطرس بالحب والرغبة في القيام بنفس الرحلة إلى اورشليم، وبدأ هو نفسه يدعو للرحلة ف جذب عدداً كبيراً جداً من الناس من مختلف الأوطان للذهاب في الرحلة. وجمع من مختلف أقاليم اللورين، وشرق فرنسا، وبافاريا، وألمانيا أكثر من خمسة عشرة ألفاً من الرجال فرساناً، ومشاة عابدين جمعوا مبلغاً ضخماً من المال، بالإضافة إلى ما يلزمهم من ضروريات، وواصلوا طريقهم بسلام حتى وصلوا إلى مملكة المجر.

«وعندما وصلوا إلى فيسيلبرج وقلعتها استقبلوا بحفاوة بفضل الملك كولمان. وكذلك منحوا الإذن بشراء ضروريات الحياة، وتم إقرار السلام للجانيين بأمر من الملك، لئلا ينشب أى نزاع من مثل هذا الجيش الكبير. ولكن أثناء تأخرهم هناك لعدة أيام، بدأوا يحومون في المنطقة، وشرب البافاريون والسوابيون وهم قوم حماسيون، وشرب معهم أناس آخرون ممن لا يعقلون، وأفرطوا في الشراب بحيث سكروا وتقضوا السلام الذى كان قد استقر، ورويداً ورويداً، سرقوا من خمر المجريين ومن غلالهم، ومن لوازمهم الأخرى؛ وأخيراً خربوا الحقول، وقتلوا الماشية والأغنام، كما قتلوا من قاومهم، أو من حاولوا دفعهم، وكإناس أجلاف، غلاظ في سلوكهم، همج غير منتظمين ارتكبوا جرائم أخرى كثيرة، لا يمكن أن نحكى عنها كلها. وكما يقول بعض الذين كانوا حاضرين، ثبتوا شاباً مجرياً في مكان السوق بعصا مرروها خلال جسده، ووصلت إلى مسامع الملك وقادة المجر الآخرين شكوى من هذه المسألة وغيرها من الأخطاء...»

«وعندما سمع جوتشوك وبغيره من الرجال العاقلين هذا الأمر، وضعوا ثقتهم بإيمان خالص في هذه الكلمات [طلب التسليم الذى أرسله الملك المجرى]، وكذلك لأن المجريين كانوا مسيحيين، واتفقوا على تسليم أسلحتهم للملك على سبيل الترضية، بناء على أوامره. وهكذا يمكن أن يعود كل شيء إلى السلام والهدوء..»

«ومع ذلك فإنه حين تم تسليم أسلحتهم وأغلقت المخازن عليها، نقض المجريون إيمانهم وكافة تعهداتهم التى قطعوها على أنفسهم بأن الملك سوف يظهرها للصليبيين، وعلى العكس من ذلك انقضوا عليهم في وحشية وأغمدوا في رقابهم السيوف، وحصدوا في مذبحتهم المربعة أولئك الذين لا يملكون سلاحاً يدافعون عن أنفسهم، لدرجة أن (كما يؤكد الذين كانوا حاضرين وهربوا بأعجوبة) سهل بلجراد بأكمله امتلأ بالجثث وغطته دماء القتلى، وهرب أفراد قلائل من الاستشهاد....»

٢- رواية إيكهارد الأورى (*)

كان إيكهارد راهباً في دير كورفي، وقد ذهب بنفسه إلى الأرض المقدسة سنة ١١٠١م، أي بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى، والعالم الذي كتب عنه إيكهارد في حويلته متسع بشكل يدعو إلى الإعجاب، على الرغم من أن النص الذي نوره فيما يلي يكشف عن أحد جوانب حملة الفلاحين.

* * *

«والآن، كما سبق القول، قامت عصابة تتبع فولكمار عبر بوهيميا، وفي مدينة نيترا، في بانونيا، حدث شغب، قتل فيه عدد من الناس، وتم أسر عدد آخر، على حين أن الناجين تعبدوا على أن يشهدوا بأن علامة الصليب، التي تجلت في السماء فوقهم، أنقذتهم من موت محقق. ثم دخل جوتشوك، الذي لم يكن خادماً حقيقياً للرب ولكنه كان مزيقاً، إلى بلاد المجر ومعه رفاقه، حتى وصل إلى شرق نوريكوم ولحق بهم بعض الأذى. وبعد ذلك، وتحت هالة مذهلة من التدين المزيف، حصن بلدة معينة في مكان مرتفع ووضع بها حامية، وبدأ ومعه بقية رفاقه في نهب بانونيا. هذه المدينة، وقعت حقاً بأيدي سكان البلاد بسرعة، وقتلت أعداد كبيرة، كما أسر كثيرون على حين تفرق الآخرون أشتاتاً، ولأنه هو نفسه كان أجيراً مرتزقاً، ولم يكن راعياً للشعب، فقد هرب ملطخاً بالعار...»

رواية وليم الصوري (*)

«لم يكن قد مضى وقت طويل على دخول بطرس إلى إقليم بيتينيا، حتى قام قس تيوتوني اسمه جوتشوك، يسير على درب بطرس، يتحرق بالشوق للقيام بنفس رحلة الحج. ولأنه كان يتمتع بموهبة البلاغة، فقد أقنع كثيرين من التيوتون من شتى أرجاء تلك المنطقة بأن يقوموا بنفس المهمة. وبحوالى خمسة عشر ألفاً جمعهم للمسير، دخل بلاد المجر حيث سمحوا له دون مصاعب، وبناء على أوامر ملك المجر، قدم المجريون البضائع والمتاجر بأسعار مناسبة لجيشه. وأساء [الصليبيون] استخدام الطعام الوفير، وأسلموا أنفسهم للفراغ والخمر. وارتكبوا كثيراً من الأخطاء في حق سكان البلاد، فقد مارسوا النهب، واغتصبوا بالعنف البضائع التي كانت معروضة للبيع في الأسواق العامة، ونهبوا الناس في تجاهل مزرى لقوانين الضيافة.

(*) Ekkhard of Aura. in Peters. pp. 100_101.

(**) William, I. pp. 112.

« وعندما وصلت أنباء هذه الإضطرابات إلى الملك، استشاط غضباً. وأمر باستدعاء كل المملكة، وأصدر توجيهاته بأنه يجب على الشعب وعظماء الرجال في البلاد سواء بسواء أن يحملوا السلاح للانتقام من هذه الأخطاء الفاحشة. وارتكبت تجاوزات كثيرة في أماكن كثيرة، وهي تجاوزات مخجلة بحيث لا يمكن أن نحكيها. ولم يكن ممكناً أن يتفاضى الملك عن مثل هذه الجرائم دون أن يجلب على نفسه وصمة الجبن ودون أن يجلب على نفسه كراهية شعبه. ولذا، تم استنفار جميع القوات المسلحة في البلاد. وينظام موحداً شنوا هجومهم الغاضب العنيف ضد المسيحيين باعتبارهم أعداء يستحقون أقصى عقاب، وصمموا على نبهم جزاء وفقاً لما ارتكبوه من آثام.

« وأخيراً وفي مكان يدعى بلجراد^(١)، يقع في منتصف المملكة تماماً، انقضت قوات الملك على جمع غير منظم من أولئك الرجال المجانين، وكانوا قد عرفوا بالفعل بتقديم الملك وكانوا على على وصى تام بأنه لابد أن يكون غاضباً؛ كما أنهم كانوا يخشون ضماناتهم بسبب جريمتهم. وبعد ذلك جثفوا أسلحتهم واستعدوا لدفع القوة بالقوة وأن يدفعوا الخطر عن أنفسهم. وعندما رأهم المجريون يتدفعون إلى سلاحهم، وقد عزموا على المقاومة الشرسة، رأوا أنه سيكون من المستحيل أن يقاتلهم دون أن تلحق بهم خسارة قاسية. لأن المسيحيين كانوا بالفعل رجالاً شجعاناً متمرسين على استخدام السلاح، وإن يسلموا حياتهم يأساً دون قتال. ووفقاً لعاداتهم عولوا على أن يتفوقوا بالخديعة ما لم يقدروا على إنجازه بالسلاح فأرسلوا وفداً إلى جودشوك، وقادة جيشه، وخاطبهم أفراد الوفد بكلمات معسولة في دهاء ومكر. «لقد بلغت الملك شكوى مريرة من جيشكم. ويقال إنكم الحقنتم كثيراً من الأذى والضرر والمتاعب الجمة برعاياه وأنكم رددتم المعاملة الطيبة لمضيفكم بمعاملة ظالمة من جانبكم». ومع ذلك فإن الملك بحكمته مقتنع أنكم لستم جميعاً مذنبين في هذه الجرائم. هو يعتبر أنه من المؤكد أن بينكم رجالاً أتقياء يخشون الرب، أغضببتهم تصرفات الآخرين الخرقاء وأن هذه الجرائم التي أشعلت الغضب الملكي قد ارتكبت ضد رغبات وسلوكيات هؤلاء الرجال. ولئلا تتسبب خطايا الأفراد إلى الجميع، ويؤخذ البرئ بنب المجرم قرر أن يكيح جماع غضبه، وفي الوقت الحاضر، سيحقن دماء أخوته في المسيحية. بناءً على ذلك، ولكي يهدأ غضبه تماماً، نشير عليكم بأن تسلموا أنفسكم، وكل ما معكم من متاع هنا، بما في ذلك أسلحتكم، دون قيد أو شروط، للملك. وإلا، فلن ينجو

(١) يبدو أن هذا خطأ وقع فيه وليم الصوري، إذا أثبت البحث الحديث أن المكان هو مارتينسبرج لأن بلجراد في صربيا بيوغوسلافيا الحالية.

أحد منكم من الموت لأنكم فى وسط مملكته، كما أنكم لستم فى مثل قوتنا العسكرية، وإن تستطيعوا الهرب»^(١).

« وكان جوتشواك وقادة جيشه قد غضبوا بسبب التصرفات المجنونة للناس الذين ركبهم العناد. وببساطة قلوبهم أخذوا كلمات الملك الطيبة مأخذ الجد دون مناقشة، وكانوا أن يرغبوا الناس بالقوة على الموافقة على فكرة تسليم أنفسهم بأسلحتهم وكل ممتلكاتهم للملك وبذلك يكفرون من كل الخطايا التى ارتكبوها فى حقّه. وعلى الرغم من أن الناس كانوا يحتجون بعنف وكانوا على إستعداد للقتال فى سبيل حياتهم فإنهم جميعاً وافقوا فى النهاية. ولكن بعد أن سلموا أسلحتهم وكل متاعهم لقادة ورسل الملك، وجدوا الموت حيث توقعوا الترحيب. ذلك أن المجريين انقضوا على الناس الذين لم تخالجهم أية شكوك، والذين كانوا يعولون على رحمة الملك بالرغم من أنهم جربوا من سلاحهم. وبدون تفرقة بين الطيب والشرير، أوقعوا بهم مذبحة لا إنسانية للغاية، وكانت شاملة بحيث أن المكان كله كان ملطخاً بدماء وجثث المذبوحين، ولم يبق أثر تقريباً لذلك العدد الغفير من الناس. وكان هناك البعض، نجوا من الموت الشامل، وهؤلاء قادتهم رحمة الرب إلى تجنب المجريين وماءوا إلى بلادهم. وعندما حكوا قصة المذبحة والمصير التمس الذى لقيه رفاقهم، أخبروا أولئك الذين ربطوا أنفسهم بإيمانهم، والذين كانوا على وشك الرحيل فى نفس رحلة الحج. ونصحوا أولئك الحجاج الجدد، وخيانة أولئك الناس الأشرار ما تزال ماثلة فى أذهانهم، بأن يعضوا بحكمة وأن يتعلموا كيف يتصرفون بمزيد من الحذر....»

إميكو

١- رواية إيكهارد الأوربي (*)

كان الكونت أميكو واحداً من زملاء تلك العصابات التى خسمتها الحملة الشعبية. وهو وعصابته اشتهروا بأسوأ سمعة بين العصابات الشعبية الأخرى. فقد انضم إليه مقامر آخر هو وليم التجار وعدد من النبلاء المتعطشين للدماء من فرنسا وألمانيا، وثألف جيشهم من ذلك الخليط المعتاد من المغامرين والمدممين. وضم رجالاً ونساء فضلاً عن الشيوخ والأطفال؛ فرساناً ومشاة، إلى جانب الفلاحين والعامة المشاغبيين، وفى الصفحات القادمة نورد نصين عن هذا المغامر وعصابته.

(١) أطال وليم فى صياغة هذا الخطاب على الرغم من ألبرت الأيكسى الذى أمتد عليه وليم الصورى قد أورده مختصراً.

(*) Ekkehard of Aura. Peters. 101 _ 102.

«... في ذلك الوقت تماماً ظهر جندي إسمه أميكو، هو كونت الأراضى الواقعة حول نهر الراين، وهو رجل ذو سمعة سيئة للغاية منذ زمن طويل بسبب أسلوب الطفيان الذى يعيش حياته به. وزعم أن العناية الإلهية قد دعتة مثل شاول، لكى يقوم بممارسة دينية مشابهة، فقد اغتضب لنفسه السلطة على حوالى إثنى عشر ألفاً من حملة الصليب. وبينما قادهم عبر مدن الراين والمين والدانوب أيضاً، فإنهم كانوا يهاجمون جنس اليهود المنفيين حيثما وجوهم (بدافع من غيرتهم الدينية وحماستهم للدين المسيحى)، أو يجبرونهم على اعتناق المسيحية. وعندما وصلت قواتهم، التى كانت قد تزايدت فعلاً بانضمام أعداد كبيرة من الرجال والنساء، إلى حدود بانونيا، منعتهم الحاميات المحصنة من دخول تلك المملكة، التى كانت تحيط بها المستنقعات من ناحية والغابات من ناحية أخرى. لأن شائعة كانت قد سبقتهم وجعلت الملك كولومان يحذر منهم؛ هذه الشائعة مؤداها ، أنه لم يكن هناك فرق عند التيتوتون بين قتل الوثنيين وقتل المجريين. وهكذا، حاصروا قلعة فيسبلبرج على مدى ستة أسابيع. وقاسوا كثيراً من المصاعب هناك؛ ومع ذلك فإنهم فى أثناء هذه الفترة نفسها انشغلوا فى نزاع أخرق حول من سيكون منهم ملكاً على بانونيا. وبينما هم مشغولون فى الهجوم الأخير، وعلى الرغم من أن الأسوار كانت قد تحطمت بالفعل، وبدأ السكان فى الهرب، وبدأ جيش المدينة المحاصرة يضرع النيران فى مدينته، مع ذلك كله فبقدره الرب العظيم هرب جيش الحجاج رغم انتصاره. وخلف الحجاج وراءهم كل معداتهم، ولم يحمل أحد معه شيئاً سوى حياته الشريرة.

« وهكذا ، بدأ بنو جنسنا، الذين كانوا غيورين للرب دونما شك، على الرغم من عدم إمتثالهم لعرقه الرب، يضطهدون المسيحيين الآخرين مع أنهم كانوا ما يزالون فى الحملة التى قدمها المسيح لتحرير المسيحيين. وبفضل رحمة الرب فقد نجوا من إراقة دم إخوتهم؛ كما تحرر المجريون أيضاً. وهذا هو السبب فى أن بعض الإخوة ممن تميزوا بسلامة الطوية، والذين لم يعرفوا شيئاً عما حدث، وتسرعوا فى حكمهم تورطوا فى فضيحة وأعلنوا أن الحملة كلها كانت عبثاً وطيشاً أحمق....».

٢- رواية ألبرت الأيكسى (*)

« وفى بداية نفس السنة التى انطلق فيها كل من بطرس وجوتشوك، بعد أن جمع كل منهما جيشاً، تجمع هناك جيش ضخم بأعداد لا تحصى من المسيحيين من مختلف ممالك الأرض؛ وبالتحديد من ممالك فرنسا وإنجلترا والفلاندرز، واللورين.. وأسست أدرى ما إذا كان بحكم من الرب، أو بسبب خطأ فى العقل، أن تقمصتهم روح من القسوة تجاه اليهود المبعثرين فى هذه المدن وذبحوهم دونما رحمة ولا سيمى فى مملكة اللورين، مؤكدين أن هذه بداية حملتهم وواجبهم ضد أعداء الدين المسيحى. وتم ذبح اليهود أولاً على أيدي سكان مدينة كولون. فقد انتقص هؤلاء فجأة على جماعة صغيرة من اليهود وقتلوا وجرحوا العديد منهم؛ كما دمروا منازل اليهود ومعابدهم وتقاسعوا فيما بينهم مبلغاً ضخماً من المال. وعندما رأى اليهود هذه القسوة، بدأ حوالى مائتين منهم الهرب فى سكون الليل بالقوارب إلى نويس. واكتشفهم الحجاج والصليبيون، وبعد أن جربوهم من كل ما يملكون، أعملوا فيهم الذبح والقتل بحيث لم يتركوا أحداً على قيد الحياة.

«ولم يمض وقت طويل بعد هذا حتى بدأوا رحلتهم، وفاء بقسمهم، ووصلوا بأعداد كبيرة أمام مدينة مينز. وكان الكونت الذى يرأسهم، هو أميكون، من النبلاء وصاحب سلطان عظيم فى تلك الأنحاء، فى انتظار الحجاج ومعه عصابة كبيرة من التيوتون، وبدأ الحجاج يصلون إلى هناك من أرجاء الأرض على الطريق الكبير الذى شيده الملك.

«وعندما عرف يهود تلك المدينة بالمنبحة التى جرت على إخوانهم، وأنهم لن يستلمنعوا. النجاة بأنفسهم من أيادي هذا العدد الغفير من الناس، هربوا على أمل النجاة إلى الأسقف روتارد. ووضعوا كنزاً ضخماً فى حراسته، وكانوا موقنين بحمايته لهم لأنه كان أسقف المدينة. وحينئذ نعى هذا الأسقف الممتاز المبلغ الخرافى الذى تلقاه منهم جانباً. ووضع اليهود فى قاعة فسيحة جداً بمنزله، بعيداً عن أنظار الكونت أميكون وأتباعه، بحيث يبقون آمنين سالمين فى مكان قوى أمين.»

« ولكن أميكون وبقيّة عصابته عقدوا اجتماعاً للتشاور، وبعد شروق الشمس هاجموا اليهود فى القاعة بالسهم والحراب. وبعد أن كسروا الأقفال والأبواب، قتلوا اليهود، الذين كانوا حوالى سبعمائة كانوا يقاومون ببأس قوة وهجوم هذه الآلاف العديدة. وقتلوا النساء أيضاً،

واخترقوا بسيوفهم أجساد الأطفال أيا كان سنهم أو جنسهم. وإذا رأى اليهود أن أعداءهم المسيحيين يهاجمونهم ويهاجمون أطفالهم، وأنهم لا يبقون على أحد بسبب سنه، إنقضوا بالمثل على بعضهم بعضاً، الأخ، والأطفال والزوجات والأخوات، وهكذا هلكوا بأيدي بعضهم البعض. ومن المرعب أن الأمهات ذبحن الأطفال الرضع بأيديهن بالسكاكين وطمعن الآخرين، وفضلن لهم أن يموتوا هكذا بأيديهن بدلاً من القتل بسلاح أولئك المسيحيين.

« ولم ينبج من هذه المذبحة القاسية لليهود سوى أفراد قلائل؛ واعتنق آخرون المسيحية، ليس حباً في العقيدة المسيحية وإنما بسبب الخوف. وواصل الكونت أميكو، وكلايبولد، وتوماس وكل رفاقهم المتعصبين من الرجال والنساء، السير صوب أورشليم محملين بفنائم كبيرة جداً نهبوها من اليهود، واتخذوا طريقهم تجاه مملكة المجر، حيث كان السير على الطريق الملكي الكبير مسموحاً للحجاج. ولكن عندما وصلوا إلى فيسليبورج قلعة الملك التي تحصيها المستنقعات ومياه نهر الدانوب ونهر ليتا، ووجدوا قنطرة المدينة وبوابتها موصدتين بأمر من الملك كاولمان ملك المجر، لأن خوفاً شديداً استبد بالمجريين جميعاً بسبب المذابح التي جرت على إخوانهم.. [حاصر أميكو المدينة ستة أسابيع ثم أثنائها بناء قنطرة ثم شن هجومه عليها].

« ولكن عندما أوشك كل شيء على أن يتحول لصالح المسيحيين، وبينما كانوا يخرقون أسوار المدينة من خلال فتحات ضخمة كبيرة، حدثت صدفة أو سوء حظ، لا أدري ما هو، سيطر خوف عظيم على الجيش بأسره بحيث بدأ الجنود في الفرار، مثل خراف تبعثرت وهاجمتها الذئاب. وإذا بدأوا ييحثون عن ملجأ يحتضنون به هنا وهناك نسوا رفاقهم..

« واستمر أميكو وبعض رفاقه في الهرب على طول الطريق الذي جاء منه. وهرب توماس وكلايبولد وكثيرون من رجاله تجاه كارينثيا وإيطاليا. وهكذا نعتقد أن يد الرب كانت ضد الحجاج، الذين ارتكبوا كثيراً من الآثام والمعاصي، والذين ذبحوا اليهود المتفنين جشعاً وطمعاً في المال، وليس من أجل عدالة الرب على الرغم من أن اليهود أعداء المسيح، والرب قاض عادل ولا يأمر بون رغبة منه أو تحت القهر بالدخول في رحاب العقيدة الكاثوليكية.

« وكانت هناك جريمة أخرى نكراء نتجت عن اجتماع هؤلاء الناس الذين كانوا حمقى معتمدين. ولا شك في أن الجريمة مكروهة من الرب ويرفضها المؤمنون. فقد كانوا يؤكفون أن أوزة معينة تلهمها الروح المقدسة، وأن هناك عنزة تسيرها نفس الروح المقدسة. وقد اتخذوا من الأوزة والعنزة دليلين لهما في الرحلة المقدسة إلى أورشليم. وكانوا يعبدونها وتبعهم معظم

الناس في ذلك، مثل الحيوانات وأمنوا بكل عقولهم أن هذا كان مسلماً طيباً. فلتحرر قلوب المؤمنين من فكرة أن الرب يسوع أراد أن يكون ضريحه الذي يضم جسده المقدس مزاراً للحيوانات التي لا تعقل، أو أن تكون هذه الحيوانات مرشداً لأرواح المسيحيين التي دفع دمه ثمناً لخلاصها من دنس الأصنام.

نهاية الحملة الشعبية

كان على الإمبراطورية البيزنطية أن تعاني من تطرف الجموع الكاثوليكية المتعصبة القائمة من غرب أوروبا تحت راية الصليب، هذه الجموع التي قدمت من غرب أوروبا بزمع مساعدة البيزنطيين ضد المسلمين. وفي الطريق من غرب أوروبا تضاعف المرض والجوع مع مقاومة أهالي البلقان والبلاد التي مر بها الصليبيون للقتل بأعداد كبيرة من جيوش الحملة الشعبية؛ فقد هلكت أعداد كبيرة من جيش والتر المفلس وجيش بطرس الناسك، على حين قضى المجريون على جيوش جوتشووك وفولكمار وأميكر التي لم تصل أبداً إلى الأراضي البيزنطية. وهكذا لم تصل إلى القسطنطينية سوى جموع هزيلة بقيادة كل من والتر المفلس وبطرس الناسك. وإذا أدرك الإمبراطور البيزنطي اليكسيوس كومنينوس بخبرته الطويلة في القتال ضد المسلمين أن هذه الجموع الغرقاء التي جمعها الناسك العجوز الأتراك السلاجقة الذين مزقوا صفوف الجيش الإمبراطوري أكثر من مرة، فإنه أحسن لبطرس بالمال والتضيعة وأوصاه أن ينتظر قدام قوات الأمراء.

ولكن بطرس الذي أعجبه كثرة أتباعه، رفض نصيحة الإمبراطور وقبل هضاه. لقد كان أتباع بطرس يتحرقون شوقاً لقتال المسلمين وهم واثقون من النصر، أليسوا هم جند الرب السائرين على طريق الخلاص الذي بناه؟ لقد كان «جنود الرب» في الحملة الشعبية أسرى للوهم الذي أنبته التعصب في نفوسهم، وياتوا يظنون أن المعركة ضد المسلمين ستكون في صالحهم؛ ولذا فإنهم رفضوا نصائح الإمبراطور. ومن ناحية أخرى كانت تصرفات هذه الجموع المشاغبة في القسطنطينية من أهم أسباب نقلهم إلى آسيا الصغرى عبر البسفور، وعلى رمال آسيا الصغرى كانت نهاية مسيرة الفقراء ذات الألف ومائتي ميل. والنصوص التي تقدمها هنا تكشف عن هذه النهاية.

١- رواية أنا كومنينا (*)

أنا كومنينا هي ابنة الإمبراطور اليكسيوس الأول الذي عاش أحداث الحملة الصليبية الأولى. وعندما وصل الصليبيون إلى القسطنطينية كان عمرها أربعة عشر عاماً. وعندما تعدت الخمسين من عمرها كتبت مؤلفها عن عصر أبيها، هو الذي يعرف باسم الاليكسياد Alexiad. وعلى الرغم من بعض العيوب التي تشوب كتاب أنا، فإنه يعطى للقارئ صورة حية من انطباعات الفرنج في القسطنطينية.

«... وفضلاً عن ذلك ، فإن اليكسيوس لم يكن قد استراح، أو استراح قليلاً، من مشاغله، عندما وصلتته شائعة عن وصول جيوش فرنجية بأعداد لا تحصى. كان يخشى غارات هؤلاء الناس، لأنه كان قد خبر بالفعل الغضب الوحشي الذي يميز هجومهم، كما كان يعرف تقلب مزاجهم، واستعدادهم لمعالجة أى شيء. بالعنف...»

«وأخيراً ، احتفظ في عقله بهذه المعلومات، التي غالباً ما تكررت وكانت حقيقية - أنهم كانوا معروفين بأنهم دائماً متطرفون إذا ما أرادوا شيئاً، كما أنهم ينتفضون بسهولة شديدة، ولأى سبب، المعاهدات والإتفاقيات التي عقدها. ومن ثم فإنه لم يسترح على الإطلاق، ولكنه جعل قواته تستعد بكل وسيلة، حتى إذا ما اقتضت الضرورة يكون مستعداً للمعركة. لأن المسألة التي نقلت إليه أخبارها آنذاك كانت أكبر وأكثر رعباً من المجاعة. حقاً، إن القرب بأسره، ولأن أراضي الشعوب البربرية تمتد من خلف البحر الأدرياتي حتى عمودي هرقل (١) - كل هذه المنطقة ، اندفع سكانها إلى آسيا في أعداد غفيرة، ومعهم كل ممتلكاتهم، وشقوا طريقهم عبر مناطق أوروبا الداخلية.

«وكان هناك رجل من الغال، اسمه بطرس، وشهرته بطرس الصغير، كان قد انطلق من وطنه ليتعبد في الضريح المقدس. وبعد أن عانى أخطاء ومخاطر كثيرة من الأتراك والمسلمين، الذين كانوا ينهبون آسيا كلها ، عاد إلى بلاده وقد امتلأ قلبه حزناً وكمداً . ولم يستطع أن يتحمل أن يرى نفسه وقد منع من أداء الحج وقرر أن يذهب بحملة في المرة الثانية...»

«وبعد أن نجح بطرس في تكوين الحملة، كان أول من عبر مضيق اللبارد ومعه ثمانون ألفاً

(*) Anna Comnena, Alexiad, pp. 311_313.

(١) مضيق جبل طارق حالياً.

من الجنود المشاة، ومائة ألف فارس. وبعد أن مر بأراضى المجر وصل إلى المدينة الملكية. لأن جنس الغال، كما يستطيع أى امرئ أن يستنتج من النتائج، ليس فقط جنساً متهوراً وانفعالياً من عدة جوانب، ولكنهم أيضاً حين يستفزون بأدنى شئ لا يمكن السيطرة عليهم. ولأن إمبراطورنا كان مدركاً لما عاناه بطرس على أيدي الأتراك من قبل، فقد حثه على الإنتظار ريثما يصل الكونتات الآخرون..

«ولكنه اعتماداً على كثرة أعداد أولئك الذين تبعوه، لم يستمع إلى النصيحة، وبعد أن عبر المضيق (البسفور) أقام معسكره فى بلدة صغيرة تدعى هيلينوبوليس Helenoplois.

» ولكن لأن جيشه كان يضم النورمان أيضاً، وكان عددهم يقدر بحوالى عشرة آلاف ، فقد فصلوا أنفسهم عن بقية جيشه، ونهبوا الإقليم المحيط بمدينة نيقية، وأشاعوا الشغب بقسوة وبكل وسيلة. إذ أنهم مزقوا بعض الأطفال إرباً إرباً، ونزعو الأطراف، واخترقوا أجساد الآخرين بالعصى الخشبية، ثم شوههم على النار؛ كما أنهم أوقعوا صنوفاً من التعذيب على كبار السن. وعندما رأى من بالمدينة هذه الأمور تحدث ، فتحوا أبواب المدينة وخرجوا لقتالهم. ونتيجة لهذا حدثت معركة رهيبة، ولأن النورمان كانوا يقاتلون بضراوة فقد تفهقهر السكان إلى داخل القلعة. وبعد أن جمع النورمان كل الغنائم عادوا مرة ثانية إلى هيلينو بوليس. وهناك نشب نزاع بينهم وبين غيرهم من الحجاج الذين لم يخرجوا معهم، وهو أمر يحدث عادة فى مثل هذه الظروف، فقد ألهب الحسد قلوب أولئك الذين لم يخرجوا، ونشب قتال عنيف عقب النزاع. وانفصل النورمان المتوحشون مرة أخرى عن الباقين، واستولوا على مدينة اكسيرجورد Xerogord وهم فى طريقهم بعد أول هجوم.

» وعندما ذاع نيباً هذا الحادث أرسل السلطان قائده خبدهم ومعه القوات اللازمة. ولما وصل إلى مكانهم استعاد اكسيرجورد، وقتل بعض النورمان بالسيف ، وأخذ الباقين أسرى، وخطط فى الوقت نفسه لمهاجمة أولئك الذين بقوا مع بطرس الصغير. وأكمن الكمائن فى أماكن مناسبة يقع فيها الصليبيون على غرة إذا ما رحلوا لمهاجمة نيقية. ولكن لأنه كان يعرف أيضاً مدى جشع الغال أرسل إثنين من رجاله يمتازان بجسارة الروح وأمرهما بالذهاب إلى معسكر بطرس الصغير لكى يعلن أن النورمان قد استولوا على نيقية، وأنهم يذهبونها عن آخرها. وإذا وصل هذا النبأ إلى معسكر بطرس، أثار الجميع فى عنف؛ لأنه عندما جاء ذكر الغنائم والثروات، اندفعوا مباشرة فى فوضى على الطريق المؤدى إلى نيقية، وقد نسوا تدريباتهم العسكرية ومراعاة النظام عند خوض المعركة. لأن اللاتين ليسوا مغرمين بالثروات

فحسب، كما ذكرنا من قبل، ولكنهم عندما يقررون شن غارة على أية منطقة بقصد السلب والنهب، فإنهم لا يتقانون لسلطان العقل، أو أية ضوابط أخرى، ومن ثم، فلأنهم لم يحافظوا على النظام، ولم يشككوا خطوط قتال، وقمعوا في الكمين الذي أعده الأتراك حول دراكو ومزقتهم سيوف الأتراك شر ممزق. والواقع أن عدداً كبيراً جداً من الغال والنورمان قتلوا بسيوف الإسماعيليين^(١)، وعندما جمعت جثث القتلى التي كانت مطروحة في أرجاء المكان سوياً، كونت كومة كبيرة أو تلاً، أو مكان استطلاع، مرتفعاً مثل جبل، وكانت تشغل مساحة شاسعة عرضاً وعمقاً. وكان حجم تل الموتى كبيراً، لدرجة أن بعض البرابرة من جنس القتلى شيدوا فيما بعد حائطاً من العظام بدلاً من الحجارة، وبذلك جعلوا هذه القلعة نوعاً من الضريح لضحايا هذه المعركة. وما يزال قائماً حتى اليوم سياج من الأسوار التي بنيت بخليل من الصخور والعظام.

« وهكذا ، بعد أن تم اكتساح الجميع في المنبحة، عاد بطرس بعد قليل إلى هلينبوايس. ولكن الأتراك رغبة منهم في القبض عليه، أعادوا له كميناً آخر. ولكن عندما سمع الإمبراطور بالأمر كله وغرف كيف كان عدد القتلى من الرجال كبيراً، رأى أنه سيكون من الخطأ أن يدع بطرس أيضاً يسقط في أيديهم. ومن ثم ، فإنه استدعى في الحال كتاكالون قنسطنطينيونيوس، الذي ورد ذكره كثيراً في هذا الكتاب، وأرسله مع القوات اللازمة فوق السفن الحربية عبر البحر نجدة لبطرس. وعندما رآه الأتراك يقترب، فروا هاربين...»

رواية المؤرخ المجهول^(٢)

« كان بطرس المذكور هو أول من وصل إلى القسطنطينية في أول أغسطس عام ١٠٩٦م معه كثيرون من الألمان. وهناك وجوا قوماً من شمال وجنوب إيطاليا وكثيرين غيرهم تجمعوا سوياً. وأمر الإمبراطور بإمدادهم ببعض المؤن الموجودة بالمدينة، وقال «لا تعبروا البسفور حتى يصل جيش المسيحيين الكبير، لأن عددكم لا يكفي للقتال ضد الأتراك». ولكن أولئك المسيحيين صرفوا بطريقة مخزية، إذ أخذوا ينهبون قصور المدينة ويحرقونها، كما سرقوا الرصاص من

(١) تستخدم أنا هذه الكلمة للدلالة على المسلمين باعتبارهم أبناء إسماعيل، كما تستخدم كلمات أخرى منشير إليها عند ورودها.

(٢) Gesta Francorum, pp. 2 - 5.

أسقف الكنائس ويأموه إلى اليونانيين، ولذا استشاط الإمبراطور غضباً، وأمرهم بصور
 البسفور. وبعد أن عبروا لم يكفوا عن أفعالهم الشائنة، فأحرقوا المنازل والكنائس ونهبوها.
 وأخيراً وصلوا إلى نيقوميديا، وهناك انفصل الإيطاليون والألمان عن الفرنجة، لأن الفرنجة
 كانوا متكبرين بشكل لا يحتمل. واختار الإيطاليون قائداً اسمه رينالد؛ كما اختار الألمان
 أيضاً قائداً، ودخلوا جميعاً إلى الروم Rum^(١) واستمروا في سفرهم أربعة أيام حتى وصلوا
 إلى ما بعد مدينة نيقية، حيث وجدوا قلعة مهجورة تسمى أكسيرو جورو قاستولوا عليها،
 ووجدوا بها كميات من الغلال والنبذ واللحم، ووفرة من الأشياء الطيبة. ولكن عندما سمع
 الأتراك أن المسيحيين داخل القلعة، جاؤا لحصارها. وأمام بوابتها كان هناك بئر، كما كانت
 هناك عين تحت أسوارها، وهناك ذهب رينالد ليعد كمياً للأتراك، ولكنهم عندما وصلوا في
 عيد القديس ميخائيل أمسكوا برينالد ومن معه؛ وقتلوا كثيرين منهم. وهرب الناجون إلى داخل
 القلعة، التي فرض عليها الأتراك الحصار في الحال، وقطعوا عنها إمدادات المياه. ولذا عانى
 رجالنا من العطش معاناة رهيبة لدرجة أنهم كانوا يجرحون خيولهم ويغالهم ليشربوا الدماء؛
 وكان الآخرون يدلون بالأحزمة والقماش في أنابيب المجارى ويعصرون السائل في أفواههم؛
 على حين كان البعض الآخر يمررون المياه من رجل لآخر بلديهم المطبقة كالأكواب لكي
 يشربوا، وقام غيرهم بحفر الأرض الرطبة وناموا على ظهورهم، وأهالوا التراب على صدورهم
 بسبب جفافهم الشديد من الحر. وكان الأساقفة والقساوسة يشجعون رجالنا لكيلا يعترتهم
 اليباس. واستمرت هذه الحال البائسة ثمانية أيام. ثم اتفق قائد الألمان مع الأتراك على خيانة
 رفاقه، وتظاهر بأنه خارج للقتال وهرب إليهم حيث تبعه كثيرون. أما الباقون، فقد قتل منهم
 من لم ينكر الرب؛ والآخرون الذين أسره الأتراك أحياء، تم تقسيمهم بين الأتراك مثل
 الأغنام، ووضع بعضهم كأهداف صوبت عليهم السهام، وبيع الآخرون كما لو كانوا من
 الحيوانات والبهائم.

«وفيما بعد، عندما سمع الأتراك أن بطرس الناسك، ووالتر المفلس في كيثيتوس التي تقع
 وراء مدينة نيقية، قدموا إلى هناك بحمية قاصدين أن يقتلوهما ومن معهما من الرفاق، وعندما
 جاؤا وجدوا والتر ورجاله يقتلهم في الحال. وعلى أية حال، فإن بطرس الناسك، كان قد
 ذهب إلى القسطنطينية قبل أن يحدث ذلك بوقت قصير، لأنه لم يستطع السيطرة على مثل هذا

(١) Rum إسم محرف عن رومانيا Romania التي تعرف باسم آسيا الصغرى.

الخليط من الناس الذين رفضوا أن يطيعوه أو يستمعوا إلى ما يقوله، وانقض الأتراك على رجاله وقتلوا معظمهم - وقد وجدوا بعضهم نياماً، والبعض الآخر عرايا، فذبحوهم جميعاً. وبين الباقين وجدوا قسيساً يتلو القداس فقتلوه فوراً على المذبح. أما أولئك الذين استطاعوا الهرب، فقد فروا إلى كيثيتوس، وقفز البعض إلى البحر، على حين أختبأ آخرون في الغابات والجبال. وطارد الأتراك بعض رجالنا إلى داخل القلعة، وكوموا الأخشاب لكي يحرقوهم مع القلعة، ولكن المسيحيين الذين بداخل القلعة هم الذين أشعلوا النيران في كومة الأخشاب، وهبت ألسنة اللهب تجاه الأتراك وحرقت بعضهم، وأنقذ الرب رجالنا من هذه النيران. وأخيراً أخذهم الأتراك أحياء، وقسموهم فيما بينهم كما فعلوا مع الآخرين من قبل، وأرسلوهم عبر الأراضي المجاورة إلى خراسان كما أرسلوا بعضهم إلى فارس. وحدث هذا كله في أكتوبر. وعندما سمع الإمبراطور أن الأتراك قد ألحقوا مثل هذه الهزيمة برجالنا ابتهج كثيراً^(١)، وأصدر أوامره بنقل الناجين عبر البسفور. وعندما عبروا [إلى الأراضي البيزنطية] جردهم من سلاحهم تماماً».

٣- رواية ألبرت الأيكسي (*)

«... وتحركت عاطفة الإمبراطور عندما سمع هذه الحكاية المتواضعة وأمر بصرف مائتي بيزننت^(٢) لبطرس ومن هذه الأموال التي كانت تسمى تارتارون وزع جزءاً على جيشه. وبعد ذلك خرج بطرس من الاجتماع ومن قصر الإمبراطور، وعلى الرغم من أنه كان في حماية الإمبراطورية الطليبية، فقد بقي خمسة أيام فقط في الحقول والأراضي القريبة من القسطنطينية، حيث كان والتر المنقلس أيضاً قد ضرب خيامه. وإذا صاراً رفيقين منذ هذا اليوم، فإن قواتهما وأسلحتهما وكل المؤن الضرورية لهما صارت شركة لهما. وبعد ذلك بخمسة أيام، حركوا خيامهم، وبمساعدة الإمبراطور عبروا مضيق القديس جورج على متن القوارب. وعندما دخلوا حدود قبادوقيا تقدموا عبروا البلاد الجبلية داخل نيقوميديا وأمضوا الليل هناك.

(١) هذا الكلام يناقض كلام أنا كوميننا، ويكشف في الوقت نفسه عن روح التعصب المتبادل بين اللاتين والبيزنطيين.

(٢) * 112. 108. Albert of Aix, in Peters, pp.

(١٢) عملة ذهبية بيزنطية.

وبعد ذلك، أقاموا معسكرهم في الميناء الذي يسمى كيفيتوت. وهناك كان التجار يجلبون باستمرار السفن المحملة بإمدادات التبيذ والفلل والزيت والشعير، وكميات وفيرة من الزبد، ويبيعون هذا كله للحجاج بسعر معقول.

« وبينما كانوا يتمتعون بوفرة الضروريات ويرىحون أجسادهم المرهقة، جاءتهم رسل الإمبراطور المسيحي التقى. وبسبب أخطار الكمائن وهجمات الأتراك منعوا بطرس وجيشه من السير تجاه الإقليم الجبلى المحيط بمدينة نيقية حتى تلحق بهم أعداد أكبر من المسيحيين. وسمع بطرس الرسالة، وامتلئ هو وجميع المسيحيين لنصيحة الإمبراطور. ومكثوا هناك على مدى شهرين يعيشون في سلام ومرح، وينامون آمنين من كل الهجمات المعادية.

«وهكذا بعد شهرين، وقد أصبحوا طائشين جامحين بسبب الراحة ووفرة الطعام الهائلة، ولم يستمعوا لصوت بطرس، وإنما دخلوا إقليم مدينة نيقية وممتلكات سليمان ضد إرادته. ونهبوا قطعان الماشية والأغنام والماعز وقطعان الحيوانات التي يملكها اليونانيون العاملون في خدمة الأتراك، وحملوا هذا كله إلى رفاقهم. وعندما رأى بطرس هذا، إمتلأ قلبه أسفاً، لأنه عرف أن هذا لن يمر دون قصاص. وكان غالباً ما ينهاهم عن الإستيلاء على أية غنائم أخرى ولا يخالفوا نصيحة الإمبراطور، بيد أن كلامه كان يذهب سدى لأنه كان يخاطب قوماً حمقى مشاغبيين...»

«ولكن التيتوتون حين رأوا أن الأمور كانت تسير على خير وجه بالنسبة للرومان والفرنجة، وأنهم كانوا يعربون مرات عديدة مثقلين بغنائم، توقدت بداخلهم رغبة عارمة في القيام بأعمال السلب والنهب، وتجمع حوالى ألفين من الجنود المشاة وحوالى مائتى فارس..»

«وهكذا ، بعد أن تم الإستيلاء على القلعة بأكملها وأُخرج سكانها، تنعم [الصليبيون] بما وجدوه من طعام وفير، وإذا اغتبطوا بهذا النصر، تشاوروا فيها بينهم بأنهم إذا بقوا في هذه القلعة يمكنهم بسهولة أن يحصلوا على أراضى وأملك سليمان بفضل بسالتهم؛ إذ إنهم سوف يجمعون الأسلاب والطعام من كل الأنحاء، وبهذا يضعفون سليمان بسهولة، حتى يصل جيش القادة الكبار الموعد. وعندما سمع سليمان قائد جيش الأتراك بوصول المسيحيين، وما قاموا به من أعمال السلب والنهب، جمع من كافة أنحاء رومانيا ^(١) وأراضى خراسان خمسة عشر

(١) آسيا الصغرى.

ألفا من الأتراك ، معظمهم من الرماة المهرة جداً فى استخدام القوس... ويقال إنه بعد شروق شمس اليوم الثالث ، وصل سليمان وأتباعه من نيقية إلى القلعة التى كان التيوتون قد غزوها.. ومن ثم، فإن الأتراك الذين لم يستطيعوا إخراج الألمان بهذا الهجوم ووابل السهام، جمعوا كل أنواع الأخشاب عند بوابة القلعة. وأضرموا فيها النيران وأحرقوا البوابة ومباني كثيرة داخل القلعة. وعندما كبرت ألسنة اللهب احترق البعض حتى الموت؛ وقفز الآخرون من الأسوار أملاً فى النجاة. ولكن الأتراك الذين كانوا خارج الأسوار مزقوا بسيوفهم أولئك الهاربين وأسروا حوالى مائتين ممن كان مظهرهم حسناً وأجسامهم شابة؛ وقضوا على الآخرين جميعاً بالسيف والسهم..

« وفى الوقت نفسه ، اكتشفت الحقيقة وثارت ضجة فى المعسكر بين الناس. وجاء الجنود المشاة مجتمعين إلى رينالد البرويى ووالتر المفلس، ووالتر البريتلى، وأيضاً فولكر الأورليانزى الذين كانوا قادة جيش بطرس، وحرصوهم على أن يهبوا سوياً لتحرير إخوانهم ضد وقاحة الأتراك. ولكنهم رفضوا الذهاب دون حضور بطرس ومشورته. وحينئذ، فإن جودفرى بوريل ، قائد الجنود المشاة أكد عندما سمع هذه الإجابة، أن من يهاب لا يمكن أن يسود فى الحرب مثل الجسور؛ وفى كلمات قاسية وبخ أولئك الرجال الذين منعوا رفاقهم الآخرين من مطاردة الأتراك انتقاماً لإخوانهم. ومن ناحية أخرى، فإن قادة الجيش الذين لم يستطيعوا تحمل توبيخه وأهانته أكثر من هذا ، ولا أن يتحملوا إهانات رفاقهم، حركهم الغضب العنيف والكبرياء فوعدوا بالخروج ضد قوة الأتراك ومقتوهم ، حتى لو اقتضى الأمر أن يموتوا فى المعركة.

«ولم يكن ثمة تأخير، ففى فجر اليوم الرابع، صدرت الأوامر لكل الفرسان والمشاة فى المعسكر بتسليح أنفسهم، ودقت الطبول، وصدرت الأوامر بالتجمع للمعركة. ولم يمكث فى المعسكر سوى غير المسلحين والمرضى العديدين، والنساء. ولكن جميع الرجال المسلحين الذين وصل عددهم إلى خمسين ألفاً من المشاة وخمسمائة من الفرسان المدرعين، شقوا طريقهم سوياً صوب نيقية، لكى ينتقموا لإخوانهم باستفزاز سليمان وبقية الأتراك لدخول المعركة. وهكذا قسموا أنفسهم فى ستة صفوف، وارتفعت البيارق فوق كل من هذه الصفوف، وتقدموا من اليمين ومن الشمال».

«وكانوا يصيحون ويزعقون فى جلبة وضوضاء شديدة، وما كانوا يتقدمون عبر القلعة

المذكورة والإقليم الجبلى ثلاثة أميال من ميناء كيفيتوت، مكان تجمعهم (وكان بطرس غائباً ولم يعرف شيئاً عن هذا كله)، حتى دخل سليمان على غرة ومعه كل رفاقه القساة القلعة نفسها من الجانب الآخر. فقد كان قادماً من مدينة نيقية لينقض فجأة على الغال فى المعسكر وفى قصده أن يكتسبهم ويدمرهم فى غفلتهم وعدم استعدادهم. وعندما سمع جلبة وضوضاء المسيحيين وهم يقتربون ، تعجب كثيراً عن مغزى هذه الضوضاء، لأنه لم يكن يعرف بكل ما قرره المسيحيين. وإذا اكتشف أنهم من الحجاج خاطب سليمان رجاله قائلاً : «قفوا ، فإن الفرنج الذين كنا نسير ضدهم فى متناول أيدينا. دعونا ننسحب من الغابة والجبال إلى السهل المقترح، حيث يمكننا أن نخوض المعركة ضدهم، وحيث لا يجدون لأنفسهم ملجأ ولا ملاذاً». ومن ثم، فعلوا هذا دون تأخير بأمر سليمان، وفى صمت عميق انسحبوا من الغابة ومن الجبال.

«ولكن الفرنج، الذين لم يعلموا باقتراب سليمان، تقدموا من الغابة والجبال صائحين فى جلبة وضوضاء شديدة. وهناك رأوا لأول مرة خطوط القتال فى جيش سليمان فى منتصف الميدان، بانتظارهم لخوض المعركة. وعندما رأوا الأتراك، بدأوا يشجعون بعضهم بعضاً باسم الرب..»

« وهناك سقط والتر المفلس وقد اخترقت جسده سبعة سهام تغلغل فى معطف الزرد الذى كان يرتديه. وسقط رينالد البروى وفولكر الشارتري، اللذان كانا مشهورين للغاية فى وطنهما، شهيدين بسلاح العدو، بعد أن قتل عدداً كبيراً من الأتراك. ولكن والتر البروتيلي ابن والتر أميوس وجويفرى بويل قائد الجنود المشاة هربا عبر الأشواك والأحراش الجبلية، وتقهقرا بطول الممر الضيق الذى سحب الجيش كله عن طريقه من المعركة، واجتمعا سوياً، وعندما شاع خبر هروب هذين الرجلين، ولى الجميع فراراً، وأسرعوا صوب كيفيتوت على نفس الطريق الذى جاؤا منه، ولكن دون قتال كثير ضد العدو.

«وهكذا ، فإن الأتراك الذين اغتبطوا بنصرهم، أخذوا يجدون فى القضاء على عصابة الحجاج التعمسة، وطاردهم على مدى أميال ثلاثة بالقتل حتى معسكر بطرس. ودخلوا إلى الخيام، ليقضوا بسيوفهم على كل من وجده ، الضعيف والعاجز، القساوسة والرهبان، النساء المسنات، والأطفال الرضع، والأشخاص من كل سن. ولكنهم اقتادوا البنات اللاتي كانت وجوههن وأجسادهن تروق فى عيونهم، والشباب الصفار نوى المظهر الحسن. كما حملوا إلى

نيقية الأموال والأواني والبغال والخيول، وكل الأشياء القيمة، كما حملوا الخيام ذاتها.

«ولكن على شاطئ البحر، قرب كيفيتوت، المذكورة، كانت هناك قلعة مهجورة وقد اندفع صوب هذه القلعة ثلاثة آلاف حاج فراراً. ودخلوا القلعة الخربة على أمل أن يدافعوا عن أنفسهم فيها. ولكنهم لم يجدوا بوابات أو أية عوائق أخرى، ولأنهم كانوا قلقين ومجربدين من أية مساعدة، فقد كوموا دروعهم وصنعوا منها بوابة ومعها كومة كبيرة من الأحجار؛ والحراب والأقواس الخشبية وقذائف الأحجار، ودافعوا عن أنفسهم في شجاعة ضد العدو. ولكن الأتراك الذين رأوا أنهم لا يحرزون سوى نجاح قليل في قتل من بالداخل، أحاطوا بالقلعة التي كانت بلا سقف، من جميع الجوانب. وصوبوا سهامهم عالياً، حتى إذا ما نزلت مثل وابل المطر، تضرب في أجساد المسيحيين بالداخل، وتقضى على التعمساء المساكين، وربما يضطر الآخرون إلى التسليم عندما يرون هذا. ويقال إن كثيرين قتلوا أو جرحوا بهذه الوسيلة؛ ولكن الآخرين خشوا أن تصيبهم معاملة أكثر سوءاً من هذا العدو القاسي، لم يستطيعوا الخروج سواء بالقوة أو بالسلاح...

«وتحرك الإمبراطور بالشفقة عندما سمع من بطرس عن حصار رجال وسقوطهم، ولذا فإنه استدعى التركبولي^(١) وكل الناس في مملكته، وأمرهم بالذهاب في سرعة عبر المضيق لنجدة المسيحيين المحاصرين والهاربين، وأن يصنعوا الأتراك المهاجمين عن الحصار. ولكن الأتراك عندما عرفوا بمرسوم الإمبراطور تركوا القلعة في منتصف الليل ومعهم أسراهم من المسيحيين وكما هائلاً من الغنائم وهكذا تم تحرير جنود الحجاج الذين كان الأتراك الكفار يحاصرونهم...».

(١) قوات من المرتزقة الأتراك كانت تعمل في خدمة الإمبراطورية البيزنطية.

القسم الرابع : حملة الفرسان الطريق إلى القدس

حملة الفرسان

اشاحت البابوية بوجهها عن الزلزال الاجتماعى الذى صاحب خروج الحملات الشعبية، ومضى البابا إريان الثانى فى سبيله للإعداد للحملة الرئيسية التى سيقوم بها «الذين يحاربون»، والذين كان البابا قد خاطبهم بصفة أساسية فى كليرمون. وكانت الاطماع السياسية والامال الدنيوية واضحة فى حركة الفرسان. وكان قد تم الاتفاق على تحديد يوم الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٠٩٦م موعداً لخروج حملة الفرسان. وبعد أن أتم الفرسان استعداداتهم خرجوا فى عدة جيوش قسمت على أساس التقسيمات الجغرافية واللغوية، فضلاً عن التكوين الإقطاعى لجيوش العصور الوسطى فى أوروبا. وتم الاتفاق بينهم على تحديد مكان اللقاء فى الشرق، كما اتفقوا على أن يقود كل منهم جيشه بمفرده، ولا يسير على نفس الطريق الذى سار عليه الآخرون حتى لا تواجههم مشاكل التموين والإمدادات الضخمة التى لم يكن هناك إقليم فى أوروبا بأسرها يمكنه توفيرها لهذه الجيوش الجاراة.

ومنذ البداية واجهت حملة الفرسان مشكلة التمويل؛ إذ لم يكن يوسعهم أن يفامروا بالخروج دونما تنظيم أو استعداد مثلما فعلت جماهير الحملات الشعبية الخرقاء. وقد اعتمدوا على الصداقات والتبرعات، ولجا بعضهم إلى رهن أملاكه لدى الأديرة والكنائس المحلية، على حين لجأ البعض الآخر إلى ابتزاز اليهود. وبينما كانت شرائم الحملات الصليبية تتخبط فى ممرات البلقان، ثم تلقى نهايتها المزرية خارج حدود الدولة البيزنطية فى قفار آسيا الصغرى، كانت حملة الفرسان الصليبية الكبرى تحشد قواتها الضاربة وفرسانها المدربين جيداً، لتسير على الطريق إلى القدس فى أواخر صيف سنة ١٠٩٦م.

أما الإمبراطور البيزنطى، الذى علمته تجاربه المريرة مع عصابات الحملة الشعبية ألا يترك شيئاً للصدفة فى علاقته مع القادمين من الغرب الأوروبى، فقد أرسل إلى قواته البحرية والبحرية يأمرهم بالحذر واليقظة تحسباً لقدم أية جيوش. وفى القسطنطينية صافحت عيون اللاتين القادمين من الغرب الأوروبى المتخلف مظاهر العظمة والثراء والرقى البيزنطية. وبدأ الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس يروض الأمراء الصليبيين بالمال والترغيب تارة، وبالقتال والتهديد تارة أخرى حتى نجح فى تحقيق هدفه.

بعد ذلك مرت الحملة الصليبية بعدة أحداث تقلبت خلالها أحوال الصليبيين بين اليأس والامل، وحلوة النصر ومرارة الهزيمة، وفي مسيرة هذه الجيوش التي شكلت الحملة الصليبية الأولى كان تأثير الجانب الدينى ضعيفاً على قادة الجيوش الصليبية وفرسانها. إذ إن المنافسات والمنازعات، وسميهم الدائب وراء مصالحهم الفردية كانت سمة عامة ميزت هذه الحملة. وفي غضون هذه المرحلة كانت تختفى تماماً أنباء المعجزات والرؤى والأحلام المقدسة، وبدأت العوامل الدنيوية تفرض نفسها. وطالما كانت الحملة تسير بسهولة وتحرز إنتصاراتها في يسر، اختفت هذه الأخبار الغيبية؛ فإذا ما جابهت الحملة مشكلة ما، عادت أنباء الرؤى الإعجازية والأحلام المقدسة، والظواهر الخارقة والمعجزات، ومن المثير حقاً أن الأحلام المقدسة كانت من نصيب الفقراء الذين راهقوا الحملة.

والنصوص التي تقدمها في الصفحات التالية تحكى قصة حملة الفرسان الصليبية، منذ خروجها في أخريات صيف سنة ١٠٩٦م، حتى الإستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٩م، مروراً بحوادث المجر والبلقان، واللقاء في القسطنطينية، وحوادث أنطاكية.

أولاً : الرحلة إلى القسطنطينية (أغسطس ١٠٩٦ - ١٠٩٧) الرحيل

١- رواية فوشيه الشارترى (*)

« في سنة ١٠٩٦ من تجسد سيدنا، وفي شهر مارس الذي أعقب المؤتمر الذي عقده البابا إريان خلال شهر نوفمبر في أوفريني، بدأ البعض ممن كانوا أسرع من الآخرين في الرحيل في الرحلة المقدسة. وتبعهم آخرون في أبريل ومايو، وفي يونيو أو يوليو، بل وحتى في أغسطس أو سبتمبر أو أكتوبر، وفقاً لقدرة كل منهم على تدبير وسائل الحصول على النفقات.

« وفي هذه السنة كان السلام مستتباً، وكانت الغلال وفيرة في جميع البلاد بفضل رحمة الرب، بحيث لم يكن هناك نقص في الخبز أثناء الرحلة لمن اختاروا أن يتبعوا الرب بصليبانهم حسب أوامره.

«وبما أنه من المناسب أن نتذكر أسماء قادة الحجاج في ذلك الوقت أذكر هيو الكبير أخا الملك فيليب ملك فرنسا (١) ، أول الأبطال الذين عبروا البحر. وقد هبط هيو برجاله قرب درازو، وهي مدينة في بلغاريا (٢) ، ولكنه اندفع بقوات صغيرة فقبض عليه سكان المنطقة وقادوه إلى الإمبراطور في القسطنطينية. وهناك استقر لبعض الوقت دون أن يطلق سراحه تماماً.

«وبعد بوهيموند أمير أبوليا، وهو أحد أبناء روبرت جويسكارد، من وطن النورمان، الذي مضى بجيشه على نفس الطريق.

«ثم جودفري، نوك اللورين، الذي سافر عبر بلاد المجر بقوات كبيرة.

«أما ريمون، كونت البروفنس، ومعه القوط والجاسكون، وكذلك أديمار أسقف لي بروج، فقد عبروا خلال دالماتيا.

«وثمة رجل يدعى بطرس الناسك، جمع حوله جمعاً من المشاة وعدداً قليلاً من الفرسان كان أول من عبر المجر. وبعده والتر المفلس، الذي كان جندياً ممتازاً بالتأكيد، وكان قائد أولئك القوم. وقد لقي مصرعه فيما بعد بين نيقوميديا ونيقية على أيدي الأتراك.

«وفي شهر أكتوبر ، بدأ روبرت كونت النومان ، وأحد أبناء وليم ملك إنجلترا، رحلته. وقد جمع جيشاً كبيراً من النورمان والإنجليز والبريتون. وذهب معه سيتفن، كونت بلوا النبل، صهره (٣) ، ومعهما روبرت كونت الفليمنج، وكثيرون غيرهم من النبلاء.

«ومن ثم جاءت جموع كثيرة من شتى بلدان الغرب، وكبر الجيش رويداً رويداً، و يوماً بعد يوم بحيث صار مجموعة من الجيوش. وكان باستطاعتك أن ترى أعداداً لا تحصى من بلدان عديدة تتكلم بلغات شتى. ومهما يكن من أمر، فإنهم لم يجتمعوا في جيش واحد حتى وصلنا مدينة نيقية.

«ماذا عساي أن أقول؟ لقد تحركت جزر البحر وكافة ممالك الأرض بشكل يجعل المرء.

(١) هيو كونت فرمانوا ، الأخ الأصغر لفيليب الأول ملك فرنسا .

(٢) هي حالياً في البانيا، وكانت ضمن بلغاريا حتى قضى الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني الشهير بسفاح البلغار على المملكة البلغارية سنة ١٠١٨م.

(٣) كان ستيفن كونت بلوا وشارتر قد تزوج من أديلا ابنة وليم الفاتح، وأخت الكونت روبرت.

يعتقد أن نبوة داود قد تحققت ، إذ قال في المزامير: «كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يارب ويمجدون اسمك»^(١). وما قاله الذين وصلوا بعد ذلك حقاً وصدقاً: «لندخل إلى مساكنه. لنسجد عند موطن قدميه»^(٢). وعن هذه الرحلة قرأنا كثيراً في النبوءات التي لا نملُ ترديدها.

«أواه يا له من حزن ، ويا لها من زفرات وبكاء، ويا له من أسى بين الأصدقاء حين يترك الزوج زوجته الحبيبية، ويترك أطفاله ، وممتلكاته مهما كبرت، وحين يترك المرء أباه وأمه، وإخوته وغيرهم من الأقارب.

» ولكن مهما كانت الدموع التي أراقها الباقون من أجل أصدقائهم الراحلين، فإن أحداً لم يحجم عن الرحيل لأنهم كانوا يتركون كل ما يتركون في سبيل حب الرب لأنهم كانوا مقتنعين تماماً بأنهم سينالون ضعفها مائة مرة حسبما وعد الرب من يحبونه.

» ثم أخبر الزوج زوجته عن الوقت الذي يتوقع فيه الرجوع، مؤكداً أنه إذا نجا بفضل الله فسوف يعود إليها. وقد تركها في رعاية الرب وقبلها، ووعدها حين بكث أنه سيعود. وهي، إذ خشيت ألا تراه مرة ثانية لم تتمالك نفسها، فسقطت على الأرض مغشياً عليها؛ تنعى حبيبها الحى كما لو كان ميتاً. وهو يبدو عليه عدم التأثر لبكاء زوجته، أو عدم الشعور بالألم لحزن أصدقائه، ومع ذلك فإنه يعاني هذه المشاعر سرّاً، ويمضى في طريقه عاقداً العزم على الرحيل.

» وعلى أية حال، فإن الحزن الذي أصاب الباقين، كان سروراً للراجلين. فما الذين يمكن أن نقوله إذن؟ «من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا»^(٣).

٢- رواية المؤرخ المجهول (*)

« جيشنا الثانى جاء عبر أراضي دلماشيا^(٤). وكان يقوده ريمون كونت سان جيل وأسقف

(١) مزامير - ٨٦ : ٩.

(٢) مزامير - ١٣٢ : ٧.

(٣) مزامير : ١١٨ : ٢٣.

(*) Gesta Francorum, pp. 5 - 6.

(٤) يوجسلافيا الحديثة. وهو هنا يعتبر أن الحملة الشعبية كانت هي الجيش الصليبي.

لى بوى. الجيش الثالث سار عبر الطريق الرومانى القديم ^(١). وفى هذه المجموعة كان بوهيموند وريتشارد صاحب الإمارة ^(٢)، وروبرت كونت الفلاندرز وروبرت النورمانى، وهيو الكبير، وايفرارد البويستى، وأشارد المونتمرلى، وايزارد الموزونى، وكثيرون غيرهم، وقدم بعضهم إلى ميناء برنديزى. على حين جاء الآخرون إلى بارى أو أوترانتو. وقد أبحر هيو الكبير ووليم ابن الماركيز ^(٣) من بارى إلى درازو، ولكن حاكم ذلك المكان، عندما سمع بوصول محاربين مُجَرَّبِينَ كهؤلاء، وضع خطة خيانة فى الحال، وقبض عليهم وأرسلوهم تحت الحراسة إلى الإمبراطور فى القسطنطينية، حتى يقسموا يمين الولاء له..».

٣- رواية وليم الصورى (*)

«وعندما انقضى الشتاء وبدأت بشائر الربيع، وعندما انتهى الطقس البارد وأفسح مكانه للطقس المنعش الذى عاد للأرض، جهزوا خيولهم، وأعدوا أسلحتهم، وجمعوا متاعهم، وأولئك الذين كانوا سيرحلون سوياً اتصلوا ببعضهم البعض ورتبوا فى حرص للوقت الذى يتحتم فيه أن يبدأوا، وموعد اللقاء، والطريق الذى يمكنهم أن يسيروا عليه فى سهولة وبسرعة. طالما أنه لا يوجد إقليم واحد يمكن أن يقدم ضروريات المعيشة لهذه الآلاف العديدة؛ تم الترتيب بعناية على أن يقوم كل من القادة البارزين بتوجيه قواته بشكل منفصل ولا يسلك نفس الطريق الذى سلكه الآخرون، ولم يكن للجيش أن تتقابل قبل أن تصل إلى مدينة نيقية. لأنه كما سنشرح فيما بعد، ذهب النوق بجيشه عن طريق المجر، على حين ذهب القادة الآخرون عبر أبوليا. وهكذا جاوا جميعاً، ولكن فى أوقات مختلفة، إلى القسطنطينية.

«وفى الوقت نفسه، جهزوا المعدات التى ظنوا أنها ستكون كافية لمثل هذه الرحلة، وحاول كل منهم أن يقدر مبلغ المال الضرورى للسفر، وفقاً لطول الطريق، جاهلين أن سبل الرب ليست بأيدي الإنسان. لأن الإنسان فى ضعفه لا يعرف ما يخبئه له الغد.

«وفى كل أقاليم الغرب، لم يكن هناك منزل واحد بلا عمل؛ لأن كل رجل كان مشغولاً

(١) طريق Egnatia (١)

(٢) ابن عم بوهيموند وأمير سالرنو.

(٣) ابن أخت بوهيموند Emma

Wiliam. I. pp. 96- 97. (*)

بترتيب شئونه الخاصة التي كانت تقلقه. فهنا رب الأسرة ، وهناك الإبن ، وهنا الأسرة بكاملها تعد عدتها للرحيل.

«وأرسلت خطابات عديدة، شجع فيها أولئك الراحلون سويًا بعضهم البعض، ويحثون بعضهم على عدم التأخير، وينصحون بالرحيل المبكر. وعندما جمع أولئك الذين تم تعيينهم قادة لمختلف الفرق بقية أتباعهم، انتزع هؤلاء أنفسهم من أحضان أعزائهم بالبكاء والالتعهدات، وبعد أن تبادلوا كلمات الوداع الأخيرة والقبلات، رحلوا. وبالدموع والنحيب بينما كانت الزوجات تحملن الأطفال في أيديهن. تودعن أزواجهن. وبعد كلمات الوداع الأخيرة، تابعوا بنظرات ثابتة أولئك الذين لم يستطيعوا أن يذهبوا معهم في الواقع إلى أبعد من ذلك».

رحلة روبرت كونت نورماندى إلى القسطنطينية (*)

« بعد أن تركنا بلاد الغال ورحلنا خلال إيطاليا، وصلنا نحن الفرنجة الغربيين حتى لوكا، وهى مدينة شهيرة جدًا. وبالقرب منها قابلنا البابا إريان الثانى؛ وتكلم معه روبرت النورمانى . وستيفن كونت بلوا وغيرهما ممن رغبوا فى ذلك. وبعد أن منحنا بركاته واصلنا مسيرتنا فراحين إلى روما.

« وعندما دخلنا إلى كنيسة بطرس، قابلنا أمام المذبح رجالاً من أتباع ويبرت البابا المزيف^(١)، وكانت معهم السيوف بأيديهم فاخطفوا القرايين التى قدمت على المذبح. وكان هناك آخرون يجرون فوق سقف الكنيسة ذاتها جينة وذهايا ، ومن هناك يقذفون الأحجار علينا بينما كنا نصلى. لأنهم عندما كانوا يرون أحداً مخلصاً لأريان، يريدون ذبحه فوراً.

« وفى أحد أبراج الكنيسة كان يوجد رجال السيد إريان، وكانوا يحرسونه من أجله بإخلاص، ويصمدون فى وجه خصومهم قدر طاقتهم. وانتابنا حزن شديد عندما رأينا مثل هذه الأفعال الشنيعة ترتكب هناك، ولكننا لم نكن نرغب فى شىء سوى أن يحل بهم عقاب من الرب. وبناء على ذلك، فإن كثيرين ممن جاؤا معنا حتى هذا المكان انتابهم الضعف والجبن، فعانوا إلى ديارهم دون تردد.

Fulcher de Chartres. pp. 74 - 78.

(*)

(١) بسبب النزاع بين البابوية والامبراطورية ، قام الإمبراطور الألماني هنرى الرابع بتعيين بابا مناوى لإريان الثانى فى روما هو ويبرت هذا.

« ومن ناحية أخرى ، فإننا مضينا عبر كامبانيا حتى وصلنا إلى باري، وهي مدينة غنية تقع على شاطئ البحر. وهناك في كنيسة سان نيقولاس صليبا للرب بحرارة، وبعد ذلك اقتربنا من الميناء وفي ظننا أن نعبّر البحر في ذلك الوقت. ولكن معارضة البحارة، وسوء الحظ، وطقس الشتاء تكاثفت علينا. وعرضتنا للخطر، فكان من الضروري أن ينسحب الكونت روبرت نورماندى إلى كالابريا ويقضى الشتاء القاسى هناك، ومع ذلك، فإن الكونت روبرت أمير الفلاندر عبر بجيشه البحر في ذلك الوقت.

«وكثيرون من الناس الذين تركهم قادتهم وخشوا ما قد يحمله المستقبل من سوء باعوا أقواسهم، وخلعوا شارات الحج، وعادوا أدراجهم إلى بلادهم كالجبناء. ولهذا السبب ظهروا بلا قيمة أمام الرب وأمام الناس، وحل بهم خزي وعار كبير.

« وفي سنة ١٠٩٧ من سنوات الرب ، وعندما كان طقس الربيع يهل بصحبة شهر مارس إتجه روبرت النورماندى والكونت ستيفن أمير بلوا ، اللذان كانا ينتظران تحسن الأحوال الجوية برجالهما صوب البحر فى الحال. وتم تجهيز الأسطول، وفي أبريل فى يوم عيد الفصح المبارك، ركبوا السفن من ميناء برنديزى.

« ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء. » (١) لأننا شاهدنا قارباً واحداً بين القوارب الأخرى، كان قرب الشاطئ ولم يكن يبدو أن هناك ما يعوقه، وفجأة انشق من منتصفه. وكان عليه أربعمائة شخص من الجنسين هلكوا غرقاً ولكنهم حمدوا الله وسبحوه بسرور فى الحال بصوت عال.

« ذلك أنه حين تمكن الموجودون بالمكان من جمع الجثث التى استطاعوا جمعها، اكتشفوا أن الصليبان قد وسمت فوق اللحم على أكتاف بعضهم، وأن ما كان يحمله الأحياء على ملابسهم كان ينبغى بإرادة الرب أن تظل معهم العلامة المنصورة (الصليب)، لأنهم قضوا نحبهم هكذا وهم فى خدمته بفضل دينهم. وفى الوقت نفسه، فإن العقل يجعل الأمر واضحاً لمن يتدبر ويفكر فيه، أنه كان من المناسب، أنه بمعجزة كهذه ، حصل أولئك الموتى فعلاً بفضل الرب ورحمته على سلام الحياة الخالدة بالدليل الواضح الذى حقق النبوة التى قالت إن العادل، سيجد السلام، ولو مات قبل الأوان.

(١) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: ١١ : ٣٣.

« أما الآخرون الذين كانوا يصارعون الموت، فلم ينج منهم سوى عدد قليل. وقد أهلكت أمواج البحر الخيول والبغال، كما فقدت أموال كثيرة. وعندما رأينا هذه الكارثة، تملكنا خوف شديد لدرجة أن كثيرين من ضعاف القلوب، الذين لم يكونوا قد صعدوا على متن السفن بعد، عادوا أدراجهم إلى بلادهم، وتخلوا عن رحلة الحج، قائلين إنهم لا يمكن أن يضعوا أنفسهم أبداً تحت رحمة مياه البحر الغامرة. »

« ولكننا إذ وضعنا أملنا في الرب العظيم في أعماقنا، مع الأشرعة وقد رفعت مرة أخرى، وبنى صوت الطبول عاليًا، انتفعنا إلى البحر، على حين كانت الريح تهب في لطف. وبعد أن توقفنا في أعالي البحار ثلاثة أيام بسبب سكون الريح، وفي اليوم الرابع^(١) وصلنا إلى أرض تبعد حوالي عشرة أميال عن مدينة درازو Durazzo حسب تقديري . وقد أرسينا أسطولنا في مينائين. ثم واصلنا رحلتنا البرية في سرور واقتربنا من المدينة التي نكرناها من قبل.

« وقد مضينا فوق أرض البلغار، في مناطق جبلية وأماكن صحراوية إلى حد ما. ثم وصلنا جميعاً إلى النهر السريع الذي يسميه سكان تلك الأماكن بنهر الشيطان، وهو اسم يستحقه. لأنه كان هناك إناس عديون، غالبهم التيار القوي فجأة، فهلكوا وهم يحاولون الخوض فيه خطوة فخطوة. ولم يستطع أحد من الذين شاهدوا المنظر مساعدتهم. وهناك أرقنا دموعاً غزيرة حزناً عليهم وشفقة بهم، ولو لم يقدم الفرسان مساعدتهم للسائرين على أقدامهم، لفقد كثيرون حياتهم بنفس الطريقة. ثم أقمنا معسكرنا قرب ضفة النهر، وهناك توقفنا ليلة واحدة. وكانت الجبال الشاهقة غير المألوفة تطل علينا كالأبراج من كل اتجاه.

« وفي الصباح الباكر عندما لاح ضوء النهار، ومع دقات الطبول والإشارات ، بدأنا نتسلق التي يسمونها الباجولاتس [الباجورا] . وبعد أن عبرنا المدن الجبلية مثل لوكريتيا، وبوتيل، وبونفينا، وستيلا، وصلنا إلى نهر يسمى باردايوس [فردار]. وكان من المعتاد عبوره بواسطة القوارب فقط، ولكن بمساعدة الرب أمكننا أن نعبره، وفرحنا لهذا. وعندما عبرناه ضربنا خيامنا في اليوم التالي قبالة تسالونيكا ، وهي مدينة تنعم بكل البضائع.

« وبعد أن تأخرنا هناك أربعة أيام^(٢) ، ذهبنا من هناك إلى مقونيا عبر وادي فيليبس^(٣).

(١) التاسع من أبريل سنة ١٠٩٧ م.

(٢) من ٢٢ إلى ٢٦ أغسطس .

(٣) وادي نهر سترايمون.

١٤٣

ثم عبرنا كريستوبوليس إلى خريستوبوليس، وبارتيوريا، ومسينوبوليس، وماكرا، وترايانا بوليس وينا بوليس، وبانادوكس، وهيراكليا، وسالومبريا، وناتورا ثم القسطنطينية^(١). وبعد أن ضربنا خيامنا أمام المدينة استرحنا على مدى أربعة عشر يوماً.

« ولأنه لم يكن باستطاعتنا أن ندخل المدينة، لأن الإمبراطور لم يسمح بهذا (إذ كان يخشى أن تنتهز الفرصة وتتآمر للإضرار به) ، فقد كان من الضروري أن نشترى من خارج الأسوار ما تحتاج إليه من مؤن يومياً، وكان سان المدينة يحضرون إلينا بناء على أوامر الإمبراطور. ولم يكن مسموحاً سوى لخمسة أو ستة أفراد بالدخول إلى المدينة مرة كل ساعة وهكذا كان البعض يخرجون ثم يدخل البعض الآخر للصلاة في الكنائس.

« أه . يا لها من مدينة ممتازة وجميلة ! كم بها من الأديرة والقصور، التي شيدت بمهارة وفقاً لطراز مدهشة . وكم من الأعمال الباهرة تصافح النظر في شوارع المدينة وأحيائها سيكون أمراً مضجراً أن نعدد وفرة كل أصناف البضائع الموجودة هناك ! من الذهب، والفضة، وأنواع عديدة من العباءات ، والنخائر المقدسة. وفي كل فصل من فصول السنة، يحضر التجار ، الذين يفدون كثيراً عن طريق البحر، إلى هذا المكان كل ما يمكن أن يحتاجه الإنسان. وفي ظني أن بالمدينة حوالي عشرين ألف خصى يقيمون هناك باستمرار..»

رحلة بوهيموند النورمانى (*)

« بالنسبة لبوهيموند، ذلك المحارب العظيم، فقد كان يحاصر أمانفى عندما سمع أن جيشاً ضخماً من الحجاج الفرنجة قد وصل، وفي طريقه إلى الضريح المقدس وقد تأهب لقتال الوثنيين. ومن ثم بدأ يستفسر بحذر عن الأسلحة التي يحملونها، والشارة التي يتقلونها في حجهم للمسيح وصيحة الرب التي يصيحونها في المعركة. وقيل له « إنهم مسلحون جيداً، وهم يضعون شارة صليب المسيح على سواعدهم اليمنى أو بين أكتافهم، وصيحة الحرب التي يصيحون بها جميعاً هي «إرادة الرب، إرادة الرب». وحينئذ أمر بوهيموند، بوحى من الروح القدس، بأن تمرق أغلى عباءة يملكها لتصنع صليباً، وبدأ معظم الفرسان الذين كانوا في الحصار يلحقون به في الحال، فقد ملأهم الحماسة، لدرجة أن الكونت روجر^(١) كاد أن يبقى

(١) في ١٤ مايو سنة ١٠٩٧م.

(*) Gesta Francorum, pp. 7-12.

(٢) هو عم بوهيموند والأخ الأصغر لأبيه روبرت جويسكارد.

بمفرده، وعندما عاد إلى صقلية حزن ونعى حظه لأنه فقد جيشه. وذهب سيدي بوهيموند إلى وطنه ^(١)، وبدأ يستعد بحرص للإطلاق على الطريق إلى الضريح المقدس. وبعد ذلك عبر البحر بجيشه وذهب معه تانكرد ابن الماركيز ^(٢)، وريتشارد الذي من الإمارة وأخوه رانولف، وروبرت الأنسى، وهرمان الكانسى، وروبرت السورديفالى، وروبرت فيتز - رالف، وريتشارد ابن الكونت رانولف، وكونت روسينجلو وأخوته، بويل الشارترى وأوبرى الكاجنانوى وهومفرى أمير جبل سكاجليوسو ^(٣). وقد عبر أولئك جميعاً على نفقة بوهيموند ووصلوا إلى غرب مقونيا، حيث وجدوا وفرة من الفلال والنبيد وغيرها من أنواع الطعام، ثم وصلوا سيرهم حتى وادى اندرونوبوليس وانتظروا رجالهم حتى استكملوا العبور ثم دعا بوهيموند مجلساً للإنعقاد لتشجيع رجاله ولكي يحذرهم بوجوب إتباع السلوك المهذب وأن يحجموا عن النهب فى هذه الأراضى التى يمتلكها المسيحيون ، وقال إنه لا يجب أن يأخذ أحد أكثر مما يحتاجه لطعامه ^(٤).

« ثم انطلقنا ورحلنا عبر بلاد غنية جداً من قرية لأخرى، ومن مدينة إلى غيرها، ومن قلعة إلى أخرى حتى وصلنا إلى كاستوريا حيث احتقلنا بعيد الميلاد ومكثنا بضعة أيام نحاول شراء المؤن والأطعمة، ولكن السكان رفضوا أن يبيعونا شيئاً، لأنهم كانوا يخافوننا كثيراً، فقد ظنوا أننا لسنا حجاجاً، واعتقدوا أننا لصوص نهايون جئنا نخرب الأرض ونقتل الناس. ولذا استولينا على الثيران والخيول والحمير وكل ما وجدناه ثم تركنا كاستوريا لدنخل بالاجونيا حيث كانت هناك قلعة للهراطقة. وهاجمنا هذا المكان من كل الجوانب وسرعان ما سقط فى أيدينا وأشعلنا فيه النيران التى أحرقت القلعة بسكانها سوياً ^(٥). وبعد ذلك وصلنا إلى نهر

(١) تارنتو

(٢) ابن أخى بوهيموند، وكان أصغر القادة الصليبيين، فلم يكن قد بلغ العشرين فى ذلك الوقت.

(٣) كان أولئك هم الأمراء النورمان والفرنجة الذين يحوزون إقطاعات فى جنوب إيطاليا، ويحكم القانون الإقطاعى ، كان عليهم الذهاب فى حملة بوهيموند.

(٤) كان بوهيموند قد حارب ضد الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس من قبل سنة ١٠٨٤ / سنة ١٠٨٥ م. ويبدو أنه كان حريصاً على أن يترك انطباعاً جديداً لدى الإمبراطور ليكسب ثقته، لأنه كان يأمل فى أن يحصل لنفسه على إمارة فى أراضى الإمبراطورية.

(٥) ربما كانوا من المانوية الذين كانوا تتواجد منهم أعداد كبيرة فى البلقان. والكاتب هنا كاثوليكي متعصب اعتقد أن قتل الهراطقة أمر صحيح وعادل، ولهذا غضب تماماً عندما قامت القوات البيزنطية بالانتقام لما فعله الصليبيون بهذه القلعة عندما هاجمت جيش بوهيموند عند نهر فاردار فيما بعد.

فاردار، وعبر سيدي بوهيموند ببعض رجاله، ولم يعبر بهم جميعاً لأن كونت روسيجنول وأخوته بقوا بالمؤخرة. وجاء جيش الإمبراطور وهاجم الكونت وأخوته ورجالهم، وعندما سمع تتكرر بهذا عاد للخلف وغاص في النهر وسبح حتى عبره ليلحق بالآخرين ومعه ألفان من رجاله. ووجدوا التركبولى والبشناق مشتبكين في القتال ضد رجالنا، ولذا قاموا بهجوم مفاجئ جسور، ولأنهم كانوا رجالاً مجريين هزموا العدو وأخذوا عديداً من الأسرى وقيدهم وساقوهم إلى سيدي بوهيموند. وقال لهم «أنتم أيها الأوغاد، لماذا تقتلون رجال المسيح ورجالي؟ ليس بيني وبين إمبراطورك أي نزاع» فأجابوا : «إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً غير ذلك. نحن تحت أمر الإمبراطور، ويجب علينا أن نطيع أوامره أيا كانت». وتركهم بوهيموند يذهبون، وقد جرت هذه المعركة في اليوم الرابع من الأسبوع ...»^(١).

« وأمر الإمبراطور الشرير واحداً من رجاله كان مقرباً جداً إليه وكانوا يسمونه Kyriopalatios [أي سيد القصر] لكي يصحب رسلنا حتى يرشدنا ويقودنا عبر بلاده بسلام حتى نصل ألقسطنطينية. وحيثما كنا نمر بأية مدينة من مدنهم كان هذا الرجل يطلب من الناس أن يحضروا لنا المؤن والأغذية مثلما كان يحدث من قبل كما ذكرنا. وكان واضحاً أن خوفاً كبيراً من قوة سيدي بوهيموند كان يملك عليهم قلوبهم لدرجة أنهم لم يكونوا يسمحون لأى من رجالنا بالدخول إلى المدن. وأراد رجالنا أن يهاجموا إحدى القلاع ويستولون عليها، لأنها كانت مليئة بالبضائع من كل نوع، ولكن بوهيموند الجسور لم يكن يسمح بذلك، لأنها كان يريد أن يعامل البلد بعدالة وأن يحفظ عهده مع الإمبراطور، ولذا فإنه استشاط غضباً من تتكرر والآخرين. وقد حدث هذا ذات مساء ، وفي الصباح التالي ظهر سكان القلعة في مسيرة، وهم يحملون الصليبان بأيديهم، حتى وصلوا إلى حضرة بوهيموند الذي استقبلهم بمرح وجعلهم ينصرفون فرحين بلقائه لهم. وبعد ذلك وصلنا إلى بلدة تدعى سيرس، وهناك عسكرنا وكان معنا من المؤن ما يكفي فترة الصيام الكبير. وبينما كنا في هذا المكان عقد بوهيموند اتفاقاً مع اثنين من رؤساء العصر Kyriopalatioi، وبسبب صداقته معهم ورغبته في أن يعامل البلاد بعدالة أمر بإرجاع كل الحيوانات التي كان رجالنا قد سرقوها واحتفظوا بها. وبعد ذلك وصلنا إلى مدينة روسا. وخرج السكان اليونانيون واقتربوا من سيدي بوهيموند وهم فرحون، وجلبوا لنا كمية وافرة من المؤن، ولذا فقد ضربنا خيامنا هناك في يوم الأربعاء

من الأسبوع المقدس^(١). وبينما كنا هناك ترك بوهيموند جيشه، وذهب رأساً إلى القسطنطينية مع قلة من الفرسان لكي يتشاور مع الإمبراطور. وبقي تتكرد في الخلف مع جيش المسيح، وعندما رأى أن الحجاج يشترون الطعام راودته فكرة الإنحراف عن الطريق حتى يصل بالناس إلى مكان يمكنهم أن يعيشوا به عن سعة؛ ولذا دخل في وداى معين به كل صنوف الخيرات والأطعمة وهناك احتفلنا بعيد الفصح بتقوى عظيمة.

رحلة ريمون أمير تولوز وأديمار أسقف لوبوى

١ - رواية ريمون الأجويلرى (*)

كان ريمون هو القسيس الخاص لريمون السانجيلى، كونت تولوز، وقائد الفرقة البروفنسالية في الحملة الصليبية الأولى، والذي كان من أوائل الأمراء الذين أخذوا شارة الصليب. والكتاب الذى كتبه ريمون الأجويلرى يكتسب أهمية خاصة في متابعة أحداث الحملة الأولى بعد أحداث أنطاكية، وهو من أفضل المصادر عن المراحل الأخيرة من الحملة الصليبية الأولى. وإن كانت كتابته ذات طابع دعائى منحاز (**).

« بينما كان الصليبيون يتقدمون في أراضي السلاف عانوا كثيراً من الضسائر على الطريق، لاسيما وأن الرحلة جاءت في فصل الشتاء. وكانت سلافونيا صحراوية بلا مسالك وجبلية بحيث لم نر فيها حيواناً أو طيراً على مدى أسابيع ثلاثة. وكان سكانها أجلاً خشنى الطباع لدرجة أنهم رفضوا أن يبيعوا لنا أو يشتروا منا، كما رفضوا أن يقدموا لنا الأدلاء والمرشدين، ولكنهم كانوا يهربون من قراهم وقلاعهم. والواقع أنهم كانوا يذبحون كالسائمة المسنين الضعفاء، أو الفقراء المنهكين الذين اقتضى ضعفهم أن يتخلفوا بمسافة خلف جيشنا. وفي وسط الجبال المنحدرة والغابات الكثيفة لم يكن من السهل على فرساننا المسلحين أن يطاربوا العصابات غير المسلحة من اللصوص العارفين بالبلاد. ولكنهم عانوا منهم باستمرار، لعدم قدرتهم على قتالهم أو الإمتناع عن القتال. ويجب ألا تغفل عملاً رائعاً قام به الكونت ذلك

(١) أول أبريل ١٠٩٧.

(*) Peters, pp. 118- 121.

(**) فهو ينحاز بصراحة ضد الآخرين مثل المجريين وسكان الإمبراطورية البيزنطية، على حين يمتدح الأعمال الوحشية لسيد الكونت ريمون السانجيلى.

أنه حينما راوغ السلاف الكونت وبعض فرسانه لوقت قصير، هاجمهم وقبض على ستة منهم. وحينما ضغط عليه السلاف لهذا السبب بعنف أكثر، واضطر الكونت لمتابعة جيشه، أمر بأن تسمل عيون بعض الأسرى، وقطع أرجل البعض، ونزع أنوف وأيادي البعض الآخر، وهكذا فإنه بينما كان المطاريون من السلاف مأخوذين بهذا المشهد وانشفوا بأحزانهم، مكن من الهرب بسلام هو ورفاقه، وهكذا، فإنه بفضل رحمة الرب نجا من الموت ومن هذا الموقف الصعب....

« والواقع أنه ليس من السهل أن نحكى عن الشجاعة والحكمة التى أبداهها الكونت فى الإقليم، لأننا قضينا فى سلافونيا ما يقرب من أربعين يوماً، واجهنا اثنا عشر سحباً بلغت من الكثافة أننا كنا نشعر بها ونُدفعها أمامنا بحركة خفيفة، وفى خضم هذا كله، كان الكونت يقاتل بلا انقطاع فى مؤخرة الجيش دفاعاً عن قومه، ولم يكن الأول أبداً، وإنما كان هو دائماً آخر من يضرب خيامه، وعلى الرغم من أن الآخرين كانوا يذهبون للراحة فى منتصف النهار، أو فى الأمسيات، فإن الكونت غالباً ما كان يؤجل وقت راحته إلى منتصف الليل، أو عندما يصبح الديك (أى وقت السحر). وأخيراً، وبفضل رحمة الرب، وبفضل عمل الكونت ونصيحة الأسقف، عبر الجيش سلافونيا سالماً بحيث لم تفقد أحداً بسبب الجوع، ولم نخسر أحداً فى معركة مفتوحة.. وبهذا الخصوص أشهد بأن الرب أراد لجيشه أن يعبر سلافونيا، حتى يدرك المتهورون الذين لا يعرفون الرب، شجاعة وصبر فرسانه، وبذلك إما يقتلون من وحشيتهم أو يقعون تحت طائلة العدالة الربانية لئلا يكون لديهم عذر ما. ثم وصلنا، بعد مشاق عديدة إلى ملك السلاف فى سكوتارى، وأقسم الكونت يمين الصداقة معه، ودفع له جزية كبيرة، حتى يمكن أن يشتري ويحصل على ضرورياته بسلام. ولكن هذه التوقعات ذهبت سدى، لأننا دفعنا الثمن الكافى للسلام الذى ننشده، ولكن السلاف الذين كانوا يثيرون المتاعب بطريقتهم المعتادة، أخذوا يقتلون رجالنا، ويسلبون غير المسلحين كل ما يمكنهم أخذه، ولم نكن نريد الثأر أو الإنتقام، ولكننا كنا ننشد مكاناً نحتسئ فيه، وهكذا فهناك الكثير يحكى عن سلافونيا.

« ووصلنا إلى بورازو. وكنا نظن أننا فى بلادنا، لأننا اعتقدنا أن الإمبراطور وتابعيه إخوة وأعوان لنا، والواقع أنهم كانوا يهاجمون الناس المسالمين، الذين كان السلاح آخر ما يفكرون فيه، وكانهم أسود ضارية. وكانوا يذبحونهم فى أماكن سرية؛ ويسرقون ما يقدرون عليه ليلاً،

فى الغابات ، وفى القرى البعيدة عن المعسكر، وعلى الرغم من أنهم كانوا يثيرون الشغب على هذا النحو، فإن زعيمهم وعد بالسلام. ولكن خلال فترات السلم، قتلوا بونتوريوس رينالد، وأحدثوا بأخيه بطرس ، جرحاً قاتلاً، وكان هذان أميرين نبيلين للغاية. وعلى أية حال، حينما سنحت لنا فرصة الإنتقام، أثرنا أن نواصل الرحلة بدلاً من أن ننتقم لأخطائنا. وفى الطريق تلقينا من الإمبراطور رسائل تدعو للسلام، والإخوة ، والتحالف أيضاً؛ وعلى أية حال، كان هذا مجرد تلاعب بالألفاظ. لأنه من الأمام والخلف، وعن اليمين والشمال، كان الأتراك والكومان، والأوزى والتناك والبشناق والبلغار يعنون لنا الكماش والفخاخ.

« وذات يوم ، عندما كنا فى وادى بلاجونيا ، وقع أسقف لوبوى الذى كان قد ابتعد مسافة قصيرة عن المعسكر سعيًا وراء مكان مريح يستجم فيه من التعب – وقع أسيراً فى أيدي البشناق. فقد طرحوه أرضاً عن بقله، وسرقوا ما معه، وضربوه بوحشية فوق رأسه. ولكن لأن أسقفًا عظيمًا كهذا كان شعب الرب بحاجة إليه فإن الرب برحمته أنقذ حياته. لأن البشناق تولوا حمايته من الآخرين بغية الحصول على الذهب منه. وفى الوقت نفسه، وصل صوت الضجيج إلى المعسكر، وهكذا تم إنقاذه فيما بين تلك الأعداء وهجوم أساقفائه.

« وعندما وصلنا فى خضم هذا النمط من الخيانة إلى قلعة تدعى بوكينات Bucinat، علم الكونت أن البشناق ينوون مهاجمة جيشنا فى ممرات أحد الجبال. ومكث مختفياً مع بعض فرسانه حتى إذا أقبل البشناق أنقض عليهم، وبعد أن قتل عدة منهم، ألجأ الباقين إلى الفرار. وفى الوقت نفسه، كانت الخطابات السلمية تصلنا من الإمبراطور، ومع ذلك فإن العدو [البيزنطى] أحاط بنا من كل اتجاه بخطة شريرة. وعندما وصلنا إلى تسالونيك، سقط الأسقف مريضاً وبقي بالمدينة بعد رحيلنا مع فئة قليلة من الرجال.

« بعد هذا ، وصلنا إلى مدينة معينة، اسمها روسا، وهناك أظهر لنا أهلها نيتهم على لقائنا بالشر، مما جعل صبرنا المعتاد ينفد. وإذا حملنا السلاح ، ودمرنا الأسوار الخارجية واستولينا على غنائم هائلة، وأجبرنا المدينة على التسليم؛ ثم أخذنا بيارقنا وأعلمنا إلى داخل المدينة ونحن نصيح «تولوز»^(١) وهى صيحة القتال الخاصة بجيش الكونت ، ثم رحلنا.

(١) كانت هذه صيحة الحرب الخاصة بجيش ريمون الإقطاعى التى ردها بدلاً من صيحة الحرب الصليبية. ولم تكن مصادفة أن ينسب «جنود الرب» صيحة الحرب التى اتخذوها شعاراً لحملتهم ويستخدمون صيحة الحرب الإقطاعية التى اعتادوا على استخدامها فى الغرب الأوربى. فقد كان شعور الغالبية منهم أنهم فى الطريق لغرض حرب يحققون بها مكاسب خاصة بهم.

« ووصلنا إلى مدينة أخرى ، تدعى روديستو، وهناك حاول الفرسان العاملون في خدمة الإمبراطور أن ينتقموا منا، وقتلنا منهم الكثيرين ، وغنمنا أسلاباً كثيرة. وهناك أيضاً، جاء إلينا الرسل الذين كنا قد أرسلناهم إلى الإمبراطور قبلنا، ولأنهم أخذوا أموالاً منه وعدونا بأن كل شيء سيكون على ما يرام مع الإمبراطور. وماذا غير ذلك؟ إن الرسالة التي أحضرها رسلنا ورسل الإمبراطور كانت تتضمن دعوة الكونت بأن يسرع للقاء الإمبراطور مع عدد قليل من رجاله تاركاً الجيش وراءه. لأنهم قالوا إن بوهيموند، ودوق اللورين، وكونت الفلاندرز، وغيرهم من الأمراء كانوا يرجون الكونت أن يسرع ليتفق مع الإمبراطور بشأن المسير إلى القدس. وأن الإمبراطور بعد أن أخذ شارة الصليب، سيكون هو قائد جيش الرب، وبالإضافة إلى ذلك، ذكروا أن الإمبراطور قال إنه سيقوم بعمل كل الترتيبات مع الكونت، سواء فيما يتعلق بهم أو بأي شيء ضروري للرحلة. فضلاً عن أنهم أعلنوا ، أن المعركة هائلة ، وبنون دعم من مثل هذا الرجل العظيم فربما لا تكون لصالحهم؛ ولذا فإن الكونت ينبغي أن يحث الخطى مع عدد قليل من رجاله قبل جيشه، حتى إذا ما وصل الجيش ، يكون قد تم ترتيب كل شيء مع الإمبراطور، وبذلك لن يكون هناك تعطيل لأحد. وأخيراً، اقتنع الكونت بأن يسبق جيشه، ويمفرده تاركاً حرسه خلفه في المعسكر. وهكذا ذهبنا دون سلاح إلى القسطنطينية».

رحلة جودفري البويوني (*)

١- رواية وليم الصوري

« وفي هذه السنة نفسها، ١٠٩٦ من تجسد سيدنا، في الخامس عشر من شهر أغسطس، جمع السيد النابه العظيم جودفري^(١)، دوق اللورين، رفاقه من الحجاج، ورتب متاعه بالطريقة المعتادة وبدأ مسيرته. وكان هذا بعد رحيل بطرس الناسك والكارثة المروعة التي حلت بجيشه، والتي حكينا عنها، وبعد مذبحه جيش جوتشوك التي ذكرناها أيضاً، وبعد المصيبة التي جرت على حدود المجر، والتي تحدثنا عنها من قبل، والتي قيل إنها جرت على الجيش الذي جاء بعد جيش جوتشوك.

« والرجال الكرام من الطبقة الراقية الذين يستحقون الذكر إلى الأبد، والذين انضموا إلى معسكر جودفري، هم : السيد بلوين أخوه من نفس الأم؛ والسيد بلوين المونسى. كونت هينولت، والسيد هيو كونت سان بول وابنه وابنة أنجراند، وهو شاب ذو مقدرة طبيعية ممتازة؛ وكونت جارينير الشهير بجراي؛ والسيد رينارد كونت تول وأخوه بطرس والسيد بلوين البورجي، وهو من أقارب الدوق، والسيد هنري أمير إيسك وأخوه؛ ودوق الكونتى؛ وكونون المونتاجوى؛ وكثيرون غيرهم لا نذكر أعدادهم أو أسمائهم. وكل هؤلاء ساروا في سلام في عصابة واحدة ووصلوا سالمين في العشرين من سبتمبر إلى مكان في مقاطعة أوستريا يدعى تولنبرج، وهنا يشكل نهر ليتا الخط الفاصل بين أراضي الإمبراطورية ومملكة المجر.

« وعندما وصلوا إلى هذه المدينة إنتابتهم كآبة شديدة حين عرفوا بأنباء الكارثة التي قيل إنها جرت على جوتشوك وجيشه. وتشاوروا فيما بينهم حول الطريق الأمن الذي ينبغي أن يسلكوه لكي يقوموا بالمهمة التي أخذوها على عاتقهم. وأخيراً ، اتفقوا بالإجماع على أن

(*) William of Tyre, II, pp. 116.

(١) ولد جودفري البويوني سنة ١٠٦٠م، في بولونيا البحر. Boulogne-Sur_Mer على ما يرجح. وكان أبو ابوستاس الثاني كونت بولونيا، وأمه إيدا Eda ابنة جودفري الملتنى دوق اللورين الأبنى. كان يعمل في خدمة الإمبراطور الألماني هنري الرابع، وشارك في حملته على إيطاليا ١٠٨١ - ١٠٨٤. وفي الوقت الذي كتب فيه وليم الصوري كتابه كانت الأساطير قد جعلت من شخصية جودفري الحقيقية صورة خفية تحت ركाम الأساطير حول الرجل الذي كان أول حكام مملكة بيت المقدس اللاتينية، على الرغم من أنه لم يعمل لقب «ملك».

يرسلوا سفارة لملك المجر ليتأكد بشكل أوثق من السبب الذي جعل أخوتهم الذين سبقوهم يهلكون على هذا النحو في هذه الأرض. كذلك كان على الرسل أن يجدوا فرصة لعقد اتفاق سلام مع الملك، وأن يطرحوا جانباً الشكاوى المتعلقة بالمنازعات السابقة، وأن يرتبوا لضمان مرورهم بحرية عبر البحر. لأن البحث عن طريق آخر، بعد أن بدأوا مسيرتهم بالفعل، سوف يسبب لهم خسارة ومضايقة شديدة. وبناءً على ذلك، تم إرسال النبيل جودفري الأيسكي، شقيق هنري، ومعه عدد آخر من كرام الرجال للقيام بهذه المهمة، إذ كانت تربطه بالملك صداقة قبل عدة سنوات. وعندما مثل جودفري بحضرة الملك حياه التحية الواجبة، ثم قام بأداء الواجب المنوط به في أمانة، وبدأ يتكلم على النحو التالي :

« إن النبيل المعروف جودفري، دوق لوثرنجيا ، وغيره من القادة، من عباد الرب الذين يرافقونه في طاعة مخلصه للرب، قد أرسلونا إلى جلالكم. وهم يرغبون في أن يعرفوا عن طريقنا لماذا يلقي قوم مسيحيون، والذين وجدنا بقاياهم متناثرة على طول الطريق، يلقون مثل هذه المعاملة غير الإنسانية من جانبكم وأنتم أمة تشتهرون بأنكم مؤمنون. وربما كان حظهم من السلامة سيكون أوفر لو أنهم مروا عبر بلاد معادية، فإذا كانت أخطاء مثل أولئك الناس تستحق مثل هذا العقاب العظيم، فإن أولئك الذين أرسلوني على استعداد لتحمل هذه الخسارة بنفس راضية. لأن أى عقاب يوقع بسبب عادل لا يثير الغضب ويجب تحمله في صبر. ولكن إذا كان الأمر غير ذلك، وإذا كنتم قد هاجمتمهم الأبرياء دون سبب وقتلتموهم، فإن قادتنا لا يمكن أن يتغاضوا عن الأخطاء التي ارتكبت في حق خدام الرب ولكنهم مستعدون للانتقام لدماء إخوتهم. ومن ثم فإنهم ينتظرون منا إجابة على هذه المسائل وسوف يتخذون قرارهم وفقاً لمضمون الإجابة. وبهذه الكلمات أنهى خطبته.

« وأجاب الملك الذي كان أتباعه يحيطون به، كما يلي : «إنه يسرنا ، يا جودفري الحبيب، يا من أسدينا لك منذ زمن معروفاً تستحقه عن جدارة، إنك جئت إلينا، لا لكي نجدد صداقتنا القديمة فحسب، ولكن أيضاً لكي نؤكد براعتنا أمام قاصد حكيم مثلك. فإنتنا ، حقاً كما نقول، من بين المؤمنين، وستفصح أعمالنا عن جدارتنا بهذا الإسم. ولكن أولئك الذين سبقوكم، من أتباع بطرس الناسك وأتباع جوتشواك، وأولئك الذين حاولوا الاستيلاء عنوة على إحدى قلاعنا على حدود المملكة وأن يدخلوا بلادنا بالقوة، لم يكونوا من أتباع المسيح إسماً أو فعلاً. ففي بداية الأمر استقبلنا بطرس ورفاقه بكرم الضيافة وقدمنا لهم ما لدينا من بضائع مجاناً أو

بأسعار عادلة. ولكنهم ، مثل الثعبان فى الصدر، أو فأراً فى خزانة الملابس، أزعجوا مضيقهم بشكل مزرى. إذ أنهم بدلاً من أن يعبروا عن شكرهم للمكاسب التى أسبغت عليهم، انطلقوا يعبثون فى إحدى مدننا على أطراف حدود المملكة، وقتلوا أعداداً كبيرة من السكان، ورحلوا فى عنف كالصنوج يسوقون قطعان الماشية والأغنام، وما نهبوه من المكان. وبغض النظر عن هذه المشاغبات، فإننا قابلنا جيش جوتشوك دون صعوبة أو متاعب، وكأنا لم نلق شيئاً من المتاعب والأخطاء من الجيش الذى سبقه، وفى المقابل، لم يترددوا فى القيام بأعمال السلب والنهب، وارتكاب أعمال العنف، والإحراق ، بل إنهم قاموا بارتكاب المذابح متذرعين بذرائع غاية فى التفاهة. وهكذا استجلبوا غضب الرب بسبب ضخامة جرائمهم.

«ولأننا لم نستطع أن نتحمل أكثر من ذلك الأخطاء التى ارتكبت فى حق رعايانا، فقد أولينا انتباهنا لعلاج هذه الأوضاع الخطيرة. ونظراً لخبرتنا السابقة، رأينا أن من المناسب أن نمنع هذه الشرائع من غير الاتقياء الذين يكرههم الرب، من دخول مملكتنا، حتى لا نعانى للمرة الثالثة من الأذى على أيديهم. وذلك أفضل كثيراً من أن نتعرض للإهانات والخسائر الجسيمة على أيديهم، أو نحاربهم كأعداء. وإذا يكفى أننا قدمنا هذه التفاصيل كعذر لنا لك أيها الرجل الحكيم الحصيف، وأقسم بالرب أننا ذكرنا الحقيقة كما هى بالضبط.»

« وبهذه الكلمات ، أمر بمعاملة الرسول بكرم واحترام عظيم حتى يستطيع ، بعد التشاور مع شعبه ، أن يرسل لزمعائنا الرسل بالإجابة المناسبة . و أخيراً ، أرسل إلى الدوق والزعماء بعض أهل بيته مع الرسل ، وحملوا هذه الرسالة :

« لقد سمعنا ، والواقع أننا عرفنا منذ وقت طويل ، أنك تعتبر بحق أميراً عظيماً، شهيراً، ومحترماً بين شعبك، وأن الرجال الحكماء ، مهما بعدت بهم البلاد ، يعجبون بإخلاص عقيدتك، ويصفاء سريرتك ، وحميد خصالك. ونحن أيضاً ، جذبنا أريج إسمك الطيب، والحمية والحماسة التى تؤدى بها عملك ، فقصدنا أن نراك حتى فى غيابك ، وأن نشرفك بصنيع عظيم نسدية لك. ونحن نعتقد أن الرجال النبلاء فى قافلتك، الذين ألهمتهم الحماسة المسيحية مثلك، قد أخذوا على عاتقهم القيام بعمل تقى. وبما أننا لا نرغب فى أن تنتهك الفضائل التى تساعد على كسب الأصدقاء فيما بيننا، فنحن على استعداد لأن نمد تجاههم حبال المودة والعطف، وأن نرتبط معهم فى العمل برياط العطف الأخوى.

« وبناء عليه ، فطالما أن الفرصة تطرح نفسها على هذا النحو ، فإننا نرجو أن توافقوا على

الحضور إلى قلعتنا سيرون، حتى يمكننا أن نعقد معكم مؤتمراً طويلاً كما نحب ويكون بوسعنا أن نصل إلى اتفاقية ترضون عنها .»

« وبعد أن سمع الدوق مندوبى الملك وتشاور مع أصدقائه ، ذهب فى اليوم المحدد إلى المكان المحدد ومعه ثلاثمائة من فرسانه اختارهم من بين أتباعه . وبعد عبور الجسر، وجد هناك الملك الذى استقبله بمودة كبيرة وأسبغ عليه الكثير من مظاهر التشريف، وأظهر الجانبان كثيراً من دلائل المودة والصداقة ، وأخيراً تم الإتفاق على تقديم رهائن من بين النبلاء وعلى طرح جميع الصفائن جانباً ، وإقرار السلم من جديد، وبناء على هذه الشروط منح الملك للدوق الإذن بدخول المملكة بقواته .

« ولكى يضمن مزيداً من الأمن، لكى يسمح لمثل هذا الجيش الضخم الذى قد تغريه كثرتة وشجاعته فيسبب الازعاج للملكة تحت أى ذريعة ، فطلب الملك أن يكون بلدين شقيق الدوق وزوجته وأهل بيته من بين الرهائن . وقد رحب الدوق بهذا المطلب وسلم أخاه رهينة وفقاً للشروط المحددة ، وقاد قواته داخل المملكة . وعلى ذلك ، أوفى الملك بوعده فى إخلاص، وأصدر مرسوماً بأن تقدم الأغذية الضرورية للقوات حيثما مرت فى أى مكان فى جميع أنحاء المملكة بسعر عادل وبالأوزن العادل، كما يجب أن يكون هناك سوق للأتوات برفقة الجيش.

« وأمر الدوق ، من جانبه ، بأن ينادى فى المعسكر ، بأن من يجرؤ على نهب القادمين إلى الجيش أو يستخدم القوة ضدهم سوف تكون عقوبته الإعدام ومصادرة متاعه، وإنما يجب فى ظل روابط السلام، أن يقوموا بعمليات التبادل التجارية بروح من الود والتراحم.

« وهكذا، ويفضل رحمة الرب ، عبروا كل أراضي المجرى دون عدوان من أى من الجانبين حتى بأقل كلمة. وكان الملك يصحب الرهائن معه ورافق الجيش المتقدم من جهة اليسار بقوات كبيرة من جيشه، على استعداد لإخماد أية اضطرابات قد تنشأ بحضوره.

« وعندما وصلوا سالمين أخيراً، تمهلوا على ضفاف نهر الساف حتى يمكن إعداد معبر للقوات. وإذا لم يكن هناك سوى عدد قليل من القوارب، ولم تكن تكفى إطلاقاً لنقل مثل هذا العدد الكبير من الناس، بنيت الطوافات والعوامات لهذا الغرض. وتم نقل ألف فارس كاملى التسليح إلى البوابة لحراسة الضفة الأخرى تحسباً لأى كمين من جانب العدو، وحتى يمكن للجيش أن يجد مكاناً مناسباً للراحة بعد عبوره. ثم عبر الحجاج إلى الجانب الآخر.

« ولم يكد القوم يجرون عبر النهر ومعهم بعض قوادهم، حتى تقدم الملك بسرعة ، ومعهم قوة حراسة كبيرة وسلم بلديون وزوجته وكل الرهائن الآخرين للدوق ، وفقاً لما اتفق عليه منذ البداية. ثم أنعم على الدوق والقادة الآخرين بهبات تشريفية ثمينة، وقفل عائداً إلى بلاده. وعندما وصل بلجراد ، وهى مدينة فى بلغاريا أشرنا لها من قبل، أقام معسكره هناك. وبعد أن تم ترتيب الأمتعة وتجهزت القوات للمسير، مروا خلال غابات بلغاريا الشاسعة ووصلوا أولاً إلى نيش ثم ستراليكيا...»

« وسار الدوق بقواته خلال داشيا الوسطى المعروفة أيضاً باسم مويسيا. وبعد أن مروا خلال الشعاب التى تشتهر باسم ممر القديس باسيل، نزلوا إلى بلاد مستوية بها وفرة من الطعام، ووصلوا إلى مدينة فليبوليس النبيلة والأهلة بالسكان. وهناك عرف أن هيو الكبير شقيق فيليب ملك الفرنج رهين الحبس فى سجون الإمبراطور ومعهم بعض النبلاء الآخرين . وفى الحال أرسل رسلاً إلى هناك على وجه السرعة لمقابلة الإمبراطور ، ومعهم رسائل مكتوبة وشفوية، بطلب فيها إطلاق سراح أولئك الرجال، محذراً إياه من أنهم قد أقسموا على القيام بنفس رحلة الحج وأنهم مسجونون نونما سبب على الإطلاق.

« هذا الرجل النابه، هيو، الذى كان أول من بدأ الرحلة من الزمراء، كان قد عبر جبال الألب فى إيطاليا. ومن هناك ذهب إلى أبوليا ، وعبر البحر فى حراسة قليلة وتوقف فى دوزازو انتظاراً للقادمين من بعده. ولم يكن يتصور إطلاقاً أنه يمكن أن يحدث شيء سىء له أو لرفاقه فى مملكة اليونانيين، الذين كانوا يعدون من أتباع المسيح. ولكن حاكم هذه المنطقة قبض عليه ورماه فى غياهب السجن، حتى يمكن تسليمه للإمبراطور ليعامله وفقاً لمشيتته. وكان الإمبراطور يحتجزه سجيناً، مثل أى لص أو قاتل. وكان ينتظر وصول الزمراء الذين قيل إنهم فى الطريق، حتى إذا ما نجحوا فى الوصول إلى هناك، يبدو وكأنه أطلق سراحه إكراماً لهم، أما إذا حدث العكس، فقد كان قصده أن يسجنه مدى الحياة.

« وفى ذلك الوقت كان ثمة رجل مخادع شرير إسمه اليكسيوس وكنيته كومنينوس، يحكم الإمبراطورية اليونانية. وكان يعيش قبل ذلك فى القصر الإمبراطورى...»

« واقترب رسل الدوق من الإمبراطور، ووفقاً للتعليمات التى لديهم ، طلبوا بإلحاح إطلاق سراح هيو ورفاقه. وإذ رفض الإمبراطور هذا الطلب تماماً، عانوا إلى الجيش الذى كان قد

مر آنذاك عبر أدريانوبل واستراح فى بعض أراضى المراعى. وعندما عرف الدوق والزملاء الآخرون من مبعوثيهم أن الإمبراطور لم يطلق سراح هؤلاء الرجال، اتفقوا جميعاً على نهب هذه النواحي بجيوشهم. ولأنهم بقوا هناك ثمانية أيام متصلة فقد خربوا هذه النواحي تماماً. وما أن بلغت أنباء هذه الحوادث مسامع الإمبراطور، بادر بإرسال رسله إلى الدوق، ورجاه أن يوقف أعمال العنف التى تقوم بها قواته وأكد له أن الرجال النبلاء سيطلق سراحهم إستجابة لطلبه. ووافق الدوق مسروراً على هذا الترتيب ومنع القوات من القيام بأى أعمال نهب أخرى. ثم سار إلى القسطنطينية وقواته تحت السيطرة التامة. وهناك نشر خيامه وأقام جيشه الكبير القوى معسكره قبالة المدينة».

الصليبيون فى القسطنطينية

(أكتوبر ١٠٩٦ - مايو ١٠٩٧)

كان نهاية المرحلة الأولى من مسيرة حملة الأمراء الصليبية، والتى انتهت بوصول قواتهم تحت أسوار القسطنطينية، بمثابة صدام حضارى وسياسى بين الصليبيين والبيزنطيين، فقد بهرت المدينة الإمبراطورية أنظار الفرسان اللاتين القادمين من الغرب الأوربي الفقير والمتخلف. كان هذا هو لقاءهم الأول مع الشرق، ولأنهم جاؤا من بلاد لا تكاد تعرف المدن، فإن القسطنطينية خلبت ألبابهم بقبابها الذهبية التى تسمى وسط السحب، وسكانها الذين هاقوا فى أعدادهم الغفيرة كل تخيلات فرسان الغرب. لقد كانت القسطنطينية بوابة الشرق الساحر الغامض.

ومن ناحية أخرى، بهت الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس بوصول الصليبيين الذين زعموا أنهم جاؤا لإنقاذه. ولأنه يعلم تماماً استحالة كبح جماحهم، فقد أثر أن يتعامل مع زعمائهم بشكل منفرد، وعقد اتفاقاً مع كل منهم منفرداً . وتتوعد وسائله ما بين الهدايا والوعود، والمعارك العسكرية ، وقطع الإمدادات والمؤن، حتى نجح فى أن يحصل منهم جميعاً على يمين الولاء ، باستثناء ريمون السانجيلى الذى اكتفى بأن يقسم بحماية شرف الإمبراطور وحياته على الطريقة البروفنسالية. وهذه النصوص تحمل شهادات شهود العيان من مؤرخى الحملة الأولى على هذه الأحداث .

* * *

هيو الكبير الأمير الفرنسى رواية أنا كومنينا (*)

« وثمة شخص يدعى هوف، شقيق ملك الفرنجة، بدافع من التفاخر بنبل مولده والثروة والسلطة، قرر أن يترك موطنه كما لو كان ذاهباً فى رحلة إلى الضريح المقدس، وعندما توصل إلى هذا القرار أرسل رسالة غير معقولة للإمبراطور أنه يجب استقباله بمزيد من التمجيد وأعلن فى عبارات تفيض وقاحة وإهانة إلى الإمبراطور:

« فلتعلم أيها الإمبراطور أننى ملك الملوك ، أعظم من عاش تحت السماء، أن مشيئتى اقتضت أن تلقانى عند وصولى وأن تستقبلنى بما يليق من الاحتفالات بشخصى النبيل ، وعندما وصل هذا الخطاب إلى اليكسيوس، كان حنا ابن اسحق السباستوكراتور هو دوق تراقيا ، وكان نيكولاس مافر وكاتالون هو قائد الأسطول، وكان يرسى بأسطوله من حين لآخر فى الميناء، ومن هذه القاعدة كان يقوم برحلات تفتيشية ليمنع سفن القراصنة من الإبحار خلسة. وفى ذلك الوقت أرسل الإمبراطور تعليمات إلى هذين الرجلين بأن يراقب الدوق البر والبحر ترقباً لوصول هيو وأن يبلغ اليكسيوس حالما يصل؛ وأن يستقبله أيضاً الاستقبال اللائق، كما ألزم قائد الأسطول بأن يبقى فى حال من اليقظة الدائمة – إذ لا يجب حدوث أى استرخاء أو إهمال مهما كان بسيطاً. وصل هيو إلى ساحل لمباريا بسلام ومن هنا أرسل مبعوثيه إلى دوق تراقيا – وكان عندهم أربعة وعشرين ، مسلحين بالدرع على الصدور، والدرع الذهبية لحماية الرسل ومعهم الكونت وإيم النجار والياس (الذى كان قد هرب من الإمبراطور إلى تسالونيكا) . وخاطبوا الدوق على النحو التالى :

« ليكون معلوماً لديك أيها الدوق ، أن سيدنا هيو على وشك الوصول. وقد أحضر معه من روما البيروقراطي للذهبى للقديس بطرس [أعطاه البابا للجنود الداهيين لمحاربة المسلمين]. ولتفهم أيضاً، أنه هو القائد الأعلى للجيش الفرنجى. ومن ثم فإنه يجب أن يعد له الإستقبال الذى يليق بمقامه، وأستعد أنت نفسك لمقابلته» . وبينما كان الرسل يسلمون هذه الرسالة، وصل هيو إلى لمبارديا عن طريق روما، كما قلت ، وأبحر من بارى إلى إيليريا، ولكن عاصفة هوجاء داهمته أثناء العبور. وخسر كثيراً من سفنه وبخارته . ونجت سفينة واحدة هى سفينته التى

ألقته رياح العاصفة على الشاطئ فيما بين تراقيا ومكان يدعى باليس، وقد جنحت وكادت أن تفرق. وبينما كان اثنان من حرس السواحل يرقبون وصوله شاهدا ما حدث وأنقذاه بمعجزة. ونادياه قائلين : «إن الدوق ينتظر وصولك بشغف، وإنه متلهف على لقاءك». وفي الحال طلب فرساً فترجل أحدهما وأعطاه فرسه لون تردد. وعندما رآه الدوق، وقد تم إنقاذه بهذه الطريقة، وبعده أن حياه، سأله عن الرحلة وسمع منه عن العاصفة التي أغرقت سفنه. وشجع هيو بالوعود الحسنة، وعمل على تسليته في صحبة طيبة رائعة. وبعد الاحتفال سمح لهيو أن يستريح، ولكنه لم يكن مطلق الحرية. وفي الحال قام الدوق حنا بإبلاغ الإمبراطور عن مغامرات الفرنجة وظل ينتظر التعليمات الجديدة. وبمجرد أن تلقى اليكسيوس هذه الأنباء أرسل بوتو ميتيس إلى إبيدمانوس (التي أسميناها تراقيا في عدة مناسبات) لكي يحضر هيو في حراسته، ليس عن الطيق المباشر، ولكن عن طرق آخر عبر فلبوبوليس إلى العاصمة. وكان خائفاً من الجيوش الكتلية المسلحة القادمة وراه. ورحب الإمبراطور بهيو وأسبغ عليه مظاهر التشريف ولم يلبث أن أقنعه بالهباء الكريمة وبكل دلائل الصداقة على أن يصبح تابعاً له، وأن يقسم بذلك على الطريقة اللاتينية.

جودفري البويرى

رواية المؤرخ المجهول (*)

« بعد هذا كان الدوق جودفري هو أول من وصل من زعمائنا إلى القسطنطينية بجيش كبير، وقد وصل قبل عيد الميلاذ بيومين، وعسكر خارج المدينة حتى يأذن الإمبراطور الشرير بتخصيص مكان له في الضواحي. وعندما استقر الدوق، كان يرسل قواته يومياً، في ثقة تامة، للحصول على القش وغيره من الأشياء الضرورية للخيول؛ ولكن حينما ظنوا أنهم يستطيعون الخروج في حرية إلى أى مكان يرغبون أمر الإمبراطور الشرير اليكسيوس قواته من التركبولي^(١) والبشناق لهاجمتهم وقتلهم. ولذا فإن بلدوين شقيق الدوق، عندما سمع بهذا، أعد كميناً، وعندما وجد رجال العدو يقتلون رجاله هاجمهم بشجاعة وهزمهم بمساعدة الرب. وأخذ منهم ستين أسيراً، قتل بعضهم وساق الآخرين أمام أخيه. وعندما سمع الإمبراطور بهذا

(*) Gesta Francorum. pp. 6 - 7.

(١) من المرتزة الأتراك الذين جندهم اليكسيوس في جيشه.

استششاط غضباً، وعندما أدرك الدوق هذا قاد رجاله إلى خارج المدينة حيث أقام معسكره خارج أسوارها. وفي وقت متأخر من ذلك المساء أمر الإمبراطور البائس رجاله بمهاجمة الدوق والجيش المسيحي^(١). ولكن قائدنا المظفر والفرسان المسيحيين أجبروا القوات الإمبراطورية على التقهقر، بعد أن قتلوا سبعة وأرغموا الباقين على اللجوء إلى بوابات المدينة. وبعد ذلك عاد إلى معسكره حيث مكث خمسة أيام، حتى توصل إلى إتفاق مع الإمبراطور الذي طلب منه عبور مضيق البسفور ووعده بإمداده بالإمدادات الجيدة بنفس القدر الذي كان متاحاً في القسطنطينية؛ بالإضافة إلى ما وعده به الإمبراطور من إعطاء الهبات للفقراء حتى تساعدكم على العيش».

جودفري البويوني رواية ألبرت الأيكسي (*)

« انسحب جودفري إلى داخل مدينة القسطنطينية نفسها ومعه كل جيش الحجاج الذي يقوده. وهناك ، بعد أن ضربوا خيامهم، أقاموا كجيش قوى كبير، جيد التسليح. وفي المقابلة ، كان كل من هيو ودروجو ووليم النجار وكلايبيولد الذين أطلق الإمبراطور سراحهم حاضرين وقد غمرهم السرور بسبب وصول الدوق وقواته الكثيرة العدد، وأخذوا الدوق بالأحضان والقبلات هو والآخرين. كذلك فإن الرسول الذي أرسله الإمبراطور قابل الدوق، ودعاه إلى الحضور إلى قصر الإمبراطور مع بعض رؤساء جيشه، حتى يجرى محادثات مع الإمبراطور نفسه. وتعين على بقية جيشه أن يبقوا خارج أسوار المدينة. ولم يكذ يتسلم الرسالة حتى وصل بعض الغريباء القادمين من أرض الفرنجة ليظهروا خلصة في معسكره. وحذر الغريباء الدوق بشدة من أن ينخدع بالسلوك الظاهري للإمبراطور ، ألا يذهب إطلاقاً لمقابلة الإمبراطور بناء على وعده خلافة، ولكن أن يبقى خارج الأسوار ويستمتع بحذر إلى كل ما يقترحه الإمبراطور عليه. ومن ثم لم يذهب الدوق إلى الإمبراطور بعد أن حذره الغريباء ولس خداع اليونانيين. » ولهذا السبب، فإن الدوق الذي حركته مشاعر السخط العنيف ضد الدوق وجيشه كله،

(١) يتحدث المؤرخ المجهول بهذه الصيغة كما لو كان البيزنطيون من غير المسيحيين.

Peters, pp. 125 - 131. (*)

رفض أن يمنحهم امتياز البيع والشراء، ولكن عندما عرف بلديون، شقيق الدوق، بغضب الإمبراطور ورأى حاجة الناس وافتقارهم للشديد للضروريات، توسل إلى الدوق والقادة أن يقوم مرة أخرى بنهب الإقليم وأراضى اليونانيين، وأن يجمع الأسلاب والطعام حتى يضطر الإمبراطور تحت وطأة الدمار إلى منحهم امتياز البيع والشراء مجدداً، ومن ثم، فإن الإمبراطور عندما رأى التخريب والأذى يلحق بأراضى مملكته، أعاد امتياز البيع والشراء للجميع.

« وكان ذلك وقت الاحتفال بعيد ميلاد الرب. وكانت تلك الأيام التي شغلتها الأعياد والسلام والفرح طيبة تستوجب الشكر، وكان إعادة السلام بين الإمبراطور وحاشيته والدوق وكبار رجال جيشه أمراً يرضى الرب. وهكذا، عندما تم إقرار السلام، كفوا أيديهم عن كافة أعمال السلب والأذى. وتبعاً لذلك، استراحوا خلال تلك الأيام الأربعة المقدسة في هدوء وسعادة قبالة أسوار مدينة القسطنطينية.

« وبعد ذلك بأربعة أيام، ذهب مندوب الإمبراطور إلى الدوق، وسأل باسم الإمبراطور ومعهديه، بأن يحرك جيشه ومعسكره إلى شاطئ المضيق، حتى لا تتمزق خيامهم أو تتعرض للبلل بسبب برد الشتاء وثلوجه، التي كانت مصدر تهديد في ذلك الفصل الممطر. وأخيراً، استسلم الدوق والقادة الآخريين لإرادة الإمبراطور، وبعد أن حركوا خيامهم تحركوا مع الجيش المسيحي ليقموا في القلاع والمباني ذات الأبراج على طول الشاطئ لمسافة ثلاثين ميلاً. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً كانوا يجدون ويشترون بوفرة كل الطعام والضروريات بناء على أمر الإمبراطور.

« وبعد ذلك بوقت قصير، مثلت سفارة أخرى من الإمبراطور بحضرة الدوق، تحته على الذهاب لمقابلة الإمبراطور والاستماع إليه. وقد رفض الدوق تماماً أن يمثل لهذا الطلب، بسبب تحذير الغرباء له من مكر الإمبراطور. ولكنه أرسل له مبعوثين هم كونون كونت مونتيجور وبلديون البورجي، وجودفري الأشقى، بقصد أن يقدموا العذر عنه، وتكلموا كما يلي : « من الدوق جودفري إلى الإمبراطور: الثقة والطاعة. كنت أود أن أحضر بكل سرور للمثل أمامك، ولأمتع ناظري بروية الثروة والمجد في قصرك لولا أن هناك إشاعات شريرة كثيرة ترامت إلى سمعي بخصوصك، وجعلتني أخاف، وعلى أية حال، فإنني لست أدري ما إذا كانت هذه الروايات قد اخترعت وذاعت عنك بدافع الحسد أم بدافع من روح الشر. وعندما سمع

الإمبراطور هذا دافع عن نفسه بحرارة مبينا براءته من هذه التهم، وقال إنه لم يكن ينبغي أبداً للدوق، أو أى فرد غيره من أتباعه، أن يخاف من أى خداع من جانبه، بل إنه سوف يرعى شرف الدوق كما لو كان ابنه، ورفاق الدوق كأصدقائه. وعندما عاد رسل الدوق أخبروه بكل ما سمعوه على لسان الإمبراطور من وعود طيبة مخلصه ولكن الدوق، كان ما يزال قليل الثقة فى وعود الإمبراطور المعسولة، ورفض أن يجتمع به مجدداً. وهكذا مضت خمسة عشر يوماً فيما بين غزو الرسل ورواحهم.

« ومن ثم ، فإن الإمبراطور حين تيقن من ثبات الدوق، وأنه لا يمكن أن يغدر به، عاد إلى عنوانيته وسحب امتياز شراء الشعير والسبك ثم الخبز حتى يجبر الدوق على المثول فى حضرة الإمبراطور. وإذا فشل الإمبراطور فى حمل الدوق على تغيير موقفه، جعل خمسمائة من التركبولى المسلحين بالآقواس والدروع يعبرون المضيق على ظهور السفن، وذات صباح بدأوا يقذفون جنود الدوق بالسهام؛ وقتلوا بعضاً منهم، وجرحوا البعض الآخر، وحالوا بينهم وبين الشاطئ بحيث لا يستطيعون شراء شيء من طعامهم المعتاد.

« ووصلت أنباء هذه الحادثة القاسية إلى مسامع الدوق فى الحال، فأمر بدق الطبول لاستتفار الجميع لحمل السلاح والرجوع إلى مدينة القسطنطينية نفسها، حيث يضربون خيامهم مرة أخرى. وبعد أن نوت الطبول بناء على أوامر الدوق، اندفع الجميع إلى أسلحتهم. وأخربوا المباني والأبراج التى كانوا يسكنونها، وأضرمو النيران فى بعضها، ودمروا البعض الآخر، وبهذا ألحقوا بالقسطنطينية دماراً يستعصى على الإصلاح.

« وأخيراً، عندما وصلت أخبار هذه النيران والدمار الفظيع إلى القصر، اتخذ الدوق أهبة ويات فى منتهى الحذر، خوفاً من أن تسبب الضجة الناجمة عن المباني المشتعلة وضجة الجيش المتحرك فى أن يقوم فرسان الإمبراطور ورماة السهام فى جيشه بالاستيلاء على القنطرة التى جاؤا عليها من القسطنطينية إلى هذا المكان الذى أقاموا به. ومن ثم ، أرسل أخاه بلدوين بسرعة على رأس خمسمائة فارس مدرعين للاستيلاء على الجسر، لئلا تستولى عليه أية قوة من جيش الإمبراطور ، وتدمره بحيث تمنع الحجاج من التقدم أو الرجوع.

« ولم يكد بلدوين يستقر فى منتصف الجسر، حتى اندفع التركبولى (جنود الإمبراطور الذين أحضرتهم السفن) عن يمينه ويساره وهاجموه وورجاله بوحشية. وإذا لم يستطع بلدوين أن يقاوم وهو على الجسر، أسرع بعبور الجسر هرباً من سهامهم. وبهذا الساحل

اليابس وضع نفسه على الجانب الآخر من الجسر، على أمل أن يستولى عليه ويراقب أسوار المدينة حتى يعبر الجيش كله فوق الجسر، على حين تولى النوق حراسة المؤخرة. وفي الوقت نفسه، خرجت من البوابات المقابلة لسان أرجنتيوس أعداد لا تحصى من التركبولى والجنود من شتى الجنسيات، مسلحين بالقسي وكافة أنواع الأسلحة، وأقبلوا مسرعين لمهاجمة بلدوين والجيش المسيحي بأسره. ولكن بلدوين صمد أمامهم في المكان المذكور. وحد كل هجماتهم من الصباح الباكر حتى المساء حتى تم عبور الجسر وأقاموا في المعسكر الكائن أمام أسوار المدينة. وتقدم بلدوين بفرسانه الخمسمائة صوب أولئك التركبولى الذين خرجوا من البوابات لمهاجمة الناس. واشتبك الجانبان في معركة مهولة، وسقطت أعداد كبيرة من القتلى على الجانبين، وهلكت أعداد كبيرة من خيول الفرنج بسبب السهام. ولكن بلدوين انتصر في النهاية، وأجبر الإمبراطور على الهرب والفرار إلى داخل المدينة. ولم يلبث التركبولى وجنود الإمبراطور، الذين أخزاهم أن يفروا بعد هزيمتهم في الحرب، أن انفقوا مرة أخرى خارج بوابات المدينة بأعداد أكبر لمهاجمة الجيش.

« ثم وصل النوق، ولما كان الليل قد أسدل ستاره، فقد أوقف القتال، ونصح أخاه بالرجوع إلى المعسكر بكل قواته وأن يبعد رجاله عن القتال أثناء الليل. وبالمثل خشى الإمبراطور نفسه من احتدام ضراوة القتال أكثر من ذلك، كما خشى على جنوده من الهلاك في عتمة المساء، فامر بإقرار السلام ، وقد سره أن يكون النوق مستعداً لسحب قواته من المعركة.

« ولكن بعد أشرقت الشمس في اليوم التالي، نهض القوم بأمر النوق، وأخذوا يتجولون في المناطق المحيطة سعياً وراء السلب والنهب في أراضي الإمبراطور على مدى ستة أيام، مما أدى إلى إتضاع مكانة الإمبراطور وهيته هو ورجاله. وعندما شاع ذلك، بدأ الإمبراطور يحزن ويأسى لأن أراضيه قد خربت على هذا النحو . وعقد مجلساً استشارياً في الحال، ثم أرسل رسالة إلى النوق يطلب منه وقف أعمال السلب والنهب والإحراق ، وأنه شخصياً سوف يقدم الترضية الكافية للنوق. وكانت الرسالة على النحو التالي: «فلنطرح العداوة بيننا. وليقم النوق عندما يتسلم الرهائن منى، بالتقدم دون شك في أنه سيأتي ويعود دون أن يلحقه ضرر، وليتأكد من أنه سينال كل الشرف والمجد التي سيكون بوسعنا أن نسديه له ولشعبه». ووافق النوق شاكراً ، بشرط أن يعطى الرهائن لمن يستطيع أن يثق في أنه سيحافظ على شرفه وسلامته؛ وحينئذ فإنه سوف يحضر إلى الإمبراطور دون شك، لكي يحادثه.

« ولم يكذب مبعوثو الإمبراطور يرحلون بعد هذه الإستجابة من جانب الدوق ، حتى وصل مبعوثون آخرون إلى الدوق نفسه من بوهيموند، يحملون تحيته وتكلموا على النحو التالي: «بوهيموند أغنى أمير فى صقلية وكالابريا، يسألكم ألا تدخلوا فى سلام مع الإمبراطور ، وإنما تنسحبوا إلى أدرنه وفليبيوبوليس، وهما مدينتان بلغاريتان وتمضى الشتاء هناك. وتأكدا أن بوهيموند نفسه سيأتى إلى مساعدتكم بكامل قواته فى شهر مارس، لمهاجمة الإمبراطور وغزو مملكته». وبعد أن استمع الدوق إلى رسالة بوهيموند أرجأ الإجابة عليها حتى اليوم التالى. ثم أجاب بعد مشاورة رفاقه، بأنه لم يترك بلده ونويه من أجل المكسب أو تدمير المسيحيين، وإنما غادرها فى سبيل اسم المسيح على الطريق إلى القدس. وهو يرغب فى تحقيق هذه الغاية ومحاربة خطط الإمبراطور، بشرط أن يستعيد ويحافظ على رضاه والعلاقة الطيبة معه. وعندما عرف رسل بوهيموند رد الدوق، وعلموا قصده عادوا إلى بلاد أبوليا بعد أن لقوا معاملة طيبة جداً من الدوق، وهناك قدموا تقريرهم بكل ما سمعوه من شفقتى الدوق.

وإذا عرف الإمبراطور بأمر هذه السفارة الجديدة وباقتراح بوهيموند، بادر إلى حث الدوق وأصدقائه على عقد اتفاقية معه؛ وكان يعتزم تقديم ابنه الحبيب هنا رهينة ، بشرط إقرار السلام، والمرور بسلام عبر البلاد، وأن يقابله فى مؤتمر وجهاً لوجه. وبفضل من ذلك فإنه سوف يخص جودفرى وأتباعه بامتياز شراء كل الضروريات. وعندما عرف الدوق أن هذه الوعود الإمبراطورية قد صيغت فى شكل مرسوم، حرك معسكره من تحت أسوار المدينة بناء على نصيحة مجلسه الاستشارى، وانسحب مجدداً عبر الجسر للإقامة فى المساكن الحصينة على شاطئ المضيق. وأمر رجاله جميعاً بالحفاظ على السلام، وأن يشتروا ما هو ضرورى دونما شقاق أو نزاع.

« وفى اليوم التالى، أمر كونون كوث موتيجو، وبلوين البورجى، وهما من أنبل الرجال وأكثرهم فصاحة، بالمثل بين يديه. ووجهما بثقة لاستقبال ابن الإمبراطور كرهينة، وهو ما تم بالفعل، فعندما تم احضار ابن الإمبراطور ، ووضع رهن الاعتقال تحت سلطة البوق ورجاله، سافر الدوق فى الحال على متن قارب عبر المضيق إلى القسطنطينية. وتقدم بجسارة إلى بلاط الإمبراطور ووقف أمامه برفقة الرجال البارزين مثل وريز الجريزى ويطرس الدامبييرى، وغيرهما من القادة، لكى يتبادلا الحديث. ولكن بلوين لم يدخل قصر الإمبراطور، ولكنه بقى مع الجيش على الشاطئ.

« وعندما رأى الإمبراطور عظمة الدوق ورجاله جميعاً، أعجب بهيبتهم وفخامتهم؛ فقد كانوا يرفلون في أزيائهم الفخمة الثرية من الأرجوان والذهب، والموشاة بالفرور الأبيض مثل الثلج، وغيره من أنواع الفراء، مثل أمراء بلاد الغال. وفي البداية استقبل الدوق بحرارة وترحاب، ثم استقبل جميع قادته ورفاقه الذين شرفهم بقبلة السلام. وفضلاً عن ذلك، جلس الإمبراطور في جلال على عرشه، وفقاً لعادته، ولم يقدّم له القبلية للدوق، أو أى شخص آخر. ولكن الدوق ورجاله انحسروا، وقد ثنى كل منهم ركبته لتقبيل مثل هذا الإمبراطور العظيم المجيد. وعندما انتهت نال الجميع قبلاهم، كل حسب مكانته، خاطب الدوق بهذه الكلمات : «سمعت أنك أعظم فارس وأكبر أمير في بلادك، وأنت رجل فطن وأهل للثقة. وأننى فى وجود هذه الكثرة، ومن يأتى غيرهم، أعلن أننى أتبناك إبناً لى؛ وكل ما أملكه أضعه تحت سلطانك حتى يمكن إنقاذ إمبراطوريتى وأملاكى وتحريرها على يديك».

« وابتهج الدوق بهذه الكلمات اللينة الودودة على لسان الإمبراطور ، الذى لم يكتف بالاعتراف به إبناً له، حسب العادة الجارية فى البلاد، وإنما أعطاه يده أيضاً، وأعلن نفسه تابعاً إقطاعياً للإمبراطور هو والأمراء الحاضرون الذين حضروا حنو الإمبراطور فى الاحتفال. ولم يحدث أى تأخير. وتم إحضار هدايا من كافة الأنواع من خزانة الإمبراطور، من الذهب والفضة، والأرجوان والبغال والخيول، وكل ما له قيمة. وهكذا ارتبط الإمبراطور والدوق حقاً برباط لا ينفصم من الإيمان والصداقة، منذ عيد المسيح عندما تم الاتفاق ، حتى قبل أيام قليلة من عيد الخمسين. وفى كل أسبوع يحضر أربعة رجال يحملون العملات البيزنطية الذهبية، وعشر قطع نقدية تسمى تارتون، قد أرسلهم القصر الإمبراطورى إلى الدوق لى يوفر المؤن للجنود. ومن الدهش أن كل ما كان الدوق يفرقه على رجاله من هدايا الإمبراطور كان يرجع إلى الخزانة الإمبراطورية ثمناً للطعام. وتتبدد الدهشة إذا علمنا أنه لم يكن هناك غير متاجر الإمبراطور (مثل الخمر ، والزيت ، والغلال ، والشعير، وكل أنواع الطعام) فى المملكة بأسرها. وهكذا كانت خزانة الإمبراطور عامرة دائماً بالذهب ولم يكن ممكناً أن تصبح خاوية بسبب التبذير.

« وبعد اقرار السلاّم والنظام بين الإمبراطور والدوق وفقاً للشروط التى ذكرناها، فإن الدوق الذى كان ما يزال واثقاً من إيمان الإمبراطور وصداقته عاد للإقامة فى المساكن على شاطئ المضيق، وأعاد ابن الإمبراطور معززاً مكرماً، بعد أن ظل كرهينة حتى ذلك الحين. وفى

اليوم التالي، أعلن للجيش كله، بناء على أوامر النوق، أنه يجب إظهار السلام والشرف للإمبراطور وكل من يخضعون لأوامره، وأنه يجب أن تتم عمليات التبادل والبيع والشراء على أساس من العدل. وأعلن الإمبراطور أيضاً في شتى أنحاء مملكته، أن من يلحق أذى بالجيش الصليبي سيقع تحت طائلة عقوبة الإعدام، وأن الواجب أن يبيعوا بأوزان ومقاييس عادلة للحجاج، وأن يخفضوا لهم الأسعار.

« وبعد هذه الحوادث، ومع بداية الصوم الكبير، استدعى الإمبراطور النوق في حضرته ورجاه بحكم الصداقة، أن يعبر البحر ليضرب خيامه في قبادوقيا، بسبب المباني التي كان رجاله التواقون للشغب يدمرونها. ووافق النوق على هذا، وبعد عبور النهر وضرب الخيام مكث هو ورجاله في سهل قبادوقيا.

« بعد ذلك، ارتفع سعر كل شيء يباع للحجاج، ولكن على الرغم من ذلك، استمرت هبات الإمبراطور إلى النوق، لأنه كان يخافه كثيراً. ولكن النوق الذي رأى صعوبة شراء اللوازم الضرورية ولم يستطع تحمل غضب قومه، غالباً ما كان يذهب إلى الإمبراطور ليشكو له من ارتفاع أسعار الطعام. ومن ثم أمر الإمبراطور بتخفيف العبء عن جميع الحجاج، كائنه لم يكن يدرى بارتفاع الأسعار، ولم يكن يريد ذلك».

جودفرى البويوني

رواية أنا كومينا (*)

« في ذلك الوقت عبر الكونت جودفرى البحر ومعه بعض الكونتات الآخرين يقودون جيشاً قوامه عشرة آلاف فارس وسبعين ألفاً من المشاة. وعندما وصل إلى العاصمة عسكر بجيشه قرب المضيق، وكان معسكره يمتد فيما بين الجسر المقابل لكورميدون حتى سان فوكاس. وعندما حثه الإمبراطور على عبور مضيق البسفور، أخذ يوماً بعد يوم ينتحل الأعذار وأرجأ الموضوع، وكان السبب الرئيسى، ببساطة، هو أنه كان ينتظر وصول بوهيموند وغيره من

(*) هذه الرواية البيزنطية المقابلة للروايات اللاتينية التي أوردها، وهي تحمل وجهة النظر البيزنطية التي يمكن للباحثين مقارنتها بالرؤية اللاتينية للأحداث وتفسيرها.

الكوثات. ذلك أنه على الرغم من أن بطرس قد أنشأ هذه الحملة العظيمة في البداية للتعبد في الضريح المقدس، فإن الكوثات الآخرين ، وعلى رأسهم بوهيموند، كانوا يحتفظون في عقولهم بأحقادهم القديمة ضد الإمبراطور وكانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لكي يثاروا منه بسبب النصر الرائع الذي أحرزه ضد بوهيموند عندما اشتبك الأخير معه في معركة عند لاريسا. وكانوا يحلمون أنهم إذا اتفقوا جميعاً سوف يكون بوسعهم الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، وقد ربطوا بين هذه الفكرة نفسها والفرض الذي ذكرناه كثيراً من قبل. وهكذا، كان الظاهر أنهم يقومون بحملة إلى بيت المقدس؛ ولكن الحقيقة أنهم كانوا يريدون خلع الإمبراطور عن مملكته والاستيلاء على القسطنطينية. ولكن الإمبراطور ، الذي كان قد خبر شرورهم منذ زمن طويل وعرفها، أرسل خطابات يأمر فيها القوات المساعدة بالتحرك مع ضباطها من أيثرا حتى فيليبا في حشود كبيرة (وفيليا مكان على شاطئ البحر الأسود)، وكان عليهم أن يكموا انتظاراً للرسل الذين أرسلهم جودفري إلى بوهيموند وغيره من الكوثات القادمين وراءه، أو العكس؛ وبذلك يمكن قطع جميع الاتصالات. وفي الوقت نفسه حدثت الحادثة التالية. ذلك أن بعض الكوثات المرافقين لجودفري تلقوا دعوة من الإمبراطور لمقابلته. وكان قصده أن يمدحهم بالنصيحة ؛ بأنهم ينبغي أن يحثوا جودفري على أن يقسم يمين الولاء، وعلى أية حال ، فإن اللاتين أضاعوا الوقت بسبب ثرثرتهم وحبهم للخطب المطولة، حتى سرت شائعة لدى الفرنج تقول إن كوثاتهم أسرى لدى اليكسيوس. وفي الحال ساروا في صفوف قتال صوب بيزنطة، وبدأوا بالقصور الكائنة قرب البحيرة الفضية، فحزبوا تماماً، وشنوا هجوم آخر أيضاً على أسوار المدينة. ليس بالانجنيقات (لأنهم لا يملكونها) ، وإنما أغرتهم كثرتهم ودفعتهم وقاحتهم لمحاولة اضرام النيران تحت القصر، بالقرب من ضريح سان نيقولاس. ولم يكن رعاي البيزنطيين، الذين كانوا غاية في الجبن ، والذين لم تكن لديهم أية خبرة قتالية – هؤلاء الرعاي لم يكونوا هم الوحيدين الذين بكوا وناحوا وضربوا صدورهم خوفاً وجزماً عندما رأوا الفرق العسكرية اللاتينية؛ وإنما فاقهم في الخوف أكثر رعايا الإمبراطور إخلاصاً. وإذا تذكرنا يوم الخميس الذي سقطت فيه المدينة ^(١)، غشيهم الخوف في ذلك اليوم أيضاً ^(٢) (بسبب ما حدث آنذاك) من أن تصيبهم نيران الانتقام. وهول كل الجنود المدربين مسرعين إلى القصر في

(١) هذه إشارة إلى سقوط القسطنطينية في يد آل كومنين بعد نجاحهم في الإنقلاب الذي قاموا به.

(٢) وكان يوم ٢ أبريل ١٠٩٧م. وكان يوم الخميس أيضاً.

فوضى، ولكن الإمبراطور ظل رابط الجأش: فلم يحاول أن يحمل السلاح ولم يرتد الصديريات، ولم يتقلد سيفه، ولكنه ظل يرقل في العبادة الإمبراطورية. وكان جالساً بثبات على العرش الإمبراطوري، وتفحصهم جيداً، وهو يشجع الناس ويمدهم بالثقة، وفي الوقت نفسه أخذ يشاور رجاله المقربين وقادته المعسكريين حول العمل الذي ينبغي أن يتم في المستقبل. وقبل كل شيء أصر على ألا يترك أحد الأسوار لمهاجمة اللاتين لسبيين: أولاً الطبيعة المقدسة لهذا اليوم (فقد كان خميس الأسبوع المقدس، أسمى أسبوع في السنة، وفيه عانى المخلص الموت في سبيل العالم بأسره)، وثانياً لأنه أراد أن يتجنب إراقة الدماء بين المسيحيين. وفي مناسبات عديدة أرسل المبعوثين إلى اللاتين ينصحهم ألا يقوموا بمثل هذا الهجوم. وقال «إرجعوا إلى الرب الذي ضحى في هذا اليوم بنفسه من أجلنا جميعاً، ولم يرفض الصليب أو المسامير ولا الحرية - وهي كلها أدوات ثلاث عقاب الخطاة والمنذنين - وذلك لكي يتقننا. وإذا كان عليكم أن تقاتلوا، فنحن أيضاً سنكون مستعدين للقائكم ولكن بعد عيد قيامة المخلص». ولكنهم أبوا أن يستمعوا إلى هذه الكلمات، وإنما بدأوا يضغطون بقواتهم، وقد وصلت كثافة سهامهم أن سهما أصاب أحد خدم الإمبراطور في صدره وهو واقف بجوار العرش. واصطف معظم الآخرين على جانبي الإمبراطور، وعندما شاهدوا ذلك بدأوا ينسحبون، ولكنه بقي ثابتاً غير هباب، وأخذ يواسيهم ويشجعهم بكلمات لطيفة - وهو ما أثار دهشة الجميع.

« وأخيراً، فإنه عندما شاهد اللاتين يقتربون من الأسوار في وقاحة، واحتقروا نصيحته المفيدة، استدعى زوج ابنته نيقفورس، وأمره بأن يأخذ معه أقوى رجاله وأمرهم في الرماية بالأسلحة ويصعد على قمة الأسوار، ونصحهم في الوقت نفسه، بأن يقدفوا على اللاتين بالأسلحة بأسرع ما يمكنهم، وذلك بقصد تخويفهم لا قتلهم. لأن الإمبراطور، كان يحترم المغزى الديني لليوم كما ذكرنا من قبل ولم يكن يريد أن يشتبك في حرب أهلية بين المسيحيين. وفي الوقت نفسه، أمر بعض قادته المختارين (كل منهم على رأس قواته المسلحين بالقسي، وبعضهم بالحرب الطويلة)، لكي يشنوا هجمة مفاجئة من البوابة القريبة من سان رومانوس، حتى يظهروا للعنوة القدرة على العنف، وتم ترتيب صفوف القتال على أساس أن يكون كل رجل يحمل حرية تحت حماية رماة الأقواس المدرعين على الجانبين. وإذا تم ترتيبهم على هذا النحو، صدرت إليهم الأوامر بالتقدم صوب العنوة ببطء، كما صدرت الأوامر لرماة السهام بأن يوروا كثيراً هنا وهناك وأرسلوا مباشرة لضرب الغال (الفرنجة) من مسافة قريبة. وعندما صار الصغان قرييين من بعضهما، صدرت الأوامر لحاملي الأقواس الذين يحميهم حاملو الحرب

من الجوانب بأن يستخدموا قسيهم بحذر، وأن يصوبوا على خيول العدو، دون أن يقتلوا راكبيها؛ كما صدرت الأوامر لحاملي الحراب بأن يهجموا على اللاتين بقوة وأن يطلقوا لخيولهم العنان. وقد أعطى هذا الأمر وفي ذهنه أنه حين تخرج خيول اللاتين ستتكسر حدة عنف هجومهم وبذلك لن يكون من السهل على الفرسان اللاتين مطاردة الرومان؛ وفي ذهنه أيضاً أن هذا سيوافق رغبته الخاصة في أنه يجب تقليل الدم المسيحي المراق في هذا القتال بقدر الإمكان. وقد فعل هؤلاء الرجال في شجاعة ما أمرهم به الإمبراطور، وبعد أن فتحت البوابات فجأة اندفعوا ضد العدو، وأطلقوا العنان لخيولهم حيناً، وتحكموا فيها حيناً آخر. وهكذا قتلوا كثيرين من أفراد العدو، وجرح عدد ضئيل من رجالنا في المعركة التي جرت في ذلك اليوم. وسوف نتركهم ونعود إلى سيدى القيصر. فقد أخذ رماة السهام المدربين من رجاله، ورتبهم في الأبراج وبدأوا يطلقون سهامهم على البرابرة. وكان لكل رجل قوس مضبوط ويعيد المدى. وكانوا جميعاً شباباً، ومهرة، في الرمي بالقوس مثل توسر الذي ذكره هوميروس. وكان قوس القيصر جدير بأبلو حقا. وعلى عكس الإغريق المشهورين الذين تحدث عنهم هوميروس، لم يكن يجذب خيط القوس حتى يلمس صدره ويشد السهم حتى يكون النصل المعدني قرب القوس؛ ولم يكن يستعرض مهارة الصيادين مثلهم. ولكنه كان مثل هرقل ثان يطلق سهاماً قاتلة من أقواس غير قاتلة ويصيب الهدف كما يحلو له. وفي أوقات أخرى، عندما يشارك في الرماية أو في معركة لم يخطئ أبداً أى هدف: ففي أى مكان في جسم الإنسان كان يصوب سهمه فيصيبه في الحال. وكان يثنى قوسه بقوة ويطلق سهامه بسلسلة لا يضارعه فيها توسر والأجاكس. ومع هذا، وبالرغم من مهارته فإنه في هذه المناسبة احترم قدسية اليوم والتزم بأوامر الإمبراطور وتعليماته، لدرجة أنه عندما رأى الفرنج يتقدمون صوب الأسوار في طيش وتهور، تحميه الدروع والخوذات، ثنى قوسه ووضع السهم ثم صوب دون إحكام عن عمد، وكان يصوب بعد الهدف أحيانا، وقبله أحيانا أخرى. وعلى الرغم من أنه كان يحجم عن التصويب إلى اللاتين مباشرة، إكراما ليوم العيد، فإنه مع ذلك حين كانت حماقة أحد اللاتين تدفعه إلى ضرب المدافعين عن أسوار المدينة، ولا يكتفى بهذا وإنما يصب سيلاً من الإهانات بلغته، كان القيصر يستخدم قوسه فعلا. ولم يكن السهم يطيش من يديه ولكنه كان يخرق الدرع الطويل ويشق طريقه في صديريّة الزرد، حتى يشتبك الفراع بالجنب. ويخر صريعا على الأرض دون أن ينبس ببنت شفة كما يقول الشاعر (*) وتصد صرخة إلى

(*) في هذه الأجزاء تستخدم أنا كومنينا بعض أبيات هوميروس من الإلياذة.

السماء على حين يطلق الرومان صيحات التحية لقيصرهم وينعى اللاتين مقاتلهم السريع. واندلعت المعركة من جديد وكان فرسانهم ورجالنا يقاتلون عند البوابة فى شجاعة؛ وكان نصالاً مريراً وعنيفاً من الجانبين. وعلى أية حال ، فإن الإمبراطور بعث حرسه فهرب اللاتين. وفى اليوم التالى نصح هيو جوفرى بالاستسلام لإرادة الإمبراطور، ما لم يكن يريد أن يتعلم للمرة الثانية مدى خبرة اليكسيوس فى قيادة القوات. وقال إن عليه أن يقسم بأن يدين له بالولاء. ولكن جوفدى عارضه بصراحة قائلاً : « لقد تركت بلادك ملكاً بكل الثروة والجيش القوي؛ والآن نزلت بنفسك من العلا إلى مرتبة العبد، فإذا حققت أى نجاح كبير، فلتأت إلى وتخبرنى أن أفعل مثلك»، وأجابه هيو : «كان ينبغي علينا أن نبقى فى بلادنا وأن نكف أيادينا عن الشعوب الأخرى، ولكن طالما أننا جئنا إلى هذا المكان البعيد ونحتاج إلى حماية الإمبراطور، فإننا لن نجد خيراً ما لم نطع أوامره». ودخل هيو دون أن يحرز شيئاً، وبسبب الأخبار المؤكدة بأن الكونتات القادمين خلف جوفدى قد اقتربوا فعلاً، أرسل الإمبراطور بعض أفضل ضباطه بقواتهم لى ينصحوه مرة أخرى، أو حتى ليجبروه على عبور المضيق. ولم يكد اللاتين يشاهدونهم، حتى شنوا هجوما عليهم وبدأوا يقاتلونهم دون أن يترددوا لحظة واحدة، ودون أن ينتظروا ليسألوهم عن غرضهم. وفى هذه المعركة الوحشية سقط كثيرون من الجانبين وجرح رجال الإمبراطور الذى هاجموا بجسارة متناهية. وعندما أظهر الرومان بأساً وقوة هرب اللاتين. وهكذا خضع جوفدى بعد ذلك بوقت قصير وجاء إلى الإمبراطور وأقسم بأن أى مدن أو بلاد أو قلاع يستولى عليها فى المستقبل، وكانت من أملاك الإمبراطورية الرومانية قبل ذلك، تُسلم إلى الضابط الذى يعينه الإمبراطور لهذا الغرض. وعندما أدى اليمين تلقى هبة كريمة، ودعى إلى مشاركة اليكسيوس على المائدة الامبراطورية، واستمتع بصحبة مجموعة من كرام القوم، وبعد ذلك عبر المضيق حيث أقام معسكره. وعند ذلك أمر الإمبراطور بتوفير كميات الطعام لرجال جيشه.»

بوهيموند

رواية المؤرخ المجهول (*)

«حين سمع الإمبراطور أن بوهيموند، الرجل اللامع قد وصل، أمر بأن يتم استقباله بالكرام اللائق، ولكنه حرص على أن يقيم خارج المدينة. وبعد أن استقر بوهيموند، أرسل الإمبراطور يدعوه إلى اجتماع سرى. وكان النوق جوفدى وأخوه حاضرين أيضاً، وكان

كونت سان جيل بالقرب من المدينة. وحينئذ كان الإمبراطور الذي كان مشوش الذهن وقد امتلكه الغضب الشديد، يخطط لطريقة يوقع بها هؤلاء الفرسان المسيحيين بالمكر والخديعة، ولكن بفضل الرب لم يجد هو أو رجاله المكان أو الوقت للإضرار بهم. وأخيراً، تشاور كبار القسطنطينية الذين خشوا ضياع بلادهم، واتفقوا على خطة مأكرة لجعل الدوقات والكوتات وجميع قادة جيشنا يقسمون يمين الولاء للإمبراطور^(١). وقد رفض زعمائنا هذا صراحة وقالوا حقاً إن هذا لا يليق بنا، ويبدو من الظلم أن نقسم له بشيء على الإطلاق^(٢).

« وعلى أية حال فربما كان مقدراً لنا أن نضل على أيدي زعمائنا، لأنه ماذا حدث في النهاية؟ ربما يقولون إنهم اضطروا تحت وطأة الحاجة، وإنهم اضطروا لتحقير أنفسهم طواعية لكي يفعلوا ما كان يريد ذلك الإمبراطور البغيض.

« والآن كان الإمبراطور خائفاً للغاية من بوهيموند الجسور، الذي طامنا طارده هو وجيشه من ميدان المعركة. ولذا أخبر بوهيموند أنه سوف يعطيه الأراضي الواقعة وراء أنطاكية، ومساحتها مسيرة خمسة عشرة يوماً طوياً وثمانية أيام عرضاً، بشرط أن يقسم يمين الولاء دون تحفظ، وأضاف هذا الوعد، بأنه إذا حافظ على بوهيموند على قسمه بإخلاص فإنه لن يحدث بوعده أبداً. ولكن لماذا ينبغي على الفرسان الشجعان القادرين أن يفعلوا شيئاً كهذا؟ ربما يكون السبب هو شدة حاجاتهم. وضمن الإمبراطور من جانبهم السلامة والأمن لرجالنا جميعاً، وأقسم أيضاً على أن يأتي معنا، ومع جيشه وأسطول، وأن يمدنا بالمؤن والإمدادات بحرراً وبرأ، وأن يهتم بأن يعيد لنا الأشياء التي فقدناها، وفضلاً من ذلك وعد بأنه لن يسبب لنا ولن يسمح لأحد بأن يسبب لنا المتاعب أو يضايق حاجتنا على الطريق إلى الضريح المقدس».

(١) كان اليكسيوس يريد أن يجبر الصليبيين على الإعتراف بأنهم يستردون مناطق فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى لحساب الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تحكمها قبل الفتح الإسلامي. وقبل ظهور الأتراك السلجقة.

(٢) كانت مشاعر الغرب الأوربي تجاه الإمبراطور البيزنطي عدائية وازدادت حدة العداء نتيجة للإتشقاق بين الكنيستين البيزنطية والكاثوليكية سنة ١٠٥٤م. وكان هجوم روبرت جويسكارد والد بوهيموند على الإمبراطورية البيزنطية بمثابة الخطوة الأولى لفوز الإمبراطورية الشرقية رغم أنه تم لحره سنة ١٠٨٥.

بوهيموند رواية أنا كونيغا(*)

« وصل بوهيموند إلى أبروس مع الكونتات الآخرين، وكان يعرف أنه هو نفسه ليس نبيل المولد، وليست معه قوات كبيرة بسبب قلة موارده، ولذا فإنه أراد أن يكسب رضا الإمبراطور، ولكنه في الوقت نفسه أراد أن يخفي مقاصده العدائية تجاهه، وأسرع مع عشرة فقط من الكنت لكي يصل إلى العاصمة قبل الآخرين، وكان اليكسيوس يفهم مشروعاته وخططه - فقد خبر منذ زمن طويل طبيعة بوهيموند التي جبلت على الخداع والخيانة - وأراد أن يحادثه قبل أن يصل رفاقه؛ وأراد أن يسمع ما يريد بوهيموند قوله قبل أن تكون لديه الفرصة لإفساد الباقيين (الذين كانوا قد اقتربوا حينئذ)، وكان يأمل في إقناعه بالعبور إلى آسيا. وعندما مثل بوهيموند في حضرته، ابتسم له اليكسيوس في الحال واستفسر عن رحلته، أين ترك الكونتات؟ وأجاب بوهيموند في صراحة وذكر كل ما يعرفه رداً على هذه الأسئلة، على حين ذكره الإمبراطور في أدب بأعماله الجسورة في لاريسا «وبيراخيوم»؛ كما أعاد تذكير بوهيموند بعداوته السابقة، وقال بوهيموند: «كنت بالفعل عدواً لوداً آنذاك، ولكن الآن جئت بمحض إرادتي صديقاً لجلالتك». وتحدث اليكسيوس معه حديثاً مطولاً، بطريقة ملتوية إلى حد ما محاولاً أن يستكشف مشاعر الرجل الحقيقية، وعندما أيقن أن بوهيموند سيكون مستعداً لأن يقسم بيمين الولاء قال له: «أنت الآن متعب من رحلتك، أذهب لتستريح، وغداً يمكننا أن نناقش الأمور التي تهمنى سوية». وذهب بوهيموند إلى الكوزميدون حيث تم تجهيز جناح له، وأعدت مائدة حافلة بالأطعمة الفاخرة من كل نوع، وفيما بعد أحضر الطباخون لحوم الحيوانات والطيور غير مطهية، وقالوا: «إن الطعام كما ترى قد تم إعداده بطريقتنا المعتادة»، ولكن إذا لم يكن هذا يناسبك فهذا لم يمكن طهيه بالطريقة التي تحبها». وكانوا ينفذون تعليمات الإمبراطور في أقوالهم وأفعالهم هذه، فقد كان اليكسيوس خبيراً بشخصيات الرجال لا يخطئ الحكم عليهم، ويستطيع أن يقرأ بمهارة الأفكار الداخلية التي تعتمل في قلوب الرجال، وكان يعرف طبيعة بوهيموند الشريرة والمرتابة، وقد كان تخمينه صحيحاً حول ما قد يحدث. ولكي لا يثير شكوك بوهيموند أمر بوضع اللحم غير المطهى أمامه في الوقت نفسه، وكانت تلك حركة ممتازة ولكن الفرنجى الماكر لم يكتف برفض تنوق أى نوع من الطعام، وإنما رفض أيضاً أن يلمسه بأطراف

أصابه. وأزاحه كله ولكنه قسمه بين جميع الحاضرين، دون أية بادرة من جانبه على سوء النية. وبدأ الأمر وكأنه يسدى إليهم صنيعةً، ولكن ذلك كان ستاراً ظاهرياً فقط؛ ففي الحقيقة، إذا ما فكر المرء في الأمور بشكل سليم، كان يجهز لهم كأس الموت. ولم يقم بأية محاولة لاختفاء خيانتته، لأنه كان معتاداً على معاملة الخدم بلا مبالاة قاسية. وعلى أية حال، فإنه طلب من طبائخيه أن يجهزوا له اللحم على الطريقة الفرنجية المعتادة، وفي اليوم التالي سأل الحاضرين عما يشعرون به وأجابوا بأنهم لم يعانون أى أذى من الطعام. وعند هذه الكلمات كشف عن خوفه الدفين وقال « من جانبي أنا ، فإننى حين تذكرت الحروب التى حاربتها ضده، دعك من المعركة الشهيرة، خشيت أن يدبر لقتلى بوضع جرعة من السم فى الطعام». هكذا كانت أفعال بوهيموند. ويجب أن أقول أننى لم أر أبداً رجلاً شريراً مثله. فى كل شىء، فى كلماته وأفعاله، لم يكن يختار المسار الصحيح أبداً، وعندما ينحاز أى إنسان عن الفضيلة، فسيكون الفرق بين أى من الطرق التى يسلكها ضئيلاً، لأنه سيكون دائماً بمنأى عن الصواب.

« واستدعى الإمبراطور بوهيموند، مثل الآخرين، وجعله يقسم يمين الولاء المعتاد لدى اللاتين. ولأن بوهيموند كان يعرف موارده جيداً، وكان مدركاً لكونه من غير النبلاء وأنه لا يملك ثروة تعينه على أن يكون له جيش كبير، وإنما عند متوسط من الغال (الفرنج)، ولأنه كان أيضاً غير أمين، سارع بإخضاع نفسه لإرادة الإمبراطور.

وبعد إنتهاء الاحتفال ، أفرد اليكسيوس حجرة بالقصر وأمر بأن تغطى أرضيتها بكل أنواع الثروات، الملابس والذهب والفضة، والعملات وأشياء أقل قيمة ملأت المكان تماماً لدرجة أنه كان يتعذر على أى إنسان أن يمشى فيها. وأمر الرجل المعين لهذا الغرض بأن يجعل بوهيموند يرى هذه الكنوز بأن يفتح الباب فجأة. وذهل بوهيموند لهذا المشهد وقال «إذا كانت لدى مثل هذ هذه الثروة لكنت أصبحت سيداً على بلاد كثيرة منذ زمن طويل مضى». وقال الرجل: «كل هذا ملك لك اليوم – هدية من الإمبراطور». وغمرت بوهيموند فرحة طاغية. وبعد أن قبل الهبة وشكر الرجل عليها، ذهب ليستريح فى المكان المخصص لإقامته. ومع ذلك فعندما أحضرت الأشياء إليه، وعلى الرغم من أنه كان قد عبر عن إعجابه بها من قبل فإنه تغير، إذ قال: «لم يخطر على بالى قط أن يهيننى الإمبراطور هكذا. خذ هذه الأشياء بعيداً، وأعد لها لمن أرسلها .» وإذا كان اليكسيوس معتاداً على هذا التقلب وتبدل الأطوار عند اللاتين، اقتبس مثلاً شعبياً يقول : «إن الضرر الذى سببه سيعود على رأسه». وسمع بوهيموند عن هذا، وعندما

رأى الخدم يجمعون الهدايا بحرص لاخذهما، غير رأيه مرة أخرى، وبدلاً من أن يطردهم غاضباً ابتسم لهم، مثل سمك الحبار الذى يغير نفسه فى دقيقة. والحقيقة أن بوهيموند كان معتاداً على الفش والنصب وسريع الإستجابة للظروف المتغيرة؛ وكان يفوق اللاتين الآخرين الذين مروا عبر القسطنطينية آنذاك فى نذالته وشجاعته، ولكنه كان أقلهم فى الثروة والموارد. كان هو الشرير الأكبر. وفيما يتعلق بتقلب الأحوال والأطوار بشكل تلقائى - فقد كانت تلك سمة عامة لدى جميع اللاتين. ولم يكن مما يثير الدهشة آنذاك أن يفرح كثيراً عندما تلقى الأموال التى كان قد رفضها، فعندما ترك وطنه، كان رجلاً متكدراً، لأنه لم يكن يملك أية إقطاعيات. وكان الظاهر أنه رحل لى يتعبد فى الضريح المقدس، ولكن الحقيقة أنه كان يريد أنه يحوز لنفسه السلطة والقوة - أو يستولى على الإمبراطورية الرومانية نفسها إذا كان ذلك ممكناً، مثلما كان والده يريد من قبل. وكان مستعداً للذهاب إلى أى مدى، مثلما يقولون، ولكنه كان بحاجة إلى مبلغ كبير من المال. وإذا كان الإمبراطور واعياً لغدر الرجل، وأغراض بوهيموند الشريرة، فإنه عمل بحرص على إزالة أى شىء يمكن أن يساهم فى خطط بوهيموند السرية. ومن ثم فعندما طلب بوهيموند منصب حاكم الشرق لم يجبه إلى طلبه؛ إذ لم يكن فى إستطاعته أن يخدع اليكسيوس الذى كان يخشى من أن امتلاكه للسلطة قد يدفعه إلى استخدامها فى إخضاع الكونتات الآخرين ثم يحولهم بعد ذلك إلى السياسة التى يختارها بسهولة. وفى الوقت نفسه، فقد أخذ يمنية ببعض الآمال بقوله «لم يحن الوقت بعد لذلك، ولكن بطاقتك واخلاصك لن يمر وقت طويل حتى تنال هذا الشرف». وبعد محادثة مع الفرنج أظهر خلالها صداقته لهم بكل أنواع الهدايا ومظاهر التكريم، جلس فى اليوم التالى على العرش الإمبراطورى. وتم إرسال بوهيموند والآخرين بعد أن تلقوا تحذيراً بالأمور التى قد تحدث لهم أثناء الرحلة، وأسدى لهم نصيحة قيمة. فقد أعلمهم بوسائل الأتراك فى القتال؛ وأخبرهم كيف ينظمون صفوف قتالهم، وكيف يعدون كمائنهم؛ ونصحهم ألا يطاربهم بعيداً إذا ما لجأوا إلى الفرار. وبهذه الطريقة، ومن خلال المال والنصيحة الطيبة، بذل الكثير لى يهذب من طبيعتهم الشرسة. ثم اقترح عليهم عبور المضيق ..»

ريمون أمير تولوز وأديمار أسقف لوبوى

رواية ريمون الأجويلرى (*)

« على الرغم من أن الأحداث قد صحبت الكاتب بخطوات سعيدة محببة إلى هذا المدى، فإنها الآن تتبعه بثقل كبير الوطأة من المرارة والأسف الذى يجعلنى أحزن لأننى بدأت ما أقسمت على أن أنجزه. فما هو حقاً الموضوع الأهم الذى ينبغى أن أذكره؟ هل أذكر خداع الإمبراطور الشرير؟ أم الفرار المشين المخزى والياس المزى فى صفوف جيشنا؟ أم أترك أثراً من الأسف السرمدى حين أحصى القتلى من كبار الأمراء؟ فليبحث من يريد هذه المعلومات عنها لدى الآخرين وليس عندي، فهذه حادثة لا تمحى ذكرها واعتبر أنها تستحق الذكر. فعندما فكر رجالنا فى ترك المعسكر، وولوا الأدبار، وتخلوا عن رفاقهم، وتركوا كل ما حملوه معهم من هذه الأقاليم البعيدة، عانوا مرة أخرى بفعل أعمال التوبة والتكفير والصيام التى جددت صبرهم وجلدهم بدرجة أن الخنزى من يأسهم السابق وهربهم كان الأمر الوحيد الذى يحز فى نفوسهم. وهناك الكثير الذى يمكن قوله عن هذا الموضوع.

« وبناء عليه، فعندما استقبل الإمبراطور وأمرأه الكونت استقبلاً مشرفاً للغاية، طلب الإمبراطور من الكونت الولاء وقسم التبعية الذى أداه له بقية الأمراء، وأجاب الكونت بأنه لم يأت إلى هذا المكان لى يتخذ لنفسه سيداً آخر غير الرب الذى من أجله ترك بلاده وممتلكاته. ومع هذا ، فإذا كان الإمبراطور سيذهب إلى القدس بجيشه، فإنه هو ورجاله وما يملكه سيكونون جميعاً تحت تصرفه. ولكن الإمبراطور تنصل من الرحلة بالقول بأنه يخشى أن يقوم الجرمان والمجريون والكومان وغيرهم من الشعوب المتوحشة بنهب إمبراطوريته، إذا ما قام بالرحلة مع الحجاج. وفى الوقت نفسه، فإن الكونت عندما سمع عن هروب رجاله وموتهم اعتقد أنه وقع ضحية الخيانة، وبسبب عدد من أرائنا أنهم الإمبراطور صراحة بارتكاب الخيانة. ولكن اليكسيوس قال إنه لم يكن يعلم أن رجالنا جئنا فساداً فى مملكته، وأنه هو ورجاله عانوا كثيراً من الأذى؛ وأنه لا يحق للكونت أن يشكو من شىء، سوى أنه بينما كان جيش الكونت ينهب القرى والمدن على مألوف عادته، رأى جيش الإمبراطور فلولاً الأدبار

هاريًا. ومع هذا ، وعد بأنه سوف يقدم الترضية للكونت وعرض بوهيموند رهينة لهذه الترضية. وذهبوا للمحاكمة؛ ووفقًا للقانون اضطُر الكونت إلى تقديم رهائنه.

« وفي الوقت نفسه وصل جيشنا إلى القسطنطينية؛ وبعد هذا تبعنا الأسقف الذي كان الجيش قد تركه في درازو مع أخيه. وطلب اليكسيوس يمين الولاء عدة مرات ووعد بأنه سيعطي الكثير للكونت إذا أقسم له يمين الولاء والتبعية مثلما فعل بقية الأمراء. وعلى أية حال، فإن الكونت كان يفكر باستمرار في كيفية الإنتقام لما حل برجاله من أذى، وكيف يغسل عن نفسه وعن أتباعه مثل هذا العار البغيض. ولكن دوق اللورين، وكونت الفلاندرز، وغيرهما من الأمراء، استنكروا مثل هذا التصرف، وقالوا إنه سيكون حماقة بالغة أن يحارب ضد المسيحيين على حين يطل خطر الأتراك ويهددهم جميعاً. والواقع أن بوهيموند وعد بأنه سوف يساعد الإمبراطور إذا قام الكونت بأية محاولة ضد الإمبراطور، أو إذا ظل على رفضه ليمين التبعية والولاء. وعند ذلك، عقد الكونت مجلساً استشارياً مع رجاله وأقسم أنه لن يمس شرف الإمبراطور بشخصه أو عن طريق الغير. وعندما طلب منه يمين الولاء والتبعية ، قال إنه لن يفعل ذلك حتى لو كلفه حياته، وعندئذ منحه الإمبراطور بضعة هدايا قليلة».

ريمون كونت تولوز

رواية المؤرخ المجهول (*)

«كان كونت سان جيل قد عسكر خارج المدينة في الضواحي، وبقي جيشه بالخلف، وإذا أمره الإمبراطور بأن يقسم يمين الولاء والتبعية مثلما فعل الآخرون، ولكن عندما أرسل الإمبراطور هذه الرسالة له كان الكونت يخطط للطريقة التي ينتقم بها لنفسه من الجيش الإمبراطوري. وعلى أية حال، فإن الدوق جودفري، وروبرت كونت الفلاندرز والقادة الآخرين، أخبروه أنه سيكون من الخطأ أن يقاتل إخوته في المسيحية وقال بوهيموند الجسور إنه إذا قام الكونت ريمون بأى الخطأ في حق الإمبراطور أو رفض أن يقسم له يمين الولاء والتبعية، فإنه سيقف في صف الإمبراطور. ومن ثم فإن الكونت عمل بنصيحة أصدقائه وأقسم على احترام

حياة أليكسيوس وشرفه وأنه لن يدمرها أو يسمح لأحد آخر بأن يفعل؛ ولكن عندما طلب منه أن يقدم آيات الخضوع والتبعية أجاب بأنه لن يفعل حتى ولو كان الثمن هو حياته.^(١) وبعد ذلك جاء جيش سيدي بوهيموند إلى القسطنطينية..

ريمون كونت تولوز

رواية أنا كونيكا (*)

«وبالنسبة لأحدهم، وهو ريمون كونت سان جيل^(٢)، كان أليكسيوس يكن له إعجاباً عميقاً لعدة أسباب : ذكاء الكونت الخارق، وسمعته الناصعة، ونقاء حياته، فضلاً عن أنه كان يعرف كيف يقدر ريمون الحقيقة تقديرًا كبيراً؛ فمهما كانت الظروف، كان يفضل الحقيقة على ما عداها. والحق أن السانجيلي كان يتفوق على اللاتين في كل خصاله، مثلما تسطع الشمس على جميع النجوم. وهكذا، فإنه عندما تركه الآخرون جميعاً وعبروا البسفور إلى الشاطئ الآسيوي^(٣)، وعندما استراح من وجودهم المتعب، أرسل له في عدة مناسبات، وشرح بمزيد من التفصيل المغامرات التي يجب على اللاتين أن يتوقعوها في مسيرتهم؛ كما كشف عن شكوكه في خططهم. وخلال محادثات كثيرة جرت حول هذا الموضوع فتح قلبه بلا تحفظ للكونت وصارحه بما يختلج في نفسه، وحذره دائماً أن يكون متيقظاً ضد خداع بوهيموند بأية وسيلة. وأوضح السانجيلي أن بوهيموند ورث الغدر والعنصرية عن أسلافه – إذ كان ذلك نوعاً من الأمراض الوراثية. وقال «ستكون معجزة إذا حافظ على اليمين إذا أقسم به، وعلى أية

(١) كانت رحلة ريمون السانجيلي عبر الأراضي الإمبراطورية بجيشه رحلة عاصفة دون سائر الجيوش التي كونت الحملة الأولى. وعلى الرغم من تشدده فإنه كان الوحيد بين زعماء الصليبيين الذي أخذ يمينه وقسمه ملئخ الجد ويلاحظ هنا التشابه الشديد (حتى في الصياغة) بين كلمات المؤرخ المجهول وبين ريمون الأجيلري مؤرخ حملة ريمون السانجيلي أسقف تولوز. ويرى البعض أنه اعتمد في هذا الجزء على المؤرخ المجهول. Alexiad, pp. 329-331. (*)

(٢) تسميه أنا ايسانجيليس Isangeles، وهو تحريف يوناني للإسم اللاتيني. والجدير بالذكر أنه كان كونت تولوز وماركيز البروفانس، وكان يأمل في قيادة الصليبيين في المعركة ضد المسلمين، كما كان منافساً خطيراً لبوهيموند كما سيتضح من النصوص التالية.

(٣) أبريل ١٠٩٧م.

حال، فإنه فيما يخصنى سأبذل قصارى جهدى لمراعاة أوامرك». وبهذا رحل عن الإمبراطور وذهب للحاق بالجيش الكلتى كله. وكان اليكسيوس يود لو شارك فى الحملة ضد البرابرة أيضاً، ولكنه كان يخاف تلك الأعداد الضخمة من الكلتين (الصليبيين)، ولم يكن يظن أن من الحكمة أن يتحرك إلى البلقان، فإذا ما جعل مقر قيادته الدائم بالقرب من نيقية سيكون بوسعه الحصول على معلومات عن تقدمهم، وعن نشاط الأتراك خارج المدينة فى الوقت نفسه، كما سيكون قادراً على معرفة أحوال السكان داخل المدينة، وسيكون من العار، كما كان يعتقد، إذا لم يحرز هو نفسه بعض النجاح العسكرى فى الوقت نفسه. وعندما واثته فرصة مناسبة، خطط للاستيلاء على نيقية بنفسه؛ لأن ذلك سيكون أفضل من أن يتسلمها من الكلتيين (وفقاً للمعاهدة التى أبرمت بالفعل معهم). ومع هذا احتفظ لنفسه بالفكرة، فإن أى مشاريع كان يقوم بها، وأسبابها، لم يكن يعرفها أحد سواه، على الرغم من أنه كان يثق فى بوتوميتيس الذى مهد إليه بهذه المهمة (وكان هو الوحيد الذى يثق به). وكانت لدى بوتوميتيس تعليمات بأن يستميل البرابرة فى نيقية بكل الضمانات والوعود بالأمان الكامل وأن يهددهم أيضاً بالمخاطر التى تتهددهم - بما فى ذلك المذابح - إذا استولى الكلتيون على المدينة، وكان متأكداً من ولاء بوتوميتيس وكان يعرف أنه سيقوم بنشاط مكثف فى مثل هذه الأمور...

حصار نيقية وسقوطها (مايو - يونيو ١٠٩٧ م)

فى السادس من شهر مايو سنة ١٠٩٧م وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى أمام مدينة نيقية فى آسيا الصغرى، والتي كانت فى ذلك الحين عاصمة للدولة السلجوقية التى كان يحكمها قلع أرسلان. وكانت المدينة تتحكم فى الطريق الأساسى عبر الأناضول. وفرض الصليبيون حصارهم على المدينة، وفى الحادى والعشرين من الشهر نفسه صدوا هجوماً قام به جيش قلع أرسلان - وكان ذلك أول انتصار يحرزه الصليبيون فى أرض المعركة . وفى التاسع عشر من يونيو استسلمت المدينة لقوات الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس كومنينوس بدلاً من أن تواجه الهجوم النهائى الذى كان الفرنج يمتزمون شنه على المدينة. وكان النصر الذى تم فى نيقية حافزاً للصليبيين على طول الطريق إلى القدس. وفى هذه السفحات نورد بعض الروايات المختلفة حول حصار نيقية وسقوطها تحمل كلا من وجهة النظر اللاتينية ووجهة النظر البيزنطية.

١- رواية المؤرخ المجهول (*)

« بقى بوهيموند مع الإمبراطور ليتشاور معه بشأن إمدادات الطعام للناس الذين ذهبوا إلى ما وراء نيقية، وهكذا كان الدوق جودفرى هو أول من ذهب إلى نيقوميديا، وأخذ معه تنكرد والآخرين جميعاً. وبقوا هناك ثلاثة أيام، وعندما رأى الدوق أنه لا يوجد طريق يمكنه أن يقود قومه بواسطته إلى نيقية (لأن عددهم كان كبيراً جداً بحيث لا يمكنهم السير على نفس الطريق الذى سار عليه الصليبيون الآخرون) أرسل قبله ثلاثة آلاف رجل مسلحين بالبلط والسيوف حتى يمكنهم فتح طريق لجاجنا حتى مدينة نيقية. وكان هذا الطريق يؤدي إلى جبل شاهق الإرتفاع (١) وشديد الإنحدار، لدرجة أن الباحثين عن الممر كانوا يصنعون الصلبان من الخشب والمعادن ويضعونها على أعمدة خشبية حتى يراها جاجنا. ولم تلبث أن وصلنا إلى نيقية، التى كانت عاصمة الروم، وذلك فى يوم الأربعاء السادس من شهر مايو، وعسكرنا

(*) Gesta, pp. 13 - 15.

(١) يرتفع هذا الجبل أكثر من أربعة آلاف قدم.

هناك. وقبل أن يحضر سيدى بوهيموند الجسور إلينا كنا نعانى نقصاً شديداً فى الأقوات لدرجة أن رغيف الخبز كان يساوى ما بين مشرين إلى ثلاثين بنساً، ولكن بعد أن جاء أمر بإحضار كميات وفيرة من الأطعمة عن طريق البحر، وهكذا جاءت البضائع بركاً وبحراً، ونعم جيش المسيح كله بهذه الوفرة والكثرة فى الطعام.

« وفى عيد الصعود ^(١) بدأنا فى فرض الحصار على المدينة، كما بدأنا فى بناء آلات الحصار والأبراج الخشبية التى يمكننا عن طريقها ضرب الأبراج القائمة على أسوار المدينة، وضغطنا فى حصارنا بشجاعة وقوة على مدى يومين وعقدنا العزم على تقويض أسوار المدينة، ولكن الأتراك الذين كانوا داخل المدينة أرسلوا رسائل إلى الآخرين الذين جاؤا لتجديدهم، وأخبروهم أن يوسعهم الدخول بلا خوف وسلام عن طريق البوابة الجنوبية، لأنه لم يكن هناك أحد يعترض طريقهم أو يهاجمهم. وعلى أية حال فقد تم سد الطريق إلى هذه البوابة فى هذا اليوم نفسه (وهو يوم السبت التالى للعيد) بقوات الكونت السانجيلى وأسقف لوبوى. وقد وجد الكونت، الذى جاء من الطرف الآخر للمعدية بجيش قوى جداً، وهو يثق فى حماية الرب ويعتز بأسلحته الأرضية - وجد الأتراك قادمين تجاه البوابة للقاء رجالنا. وإذا كانت علامة الصليب تحمى فى كل اتجاه، شن هجوماً عنيفاً على الأعداء وهزمهم هزيمة نكراء أرغمتهم على الفرار بعد أن سقط منهم قتلى كثيرون. واستنجد الناجون بمساعدة الأتراك الآخرين وجاؤا بروح معنوية عالية، وهم واثقون من النصر، ومعهم الحبال التى سيسوقونها مقيدين بها إلى خراسان، وأقدموا مرحين ويدأوا ينزلون مسافة يسيرة من قمة الجبل، ولكن كل من نزل من الجبل أطاح رجالنا برأسه، وقذفوا رؤس المذبوحين داخل المدينة بالمقاليع لكى ييثوا الرعب فى أوصال الحامية التركية.

« وبعد هذا تشاور الكونت السانجيلى وأسقف لوبوى سوية حول الوسيلة التى يمكنهما بها تقويض البرج الذى كان قائماً قبالة معسكرهما، ومن ثم أرسلوا الرجال لتخريبه ومعهم التباله لحمايتهم. وحفر الجنود حتى أساسات الأسوار ووضعوا الألواح والقطع الخشبية، وأشعلوا فيها النيران، ولكن هذا كله تم فى المساء ومن ثم كان الليل قد أرخى سدوله حين سقط البرج، ولم يستطع رجالنا قتال المدافعين بسبب الظلام. وفى تلك الليلة هرع الأتراك وأعادوا بناء السور بقوة بحيث لم يكن ممكناً هزيمتهم فى هذه النقطة عندما بزغ النهار.

« وبعد ذلك مباشرة وصل روبرت كونت نورماندى والكونت ستيفن ومعهم كثيرون آخرون، ثم جاء روجر البارنقيللى فى أعقابهم، ثم أقام بوهيموند معسكره فى مواجهة المدينة، يليه تنكرد، ثم اللوق جودفرى وكونت الفلاندرز، ويلييه روبرت كونت نورماندى، ثم كونت سان جيل وأسقف لوبوى، وهكذا تم إحكام الحصار حول المدينة أرضاً بحيث لم يكن أحد يجرؤ على الخروج منها أو يدخل إليها، ولأول مرة، كان رجالنا جميعاً يتجمعون سوياً فى هذا المكان، ومن ذا الذى يستطيع أن يحصى جيشاً مسيحياً كبيراً مثل هذا؟ إننى لا أظن أحداً رأى من قبل، أو سيراى من بعد، مثل هذه الكثرة من الفرسان الشجعان.

« وعلى أحد جوانب المدينة كانت ثمة بحيرة كبيرة، وضع الأتراك القوارب فوق مياهها، وكانوا يذهبون ويجيئون يحضرون الأخشاب والأعلاف وأشياء أخرى كثيرة، ولذا تشاور قادتنا سويوا وأرسلوا الرسل إلى القسطنطينية يطلبون من الإمبراطور إحضار القوارب إلى كيثيتوت، حيث يوجد ميناء، وأن تجمع الثيران لسحب هذه القوارب على الجبال وخلال الغابات حتى تصل إلى البحيرة، وأمر الإمبراطور بعمل هذا فى الحال وأرسل قواته من التركبولى معهم. ولم يكن من المفروض أن يضع رجاله القوارب فى البحيرة بمجرد وصولهم، وإنما وضعوها تحت جناح الليل فى نظام بديع وأبحرت عبر البحيرة فى اتجاه المدينة. وعندما رآها الأتراك تملكتهم الدهشة، ولم يعرفوا ما إذا كانت قواربهم أم قوارب الإمبراطور، ولكنهم عندما أيقنوا أنها قوارب الإمبراطور غشيتهم خوف مميت، وبدأوا ينوحون ويندبون، على حين أخذ الفرنج يفرحون ويمجنون الرب، ثم أيقن الأتراك أن جيوشهم لن تستطيع له نفعاً، فأرسلوا رسالة إلى الإمبراطور يخبرونه باستعدادهم لتسليم المدينة إذا تركهم يذهبون بزوجاتهم وأولادهم فى سلام دونما خوف؛ وأمر باحضارهم سائمين إليه فى القسطنطينية، واحتفظ بهم حتى يمكنه استخدامهم فى إيذاء الفرنج واعتراض حملتهم الصليبية.

« حاصرنا هذه المدينة سبعة أسابيع وثلاثة أيام، واستشهد كثيرون من رجالنا هناك وأعطوا أرواحهم المباركة إلى الرب فى فرح وسرور، ومات فقراء كثيرون من الجوع فى سبيل اسم المسيح. وهؤلاء جميعاً دخلوا السماء تحت راية النصر، وهم يلبسون ثوب الشهادة الذى تلقوه، وهم يقولون فى صرير واحد « انتقم يا سيدنا لدمائنا التى أريقنا فى سبيلك، لأنك مبارك ومستحق للمجد أبداً. آمين».

« وعندما استسلمت المدينة، أخذ الأتراك إلى القسطنطينية ، وانتاب الإمبراطور فرح عظيم لأن المدينة خضعت لسلطانه، وأمر بتوزيع الصدقات على حجاجنا الفقراء فى سخاء...»

رواية فوشيه الشارترى (*)

«عندما سمع أولئك الذين كانوا على حصار نيقية بوصول قادتنا، كوند نورماندى وستيفن أمير بلوا، خرجوا وهم مسرورين للقائنا ورافقونا إلى مكان جنوب المدينة حيث ضربنا خيامنا. « وحدث من قبل أن جمع الأتراك قواهم على أمل طرد المحاصرين بعيداً عن المدينة قدر الإمكان، أو على أمل الدفاع عنها بجنودهم بفعالية أكثر. ولكن رجالنا دحروهم تماماً وقتلوا منهم حوالى مائتين. وفضلاً عن ذلك، فإنهم حين رأوا مدى قوة وشجاعة الفرنج فى القتال تقهقروا مهرولين داخل أراضي رومانيا حتى تواتيهم فرصة مناسبة لمعاودة هجومهم. « وكان الأسبوع الأول من يونيو، حين وصل آخر القادمين إلى قوات الحصار(١). »

« وفى ذلك الوقت تم تشكيل جيش موحد من تلك الجيوش الكثيرة التى كانت هناك، وقدره العارفون بالحساب بحوالى ستمائة ألف جندى. ومن بينهم كان حوالى مائة ألف تجميعهم معاطف الزرد والخوذات. وفوق ذلك كان هناك من لا يحملون أسلحة مثل القساوسة والرهبان والنساء والأطفال.

« فما الذى حدث إذن؟ إذا كان كل الذين رحلوا من ديارهم للقيام بالرحلة المقدسة حاضرين هناك فلاشك أن عددهم كان سيصل إلى ستة ملايين محارب (٢). ولكن من روما ، ومن أبوليا، ومن المجر، أو من دناشيا رجع البعض ممن لم يكن لديهم الاستعداد للتعرض للصعاب. وفى أماكن كثيرة لقي آلاف مصرعهم، كما أن بعض المرضى الذين استمروا معنا ماتوا فى نهاية الأمر. وكان بوسعك أن ترى مقابر عديدة على طول الطريق وفى السقول التى دفن فيها حجاجنا.

(*) Fulcher of Chartres, pp. 81 - 83.

(١) كان ذلك فى الثالث من يونيو ١٠٩٧م.

(٢) تبدو المبالغة الشديدة واضحة فى كلمات هذه الأسقف الذى صاحب قوات الحملة الأولى. وربما كان دافعه إلى ذلك الرغبة فى تصوير الحملة الصليبية فى صورة أخاذة مبهرة.

« ويجب أن أشرح أنه طوال مدة حصارنا لنيقية كانت السفن تحضر لنا الطعام بموافقة الإمبراطور . ثم أمر زعمائنا بصنع آلات القتال، مثل المنجنيقات والكباش^(١) والأبـراج الخشبية وغيرها وقاتل رجالنا ورجال العدو كركاً وفرأ بكل قوة، وغالباً ما كنا نهاجم المدينة بالانتنا ، ولكن الأسوار المنيعة التي كانت قائمة أمامنا كانت تجعل هجومنا غير ذي جدوى، وغالباً ما كان الأتراك الذين تصيبهم الأقواس أو الحجارة يهلكون، وكان الفرنج يلقون نفس المصير.

« حقاً كان لا بد أن تحزن وتأسى عندما كان الأتراك يقتلون أياً من رجالنا بأية وسيلة قرب الأسوار، لأنهم كانوا ينتشلون الأجساد بالخطاطيف المدلاة بالحبال لكي ينهبوها، ولم يكن أى من رجالنا يجرى أو يستطيع أن يمنع عنهم هذه الجثث، وبعد أن يجرد الأتراك الموتى مما يحملون كنوا يقذفون الجثث خارج السور.

« ثم سحبنا بعض السفن الصغيرة بمساعدة الثيران والحبال من كيثيتوت برا حتى نيقية ووضعناها فى البحيرة لمنع الاقتراب من المدينة حتى لا تصل إليها المؤن والامدادات.

« ولكن بعد أن أرهقنا المدينة بحصار استمر خمسة أسابيع، وأوقعنا الرعب كثيراً فى نفوس الأتراك بهجماتنا، عقبوا مؤتمراً فى الوقت نفسه، وسلموا المدينة سرّاً إلى الإمبراطور من خلال وسائطه. بعد أن كانت قد أرهقت بالفعل تحت وطأة قوتنا ومهارتنا.

« بعد ذلك، سمح الأتراك لقوات التركبولى التى أرسلها الإمبراطور بدخول المدينة. وقد استولى هؤلاء على المدينة وكل ما بها من أموال بإسم الإمبراطور وتنفيذاً لأوامره. وبعد أن تم الإستيلاء على هذه الأموال، أمر الإمبراطور بتقديم الهدايا إلى زعمائنا؛ وهى هدايا من الذهب والفضة والتفاس، ووزع على الجنود المشاة عمالات نحاسية يطلقون عليها إسم التارتون.».

(١) آلات لتقويض الأسوار وحماية الحفارين الذين يعملون تحتها.

٣- رواية ريمون الاجويلرى (*)

« وبعد ذلك عبرنا البحر وسرنا حتى نيقية. إذ كان الدوق ، وبوهيموند والأمراء الآخرون قد سبقوا الكونت وكانوا مشغولين في أعمال الحصار. ومدينة نيقية محصنة تحصيناً قوياً بالطبيعة وبالعامل الإنساني أيضاً. فمن ناحية الغرب توجد بحيرة كبيرة تصل حتى أسوار المدينة؛ والنواحي الثلاث الأخرى يحيط بها خندق تملؤه مياه المجارى المائية الصغيرة؛ وبالإضافة إلى ذلك تحيط بها أسوار بلغت من الارتفاع حداً يجعل المدينة بمنمن من أى هجوم بشرى أو بالآلات الحصار. والواقع أن أماكن القتال في الأبراج المتجاورة قد حورت بشكل جعل من العسير على أى شخص أن يقترب دون أن يعرض نفسه للخطر. وعلى أية حال، إذا أراد أى إنسان أن يقترب من الأسوار فإنه يقع بسهولة تحت سيطرة الأبراج دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه.

« وبناء عليه فإن المدينة، بالوصف الذى شرحناه، حوصرت بقوات بوهيموند من الشمال، وقوات الدوق [جودفرى] والألمان من الشرق، ومن الوسط حاصرتها قوات الكونت [ريمون السانجيلى] وأسقف لوبوى، ولم تكن قوات كونت نورماندى قد انضمت إلينا بعد. ولكننا نعتقد أنه لا يجب إغفال ذكر هذه الحادثة : - ذلك أنه بينما كان الكونت على وشك أن يعسكر بقواته هناك، نزل الأتراك من الجبل في كتيبتين وهاجموا جيشنا. وكانت خطتهم في الواقع تقوم على أنه بينما تهاجم الكتيبة الأولى من الأتراك الدوق والألمان الذين معه في الشرق، يقوم الجزء الآخر من الجيش التركي بالدخول من البوابة الوسطى للمدينة ويخرج من بوابة غيرها بحيث يمكنه بسهولة أن يدفع رجالنا من المعسكر في وقت لا يتوقعون فيه مثل هذا الهجوم. ولكن الرب الذى شاء أن يحبط خطط الكفار، بدل استعداداتهم، بحيث أرسل الكونت الذى كان يستعد ليعسكر بقواته ليدهم كتيبة الأتراك التى كانت على وشك الدخول إلى المدينة، وكان ذلك كان أمراً مبيتاً، وقد أجبرهم على الفرار في الهجوم الأول، وبعد أن قتل عدداً كبيراً منهم، طارد الآخرين حتى قمة الجبل. أما الجزء الآخر من الأتراك الذين كانوا يريدون مهاجمة

الأنان، فقد أرغموا على الفرار بالطريقة نفسها وتم تدميرهم. وبعد هذا، تم بناء الآلات وبدأ الهجوم على أسوار المدينة دون طائل، لأن الأسوار كانت صامدة للغاية في مواجهتنا، ودافع الأتراك عنها ببسالة مستخدمين السهام والآلات. وهكذا حاربنا خمسة أسابيع دونما نتيجة. وأخيراً، وبمشيئة الرب، اقترب بعض الرجال من أتباع الأسقف والكونت من الركن الذي يقع فيه البرج الشرقي بصورة خطيرة، وبعد أن كونوا ستارة بأجسامهم وناضلوا، ثم بدأوا يقوضون أحد الأبراج بالحفر في أساساته حتى الأرض. وهكذا، كان يمكن الاستيلاء على المدينة لو لم يسدل الليل ستاره مما حال دون ذلك. وعلى أية حال فقد أعيد بناء السور خلال ساعات الليل، وهو ما جعل جهدنا يذهب سدى. وأخيراً أجبرت المدينة التي هزها الرعب على الاستسلام. وكان من أسباب هذا الاستسلام أن سفن الإمبراطور التي كانت قد سحبت على الأرض وضعت في البحيرة. ولهذا سلموا أنفسهم للإمبراطور، لأنهم لم يتوقعوا أن تأتيهم أية مساعدة ورأوا أن جيش الفرنجة يتزايد عدده يوماً بعد يوم، كما أن الاتصالات مع قواتهم قد انقطعت. وكان كونت نورماندى قد جاء بجيشه. وكان اليكسيوس قد وعد الأمراء وهامة الفرنج بأن يعطيهم كل الذهب، والفضة والخيول، والأمتعة الموجودة بداخل المدينة، وأنه سيقسس بها ديراً لاتينياً ومنزلاً للفرنج الفقراء؛ كما وعدهم بأن يعطى لكل فرد في الجيش من أملاكه ما يجعل الجندي يرغب في أن يقاتل من أجله إلى الأبد. وبناء على ذلك، وافق الفرنج على الإستسلام بسبب ثقافتهم في وعوده. وهكذا، عندما تسلم اليكسيوس المدينة جاء اعترافه بالجميل على نحو جعل كل فرد في الجيش يلغنه ويعلن أنه خائن طالما بقى على قيد الحياة.

« وحينذاك تحققنا من أن الإمبراطور قد خان بطرس الناسك الذي كان قد جاء إلى القسطنطينية منذ زمن طويل ومعه عدد ضخم من الناس. لأنه أجبره، وهو يجهل بالأحوال المحلية ولا يعرف في المسائل العسكرية، على عبور المضيق برجاله ويمرضهم للأتراك. وفضلاً عن ذلك فإن أتراك نيقية عندما شاهدوا هذا الجمع من غير المحاربين، مزقوهم إرباً إرباً دون جهد أو تأخير وقتلوا منهم ستين ألفاً. والواقع أن الباقين فروا إلى مكان محصن هرباً من سيوف الأتراك. أما الأتراك الذين زادهم هذا الحادث شجاعة وجسارة، فقد أرسلوا الأسلحة والأسرى الذين أخذوهم من هناك إلى المسلمين والنبلاء من بنى جلدتهم وكتبوا إلى الشعوب والمدن النائية أن الفرنج لا يصلحون للقتال. »

٤ رواية أنا كومنيناس(*)

« تقابل بوهيموند والكونتات الآخرون في مكان قصصوا أن يبحروا منه إلى كيقيتوس، وانتظروا مع جوفري حتى وصل السانجيلي مع الإمبراطور . وهكذا استعدوا للإطلاق صوب نيقية وقد اتحدت قواتهم، وعلى أية حال، فقد وصلت قواتهم من الكثرة درجة كان يستحيل معها أى تأجيل - إذ كانت إمدادات الطعام غير كافية. وهكذا قسموا جيشهم إلى قسمين: سارت مجموعة عبر بيثينيا ونيقوميديا صوب نيقية؛ على حين عبرت المجموعة الأخرى المضيق إلى كيقيتوس واجتمعوا سوياً هناك مرة أخرى، وعندما وصلوا إلى نيقية قسموا الأبراج ووزعوا المسئوليات القتالية على عدة أقسام، وكانت الفكرة أن يشنوا هجومهم على الأسوار من هذه المواقع؛ حتى تلتهب المنافسة بين مختلف الكتائب ويتخذ الحصار قوة ضغط أكبر، وقد تركت المنطقة التي تحدت للسانجيلي خالية حتى وصل، وفي هذه اللحظة وصل الإمبراطور إلى بليكانوم، وعينه على نيقية (كما أشرنا من قبل). وفي الوقت نفسه كان البرابرة داخل المدينة يرسلون الرسل تبعاً إلى السلطان (١) طلباً للمساعدة، ولكنه كان ما يزال يهدر الوقت على حين كان الحصار قد فرض فعلاً منذ عدة أيام من الشروق حتى الغروب، وصارت أوضاعهم خطيرة جداً وأوقفوا القتال، وقرروا أن من الأفضل الإتفاق مع الإمبراطور بدلاً من الكتل. وفي ظل هذه الظروف استدعوا بوتوميتيس، الذي لم يتوقف من خلال فيض من الخطابات عن وعدهم بأن الإمبراطور سيمنحهم شروطاً طيبة إذا استسلموا له فقط، وحينئذ شرح بقدر أكبر من التفصيل مقاصد الإمبراطور الودية وقدم لهم ضمانات مكتوبة. واستقبله الأتراك بفرح بعد أن يشسوا من الصمود أمام قوة أعدائهم الكاسحة؛ وفكروا أن من الحكمة أن يسلموا نيقية اختياراً إلى اليكسيوس وينالوا عطاياء، والمعاملة الكريمة، بدلاً من أن يصبحوا ضحايا حرب بلا هدف، ولم يمض يومان على قدوم بوتوميتيس للمكان حتى جاء السانجيلي بقواته، وصمم على أن يحاول اقتحام أسوار المدينة في الحال؛ وكانت لديه آلات الحصار الجاهزة للقيام بالمهمة. وفي هذه الأثناء سرت شائعة بأن السلطان في طريقه إلى المدينة. وعندما سمع الأتراك هذه الأنباء، استرلوا شجاعتهم من جديد، وطردوا بوتوميتيس. أما

(*) Alexiad, pp. 333-341

(١) هو السلطان السلجوقي قلق أرسلان الذي كان في الشرق يحارب الداتشمند في ملطية. وربما يكون قد استهان بقوة الفرنج، وعول على قصص الخلاف بينهم وبين اليكسيوس. ولما كانت زوجته وأطفاله ووزرائه بالمدينة، فلا بد أنه كما يعتقد أن الخطر ليس جسيماً.

السلطان، فقد أرسل فصيلة من جيشه لمراقبة الفرنج في هجومهم، وصدرت إليهم الأوامر بالقتال إذا صادفوا أي فرنجي. ورأهم رجال السانجيلي ودارت معركة بين الجانبين - ولكن الدائرة دارت على الأتراك، لأن الكونتات الآخرين وبينهم بوهيموند نفسه عندما علموا باشتعال القتال، جردوا مائتي رجل من كل مجموعة بحيث كونوا جيشاً قوياً وأرسلوه في الحال للمساعدة. وتغلبوا على الأتراك وطاردوهم حتى هبوط الليل، ومع هذا فإن السلطان كان بعيداً عن اليأس بسبب هزيمته؛ فعند شروق شمس اليوم التالي كان مستعداً في ملابسه العسكرية واحتل برجاله السهل الواقع خارج أسوار نيقية. وسمع الكتيون بهذا واستعدوا هم أيضاً للقتال وانقضوا على أعدائهم مثل الأسود. وكان الصراع الذي اندلع حينذاك عنيفاً مرعباً. وطوال النهار لم يحسم القتال لصالح أحد الطرفين، ولكن الأتراك لانوا بالفرار عندما مالت الشمس للمغيب. وحين خيم الليل انتهت المعركة. وسقط كثيرون من الجانبين وقتل معظمهم؛ وجرح غالبية المقاتلين. وهكذا أحرز الفرنج نصراً مؤزراً. ووضعت رؤوس القتلى الكثيرين الذين سقطوا من الأتراك على أسنة الرماح وعاد الفرنجة يحملونها كما لو كانت أعلاماً وبيارق، وحينئذ أدرك البرابرة مدى فداحة ما حدث، وخافوا من مغبة هذه الهزيمة التي نالتهم عند المواجهة الأولى. وربما صرفوا النظر عن الاشتراك في أية معركة في المستقبل. وقد انعكس هذا أيضاً على تصرفات وأفكار اللاتين. أما السلطان، فقد أدرك مدى كثرتهم العددية بعد هذه المعركة، وتحقق من ثقتهم بأنفسهم وجسارتهم فأرسل إلى الأتراك في نيقية يقول لهم «منذ الآن فصاعداً اعملوا ما ترون أنه الأحسن». وكان يعلم بالفعل أنهم يفضلون تسليم المدينة إلى اليكسيوس بدلاً من أن يصيروا أسرى لدى الفرنج. وفي الوقت نفسه فإن السانجيلي انكب على المهمة المنوطة به، وأخذ يبنى برجاً خشبياً، مستدير الشكل؛ وغطاه من الداخل والخارج بقرع الجلد وملأه من الداخل بأعواد الخيزران المتشابكة. وعندما تم تقويته تماماً اقترب من البرج المسمى جوناتاس^(١). وتم شحن هذه الآلة بالرجال الذين كان عملهم دك الأسوار، كما ملأه بالنقاطيين المهرة المجهزين بأنوات حديدية لتقويض الأسوار من أسفل. وفي مكان الأحجار التي نزعوها وضعوا كتلاً خشبية، وعندما يصير الفراغ الذي أحدثته قد وصل إلى مدى اختراق السور تقريباً بحيث يظهر الضوء من الجانب الآخر من السور، يشعلون

(١) نتيجة لأعمال عسكرية سابقة تعرض هذا البرج لحرق جزء منه وغاصت قاعدته بحيث أصبح يبدو كما لو كان راکعاً يثنى ركبتيه، وسمى جوناتاس (الراكع).

الكتل الخشبية ويحرقونها. ويعد أن تحوات الكتل إلى رماد، مال البرج الراكع واستحق اسمه أكثر من ذي قبل، وأحيطت بقية الأسوار بالآلات دك الأسوار والكباش، وفي غمضة عين ملا الخندق بالتراب، وتساوى مع الأماكن المسطحة على جانبيه. ثم استمروا في الحصار قدر طاقتهم.

« وكان الإمبراطور قد تفحص نيقية جيداً، وحكم في مناسبات عديدة بأن اللاتين لا يمكنهم أن يستولوا عليها، بغض النظر من أعدادهم الصغيرة. وبنى بدوره أنماطاً متعددة من آلات الحصار، ولكنها كانت مصممة بشكل غير عادي بحيث أذهلت الجميع. وأرسل هذه الآلات إلى الكونتات. وكان، كما ذكرنا بالفعل، قد عبر بالقوات المتاحة وأقام في بليكانوم قرب ميساييلوى، حيث بنيت كنيسة في الزمن القديم كرسى لجريجورى الشهيد الكبير. وكان أليكسيوس يود لو أنه رافق الحملة ضد الأتراك الذين ليس لهم رب يعبدونه، ولكنه نعى المشروع جانباً بعد أن وزن الأمور جيداً: فقد وجد أن الجيش الرومانى كان أقل من جيوش الفرنج بشكل يدمو إلى اليأس؛ إذ كان يعلم من خلال تجربته أيضاً أن لا يثق بالفرنج. ولم يكن ذلك هو كل ما فى الأمر: ذلك أن اضطراب أحوال اللاتين وتقلباتهم وطبيعتهم الفادرة قد تكتسحهم بين أن وآخر، مثل موجات المد فى إيريبوس^(١)، من طرف إلى الطرف الآخر، واحبهم للمال كانوا على استعداد لبيع زوجاتهم وأطفالهم مقابل أى مبلغ تافه من المال. كانت هذه هى الأسباب التى منعتهم من الإنضمام للحملة. وعلى أية حال، ومع أن حضوره كان غير حكيم، فإنه أدرك ضرورة مساعدة الفرنج كما لو كان معهم. وكان متاكداً من أن قوة أسوار نيقية تجعلها منيعة؛ وأن اللاتين لن يستولوا عليها إطلاقاً. ولكن عندما وردت الأنباء بأن السلطان يحضر قوات قوية، وأنه يحضر مؤن الغذاء عبر البحيرة^(٢)، دونما صعوبة على الإطلاق، وأن هذه القوات والمؤن كانت تشق طريقها إلى داخل المدينة، قرر أن يفرض سيطرته على البحيرة، وتم بناء القوارب الخفيفة التى تستطيع الإبحار فوق مياهها وحملت فوق العريبات وحملت إلى جانب كيوس. وركبها جنود مسلحون تسليحاً كاملاً تحت قيادة مانويل بوتوميتيس. وأعطاهم اليكسيوس أعلاماً وبيارق أكثر من المعتاد - حتى يبدو عددهم أكثر مما كانوا فى الحقيقة - كما زودهم بالطبول. ثم حول انتباهه إلى الأرض الرئيسية. وأرسل إلى تاتيكيوس،

(١) قنال داخلى يربط بين جزيرة ايوبيا وبقية الاراضى اليونانية واشتهر بعنف تياراته.

(٢) بحيرة أسكانيا غرب مدينة نيقية.

وتزتياس بقوة من المقاتلين الشجعان قوامها ألفين من الرجال وجهها صوب نيقية؛ وكانت أوامره إليهم بأن يحملوا المدد الوفير من السهام التي جاوا بها فوق البغال بمجرد نزولهم ويستولوا على قلعة سان جورج؛ وكان عليهم أن يترجلوا عن خيولهم على مسافة معقولة من نيقية، وأن يذهبوا سيراً على أقدامهم إلى برج جوناتاس ويأخذوا مواقعهم هناك ؛ وكان عليهم أن يشكلوا خطوطهم مع اللاتين ويهاجموا أسوار المدينة تحت إمرتهم . وأطاع تاتيكيوس أوامر الإمبراطور، وأخبر اللاتين أنه وصل مع جيشه، وفي الحال حمل كل رجل سلاحه وأخذوا يهاجمون وهم يصيحون صيحات القتال. وأطلق رجال تاتيكيوس موجات كبيرة من السهام بينما كان اللاتين يحدثون ثغرات في الأسوار ويواصلون دكها بالحجارة من منجنيقاتهم، ومن ناحية البحيرة انتابت العدو حال من الذعر بسبب الأعلام الإمبراطورية والطبول التي حملها بوتوميتيس، الذي اختار هذه اللحظة لكي يخبر الأتراك بعودة الإمبراطور. وقد ملك الخوف على الأتراك قلوبهم لدرجة أنهم لم يجرؤوا حتى أن يطلوا من شرفات أسوار نيقية. وفي الوقت نفسه فقدوا كل أمل في قنوم السلطان . وقرروا أن من الأفضل تسليم المدينة وبدء المفاوضات مع بوتوميتيس حتى النهاية. وبعد المجاملات المعتادة أظهر لهم بوتوميتيس المرسوم الذي أعطاه له اليكسيوس وفيه لا يكتفى بضمان سلامتهم فحسب، بل يضمن لهم هبات من المال ومظاهر التشريف لأخت السلطان وزوجته، وشملت هذه الشروط كل البرابرة في نيقية دون استثناء. وإذا وضع سكان المدينة ثقتهم في عود الإمبراطور سمحوا لبوتوميتيس بدخول المدينة. وفي الحال أرسل رسالة إلى تاتيكيوس يقول فيها : « إن الأمور بأيدينا الآن. يجب الاستعداد لشن هجوم على الأسوار. ويجب أن يعهد للفرنج بهذا العمل أيضاً، ولكن لا تترك لهم سوى القتال على الأسوار حول الاستحكامات. حاصر المدينة في كل المواقع، وقم بالمحاولة عند شروق الشمس». وكانت هذه في الحقيقة خدمة لجعل الفرنج يعتقدون أن بوتوميتيس استولى على المدينة بالقتال، وكان لا بد من كشف الخديعة التي دبرها اليكسيوس بإحكام، لأنه لم يكن يريد للاتين أن يعرفوا بأمر المفاوضات التي أجراها بوتوميتيس. وفي اليوم التالي تردد صوت النداء للمعركة على كلا جانبي المدينة: فمن ناحية البر اشتد الفرنج في الحصار، ومن ناحية أخرى سعد بوتوميتيس على شرفات السور ورفع الأعلام والبيارق الإمبراطورية، وأعلن ملكية المدينة للإمبراطور بنبقات الطبول وأصوات النفير. وهكذا، دخل الجيش الروماني كله المدينة بهذه الطريقة. ومع ذلك ، فإن بوتوميتيس الذي كان يعرف طبيعة الفرنج الطائشة وتهورهم، وانذاعهم الهائج، رأى أنهم قد يستولوا على القلعة إذا ما دخلوا المدينة. فضلاً عن

أن القوات التركية فى الداخل كانت تستطيع، لو شاعت، إغلاق الأبواب، وذبح قواته. وفى تلك الأثناء كانت هناك بوابة واحدة فقط يخرج منها الناس ويدخلون ، وكانت البوابات الأخرى قد أغلقت خوفاً من الفرنج الذين كانوا خارج الأسوار مباشرة.. وإذا أخذ مفاتيح هذه البوابة فى يده، قرر أن يخفض عدد أفراد الحامية التركية بخدمة. فقد كان من الضرورى أن يضعهم تحت رحمته، إذ كان يريد أن يجنب نفسه الكارثة. فأرسل إليهم ونصحهم بزيارة الإمبراطور إذا كانوا يريدون أن يأخذوا منه مبالغ كبيرة من المال وأن ينالوا مكافأة سامية وأن يجنوا أسماهم فى قائمة من ينالون العطايا السنوية من الإمبراطور. واقتنع الأتراك، وتم فتح البوابة فى أثناء الليل، وأطلق سراحهم، على أن يخرجوا على دفعات فى كل مرة عدد صغير، وأن يسلكوا طريقهم عبر بحيرة صغيرة إلى رودومر وموناستراس اللذين كانا يعسكران فى قلعة سان جورج. وكانت تعليمات بوتوميتيس تقضى بتوجيه الحامية التركية فوراً إلى الإمبراطور دون أن يتأخروا لحظة واحدة حتى لا يتحسروا مع الأتراك القادمين خلفهم ويحيكوا مؤامرة ضد الرومان. والحقيقة أن هذا كان نوعاً من التنبؤ والتوقع البسيط، وملاحظة ذكية لا يمكن أن يدركها سوى من كانت له تجربة هذا الرجل الطويلة لأنه طالما كان الواقفون الجدد يرسلون إلى اليكسيوس كان الرومان آمنين بمعنى أى خطر يهددهم، ولكن عندما ركن رودومر وموناستراس للراحة وجدا نفسيهما فى خطر من البرابرة الذين احتجزاهم. ذلك أن الأتراك عندما تزايدت أعدادهم قرروا أن يفعلوا أمراً من اثنين؛ إما أن يهاجموا الرومان ويقتلهم تحت ستر الليل، أو أن يأخذهم أسرى إلى السلطان. واستقر رأيهم على الخطة الثانية. وبالفعل، هاجمهم ليلاً وأخذهم أسرى. وساروا إلى قمة تل أزالا على مسافة من أسوار نيقية. ولما وصلوا إلى هناك كان من الطبيعى أن يترجلوا ليرى حوا خيولهم. وكان موناستراس يفهم لهجة الأتراك؛ وكان رودومر أيضاً، الذى كان قد وقع فى أسر الأتراك منذ وقت طويل وعاش معهم زمناً طويلاً ، يفهم لهجتهم. وحاولا جاهدين أن يقتنعا الأتراك بالمجادلات المقنعة بأن يتحركوا... وتم تبادل التعهدات بين الطرفين وسار الفريقان قاصدين اليكسيوس. وعندما وصلوا إلى بليكانوم استقبلوا جميعاً بابتسامة فرح وسرور (على الرغم من أن الإمبراطور كان غاضباً جداً من رودومر وموناستراس فى داخله). وأرسلوا لكى ينالوا حظهم من الراحة ولكن فى اليوم التالى تلقى الأتراك الذين رغبوا فى خدمة الإمبراطور هدايا عديدة؛ أما الذين رغبوا فى العودة إلى أوطانهم فقد سمح لهم بذلك - وأولئك أيضاً رحلوا محملين بهدايا غير قليلة...

« وانعد إلى بوتوميتيس ، فعندما رقاء الإمبراطور في ذلك الوقت إلى منصب بوق نيقية طلب منه الفرنج الإذن بدخول المدينة؛ إذ كانوا يريدون زيارة الكنائس المقدسة وأن يتعبدوا هناك. وكان بوتوميتيس ، كما ذكرت من قبل، واعياً تماماً بطباع الفرنج فرفض أية زيارة جماعية. وعلى أية حال، فتح أبواب المدينة لهم على أن يدخلوا في جماعات تضم كل منها عشرة أفراد.

« وكان الإمبراطور ما يزال في جوار بليكانوم. وكان يريد من أولئك الكونتات الذين لم يقسموا بعد يمين الولاء له أن يعطوا موثيقهم له شخصياً. وأرسل تعليمات مكتوبة إلى بوتوميتيس بأن ينصح الكونتات بأن لا يبدأوا السير إلى أنطاكية قبل أن يؤثروا يمين الولاء للإمبراطور ؛ وأن هذه ستكون فرصة لهم لنيل المزيد من الأموال والعطايا، وكان بوهيموند أول من أطاع نصيحة بوتوميتيس حين سمع عن الأموال والهدايا. وأشار عليهم جميعاً بالرجوع في الحال. وكانت هذه هي أخلاق بوهيموند - إذ كان به هوى قوى نحو المال. واستقبلهم الإمبراطور بترحاب كبير في بليكانوم . فقد كان سخيّاً جيداً في تحسين أحوالهم. وأخيراً استدعاهم سويّاً وخاطبهم قائلاً : «تذكروا القسم الذي قطعتموه لى جميعاً وإذا كنتم راغبين حقا ألا تحنثوا فيه، فانصحو الآخرين الذين تعرفونهم، والذين لم يقسموا بأن يقطعوا على أنفسهم هذا القسم » . وفي الحال أرسلوا إلى أولئك الرجال، واجتمعوا جميعاً، باستثناء تنكرد، لاداء يمين الولاء. وإذا كان تنكرد رجلاً مستقلاً الشخصية، احتج بأنه لا يدين بالولاء سوى لرجل واحد هو بوهيموند، وأنه سيحافظ على الولاء له حتى في مماته. وتعرض لضغوط الآخرين، بما في ذلك رجال الإمبراطور. وبدون مبالاة ركز عينيه على الخيمة التي اتخذها الإمبراطور مقراً له (وهي خيمة أكبر من أية خيمة أخرى تعيها الذاكرة) وقال: « إذا ملأت هذه الخيمة بالمال وأعطيتهم لى، فضلاً عن المبالغ التي أعطيتها للكونتات الآخرين، فإننى سأقسم أيضاً يمين الولاء لك». وأنبرى باليولوجوس، غيرة منه على الإمبراطور ولأنه وجد كلمات تنكرد غير معقولة ونفاقاً، ودفعه جانباً في احتقار. واندفع تنكرد نحوه في تهور، فقام اليكسيوس عن عرشه وتدخل بينهما. وقام بوهيموند من جانبه بتهنئة ابن أخته، وقال له إن من غير اللائق أن يتصرف مع أقارب الإمبراطور بدون احترام. أما تنكرد الذي خجل من تصرفه كرجل سكير فظ. إزاء باليولوجوس، والذي اقتنع بكلام بوهيموند والآخرين فقد أقسم يمين الولاء. وعندما استأنن الجميع من الإمبراطور للرحيل، صدرت الأوامر لتاتيكيوس وقواته بالإنضمام إلى الفرنج؛ وكان واجب تاتيكيوس أن يساعدهم ويحميهم في كل الأحوال، وأن يتسلم منهم أية مدينة يستولون عليها، إذا من الرب عليهم بهذا الفضل ».

رسائل الصليبيين حول سقوط نيقية (*) رسالة الإمبراطور أليكسيوس إلى مقدم دير مونت كاسينو

« كم كتبتم إلى امبراطوريتي، أيها الخادم المبجل للرب، ومقدم دير مونت كاسينو لقد قرأت خطابك الذي يطرى امبراطوريتي ويثى عليها. والواقع أن الرب الرحيم العظيم أسبغ على وعلى رعاياي فضلاً عظيماً، وما أكثر بركاته. ومن خلال فضله ورحمته أسبغ الشرف والرفعة على امبراطوريتي. وليس لأنني لا أحمل شيئاً طيباً بداخلي فحسب، وإنما لأن خطاياي أيضاً تفوق خطايا الآخرين، وإنني أصلى كل يوم كي يكلأني الرب برحمته وحلمه حتى أتغلب على ضعفى، ولكثك تمتلئ خيراً وفضيلة، تحكم على أنا الخاطئ بأتني رجل طيب، والحق أنك تأسرني بهذا الفضل. إن امبراطوريتي، على الرغم من أنها نالت مديحاً لا تستحقه، تأخذ المديح على أنه إدانة لها.

« لقد جاء في خطابكم البالغ المجاملة «إنني أرجوكم بالراح أن تقدموا المساعدة للفرنج». وانتأكد قداسك من ذلك، لأن امبراطوريتي تظللهم بجناحها وسوف تساعدهم وترشدهم في كافة الأمور؛ والواقع أنها فعلاً تعاونت معهم في حدود قدراتها، ليس كصديق، أو قريب، وإنما باعتبارها أبا لهم. لقد انفقت عليهم أكثر ما يمكن لأحد أن يحصيه. ولو لم تتعاون امبراطوريتي معهم على هذا النحو وتساعدهم، فمن غيرها كان سيقدم لهم المساعدة؟ ولا يضير امبراطوريتي أن تساعدهم مرة أخرى، ويفضل رحمة الرب، فإنهم ينعمون حتى اليوم في الخدمة التي بدأوها، وسوف يستمرون في هذا النعيم مستقبلاً طالما كانت الأغراض الطيبة هي التي تقودهم. وقد قضى عدد كبير من الفرسان والجنود المشاة نحبهم وذهبوا إلى الحياة الخالدة، وقتل بعضهم؛ على حين توفي الآخرون. والواقع أن البركة قد نالتهم، لأنهم لا قوا الموت في سبيل غاية طيبة! وفضلاً عن ذلك، فإننا لا ينبغي إطلاقاً أن نعتبرهم موتى، ولكن أحياء انتقلوا إلى الحياة الأبدية غير الفاسدة. ودليل على صدق عقيدتي وحسن نواياي تجاه ديرك، أرسلت امبراطوريتي إليك عبادة مطرز ظهرها بالذهب الوهاج.

أرسل في شهر يونيو (١٠٩٨) في الفترة الساسية، من مدينة القسطنطينية المقدسة».

حصار أنطاكية وسقوطها (يونيو ١٠٩٧ - يوليو ١٠٩٨)

كانت معركة ضوروليوم التي انتصر فيها الصليبيون على الأتراك السلجقة في أول يوليو ١٠٩٧ هي أول انتصار كبير يحرزه الصليبيون ضد المسلمين في الشرق. وقد نظر المؤرخون الصليبيون لهذا الانتصار باعتباره معجزة إلهية. ثم كان حصار أنطاكية الطويل بما تخلله من أحداث، والإرهاق والإعياء الذي حل بقوات الصليبيين داخلها بسبب الحصار الإسلامي، ثم الخلافات التي نشبت بين زعماء الصليبيين، من أهم فصول قصة الحملة الصليبية الأولى. ففي تلك الأثناء تجلّى الإفلاس الإيديولوجي للحملة الصليبية، وهرب بطرس الناسك وستيفن بلوا، ونسّى الصليبيون القدس، هدف رحلتهم الأعظم، وكانت هذه هي أعظم الصعاب التي جابهت الحملة. فبعد استيلائهم على مدينة أنطاكية مباشرة عرف الصليبيون بالهجوم المضاد الذي يقوده كريبوا أتابك الموصل (وأسم كريبوا تنطلق المصادر بطريقة مختلفة كما سيتضح من النصوص التي اخترناها) وقد استنفد الحصار الإسلامي كل موارد الصليبيين، كما استنفد قواهم. ثم جاءت خدمة اكتشاف الحرية المقدسة (التي اخترقت جنب المسيح أثناء الصلب) في يونيو ١٠٩٨ لتبعث الإيديولوجية الصليبية مرة أخرى وتساعد الصليبيين على استرداد معنوياتهم، في الوقت الذي لب فيه الخلاف بين كويوفا والأمراء العاملين تحت إمرته، فيلقى جيشه الهزيمة. وعلى الرغم من هزيمة جيش كويوفا، فإن الحصار الذي فرضه جيشه كلف الصليبيين ثمناً فادحاً؛ فقد مات أديمار المنسوب البابوي؛ وهرب ستيفن بلوا هائئلاً إلى بلاده. وقد تسبب المرض والصعاب الأخرى إلى جانب المنازعات الجديدة بين الصليبيين على إبقاء الجيش الصليبي في أنطاكية سنة كاملة، ولم يستأنف الصليبيون سيرهم إلى القدس سوى في نوفمبر ١٠٩٨ م. والنصوص التي تقدمها تحاول أن ترسم صورة كاملة لقصة حصار أنطاكية وسقوطها في أيدي الصليبيين.

١- الطريق إلى أنطاكية (*) (معركة خوروابيوم ١٠٩٧/٧/١)

« في اليوم الثالث [بعد سقوط نيقية] شن الأتراك هجوما عنيفا مفاجئاً على بوهيموند ورفاقه^(١) وبدأ أولئك الأتراك جميعاً في وقت واحد يهللون ويصيحون، ويقولون بصوت عال بلغتهم كلمات شيطانية لا أفهمها^(٢) ورأى بوهيموند الجسور أن هناك أعدادا تفوق الحصر من الأتراك على مسافة يسيرة ، يهللون ويصيحون كالشياطين، فأمر الفرسان بالترجل فوراً وإعداد معسكرهم. وقبل أن يقام المعسكر قال للفرسان جميعاً : «أيها السادة يا جنود المسيح الجسورين ، بوسعكم أن تروا أننا محاطون وأن المعركة ستكون قاسية ، ولذا ينبغي على الفرسان أن يقاتلوا بشجاعة، على حين يسرع الجنود لإقامة المعسكر في حذر».

« وبعد أن نظمنا أنفسنا في خطوط القتال أقبل الأتراك علينا من كل صوب يناوشون، ويقذفون التراب والرماح الخفيفة في تنسيق مدّش. وعلى الرغم من أننا لم نزل الفرصة للصمود أمامهم أو نستوعب هجمة أولئك الأعداء، مضينا إلى الأمام كرجل واحد. وكانت النساء في معسكرنا عوناً كبيراً لنا في ذلك اليوم. لأنهن كن يحضرن الماء للرجال المقاتلين لكي يشربوا، كما كن يشجعن بحماسة أولئك الذين كانوا يحاربون دفاعاً عنهن. وأسرع بوهيموند الجسور لكي يرسل رسالة إلى الآخرين (كونت سان جيل والدوق جوفري ، وهيو الكبير، وأسقف لوبوى، وبقيّة الفرسان المسيحيين)، وطلب منهم أن يسارعوا إلى ميدان المعركة بأقصى سرعة قائلاً : «إذا كان بينكم من يريد القتال اليوم فليأت ويثبت معدنه كرجل». ومن ثم وصل أولا الدوق جوفري الذي كان شجاعاً مقداماً ومعه هيو الكبير بقواتهما، ثم تبعهم أسقف لوبوى بقواته، وبعدها وصل كونت سان جيل بقوة كبيرة.

« ولم يكن بمقدور رجالنا أن يفهموا من أين أتت هذه الأعداد الغفيرة من الأتراك والعرب والمسلمين^(٣) وغيرهم من الشعوب التي لا أعرف أسماعها، ذلك أن كل الجبال والتلال

(*) Gesta, pp. 18 - 20.

(١) جرت هذه المعركة في سهول خوروابيوم، كما تقول أنا كومنينيا.

(٢) يقول رالف الكايني إن المسلمين كانوا يستخدمون صيغة الرب Allachibar ، وهي تحريف لعبارة «الله أكبر».

(٣) استخدم المؤلف هنا كلمة Saracens للدلالة على المسلمين، على اعتبارهم أنهم أبناء «سارة».

والسهول تقريباً، وكل البلاد المنبسطة داخل التلال وخارجها، كانت مغطاة بهذا الجنس الملعون. ومن ناحيتنا مررنا رسالة سرية عبر خطوطنا تمتدح الرب ونقول: «أثبتوا سويًا جميعاً، وضعوا ثقتكم في المسيح، وفي انتصار الصليب المقدس فإنكم اليوم بمشيئة الرب ستحصلون على أسلاب كبيرة»^(١).

« وتشكل خط قتالنا في الحال. وفي الميسرة كان بوهيموند الجسور، وروبرت النورمانى، وتنكرد الشجاع وروبرت الأنسى وريتشارد الأمير. أما أسقف لوبوى فقد استدار حول جبل آخر حتى يمكنه أن يتقضى على أولئك الأتراك الملحميين من الخلف، على حين انضم ريمون أسقف سان جيل، وهو فارس مقدم للغاية، إلى الميسرة. وفي الميمنة كان النوق جودفرى، وكونت الفلاندرز، الذى كان يتحرق شوقاً للقتال، وكذلك هيو الكبير ومعه آخرون كثيرون لا أعرف أسماعهم.

« وبمجرد أن شن فرساننا هجومهم استدار الأتراك والعرب والمسلمون والأجولانى^(٢) وبقية البرابرة على أعقابهم وهربوا عبر ممرات الجبال والسهول. كان هناك ثلاثمائة وستون ألفاً من الأتراك والفرس والبيالصة^(٣) والمسلمون والأجولانى، وغيرهم من الوثنيين، فضلاً عن العرب، لأن الرب وحده يعرف عددهم. وهربوا بسرعة إلى معسكرهم، ولكنهم لم يكتفوا هناك طويلاً، ولذا واصلوا الهرب وطاردهم، وأعملنا فيهم سيوفنا طوال اليوم، وأخذنا أسلاباً وغانم كثيرة وذهباً وفضة، فضلاً عن الخيول والحمر والجمال والثيران والماشية وأشياء أخرى كثيرة لا نعرف عنها شيئاً، ولو لم يكن الرب معنا. فى هذه المعركة وأرسل لنا جيشاً آخر بسرعة، لما استطاع أحد منا أن ينجو بنفسه، لأن القتال استمر من الساعة الثالثة حتى التاسعة، ولكن الرب القدير الرحيم الكريم، خلص فرسانه من الموت ومن الوقوع فى أيدي الأعداء وأرسل لنا النجدة بسرعة ومع ذلك قتل فارسان بارزان هما، جودفرى أمير مونت سكاجليوز ووليم ابن الماركيز، أخو تنكرد، وغيرهم من الفرسان والمشاة لا أعرف أسماعهم.

« ومن هو الرجل الذى يستطيع، مهما كانت تجربته وتعليمه، أن يكتب عن مهارة وقوة وشجاعة الترك، الذين ظنوا أنهم سيلقون الرعب فى قلوب الفرنج، مثلما فعلوا بالعرب

(١) هذا مثال طيب على كيفية ربط الصليبيين بين مظاهر التدين وبين فى المكاسب الدنيوية.

(٢) ربما يقصد الألبان القوقازيين.

(٣) فرقة مسيحية منشقة من أتباع بولس من سمساط Samosata

والمسلمين والأرمن والسوريين واليونان بفضل سهامهم؟ ولكن ، بمشيئة الرب، لن يكون رجالهم أبداً مثل رجالنا. ولديهم قول شائع بأنهم والفرنج من أصل واحد، وأنهم فقط والفرنج خلقوا لكي يكونوا فرسانا. وهذا حقيقي ، ولا يستطيع أحد أن ينكره ...»

١- رواية فوشيه الشارترى (*)

« عندما تلقى رجالنا الإذن من الإمبراطور بالرحيل قبل ثلاثة أيام من شهر يوليو، تركنا نيقية لتتوغل في الأجزاء الداخلية من رومانيا (١). ولكن بعد أن مضينا في رحلتنا لمدة يومين، أعلن أن الأتراك، بعد أن أهدوا الكمان في السهول التي توقعوا أن نمر بها، ينتظرون خوض المعركة.

« وعندما سمعنا بهذا لم نفقد شجاعتنا. ولكن في ذلك المساء ، عندما رأى كشافونا الكثير منهم على مسافة، وحذرونا في الحال؛ ولذا وضعنا حراسة على خيامنا من جميع الجوانب في تلك الليلة. وفي الصباح الباكر، في بداية شهر يوليو، بعد أن أخذ كل سلاحه، وتم ترتيب الجيش في أجنحة لمواجهةهم ، بقيادة قادة السرايا والكتائب، ومعهم بوق للتحذير وراية ترفرف، وبدأنا التقدم في تشكيل قتالي.

« وفي الساعة الثانية من اليوم اقتربت مقدمتهم من كشافتنا ؛ وعندما سمعنا بهذا، ضربنا خيامنا قرب أحد المستنقعات، حتى إذا ما تحفنا من أحمالنا أصبحت أكثر استعداداً للقتال.

« وبعد أن تم هذا، كان هناك الأتراك الذين كان أميرهم هو سليمان (٢)، الذي كان حاكماً على نيقية ورومانيا. وكان معه الأتراك والفرس والوثنيون الخاضعون له والذين قاموا برحلة استمرت ثلاثين يوماً أو يزيد لمساعدته؛ كذلك كان معه كثيرون من الأمراء، منهم أدمير كاراجيوم ومير باتوس (٣)، وكان أولئك جميعاً ثلاثمائة وستين ألفاً من المحاربين، من رماة

(*) Fulcher, pp. 83 - 87.

(١) ليست رومانيا الحديثة وإنما المقصود هنا آسيا الصغرى.

(٢) هو سليمان الثاني سلطان قونية أو سلاجقة الروم (١٠٩٢ - ١١٠٧).

(٣) يقصد الأمير قراجا ، والأمير أتسيز.

السهم. لأن من عاداتهم أن يستخدموا مثل هذه الأسلحة. وكانوا كلهم من الفرسان. أما نحن فقد كنا من الفرسان والمشاة.

« وفى ذلك الوقت لم يكن فوق جودفرى وكونت ريمون وهيو الكبير معنا، وعلى مدى يومين، ولا أدري السبب فى هذا، افترقوا عن جيشنا عند مفترق الطرق ومعهم عدد كبير من رجالنا. وبسبب هذا حل بنا أذى لا يمكن إصلاحه، فقد ذبح رجالنا، ولم يجد الأتراك من يقتلهم أو يصددهم، ولأنهم تلقوا رسالتنا فى وقت متأخر فقد جاءت مساعدتهم لنا متأخرة.

« وأطلق الأتراك السهام كالطر وسط صليل أسلحتهم وصياحهم. وإذا أصابتنا السهام وكنا نموت بعد أن جرح الكثيرون، لئنا بالفرار، ولا غرابة فى هذا لأن هذا النوع من القتال مجهول لدينا جميعاً.

« ومن جزء آخر من المستنقع، جاءت عصابة كبيرة منهم تشق طريقها بعنف حتى وصلوا إلى خيامنا. وحين دخلوا انتزحوا أشياءنا وقتلوا بعض قومنا، ثم حدث بترتيب من الرب أن أطبقت قوات المقدمة فى جيوش هيو الكبير، والكونت ريمون، والفوق جودفرى على هذه الكارثة من الخلف. وعندما كان رجالنا قد تقهقروا إلى خيامنا، رحل الأتراك، لأنهم ظنوا أن رجالنا قد عانوا لقتالهم، ولكن ما ظنوه جسارة وشجاعة، كان فى الحقيقة خوفاً عظيماً لو أنهم يعلمون.

« ترى ماذا أحكى بعد ذلك؟ إننا جميعاً تراكمتنا مثل قطع من الماشية فى حظيرة، نرتعش ونرتجف خوفاً ورعباً، وقد أحاط بنا العدو من كل جانب، لدرجة أننا لم نكن قادرين على التحول إلى أى اتجاه. وكان من الواضح أن هذا حدث لنا بسبب خطايانا، لأن الإسراف أفسد البعض، كما أفسد الجشع وبعض الشرور الأخرى غيرهم. وكانت هناك صيحة عظيمة تستغيث بالسماء، من الرجال والنساء والأطفال الصغار، وأيضاً من الوثنيين الذين اندفعوا نحونا، ولم يبق أمل فى الحياة.

« ثم اعترفنا بأننا مذنبون خطاة، وتوسلنا فى طلب رحمة الرب. وكان أسقف لويوى حامينا هناك معه أربعة آخرون من الأساقفة. وكان هناك كثير من القساوسة، فى مسوحهم البيضاء وتوسلوا إلى الرب أن يرفع قوة العدو ويصب هبات رحمته علينا. وغنوا وهم يبيكون، وبكوا وهم يغنون. وإذا خاف كثيرون من الموت العاجل، جروا إليهم واعترفوا لهم.

« وقاوم قادتنا ، روبرت كونت نورماندى، وستيفن كونت بلوا، وروبرت كونت الفلاندرز، وبوهيموند أيضاً، وبذلوا فى المقاومة كل ما فى وسعهم، وناضلوا كثيراً لضربهم. وقد تلقى أولئك ضربات عنيفة من الأتراك أيضاً.

« إن الرب لا يعطى النصر لنبالة المولد أو التفوق فى استخدام السلاح، ولكنه يساعد من يحمل قلباً نقياً والذي يتقوى بالقوة الربانية ساعة الحاجة. ومن ثم فإن الرب، وربما أرضاه تضرعنا وتوسلاتنا، أعاد لنا الشجاعة والقوة رويداً رويداً، وأضعف الأتراك شيئاً فشيئاً. فعندما شهود حلفائنا الذين هربوا لمساعدتنا، وهم يمجنون الرب، استعدنا شجاعتنا ونظمنا أنفسنا فى فرق وكثائب وناضلنا فى سبيل المزيد من المقاومة.

« وأسفاه! كم قتلوا من رجالنا الذين كانوا قد تخلفوا وراعنا فى ذلك اليوم! بل إنه منذ الساعة الأولى فى اليوم، حتى الساعة السادسة، أحاطت بنا المتاعب ولكن حينئذ، رويداً رويداً وبعد أن تحفزنا وتقوينا بالاتحاد مع بعض حلفائنا، حلت بنا النعمة الربانية بشكل إعجازى، وفجأة رأينا ظهور الأتراك بعد أن ولوا هاربين.

« وطاردناهم ونحن نصيح بوحشية فوق الجبال وخلال الوديان. ولم نتوقف عن استئصالهم حتى وصل أسرع رجالنا إلى خيامهم. وهناك، حمل بعضهم الجمال والخيول الكثيرة بمتاع الأتراك وبالخيام نفسها التى تركوها خوفاً وجزعاً. وتبع الآخرون الأتراك الهاربين حتى هبوط الليل. ولأن خيولنا كانت جائعة ومتعبة، فقد حافظنا على بعض خيولهم.

« كانت تلك معجزة عظيمة من الرب لدرجة أنهم فى اليوم التالى، وفى اليوم الثالث كانوا ما يزالون سادرين فى هربهم على الرغم من أن أحداً لم يكن يطاردهم سوى الرب نفسه.»

الوصول إلى أنطاكية

١- رواية المؤرخ المجهول (*)

« .. بعد ذلك عندما وصلت قواتنا الرئيسية عسكرت على ضفاف نهر العاصى. وعلى الفور قدم بوهيموند الجسور ومعه أربعة آلاف فارس لحراسة بوابة المدينة (أنطاكية) حتى لا يدخلها

أو يخرج منها أحد متسللاً تحت جناح الليل، وفي اليوم التالي، الأربعاء ٢١ أكتوبر، وصل الجيش الرئيسى إلى أنطاكية حوالى الظهر، وقمنا بفرض حصار صارم على ثلاث من بوابات المدينة، لأننا لم نستطع أن نحصرها من الجانب الآخر لأن جبلاً شاهقاً شديد الإنحدار كان يسد الطريق إليها. أما أعداؤنا الأتراك، الذين كانوا داخل المدينة، فكانوا أسرى خوف كبير منا لدرجة أن أحداً منهم لم يحاول مهاجمة رجالنا على مدى أسبوعين تقريباً. وفي الوقت نفسه، ألفنا المناطق المحيطة بأنطاكية، ووجدنا بها وفرة من المؤن، والكروم المشربة، والشون المليئة بالغلال، وأشجار التفاح المحملة بالفواكه وأنواع أخرى من الطعام الشهي.

« وكان الأرمن الذين يعيشون في المدينة يأتون إلينا متظاهرين بأنهم يلجئون وكانوا يتواجدون يومياً في معسكرنا، ولكن زوجاتهم كن في المدينة. وكان هؤلاء الرجال يتجسسون علينا لمعرفة قوتنا، وينقلون كل شيء نقوله إلى أولئك المحاصرين داخل المدينة. وبعد أن عرف الأتراك أحوالنا بدأوا يظهرين بالتدريج ويهاجمون الحجاج حيثما استطاعوا، ليس من الجانب البرى فقط، وإنما في أى مكان كان يوسعهم أن يعدوا كميناً فيه لنا، سواء ناحية البحر أو ناحية الجبل.

« وعلى مسافة بعيدة كانت هناك قلعة أربغ، وبها عدد كبير من شجعان الأتراك، وكان هؤلاء غالباً ما يشنون الهجمات على رجالنا. وعندما سمع زعمائنا بحدوث مثل هذه الأشياء اضطربوا كثيراً وأرسلوا بعض فرساننا لاستكشاف المكان الذى يقيم فيه الأتراك. وبينما كان فرساننا يبحثون عن الأتراك وجئوا المكان الذى اعتادوا الاختباء فيه، وهاجموا العدو ولكنهم اضطروا للتقهقر إلى المكان الذى كان بوهيموند يعسكر فيه بجيشه. وقتل إثنان من رجالنا هناك في الهجوم الأول. وعندما سمع بوهيموند بهذا خرج، مثل بطل جسور من أبطال المسيح، وتبعه رجاله، وانقض البرابرة على رجالنا لأن عددهم كان قليلاً، ومع ذلك فإنهم خاضوا المعركة في نظام جيد وقتلوا كثيرين من أعدائنا. أما الآخرون، الذين أسرناهم، فقد سقناهم أمام بوابة المدينة حيث ذبحناهم، حتى ندخل الحزن في قلوب الأتراك داخل المدينة.

« وكان هناك آخرون اعتادوا الخروج من المدينة والتسلق على إحدى البوابات، ومن هناك يطلقون سهامهم علينا، وكانت هذه السهام تسقط في معسكر سيدي بوهيموند، وقتلت امرأة بسهم من هذه السهام.

« وبعد ذلك اجتمع قادتنا سوياً وعقدوا مجلساً للتشاور. وقالوا « فلنبن قلعة على قمة جبل مالرجارد^(١) بحيث يمكن أن نمكث هناك في سلام دون خوف من الأتراك».

« وشيئاً فشيئاً ، وقبل عيد الميلاد، بدأت الغلال والأغذية تنضج، لأننا لم تكن نجرى على الخروج والابتعاد عن المعسكر ولم نستطع أن نجد شيئاً نأكله في أرض المسيحيين. (ولم يكن أحد يجرى على الدخول في أرض المسلمين ما لم تكن بصحبته قوة عسكرية كبيرة). وأخيراً عقد زعمائنا مجلساً للتشاور ليقرروا كيفية توفير المؤن مثل هذا العدد الكبير من الناس، وفي هذا المجلس قرروا أنه يجب أن يتوجه جزء من جيشنا ليبدل قصارى جهده للحصول على المؤن وإحماية جانبي الجيش، على حين يبقى الجزء الآخر لحماية غير المقاتلين. ثم قال بوهيموند «أيها السادة الفرسان البواسل، إذ كنتم ترغبون، وإذا رأيتم أنها خطة جيدة، فإنتى سأذهب في هذه الحملة أنا وكونت الفلاندرز». وهكذا عندما احتفلنا بعيد الميلاد احتفالاً رائعاً، ذهب هذان الاثنان في يوم الاثنين^(٢)، وذهب معهما آخرون عددهم أكثر من عشرين ألفاً من الفرسان والمشاة، ودخلوا بسلام في أرض المسلمين. وحدث حينئذ أن جماعة كبيرة من الأتراك والعرب والمسلمين كانوا قد جاؤا سوياً من القدس ودمشق وحلب وأماكن أخرى^(٣) بقصد فك حصار أنطاكية، وإذا فإينهم عندما سمعوا بأن قوة مسيحية قد دخلت بلادهم استعدوا في الحال لخوض المعركة، وعندما بزغ ضوء النهار جاؤا إلى المكان الذي كانت فيه قواتنا مجتمعة به^(٤). وقسم البرابرة قواتهم إلى قسمين، قسم من الأمام وقسم من الخلف، لأنهم أرادوا أن يحيطوا بنا من كل جانب، ولكن كونت الفلاندرز النبيل، الذي تسليح بالإيمان وبعلمة الصليب (التي كان يحملها في ولاء كل يوم)، هجم على العدو مباشرة وبجانبه بوهيموند، وهاجم رجالنا في خط واحد. وفي الحال هرب العدو لا يلوى على شيء، وقتل منهم كثيرون وأخذ رجالنا خيولهم وغنائم أخرى. أما الآخرون الذين بقوا على قيد الحياة فقد ولوا هاربين ودخلوا في «أنية غضب مهياة للهلاك»^(٥)، ولكننا عدنا مكملين بنصر كبير، وحمدنا الرب المجيد، الثلاثة في واحد الذي يحيا ويحكم الآن وإلى الأبد، آمين».

(١) هذا الاسم Mal Regard أطلقه الصليبيون على هذه القلعة التي أقيمت في الشمال الشرقي من أنطاكية قبالة بوابة القديس بولس. وهي تعني «قذرة المنظر».

(٢) ٢٨ ديسمبر ١٠٩٧م.

(٣) كانوا بقيادة دقاق أمير دمشق، واتبك طغتكين ، وجناح الدولة أمير حمص.

(٤) البارة.

(٥) رسائل بولس الرسول إلى أهل رومية (٩ : ٢٢).

« وأخيراً، عندما عرف الأتراك في مدينة أنطاكية، أعداء الرب وأعداء المسيحية المقدسة، أن سيدي بوهيموند وكونت الفلاندرز غير موجودين في الحصار، خرجوا من المدينة وتقدموا في جسارة للإشتباك في معركة ضدتنا. ولأنهم عرفوا أن أولئك الفرسان البواسل غير موجودين، أكنموا لنا الكمائن في كل مكان، ولا سيما في الجانب الذين لم يكن الحصار فيه محكماً. وفي يوم الأربعاء اكتشفوا أن بوسعهم مقاومتنا وإيذاًنا. وخرج البرابرة الأشرار في حذر، واندفعوا صوبنا في عنف، وقتلوا الكثيرين من فرساننا ومشاتنا ممن كانوا غافلين، وحتى أسقف لوبوى فقد كبير خدمه الذي كان يحمل رايته في هذا اليوم المير. ولو لم يكن المجري المائى يفصل بيننا وبينهم، فلربما ألحقوا بنا المزيد من الأذى.

« وفي ذلك الوقت كان بوهيموند الجسور عائداً من أرض المسلمين، ووصل تنكرد يلتمس الفرصة ليجد أى شيء يمكنه أن يأخذه، لأنهم ينهبون الإقليم كله. والحقيقة أن البعض وجدوا شيئاً، ولكن البعض الآخر انصرفوا خاويي الوفاض، وحينئذ قال بوهيموند الحكيم موبخاً إياهم : «أيها الناس التعساء الأشرار، يا أكثر المسيحيين خسة وبناءة. لماذا تريدون الانصراف بهذه السرعة ؟ توقفوا فقط حتى تتجمع كلنا سوياً، ولا تتجولوا هنا وهناك مثل قطيع بدون راعي. فضلاً عن أن العدو إذا وجدكم تتجولون، فسوف يقتلكم، لأنهم يترقبون أثناء الليل وأطراف النهار الفرصة التي تكونون فيها وحدكم، أو تنسلخون في جماعة بعيداً دون قائد ! وهم يناضلون يومياً لقتلكم ولأسركم ». وعندما أنهى كلامه هذا عاد إلى المعسكر برجاله، الذين كانت أياديهم خاوية تقريباً ».

٢ - رواية ريمون الأجويلري (*)

« ولأنه منذ الشهر الثالث في الحصار كانت واردات الطعام شحيحة للغاية، تم اختيار بوهيموند وكونت الفلاندرز لقيادة جيش داخل أراضي المسلمين للحصول على الطعام، وبقي الكونت [ريمون السانجيلي] وأسقف لوبوى لحراسة المعسكر. لأن كونت نورماندى كان بعيداً في ذلك الوقت، كما كان الدوق [جودفرى] مريضاً جداً. وعلى كل حال، عندما عرف العدو بهذا، كرروا هجماتهم المعتادة. واضطر الكونت لمهاجمتهم بطريقته المعتادة، وبعد أن شكل

صفوف الجنود المشاة، ومعهم بعض الفرسان، بدأ يطارد المهاجمين، وأسر اثنين منهم وقتلها على منحدر الجبل الصغير وأجبر جميع الأعداء على الدخول إلى المدينة عن طريق القنطرة. وعندما رأى جنودنا المشاة هذا تركوا أماكنهم وبيارقهم وجروا في غوغائية إلى الجسور. وعندما وصلوا إلى هناك، وكأنهم في مأمن وسلام، قذفوا الحجارة والأسلحة على المدافعين عن القنطرة. وبعد أن نظم الترك صفوفهم بدأوا يندفعون ضد رجالنا عن طريق القنطرة والطريق السفلى. وفي الوقت نفسه، طارد فرساننا صوب قنطرتنا جواداً صرعوا راكبه؛ وعندما رأى قومتنا هذا المشهد، وظنوا أن فرساننا يواون الأديار هاربين، أداروا ظهورهم لهجوم العدو في الحال. وعندما قتل الأتراك دون توقف أولئك الذين هربوا. وحتى عندما أراد فرسان الفرنج أن يقاوموا ويحاربوا دفاعاً عن قومهم، أعاقتهم جموع الجنود المشاة المتزاحمين في سبيل الهرب، حين أمسكوا بهم بأيديهم وبذيول خيولهم وبأعرافها، بحيث ألغواهم عن خيولهم، أو اضطروا إلى الفرار غير مباشرين بسلامة قومهم. والواقع أن العدو سارع، دون تردد ودون رحمة، إلى ذبح ومطاردة الأحياء، ونهب ما تحمله جثث القتلى. وفضلاً عن ذلك، لم يكن كافياً لرجالنا أن يتركوا أسلحتهم، ويهربوا ويحلبوا على أنفسهم العار، وإنما اندفعوا إلى النهر تحت رحمة الأحجار والسهام التي يقذفها العدو، أو ليبقوا تحت المياه. وإذا ما نجح أحد بفضل مهارته وقوته في السباحة عبر النهر، فإنه كان يصل إلى معسكر رفاقه. وعلى أية حال، فإن هروبنا امتد من قنطرتهم حتى قنطرتنا. وهناك قتلوا حوالى خمسة عشر من فرساننا فضلاً عن ما يقرب من عشرين من المشاة. كما قتل حامل راية الأسقف هناك واستولى العدو على الراية. ومات شاب نبيل هناك هو برنارد ريمون البز بيرى.

« ولا ينبغي لخدام الرب أن يشكوا أو يغضبوا منا، إذا ما خلف رجالنا مثل هذا العار الفاضح للكرى الجيش؛ الذى أراد بهذه الطريقة أن ينبه أذهان الزناة واللصوص إلى التوبة، فى الوقت نفسه الذى أدخل فيه البهجة على جيشنا فى أرض المسلمين. ذلك أن إشاعة سرت فى معسكرنا بأن بوهيموند ورفاقه يتمرغون فى النعيم، وأن الكونت أحرز انتصاراً مجيداً. كما أن هذه الأخبار رفعت معنوياتهم كثيراً. وبعد أن حاصر بوهيموند إحدى القرى، سمع فجأة من بعض فلاحيه تهليلاً وصياحاً، وعندما أرسل بعض الفرسان لمقابلتهم، شاهدوا جيشاً من الأتراك والعرب على مسافة قريبة جداً. وفضلاً عن ذلك، كان كونت الفلاندرز من بين أولئك الذين بعثوا لمعرفة سبب الهرج والجلبة، وذهب معه بعض البروفنساليين. ذلك أن كل الذين من

برجاندى، وأوفرين وجاسكونى، وكل القوط يطلق عليهم اسم البروفنساليين، على حين يطلق على الآخرين جميعاً جنس الفرنج^(١)؛ على أية حال، فهذا فى الجيش أما الأعداء فإِنَّهم يسمون الجميع (الفرنج). وكونت الفلاندرز هذا كما ذكرنا ، رأى أن من العار أن ينقل خبر وجود الأعداء قبل أن يهاجمهم، فاندفع فى حمية صوب جحافل الأتراك. ولأن الأتراك فى واقع الأمر لم يكونوا معتادين على الالتحام فى المعارك بالسيوف، فقد هربوا طلباً للنجاة. ولم يغمد الكونت سيفه حتى قتل مائة من الأعداء، وعندما كان عائداً إلى بوهيموند مكللاً بالنصر، شاهد اثني عشر ألفاً من الأتراك قادمين خلفه، وصعد إلى أقرب تل فشاهد أعداداً لا تحصى من الجنود المشاة. وبعد أن أوضح خطته لبقية الجيش، عاد إلى الخلف ومعه بعض رجاله ليهاجموا الأتراك فى عنف . والواقع أن بوهيموند كان يتبعه على مسافة يسيرة لحراسة خطوطه الخلفية. لأن عادة الأتراك فى القتال كانت على النحو التالى: حتى إذا كانوا أقل عدداً كانوا يناضلون لكى يحيطوا بالجيش المعادى. وقد حاولوا أن يفعلوا الشيء نفسه فى هذه المعركة أيضاً، ولكن بعد نظر بوهيموند أحبط مساعى العدو. وعندما كان العرب والأتراك يركضون لقتال كونت الفلاندرز، وروا أن المعركة لا يمكن أن تنور بالسهم من مسافة بعيدة، وإنما يجب أن تنور عن قرب، ولوا الأدبار هاربين. وتابعهم الكونت على مدى ميلين، وفى الأرض القضاء شاهد جثث القتلى ترقد كل منها مثل حزمة من أعواد القمح التى كومت فى الحقل. كما أن الكماثن التى تعرضت لبوهيموند تبعثرت وأجبر أفرادها على الهرب بنفس الطريقة. ولكن الأعداد التى لا تحصى للجنود المشاة، التى تحدثنا عنها من قبل، فرت هاربة عبر الأماكن التى لا يمكن للخيول أن تمر منها. ولولا خشيتى من أن تعتبر هذه فخرسة، لجرؤت على القول بأن هذه المعركة تفوق حروب المكابيين، لأنه إذا كان المكابيون بثلاثة آلاف قد هزموا ثمانية وأربعين ألفاً من أعدائهم، فإن أكثر من ستين ألفاً من أعدائنا قد ولوا الأدبار فراراً من أربعين فارساً. والواقع أننى لا أقلل من شجاعة المكابيين، كما أننى لا أعالى فى شجاعة فرساننا، ولكنى أقول إن الرب، تجلى إعجازه مع قواتنا أكثر مما تجلى مع المكابيين.

« وتجت عن ذلك نتيجة غريبة هى أنه بعد فرار العدو تناقصت شجاعة رجالنا، لدرجة أنهم

(١) الواقع أن التسمية العامة للصليبيين كانت «الفرنج» ، سواء فى المصادر العربية أو البيزنطية، كما أن المصادر اللاتينية – بما فى ذلك ريمون الاجويلرى نفسه – دأبت على استخدام مصطلح «الفرنج» بهذا الدلول بسبب غلبة الفرنج على تكوين جيوش الحملة الصليبية الأولى. بيد أن الكتاب اللاتين كانوا يفوقون أحياناً بين الفرنج وغيرهم.

لم يجرؤوا على مطاردة أولئك الذين كانوا يقفون أمامهم. وبناء على ذلك، فعندما عاد الجيش منتصراً خاوى الوفاض، حدثت مجاعة في المعسكر وصلت قسوتها إلى حد أن المرء كان يحتاج إلى قطعتين من النقود (Solidi) لكي يشتري ما يكفيه من الخبز يومها، ولم تكن أسعار الحاجيات الأخرى أقل من ذلك»..

٣ - رواية فوشيه الشارترى^(٥)

«فمن شهر أكتوبر^(١)، وبعد عبور النهر الذي يسمونه فيرنوس أو الأورنط [نهر العاصي]، وصل الفرنج إلى أنطاكية في بلاد الشام، وهي المدينة التي أسسها سليوكوس بن أنطيوخوس^(٢) لتصير عاصمة سوريا. وكانت قبل ذلك تسمى ريلانا^(٣). وصدرت الأوامر بضرب الخيام على مسافة قبالة المدينة، حيث جرت مواجهات عنيفة كثيرة فيما بين الجانبين. ذلك أنه عندما كان الأتراك يخرجون من المدينة، كانوا يقتلون عددا من رجالنا، ولكن اتخذت الإجراءات الانتقامية، مما جعلهم يحزنون على قتلهم أيضاً.

«ووجدوا بعض القوارب على صفحة النهر المذكور، فاستولوا عليها، وكونوا منها جسراً يعبرون عليه. وكان باستطاعتهم العبور على هذا الجسر لمواصلة عملهم، حيث كان عليهم قبل ذلك أن يخوضوا في الماء بصعوبة.

«وعندما رأى الأتراك أنهم محاصرون بهذا العدد الكثير من المسيحيين خشوا ألا يمكنهم دفعهم. وبعد أن تم تدبير خطة، قام أوكسيان أمير أنطاكية^(٤) بإرسال ابنة المدعو سنساولوس^(٥) إلى السلطان [بركياروق ١٠٩٤ - ١١٠٤م]، وهو امبراطور فارس ليرسل له

(*) Fulcher, pp. 92 - 94.

(١) ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧م.

(٢) تأسست أنطاكية على نهر العاصي حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد على يد سليوكوس نيكاتور (٣١٢-٢٨٠ ق-م) الذي كان واحداً من قادة جيش الإسكندر الأكبر، وسميت أنطاكية على إسم أنطيوخوس أبيه الذي كان خابطاً في خدمة فيليب المقدوني.

(٣) ريلانا تقع إلى الجنوب من مدينة حمص السورية وقد اختلط الأمر على جيروم فخلط بين ريلانا وأنطاكية ونقل عنه فوشيه هذا الخطأ.

(٤) تحريف الاسم «ياغى سيان» حاكم أنطاكية (١٠٨٨ - ١٠٩٨م) والذي كان السلطان ملكشاه قد عينه حاكماً عليها.

(٥) يقصد «شمس الدولة».

٢٠٣

نجدة سريعة، لأنهم ليس لديهم أمل في مساعدة أحد سوى نبيهم محمد، وهكذا قام بسفارته هذه على وجه السرعة.

« وفي الوقت نفسه، فإن أولئك الذين بقوا في انتظار المساعدة المطلوبة، كانوا يحرسون المدينة، وغالباً ما دبّروا لإيقاع صنوف الأذى بالفرنج. ومع هذا فإن الفرنج قاوموا مكرهم بكل قوتهم.

« وحدث ذات يوم أن قتل الفرنج سبعمئة من الأتراك، وانهزم الأتراك الذين أهدوا الكمائن لإيقاع الفرنج عندما داهمهم هؤلاء في أحد الكمائن. وكانت قوة الرب ماثلة هناك. وعاد جميع رجالنا سالمين باستثناء جريح واحد.

« وأسفاه، كم من المسيحيين واليونانيين والأرمن والسوريين من سكان المدينة قتلوا ضحية غضب الأتراك المجنون، وبينما كان الفرنج ينظرون قذف الأتراك بروس القتل بالقاذفات والمقالب. وقد تسبب هذا في حزن قومنا. ذلك أن الأتراك كانوا يكرهون أولئك المسيحيين فخافوا أن ينقلوا إلى الفرنج المعلومات عن ما يقصنون عمله.

« وعندما مر بعض الوقت على حصار الفرنج للمدينة، ونهبوا المناطق المحيطة للحصول على الطعام اللازم لهم، وخربوا كل النواحي، لم يكن ممكناً شراء الخبز من أي مكان، وعانوا من الجوع المتزايد. ونتيجة لهذا تسرب اليأس إلى الجميع وبدأ كثيرون في الانسحاب سراً من الحصار سواء عن طريق البر أو عن طريق البحر.

« ولم تكن لديهم المؤن التي تكفي للمعيشة. وبدأوا يبحثون عن الطعام في أماكن بعيدة وقد غشيتهم خوف شديد، وبدأوا يعتمدون لمسافة أربعين أو خمسين ميلاً عن مكان الحصار، في الجبال حيث كان مصيرهم غالباً القتل بأيدي الأتراك الذين كانوا يعدون لهم الكمائن.

« واعتقدنا أن هذه الكوارث حلت بالفرنج وأنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على المدينة بسبب خطاياهم، ذلك أنهم فسدوا بسبب الإسراف والجشع والكبرياء والطمع.

« وبعد عقد اجتماع استشاري، طردوا النساء من الجيش، سواد المتزوجات أو غير المتزوجات حتى لا يفرهن الطعام فتغضب الرب. وحينئذ ذهبت أولئك النسوة للبحث عن أماكن لإقامتهن في المعسكرات المجاورة..

« وكان الغنى والفقير على حد سواء مكتئبين من الجوع ومن القتل اليومي. وبدأ أنه لو لم

يقم الرب ، مثل الراعى الطيب، بجمع قطيعه سوياً ، فلا شك فى أنهم سيهربون جميعاً حتى ولو كانوا قد أقسموا على البقاء فى الحصار. لأن نقص الخبز على مدى عدة أيام جعل الكثيرين يبحثون عن ضروريات الحياة فى القلاع المجاورة، ولم يعودوا بعد ذلك للجيش لأنهم تخلوا عن الحصار نهائياً.

« وفى هذا الوقت، رأينا وهجاً مدهشاً فى السماء، وفى الوقت نفسه، شعرنا بحركة عظيمة فى الأرض جعلتنا نهتز جميعاً. وكثيرون رأوا فى هذا الوقت أيضاً علامة مغبنة على شكل صليب، ذات لون مائل إلى البياض، تتقدم صوب الشرق فى مسار مستقيم...».

معاناة الصليبيين

١- رواية المؤرخ المجهول (*)

«عندما رأى الأرمن والسوريان أن رجالنا عادوا دون مؤن تقريباً، تشاوروا سوياً وذهبوا إلى الجبال عن طريق الممرات التى يعرفونها، وبدأوا يستفسرون بحرص ويشترون الغلال والمؤن التى أحضروها إلى معسكرنا الذى كان يعانى من مجاعة رهيبة، وبدأوا يبيعون لنا بضائعهم بأسعار هائلة، إذ كانوا يبيعون حمولة الحمار بما يعادل مائة وعشرين شلناً فى عملتنا. ومات كثيرون من قومنا هناك ، لأنهم لم يقدروا على الشراء بهذه الأسعار المرتفعة.

« ويسبب هذا البؤس والشقاء الذى حاق بنا هرب وليم النجار وبطرس الناسك ^(١) سرا. وذهب تنكرد فى أثرهما وقبض عليهما وأعادهما بطريقة مهينة. وأقسما له أنهما على استعداد للرجوع إلى المعسكر وترضية الزعماء . وقضى وليم الليل بطوله فى خيمة سيدى بوهيموند، راقداً على الأرض مثل كومة من النفايات، وفى اليوم التالى، عند شروق الشمس ، جاء للمثول أمام بوهيموند، وقد أحمر وجهه خجلاً . وقال له بوهيموند: «لقد جلبت العار على جيش الفرنج كله - أنك وصمة عار لشعب الغالا أنت يا أكثر أهل الأرض إثارة للإشمئزاز، لماذا هربت بهذه الطريقة المخزية؟ إننى اعتقد أنك أردت أن تخون هؤلاء الفرسان والمعسكر المسيحى مثلما

(*) Gesta, pp. 33 - 38.

(١) كان بطرس هو الدامية الشعبى الأول للحركة الصليبية ، والملمم الذى حرك جموع العامة فى الحملة الشعبية التى كان زعمائها من تلاميذه، ولكن «نبي الحركة الصليبية» فشل فى تحمل مشاق «المهمة المقدسة» التى كان يدعى لها.

خنت الآخرين في أسبانيا؟^(١)، ولم ينبس وايم ببنت شفة وظل صامتا، واجتمع كل الفرنج تقريباً، وأخذوا يتوسلون إلى سيدي بوهيموند بالألا يعرضه لعقوبة أشد، ووافق على طلبهم دون أن يفضب، وقال: «إننى سأمنح هذا بسبب الحب الذى اكته لكم، بشرط أن يقسم الرجل، بكامل قلبه وعقله، أنه لن يحيد عن الطريق إلى القدس، سواء لخير أو لشر، وسوف يقسم تنكرد بأنه لن يلحق به أذى، هو أو رجاله». وعندما سمع تنكرد هذه الكلمات وافق وأطلق بوهيموند سراح وايم النجار؛ ولكنه فيما بعد تسلل هارباً فى أول فرصة، بسبب العار الكبير الذى لحق به،

« وكان من فضل الله أن عانينا هذا الفقر والبؤس بسبب خطايانا، فلم تكن تستطيع أن تجد فى المعسكر كله ألف فارس يمكنهم الحفاظ على خيولهم فى حالة طيبة.

» وبينما كان هذا كله يجرى، فعندما سمع عدونا تاتيكيوس^(٢) أن الجيش التركى قد هاجمنا اعترف أنه خائف وقال إننا كلنا هالكون وقد أصبحنا تحت رحمة العدو، ولذا أخبرنا بشتى صنوف الأكاذيب وقال: «أيها السادة والفرسان البواسل، إنكم ترون أننا هنا نعانى خفقاً رهيباً، ولا يمكن أن تصلنا أية تعزيزات من أى اتجاه، فدعونى إذن، أن أعود إلى بلاد الروم وسوف أضمن لكم حالاً إرسال سفن عن طريق البحر تحمل الفلال والنبذ والشعير واللحم والدقيق والزبد وكافة أنواع المؤن التى تحتاجون إليها؛ وسوف أقسم بإخلاص على هذا كله، وسوف أشرف على ذلك بنفسى. وفى الوقت نفسه سيبقى أهل بيتى وجناحى فى المعسكر كضمان قوى لعودتى بأسرع ما يمكن».

« هكذا أنهى عدونا خطبته، وترك كل ممتلكاته فى المعسكر؛ ولكنه كاذب، وسوف يكون كذلك دائماً. وهكذا تركنا فى مسيس الحاجة، لأن الأتراك كانوا يحيطون بنا من كل جانب، بحيث لم يكن يجرؤ أحد من رجالنا على الخروج من المعسكر. وكان الأتراك يهدوننا من ناحية، على حين كان الجوع يمزقنا من ناحية أخرى، ولم يكن هناك أحد لمساعدتنا أو لإحضار النجدة لنا. وكان الجنود يهربون زرافات ووحداً بصحبة الفقراء المعوزين إلى قبرص أو بلاد الروم أو يهربون إلى الجبال. ولم تكن نجرؤ على الذهاب إلى البحر خوفاً من شراسة الأتراك، ولم يكن أمامنا طريق آخر».

(١) كان وايم النجار قد شارك فى إحدى الحملات ضد المسلمين فى الأندلس، ولكنه هرب أثناء الحملة.

(٢) كان تاتيكيوس هو الممثل الرسمي للإمبراطور البيزنطى فى المعسكر الصليبي.

« وحينئذ عندما عرف سيدي بوهيموند شائعات بأن قوة هائلة من الأتراك ^(١) قادمة لمهاجمتنا، فكر في الأمر ثم جاء إلى الزعماء الآخرين قائلاً: «أيها السادة والفرسان البواسل، ماذا نحن فاعلون؟ ليست لدينا قوات كافية للقتال على جبهتين. هل تعرفون ما ينبغي علينا عمله؟ يمكننا أن نقسم قواتنا إلى قسمين؛ المشاة ويبقون هنا سويًا لحراسة الخيام وأن يتصدوا لأهل المدينة قدر طاقتهم، والقسم الثاني هو الفرسان، يجيئون معنا ضد أعدائنا الذين يسكرون غير بعيد عنا في قلعة أريغ خلف نهر العاصي».

« وفي ذلك المساء خرج بوهيموند ومعه آخرون من الفرسان البواسل، واتخذ لنفسه موقعاً فيما بين النهر والبحيرة، وفي الفجر أمر كشافته بالتقدم لكشف أعداد الجيوش التركية، ومكان تواجدهم، ومعرفة ما يفعلونه.. وخرج الكشافون وقاموا باستطلاعات دقيقة عن المكان الذي كان الجيش التركي يختبئ فيه، ورأوا أعداداً هائلة من الأعداء قادمة من النهر في فرقتين، يتبعهما الجيش الرئيسي. وهكذا عاد الكشافون بسرعة وهم يقولون: «انظروا انظروا إنهم قادمون، استعدوا جميعاً لأنهم على وشك أن يطبقوا علينا » وقال بوهيموند الجسور للقادة الآخرين: «أيها السادة أيها الفرسان المظفرون، اصطفوا للقتال» وأجابوه «أنت أيها الشجاع الماهر في الحرب، أيها الرجل العظيم الذائع الصيت، أيها المحظوظ الموفق، إنك تعرف كيف تعد خطة المعركة وكيف تجهز قواتك، ولذا تول القيادة وتحمل المسؤولية، وافعل ما تراه خيراً من أجلك ومن أجلنا». وعندئذ أصدر بوهيموند أوامره بأن يجهز كل قائد قواته لخوض المعركة. وتم هذا، وبدأوا يتقدمون في ستة صفوف، وهاجمت خمسة منها جيش العدو بينما بقي بوهيموند برجاله حصيداً احتياطياً، وخاض جيشنا المعركة بنجاح وقاتل يداً بيد؛ وارتفع الضجيج إلى السماء. وبعد هذا، شن الجيش التركي الرئيسي، الذي كان احتياطياً القوات المهاجمة، هجوماً عنيفاً على رجالنا، لدرجة جعلتهم يتقهقرون قليلاً. وعندما رأى بوهيموند، الذي كان رجلاً واسع الخبرة، هذا، زجر وأصدر أوامره إلى مساعده روبرت فيتز - جرارد قائلاً: «اهجم بأقصى سرعة، أيها الفارس الشجاع، وقاتل ببسالة من أجل الرب والضحريح المقدس، لأنك تعلم الحقيقة وهي أن هذه الحرب ليست حرب أجساد وإنما هي حرب أرواح. ولذا تجمل بالشجاعة، وكن بطلاً من أبطال المسيح. إذهب في سلام، وليتولى الرب حمايتك». وهكذا شن بوهيموند هجومه على الأتراك وشارة الصليب مرفوعة من كل اتجاه،

(١) بقيادة رضوان أمير حلب، وسقمان بن ارتق.

٢٠٧

مثل أسد عانى الجوع لمدة ثلاثة أيام أو أربعة، ثم خرج من عرينه وهو يزار متعطشاً لدماء الماشية، وينقض على القطيع الغافل عن سلامته ليمزق الأغنام التي تحاول الفرار هنا وهناك. فقد كان هجومه قاسياً وعنيفاً لدرجة أن رايته كانت تطير فوق روس الأتراك مباشرة.

« وحين رأت القوات الأخرى راية بوهيموند تندفع بهذا الشكل المشرف، كفت عن التراجع في الحال، وهاجم رجالنا الأتراك هجمة رجل واحد، وملكت الدهشة عقول الأتراك فلانوا بالفرار. وحين علم الأرمن والسوريان بهزيمة الأتراك، خرجوا ليضعوا الكمائن في طريقهم، فقتلوا وأسروا كثيراً من رجالهم.

« وهكذا ، قهرنا أعدائنا في ذلك اليوم بمشيئة الرب. وغنم رجالنا كثيراً من الخيول وغيرها من الأشياء التي كانوا في أمس الحاجة إليها، وأحضروا معهم مائة من روس القتل الأتراك إلى بوابة المدينة، حيث كان يعسكر سفراء أمير القاهرة ^(١) (وكان قد أرسلهم إلى زعمائنا) ^(٢). أما الرجال الذين مكثوا في المعسكر، فقد قضوا اليوم كله يحاربون ضد حامية المدينة أمام البوابات الثلاث. وقد جرت هذه المعركة في يوم الثلاثاء التاسع من فبراير بقوة سيدنا الرب يسوع المسيح الذي يعيش ويحكم مع الأب والروح المقدس، إله واحد، يحكم العالم إلى مالا نهاية. آمين».

٢- رواية ريمون الأجويلري (*)

« .. وهكذا بدأ الفقراء يرحلون ، ومعهم كثيرون من الأغنياء الذين خافوا الفقر. وإذا كان هناك من بقي في المعسكر، حبا في الشجاعة، فإنهم عانوا من فقدان خيولهم يومياً بسبب الجوع. والواقع أن التبن لم يكن متوافراً، وكذلك كان العلف نادراً لدرجة أن سبعة أو ثمانية صوايدى لم تكن تكفى لشراء طعام حصان واحد في ليلة واحدة، وحلت مصيبة أخرى بالجيش؛ ذلك أن بوهيموند، الذي صار رفيع المقام في الشرق قال إنه سوف يترك الجيش؛

(١) كانت القاهرة آنذاك عاصمة الخلافة الفاطمية الشيعية التي كانت منافساً لبودا للخلافة العباسية السنية في بغداد (التي كانت واقعة تحت سيطرة الأتراك السلاجقة)، وكان الفاطميون يحاولون التحالف مع الصليبيين ضد الخلافة العباسية وحماتها من الأتراك السلاجقة. وقد كان هذا التصرف نتيجة لعدم إدراك الفاطميين لحقيقة الغزو الصليبي وحقيقة أهدافه، وعندما أدرك الفاطميون هذا كان الوقت قد فات.

(*) Peters, pp. 159 - 163.

وإنه جاء سعياً وراء المجد والشرف، وهو الآن يرى رجاله وخيوله يهلكون بسبب الحاجة، وقال أيضاً إنه ليس رجلاً غنياً تكفيه موارده لفرصة حصار طويل الأمد. وقد اكتشفنا فيما بعد أنه كان يقول هذا لأنه كان يطمح إلى أن يصبح سيدياً على مدينة أنطاكية.

« وفي الوقت نفسه، حدث زلزال كبير قبل ثلاثة أيام من شهر يناير، وشاهدنا علامة إيجازية كبرى في السماء. ذلك أنه أثناء نوبة الحراسة الأولى في الليل كانت السماء حمراء في جهة الشمال لدرجة تشبه شروق الشمس. وعلى الرغم من الرب أدب جيشه بهذه الطريقة، لدرجة أننا ركزنا اهتمامنا على الضوء الذي بزغ في الظلام، ومع هذا فإن عقول البعض قد عميت لدرجة أنهم لم يتخلوا عن الرفاهية أو عن السرقة التي نهاهم الرب عنها. وفي هذا الوقت، أمر الأسقف بصيام ثلاثة أيام ونصح بالصلاة والإحسان، ومع وجوب القيام بموكب كنسي بالتراتيل، كما أمر القساوسة بأن يكرسوا أنفسهم للقداس والصلوات، وأمر رجال الكليروس بتلاوة المزامير، وعند ذلك، تذكر الرب الرحيم عذابه، ورفع العقاب عن أبنائه حتى لا يتزايد طغيان أعدائهم».

« وإلى جانب هذا، كان في جيشنا أحد أهل بيت الإمبراطور قد جاء معنا نيابة عنه وإسمه تاثيوس، مشوه الأنف ومجرد من الفضيلة. وكنت أنساه لأنه يستحق أن يترك في طي النسيان إلى الأبد. وعلى أية حال، فإن هذا الرجل، كان يهمس يومياً في أذان الأمراء بأنهم يجب أن يتفرقوا في المعسكر المجاور ثم يهاجمون أهل أنطاكية بشكل متواصل وبالكماثن. وعندما تم توضيح ذلك للكونت ريمون السانجيلي (الذي كان مريضاً منذ اليوم الذي أرغم فيه على الفرار فوق الجسر)، وناذى أمراءه وأسقف لوبوى وجمعهم سوياً. وبعد أن عقد مجلساً استشارياً، أعطاهم خمسين ماركاً من الفضة على شرط أنه إذا كان أحد فرسانه قد فقد فرساً يجب تعويضه من هذه الماركات الخمسين ومن موارد أخرى أعطاهم لهم. وفضلاً عن ذلك أتى هذا النمط من التعاون شاملاً طيبة في ذلك الوقت، إذ أن الفقير في جيشنا الذي كان يريد عبور النهر لجمع الأعشاب كان يخاف الهجمات الكثيرة التي يشنها أعداؤنا، ولأن الخروج للقاء العدو لم يكن يحدث إلا نادراً، بسبب ضعف الخيول وهزالها، فضلاً عن أن أعدادها كانت ضئيلة بحيث لا تكاد تجد مائة من الخيول في جيش الكونت والأسقف كله. وقد نزلت بيوميموند والأمراء ضائقة مشابهة. وبناء عليه، ولهذا السبب لم يعد فرساننا يخشون مواجهة العدو، لاسيما أولئك الذين كانت خيولهم سقيمة أو هزيلة، لأنهم كانوا يعلمون أنهم إذا فقدوا خيولهم فسوف يحصلون على خيول أفضل منها. بالإضافة إلى ذلك، حدث شيء آخر، هو أن

٢٠٩

جميع الأمراء ، فيما عدا الكونت، وعدوا بوهيموند بأن تكون المدينة من نصيبه إذا ما تم الإستيلاء عليها. ولذا أقسم بوهيموند والأمراء الآخرون على هذا الاتفاق، وتعاهدوا على أنهم لن ينسحبوا من حصار أنطاكية لمدة سبع سنوات ما لم يتم الإستيلاء على المدينة.

« وبينما كانت هذه الأمور تحدث في المعسكر، سرت شائعة أيضاً بأن جيش الإمبراطور قادم في الطريق. وقيل إن الجيش مؤلف من عدة أقوام هي، السلاف، والبشناق، والكومان والتركبولي لأنهم يطلقون اسم التركبولي إما على أولئك الذين نشأوا بين الأتراك، أو من أب تركي وأم مسيحية. وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء الناس لأنهم أنونا أثناء المسير اعترفوا بأنهم كانوا يخشون مقابلتنا. وعلى أية حال، فإن كل هذا نبوءة تاثيوس الموصوم، وأشاع مثل هذه الأمور حتى يمكنه الرحيل. وقد تسلل هذا الرجل هارباً، بعد أن تراكت بسببه كل هذه الشائعات والإهانات الفاحشة، وخيانة رفاقه، ومنح بوهيموند ثلاثة مدن قبل رحيله هي طرطوس، المصيصة، وأذنة . وبناء على ذلك، وبعد أن جلب على نفسه وعلى قومه العار الأبدي بهذه الطريقة ، تظاهر بأنه راحل إلى جيش الإمبراطور، وترك خيامه وخدمه، وانطلق تصاحبه لعنة الرب.

« وأعلن علينا في ذلك الوقت نبأ قدوم قائد جيش الخليفة لنجدة أنطاكية بجيش كبير، كان يقوده من خراسان. وعلى هذا الأساس. وبعد اجتماع عقد في بيت الأسقف ، تقرر أن يقوم الجنود المشاة بحراسة المعسكر على أن يقوم الفرسان بالخروج ضد العدو لأنهم قالوا إن الكثيرين من المقاتلين الخائفين الموجودين بمعسكرنا إذا شاهدوا كثرة أعداد الأتراك، سوف ييثنون روح الخوف والفرع في نفوس الباقين. ومن ثم انطلق رجالنا تحت جنح الليل، حتى لا يلاحظ أهل المدينة رحيلهم وينقلون خبر ذلك إلى القادمين لنجدهم، واختبأوا بين الجبال الصغيرة على مسافة من معسكرنا.

« وعلى أية حال أشرق الصباح ، وظهر العدو حين سطعت الشمس. فليسمعوا ، ولينصتوا، إنني أرجو أن يسارع أولئك الذين حاولوا ذات مرة أن يسببوا الأذى للجيش، إلى العودة للحق عندما يعرفون أن الرب يمد ظلال رحمته علينا. وبعد أن نظم الفرسان أنفسهم في ستة فيالق، وقد زاد الرب في أعدادهم كثيراً لدرجة أن أولئك الذين كانوا يبدون أقل من سبعين بعد التشكيل، صاروا بعده أكثر من ألفين في كل فيلق. ترى ما الذي يمكن أن أقوله حقاً عن جسارتهم وشجاعتهم؟ بل إنه حينما أنشد الفرسان الأغاني العسكرية بطريقة احتفالية ظهر أنهم اعتبروا المعركة القادمة كما لو كانت مباراةً وفضلاً عن ذلك، كان مقدراً للمعركة أن تجري

فى المكان الذى تضيق فيه المسافة بين النهر والمستنقعات إلى ميل واحد. وعلى أية حال، تسبب هذا فى منع العدو من الإنتشار، حتى لا يمكنهم أن يحيطوا بنا على طريقتهم المعتادة، ذلك أن الرب، الذى منحنا أشياء أخرى، أعطانا ستة وديان متتالية، تقدمنا منها إلى المعركة. وفى غضون ساعة واحدة وصلنا إلى ميدان المعركة، وعندما اشتد ضوء الشمس، بدأت المعركة بالأسلحة والدروع، وفضلاً عن ذلك. فإن رجالنا تقدموا قليلاً فى البداية، بينما تبعثر الأتراك لكى يقذفوا بسهامهم ، إلا أنهم تحركوا لكى يتقهقروا . ولكن رجالنا عانوا كثيراً حتى دفع أول صف من الأتراك إلى الخلف، لأنه كان هناك ما لا يقل عن ثمانية وعشرين ألف من الفرسان فى المعركة، كما أخبرنا الهاربون من جيشهم. وعندما اختلط الصف الأول من الأتراك بالصفوف التالية، استعان الفرنج بالرب ثم قاموا بالهجوم. ولم يتوانوا عن الهجوم ؛ ذلك أن الرب القوى القادر كان بجانبهم فى المعركة. وقد تولى حماية أطفاله، ونكل بالعدو. وهكذا طاردهم الفرنج إلى معسكرهم الحصين الذى يبعد حوالى عشرة أميال عن مكان المعركة، ولكن المقيمين فى المعسكر حين شاهدوا ذلك، أضرموا فيه النيران ثم ولوا هاربين. وكنا غاية فى الفرح والسرور لهذا، لدرجة أننا اعتبرنا إحراق المعسكر نصراً ثانياً.

« وهكذا كان الضوء فى المعسكر قويا فى ذلك اليوم لدرجة أنه لم يكن هناك مكان باتجاه المدينة يخلو من القتال. ذلك أن العدو كان قد رتب أنه بينما نكون نحن مشغولين بالقتال العنيف ضد المحاصرين يطبق علينا القادمون للنجدة بقة من الخلف. ولكن الرب الذى رتب النصر لفرساننا، كان يحارب بين جنودنا المشاة أيضاً. وفى ذلك اليوم كان النصر الذى حققناه على المحاصرين لا يقل عن النصر الذى أحرزه الفرسان على القادمين للنجدة. وبناء على ذلك، بعد إحراز النصر وأخذ الغنائم، أحضرت روس القتل الكثيرين إلى المعسكر. ولكى نبث الخوف فى نفوس العدو بتقديم الدليل على المصير السيئ الذى لقيه حلفائهم المبعثرون، رفعت الروس التى تم إحضارها على الأعمدة الخشبية. وفيما بعد اعتقدنا أن هذا كان بترتيب من الرب. ذلك أنه عندما تم الإستيلاء على راية مريم المباركة مرغوها فى الأرض، كما لو كانوا يريدون وصعنا بالعار. وهكذا منعوا من التهكم علينا ومعاييتنا عندما رأوا روس قتلهم مرفوعة.

« وفى ذلك الوقت كان فى معسكرنا مبعوثون من قبل ملك بابيلون (مصر) ، وعندما رأوا العجائب التى فعلها الرب من خلال خدامه ، مجدوا يسوع المسيح ^(١)، ابن مريم العذراء الذى

(١) يتحدث هنا عن السفارة الفاطمية التى أشار لها المؤرخ المجهول فى النص السابق، ولكنه يضيف هذه العبارات من لونه بما يوافق عقلية باعتباره أسقفاً ورجلاً كنيسة متمصباً.

جعل بفقره أعتى طغاتهم يتمرغون فى تراب الأرض. وفضلاً من ذلك ، فإن أولئك المبعوثين وعدونا بالخير والمصلحة عند مليكهم، كما تحدثوا عن أعمال طيبة كثيراً أتاها ملكهم نحو المسيحيين المصريين ونحو حجاجنا. وعلى ذلك تم إرسال مبعوثينا معهم فى العودة لكى يعتقدوا معاهدة صداقة وتحالف مع الملك».

٣- رواية فوشيه الشارترى (*)

« فى سنة سيدنا ١٠٩٨ ، بعد أن نهبت المنطقة المحيطة بأنطاكية تماماً وأجذبت بسبب عددنا الكبير، تعرض الشباب والشيخوخ على السواء لوطاة الجوع المتزايد.

« عندئذ التهم الناس الذين كانوا يتضورون جوعاً أعواد الفول التى كانت ما تزال تنمو فى الحقول، كما أكلوا أنواعاً كثيرة من الأعشاب بدون الملح، بل أكلوا الأشواك التى لم يتم طهوها جيداً بسبب نقص أخشاب الوقود مما جعلها تسبب أذى لألسنة الذين أكلوها. كما أنهم أكلوا الخيول والبغال والجمال، والكلاب ، وحتى الفئران، بل إن الناس الأشد فقراً أكلوا جلود الحيوانات وينزور الغلال التى وجدها فى القمامة والسباخ.

« وفى حب الرب تحمل الناس البرد، والحرارة ، وهطول الأمطار الغزيرة، فقد صارت خيامهم بالية ممزقة وعقنة من الأمطار المستمرة وبسبب هذا لم يكن لدى البعض ما يغطيهم غير السماء.

« ومثل الذهب الذى هولج بالنار . وتمت تنقيته سبع مرات ، أعتقد أن المختارين جريهم الرب وتطهروا من خطاياهم بهذه المعاناة . فعلى الرغم من أن سيف القتل لم يتوقف يوماً، فإن كثيرين من الناس هانوا من العذاب الطويل استشهدوا وهم فرحون . وربما أخذوا العزاء من المثال الذى ضربه لهم أيوب المقدس الذى طهر روحه بمعاناة الجسد وعذابه وكان يذكر الرب دائماً . فإنهم عندما كانوا يناضلون ضد الوثنيين، إنما كانوا يعملون من أجل الرب.

« وعلى الرغم من أن الرب الذى يخلق الجميع، يأمر جميع من خلقهم، ويحفظ ما أمر به، يحكم بقدرته ، وقادر على أن يدمر أو يصلح ما يريد، فإننى أشعر أن ثمن معاناة المسيحيين سيكون تدمير الوثنيين، لأنهم كثيراً ما وطأوا بأقدامهم فى حماقة كل ما ينتمى إلى الرب على الرغم من أن ذلك كان يأنه ولأن الناس كانوا يستحقونه. والحقيقة أنه سمح بأن يذبح

المسيحيون لزيادة خلاصهم، وسمح بذلك للأتراك من أجل لعنة أرواحهم . ولكن أولئك الأتراك الذين قدر لهم سلفاً أن ينالوا الخلاص ، فرح الرب حين نالوا المعمودية على أيدي فساوستتا .
« والذين دعاهم هؤلاء برهم أيضاً ، والذين برهم هؤلاء مجدهم أيضاً »^(١).

« وماذا بعد ؟ انسحب بعض رجالنا كما سمعتم من الحصار الذي كان صعباً للغاية، بعضهم بسبب العوز والحاجة، والبعض انسحب بسبب الجبن، على حين انسحب البعض خشية الموت، وكان الفقراء أولاً، ثم تبعهم الأغنياء».

« ثم ترك ستيفن ، كونت بلوا، الحصار وعاد إلى موطنه في فرنسا عن طريق البحر. وقد حزننا جميعاً لأنه كان رجلاً نبيلاً كما كان بارعاً في استخدام السلاح. وفي اليوم التالي لرحيله استسلمت مدينة أنطاكية للفرنج . ولو أنه بقي لفرح كثيراً مع الآخرين ، لأن ما فعله كان عاراً عليه. لأن البداية الطيبة لا تناسب المرء إذا لم ينته نهاية طيبة. وفي الأمور التي تتعلق بالرب سوف اختصر لنلا أشرد أو أضل ، لأنه في هذه الأمور ينبغي أن أكون حريصاً حتى لا أبتعد عن الحقيقة .

« ومن شهر أكتوبر هذا، كما ذكرنا ، استمر حصار المدينة طوال الشتاء التالي والربيع حتى شهر يونيو^(٢). وتبادل الأتراك والفرنج عدة هجمات واشتبكوا في مصادمات كثيرة. وانتصروا وهزموا . وعلى أية حال، كنا نكسب غالباً أكثر منهم. وحدث ذات مرة أن غرق عدد كبير من الأتراك في نهر العاصي وهم يحاولون الهرب. وعلى كلتي خسفتي النهر حارب الناس مرات عديدة.

« وشيد أمراؤنا قلعة في مواجهة المدينة^(٣). وقد تمكن رجالنا من صد الأتراك بعدد من الهجمات العنيفة. ونتيجة لهذا كانوا يمنعون حيوانات العدو من المرمى.

« ولم يكن شيء يجلب إلى الداخل بأيدي الأرمن في المناطق التي تقع خارج المدينة، ومع ذلك فإنهم غالباً ما كانوا يتصرفون وفق ما نريد».

(١) رسالة بولس الرسول إلى رومية ٨ : ٣٠.

(٢) من ٢٠ أكتوبر ١٠٩٧ حتى يونيو ١٠٩٨م.

(٣) هي برج مالريجارد في شرق أنطاكية ، وبرج لا ماهومري في الشمال، وبرج تتكرد في الغرب.

سقوط أنطاكية وهجوم كربوقا الفاشل ١ - رواية المؤرخ المجهول (٥)

« في هذا الوقت كانت كل الممرات قد أوصدت في وجه الأتراك ما عدا ناحية النهر حيث كانت هناك قلعة ودير. ولو كنا قد استطعنا أن نقوى هذه القلعة، لما جرى أحد من الأعداء على الخروج من بوابة المدينة. ولذلك عقد رجالنا اجتماعاً للتشاور، واتفقوا بالإجماع قائلين «لنختار واحداً منا يستطيع أن يحكم القلعة بقوة، ويمنع أعدائنا من التحرك في الجبال والسهول، ويمنعهم من دخول المدينة أو الخروج منها». ثم كان تتكرر أول من تقدم وقال «إذا عرفت المكافأة التي سأتأهلها سأتولى حراسة القلعة بيقظة وحرص برجالى فقط، وسأمنع أى فرد من المرور في الممر الذى غالباً ما يشن أعداؤنا هجماتهم القاسية من خلاله». وفي الحال قدم له المجلس أربعمائة مارك من الفضة، وإذا فإنه أسرع في الحال بخيطة فرسانه وأتباعه، وأوصد الممر في وجه الأتراك، لدرجة أن أحداً منهم لم يجرى على الخروج من بوابة المدينة، سواء من أجل الحصول على الأعلاف أو الأخشاب أو غير ذلك مما يحتاجون، لأنهم كانوا يخافونه كثيراً. ومكث تتكرر هناك برجاله وبدأ يحكم الحصار حول المدينة. وفي ذلك اليوم نفسه جاءت أعداد كبيرة من الأرمن والسوريين بثقة من الجبال، وهم يحملون المؤن للأتراك، لمساعدة أولئك المحاصرين داخل المدينة. قابلهم تتكرر وقبض عليهم واستولى على حمولاتهم من الفلال والخمر والشعير والزيت وما شابه ذلك من حاجيات. وكان قويا ومحظوظا لدرجة أنه قرر أن يوصد جميع الممرات أمام الأتراك حتى يتم الإستيلاء على أنطاكية.

«واست بقادر على أن أخبركم عن كل ما فعلناه قبل سقوط المدينة، لأنه لا يوجد في هذه الأرض قسيس أو رجل علماني يمكنه أن يكتب كل القصة أو يصفها كما حدثت، ولكنني سوف أحكي لكم طرقاً منها.

« كان هناك أمير من الأتراك يدعى فيروز^(١)، كان قد أقام صداقة وطيدة مع بوهيموند، وكان من عادة بوهيموند أن يرسل إليه الرسل، ويحدثه في شأن استقباله في المدينة باسم

(٥) Gesta, pp. 43-71.

(١) كان مسيحياً ثم أسلم ظاهرياً، وكان يعمل في خدمة الأتراك السلاجقة، وهو ما يفسر سبب خيانتة.

الصداقة، ويعدده في مقابل ذلك أن يجعل فيروز يعتقد المسيحية، وأن يمنحه مالا وفيراً ويسبغ عليه مظاهر التشريف، ووافق فيروز، وتقبل المكاسب الموعودة، قائلاً «إننى مسئول عن ثلاثة أبراج، أعد بها بوهيموند، وسوف استقبله فى أى وقت يشاء». ولذا عندما تأكد بوهيموند أنه يستطيع دخول المدينة غمره السرور، وجاء منشراحاً، يبدو عليه الفرح، إلى مجلس القادة، وقال لهم معازحاً «أيها الفرسان البواسل، إنكم ترون أننا جميعاً، العظيم منا والأقل قدراً، يعانى العوز الشديد والبؤس، ولا نعلم متى سيحل بنا حظ أفضل. ولذا إذا رأيتم أن هذه خطة مناسبة، فليراس أحدنا الآخرين، بشرط أنه إذا تمكن من الإستيلاء على المدينة، أو يدبر لسقوطها بأية وسيلة، سواء بنفسه، أو عن طريق الآخرين، نوافق جميعاً على إعطائها له». ورفض الزعماء الآخرون جميعاً وأنكروا موقفه قائلين «هذه المدينة لن تمنح لأحد، ولكننا سوف نقسمها جميعاً بالتساوى؛ كما بذلنا فيها جميعاً جهدنا متساوياً، ولذا يجب أن يكون الشرف قسمة بيننا بالمساواة». وعندما سمع بوهيموند هذه الكلمات بدا أقل انشراحاً، ومضى فى حال سيئه.

« ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا عن أن جيشاً من أعدائنا يتكون من الأتراك والبيالصة والأجولاني، والأرمن، وأقوام أخرى كثيرة. واجتمع زعمائنا جميعاً فى الحال وعقدوا مجلساً للتشاور وقالوا : «إذا كان بوسع بوهيموند أن يستولى على هذه المدينة، سواء بنفسه أو عن طريق الآخرين، فإننا سوف نعطيها له بسرور، بشرط أنه إذا جاء الإمبراطور لمساعدتنا، وأوفى بكل التزاماته التى أقسم عليها، فإننا سنعيد المدينة له كما يقضى الحق. وإذا لم يحدث فإن بوهيموند سوف يأخذ المدينة تحت سيادته». ولذا بدأ بوهيموند يلح فى الطلب على صديقه يومياً، مستخدماً أقصى أساليب المداينة والتفاق، وملوحاً بالوعود للبراقة المفزية، قائلاً : «انظر، إن لدينا الفرصة لعمل أى خير نريده الآن فالآن يا صديقى فيروز قدم لى مساعدتك». وابتهج فيروز بالرسالة، وقال إنه سيعطى لبوهيموند كل المساعدة التى وعد بتقديمها، وفى الليلة التالية أرسل إليه سراً إلى بوهيموند، رهينة حتى يمنحه الثقة فى دخول المدينة. كما أرسل رسالة فحواها أنه يجب جمع كل الجيش الفرنجى فى الغد، بأن يتظاهر بأنه خارج لتهب أراضي المسلمين، على أن يعود مسرعاً عن طريق الجبال الفريية. وقال «وسوف أقوم بمراقبة هذه القوات بحذر شديد، وسوف أسمح لها بدخول البرج والاستيلاء عليه». ثم أرسل بوهيموند إلى أحد أتباعه على وجه السرعة، وكانت كنيته «التاج الردى»،

وطلب منه أن ينادى لجمع قوة كبيرة من الفرنج لكي يستعدوا للخروج إلى أرض المسلمين، وقام «التاج الرديء» بتنفيذ ذلك. وأفضى بوهيموند بخلطه إلى اللوق جودفري وكونت الفلاندرز وكونت سان جيل وأسقف لوبوى ، وأخبرهم بقوله «بمشيئة الرب، سوف يتم تسليم انطاكية بالخيانة لنا هذه الليلة».

« وهكذا تم وضع كل الترتيبات. وذهب الفرسان عن طريق السهل، على حين ذهب المشاة عن طريق الجبال، وظلوا يسيرون طوال الليل حتى اقتراب الفجر، عندما بدأوا يقتربون من الأبراج التي يحرسها فيروز الذي تولى الحراسة طول الليل.

« وعندئذ ترجل بوهيموند في الحال وقال لرجاله «استمروا في السير، بقلوب شجاعة، وحظ سعيد، وارموا بالسلام داخل انطاكية لأننا بإرادة الرب سوف نكون سادتها في لمح البصر». وجاء الرجال إلى السلام، التي كانت مثبتة بقوة في شرفات المدينة، وصعد عليها حوالى ستين منهم واحتلوا البرج الذي كان فيه فيروز يحرسه. ولكن عندما رأى فيروز هذه الفئة القليلة من رجالنا قد صعدت، بدأ يعتريه الخوف، خشية أن يقع هو وإياهم في أيدي الأتراك وقال باليونانية: إن معنا عددا قليلاً من الفرنج. أين البطل بوهيموند ؟ أين هذا الجندي المظفر؟. وفى هذا الوقت هبط جندي من جنوب إيطاليا على السلم وجرى بأقصى سرعة وهو يصيح «لماذا تقف يا سيدى إذا كان لديك ذرة من عقل؟ ما الذى جئت تسعى إليه؟ انظر؟ لقد استولينا على ثلاثة أبراج بالفعل». فتحرك بوهيموند والآخرين وأقبلوا على السلام فى فرح وسرور. وعندما رآهم أولئك الذين كانوا بالأبراج، بدأوا ينادون فى بهجة «إرادة الرب» ورددنا نحن نفس العبارة وحينئذ بدأت أعداد كبيرة من الرجال فى التسلق وصعدوا ثم جروا بسرعة إلى الأبراج الأخرى. وقتلوا كل من وجنوه فى التتواللحظة، وكان شقيق فيروز بين القتلى. وفى الوقت نفسه حدث أن انكسر السلم الذى صعد عليه رجالنا، فانتابنا يأس وحزن عميق. وعلى أية حال، فعلى الرغم من انكسار السلم كانت هناك بوابة على القرب منا جهة اليسار، ولكنها كانت مغلقة ولم يكن بعضنا يعرفون مكانها، لأن الظلام كان سائداً. ومع هذا عثرنا عليها ونحن نتخبط ونتحسس الطريق بأيادينا، واندفعنا جميعاً صوبها، فكسرناها ودخلنا.

«وفى هذ اللحظة تعالت صيحات أعداد لا تحصى من الناس، لتحديث ضجة عجيبة فى سائر أنحاء المدينة ولم يضع بوهيموند الوقت، وإنما أمر برفع رايته المجيدة على تل فى مواجهة القلعة. وصاح جميع أهل المدينة مرة واحدة . وفى الفجر، سمع رجالنا الذين كانوا

بالخارج فى الخيام جلبية شديدة فى المدينة، ولذا هرواوا ليشاهدوا راية بوهيموند وقد رفعت فوق التل، وأقبلوا جميعا مسرعين ودخلوا بوابات المدينة، ليقتلوا كل الأتراك والمسلمين الذين وجدوهم هناك ما عدا أولئك الذين هربوا إلى القلعة. والبعض الآخر من الأتراك خرجوا من البوابات وهربوا ناجين بحياتهم. أما قائدهم ياغى سيان، فكان خائفاً من الفرنج للغاية، ففر مع عدد كبير من رفاقه، وفى هروبهم دخلوا أرض تتكرر غير بعيد عن المدينة. وكانت خيولهم مرهقة، ولذا دخلوا إحدى القرى واختبأوا فى أحد المنازل، عندما عرف أهل الجبل (وكانوا من السوريين والأرمن) بهوية الهارب، قبضوا عليه فى الحال وقطعوا رأسه وأخذوها إلى سيدى بوهيموند ثمنا لحريتهم. وكان حزامه وخنجره يساويان ستين بيزنت.

« حدث هذا كله فى الثالث من يونيو ، وكان يوم خميس. وكانت كل شوارع المدينة مغطاة على الجانبين بالجنث، لدرجة أن أحداً لم يكن يتحمل التواجد هناك بسبب رائحة العفونة، ولم يكن أحد يستطيع أن يمشى فى الممرات الضيقة نون أن يمر على جنث الموتى».

« فى ذلك الحين كان كربوقا^(١) هو قائد جيش السلطان فى فارس^(٢). وبينما كان ما يزال فى خراسان، أرسل ياغى سيان أمير أنطاكية إليه رسولا على جناح السرعة يطلب منه النجدة العاجلة (لأن جيشا قويا من الفرنج كان يحاصره حصاراً شديداً داخل أنطاكية) مع وعد بإعطائه مدينة أنطاكية أو مبالغ هائلة من المال. ولأن كربوقا كان معه جيش كبير من الأتراك الذين كان قد جمعهم منذ زمن طويل، وأخذوا الإذن من الخليفة (وهو البابا عند الأتراك)^(٣) بقتل المسيحيين، ثم انطلق كربوقا فى رحلة طويلة صوب أنطاكية. وخرج أمير القدس^(٤) لمساعدته بجيشه، وكذلك خرج ملك دمشق^(٥) الذى أحضر عدد كبيراً من الرجال. كذلك جمع

(١) كان كربوقا (أو كربوغا) ، هو أمير الموصل. وكان أول قائد يرسله السلطان فى محاولة ليحسم المنازعات والمنافسات المحلية بين الحكام المسلمين فى سوريا وفلسطين، ولكن يقضى على الصليبيين ومن ثم كان تدخله أخطر من أى شىء آخر جربه الصليبيون.

(٢) بركياروق ابن ملكشاه.

(٣) يقصد الخليفة – العباسى ، ولأن هيمنة البابوية وسلطانها الروحية كان وراء الحركة الصليبية، كما كانت البابوية سلطة هامة فى أوروبا آنذاك – ظن الكاتب اللاتينى أن الخليفة مثل البابا، وهى إحدى صور الخلط لدى مؤرخى الحملة الصليبية بشأن المسلمين.

(٤) سقمان بن ارتق.

(٥) لقاق.

كربوقا قوة ضخمة من الوثنيين ^(١) - من العرب والأتراك، والمسلمين، والبيالصة، والأكراد ، والفرس ، والأجولاني وأقوام كثيرة غيرهم لا يمكن حصرها. وكان عدد الأجولاني ثلاثة آلاف. ولم يكونوا يخافون الحراب أو السهام أو أية أسلحة أخرى، لأنهم يغطون أنفسهم وخيولهم برفائق الحديد.

« وجاء كل أولئك لكي يرفعوا الحصار عن أنطاكية، حتى يمكنهم تمزيق جيش الفرنج، وعندما اقتربوا من المدينة قابلوا شمس الدولة بن ياغي سيان أمير أنطاكية، وجرى إلى كربوقا باكيا ومتوسلاً وقال: «أيها الأمير المظفر إنني تابع أرجوك المساعدة، لأن الفرنج يحاصرونني من جميع النواحي في قلعة أنطاكية، وقد استولوا على المدينة، ويريدون إخراجنا من بلاد الروم وبلاد الشام بل ومن خراسان. وقد نفنوا كل خططهم، وقتلوا أبي، وسوف يقتلونني ويقتلونك وبقية قومنا. لقد انتظرت المساعدة زمناً طويلاً، حتى يمكنك أن تساعدني في هذا الشأن». وأجاب كربوقا « إذا كنت تريد مساعدتي الحققة فإنني سوف أساعدك في هذه المحنة بإخلاص، ويجب أن تسلم القلعة لي أولاً، وسوف أخضع رجالاً فيها لحراستها. وعندها سوف ترى مدى مساعدتي لك» عندئذ أجاب شمس الدولة: «إذا استطعت أن تقتل جميع الفرنج وأرسلت لي رؤوسهم، سوف أعطيك القلعة، وساكون رجلك المخلص الأمين» ^(٢). أجاب كربوقا «هذا لن يكون. يجب أن تسلمني القلعة في الحال». ولذا أعطاه شمس الدين القلعة متذمراً.

« وفي اليوم الثالث بعد دخولنا المدينة ^(٣)، وصلت طلائع قوات كربوقا أمام أسوار المدينة لأن جيشه الرئيسي كان يعسكر على جسر نهر العاصي حيث داهم إحدى القلاع على الجسر وقتل الحامية الموجودة فيه. ولم ينج أحد من رجالنا هناك سوى القائد الذي وجدناه مقيداً بالسلاسل الحديدية عندما خضنا المعركة الكبرى. وفي اليوم التالي تحرك جيش الوثنيين الرئيسي واقترب من المدينة وعسكر فيما بين النهرين وبقي هناك يومين. وعندما تسلم كربوقا

(١) يستخدم الكاتب هذه الكلمة بشكل غامض، لاسيما وأن بعض من يذكرهم كانوا من المسيحيين الشرقيين، وهو يستخدم كلمة «الوثنيين» أيضاً للدلالة على المسلمين.

(٢) استخدم الكاتب هنا المصطلحات الإقطاعية الأوروبية، وهو ما يشي بأن الحوار كله محض خيال أو تخيل وعلى أية حال فإن حويلات ومؤرخات العصور الوسطى في أوروبا، وفي الشرق العربي، درجت على نسيج مثل هذا الحوار في مناسبات عديدة كوسيلة صياغة الخبر التاريخي. وربما يكون الحوار شرحاً أو تفسيراً لواقع تاريخي محدد.

(٣) ٥ يونيو ١٠٩٨م.

القلعة نادى أحد أمرائه ممن يثق فيهم، وقال «أريدك أن تحكم هذه القلعة كتابع لى ؛ لأننى أعرف منذ وقت طويل أنك أجدر الناس بالثقة. ولذا أرجوك أن تحفظها بأقصى ما يمكنك من حرص» وأجاب الأمير «كنت أفضل ألا أقوم بهذه المهمة، ولكنى سأقوم بها بشرط أنه إذا هزمك الفرنج هزيمة ساحقة، سوف أسلم القلعة لهم فى الحال» فقال له كويوقا « إننى أعرفك أنك رجل شريف وشجاع ولذا فإننى أوافق على أى أمر تراه مناسباً».

« بعد ذلك عاد كويوقا إلى جيشه، وفى الحال أخذ الأتراك يسخرون من القوات الفرنجية، فأحضروا له سيفاً حقيقياً يغطيه التراب، وقوساً خشبياً رديئاً، وحرية لا نفع فيها على الإطلاق، كانوا قد سرقوها من الحجاج الفقراء، وقالوا : «انظر إلى الأسلحة التى أحضرها الفرنج ليحاربونا بها». فبدأ كويوقا يضحك ثم قال لكل الحاضرين : «هل هذه هى الأسلحة الحربية الفاخرة التى أحضرها المسيحيون إلى أسيا خدنا، وبهذه يثقون فى أن يدفعونا إلى آخر حدود خراسان، وأن يقذفونا بأسمائنا وراء أنهار الأمازون^(١)؟ هل هؤلاء الناس الذين طردوا أسلافنا من بلاد الروم [إشارة إلى حروب نقفور فوقاس وحنا تزمسكس فى القرن العاشر] ومن مدينة أنطاكية الملكية وهى العاصمة المجيدة لكل بلاد الشام؟».. [يستطرد الكاتب هنا فى صياغات خيالية حول مراسلات كويوقا وأمه حتى صفحة ٥٦].

« وفى اليوم الثالث بعد وصوله إلى أنطاكية استعد كويوقا للمعركة، وقدمت معه قوة كبيرة من الأتراك واقتربوا من المدينة من ناحية القلعة. وفكرنا أن بمقدورنا أن نقاومهم، فجهزنا للقتال، ولكن قوتهم كانت أكبر من أن نستطيع الصمود أمامهم، وهكذا أجبرنا على التقهقر داخل المدينة. وكانت البوابة ضيقة لدرجة أن عددا كبيرا من رجالنا سقطوا وماتوا تحت الأقدام وهم يتزاحمون لدخول المدينة. وبعض رجالنا ظلوا يحاربون طوال ذلك اليوم (الذى كان يوم خميس) حتى المساء خارج أسوار المدينة، على حين كان غيرهم يقاتل من داخلها. وبينما كان ذلك يحدث، فإن وايم جراند مسينل وأخاه أوبرى، وجاى تروسى ولامبرت الفقير، الذين ارتعدوا خوفا من المعركة التى جرت فى اليوم السابق، والتى استمرت حتى المساء، تسللوا ليل وهبطوا أسوار المدينة وهربوا سيرا على الأقدام حتى البحر، لدرجة أن أيديهم وأقدامهم

(١) ليس المقصود هنا نهر الأمازون المعروف فى أمريكا الجنوبية بطبيعة الحال وإنما نسبة إلى جنس أسطورى من النساء المحاربات. وهى كلمة ذات أصل يونانى تستخدم أحيانا للدلالة على الخطأ. ومن الواضح أن المؤرخ هنا يكتب الحوار من خياله تحت تأثير ثقافته الخاصة.

تمزقت حتى العظام، وهرب معهم كثيرون ممن لا أعرف أسماعهم، وعندما وصلوا إلى السفن التي كانت راسية في ميناء القديس سمعان قالوا للبحارة : «أنتم أيها الشياطين المساكين، لماذا تبتقون هنا؟ إن رجالنا ماتوا وقد نجونا بأعجوبة من الموت ، لأن الجيش التركي يحاصر الآخرين في المدينة». وعندما سمع البحارة هذا انتابهم الهلع والرعب، واندفعوا مذمورين إلى سفنهم وأبحروا. وفي تلك اللحظة وصل الأتراك وقتلوا كل من استطاعوا الإمساك به، وأحرقوا السفن التي كانت ما تزال في مصب النهر واستولوا على حمولتها».

« أما نحن الذين بقينا بأنطاكية ، فلم نكن قادرين على الدفاع عن أنفسنا ضد الهجمات من القلعة، وإذا بئينا حائطاً بيننا وبينها، ورتبنا عليه الحراسات ليلاً ونهاراً . وفي الوقت نفسه كنا نعانى من نقص شديد في الطعام لدرجة أننا أكلنا خيولنا وبقالنا».

« وذات يوم، بينما كان زعمائنا جالسين في أعالي المدينة قبالة القلعة، مهمومين ومتعبين، جاءهم أحد القساوسة، وقال: «أيها السادة ، قد يسركم أن تستمعوا إلى قصة رؤيا رأيته. ذات ليلة، بينما كنت أرقد في كنيسة القديسة مريم أم السيد يسوع المسيح، ظهر لى مخلص العالم وبمه أمه والقديس بطرس أمير الحواريين، ووقف تجاهى وقال «هل تعرفنى» قلت «لا». وعندما قلت هذا ظهر صليب صحيح خلف رأسه ^(١). وسألنى السيد مرة أخرى « هل تعرف من أنا؟ ». وأجبت له لم أكن لأعرفك لولا أنني أرى حول رأسك صليبا مثل صليب منقذنا» وأجاب «أنا هو» . ومن ثم جثوت عند قدميه ، وتوسلت إليه فى ذلة أن يساعدنا فى المتاعب التى حلت بنا. وأجاب السيد «لقد منحتكم مساعدة عظيمة، وسوف أساعدكم. لقد منحتكم مدينة نيقية، والنصر فى جميع المعارك، وقدتكم إلى هنا وعانيت معكم كل المتاعب التى عانيتموها فى حصار أنطاكية. تأملوا ، فقد منحتكم المساعدة العاجلة وأدخلتكم إلى مدينة أنطاكية سالمين. معافين، بيد أنكم ترضون نزواتكم الطائشة مع النساء المسيحيات والوثنيات والمنحلات لدرجة أن رائحة خبيثة جداً تصاعدت إلى السماء». ثم جثت العذراء الرحيمة ويطرس المبارك عند قدميه يصليان ويرجوانه أن يساعد شعبه فى هذا المأزق، وقال بطرس المبارك : «سيدى إن الوثنيين استولوا على بيتى ^(٢) منذ أمد بعيد، وقد فعلوا أفعالاً شريرة لا

(١) كان المسيح يرسم فى القرن الحادى عشر ومعه صليب تحيط به هالة. وهو ما يوضح أن كلام المؤرخ يتوافق مع التراث الأدبى والفنى فى أوربا آنذاك.

(٢) كانت كاتدرائية أنطاكية مكرسة للقديس بطرس.

يمكن الكلام عنها في هذا البيت. والآن أيها الرب، إذا تم طرد أعدائك ، سيتتشى الملائكة في السماء فرحاً . وقال لى السيد «إذهب وقل لشعبي أنهم سيعودون إلى، وسوف أعود إليهم، وفى خلال خمسة أيام سوف أرسل لهم مساعدة عظيمة. دعهم يفنون يومياً «لأنه هو ذا الملوك اجتمعوا» (١) مع الترانيم الدينية» . أيها السادة، إذا كنتم لا تصدقونى، فدمونى أتسلق هذا البرج وألقى نفسى من شاهق؛ فإذا لم أصب بأذى ، تصدقون أن ما قلته هو الحق، ولكن إذا الحق بى أذى، فاقطعوا رأسى أو القوا بى فى النيران».

« عندئذ أصدر أسقف لوبوى أوامره باحضار الأناجيل والصليب لى يقسم الرجل عليها أن قصته حقيقية؛ وتشاور كل زمائنا سوياً فى تلك الساعة على أن يقسموا جميعاً بالآ يهرب أحد منهم طالما بقى أحدهم على قيد الحياة، خوفاً من الموت أو أملاً فى الحياة. ويقال إن يوهيموند كان أول من أقسم، وبعده كانت سان جيل، وروبرت النورمانى، والدوق جودفرى، وكونت الفلاندرز. ولكن تتكرر أقسم أنه طالما كان تحت إمرته أربعون فارساً، فلن يحيد عن هذه المعركة أو عن السير إلى بيت المقدس. وعندما سمع المسيحيون عن هذا القسم تشجعوا كثيراً.

« وكان فى جيشنا حاج يدعى بطرس. وقبل أن نستولى على مدينة انطاكية ظهر له القديس أندرو الرسول وقال «أيها الرسول ، ما الذى تفعله؟» فأجاب «من أنت؟» أجابه الحواري «أنا أندرو الحواري. أعلم يا بنى، أنك إذا ذهبت إلى كنيسة بطرس المبارك، عندما تدخل المدينة، ستجد هناك الحرية التى اخترقت جسد مخلصنا يسوع المسيح حين كان معلقاً على الصليب». واختفى الحواري بعد أن قال هذا.

« وخاف بطرس أن يكشف كلمات الحواري، وإذا لم يخبر الحجاج، لأنه ظن أنه رأى أضغاث أحلام وقال للقديس : «سيدى ، ترى من سيصدق هذا؟. وفى الساعة نفسها أخذه القديس أندرو إلى المكان الذى كانت الحرية مدفونة فيه تحت الأرض.

« وفيما بعد ، وعندما كنا نواجه المشكلات التى تحدثت عنها، ظهر القديس أندرو مرة أخرى، وقال لبطرس : «لماذا لم تأخذ الحرية من الأرض كما أخبرتك؟ إعرف إنه حقاً أن من يحمل هذا الحرية فى المعركة لن يهزم أبداً على يد الأعداء». وفى الحال كشف بطرس لرجالنا

السر الذي أخبره به الحواري ولكنهم لم يصدقوه، وانصرفوا عنه قائلين: «كيف يمكن أن نصدق شيئاً كهذا؟» لأنهم كانوا خائفين جميعاً، واعتقدوا أن هذا باب يؤدي إلى الموت. ولذا جاء بطرس وأقسم بأن القصة كلها حقيقية تماماً، لأن القديس أندرو تجلى له مرتين في الحلم، وقال له : «إنهض، اذهب وأخبر شعب الرب بالآخافوا. وإنما يتقوا بكل قلوبهم في إله واحد حق، وسوف ينتصرون في كل مكان، وفي غضون خمسة أيام سوف يرسل الرب لهم علامة سوف تملؤهم فرحاً وثقة، فإذا ما حاربوا ، سينهزم أعداؤهم بمجرد خروجهم للقتال، ولن يصمد أمامهم أحد». وعندما سمع رجالنا أنه من المقدر أن يتدحر أعداؤهم جميعاً، ارتفعت معنوياتهم مرة أخرى، وبدأوا يشجعون بعضهم بعضاً قائلين : «قلننهمض، ولنكن أقوياء وشجعاناً، لأن الرب سبيخف لنجدتنا، وسوف يكون ملاذا حصينا لشعبه الذي رأى معاناة أفرادهم».

« في الوقت نفسه هاجمنا الأتراك الذين كانوا بالقلعة بعنف وفي جميع النقاط لدرجة أنهم في يوم واحد تصيدوا ثلاثة من فرساننا في برج قبالة القلعة، فقد شن الوثنيون هجوماً عنيفاً جعل قواتنا تعجز عن تحمله. وجرح اثنان من الفرسان، ولكن الثالث دافع عن نفسه بجرأة ضد الأتراك لدرجة أنه قذف باثنين منهم اقتريا من السور وكسر رماحه. وفي ذلك اليوم تكسرت في يديه ثلاث حراب ولكن التركيين لقيوا حتفهما، وكان اسمه «هيو المجنون»، وكان من رجال جودفري أمير مونت سكايليوزو.

« وعندما شاهد بوهيموند المجد أنه غير قادر على إخراج رجاله إلى القلعة ليقاتلوا (لأنهم قبعوا في مساكنهم جبناً وخوفاً، بعضهم بفعل الجوع والبعض الآخر خوفاً من الأتراك)، غضب بشدة وأصدر أوامره في الحال بأن تضرم النيران في ذلك الجزء من المدينة الذي يضم قصر ياغي سيان. وعندما شاهد الناس في المدينة هذا تركوا المساكن وممتلكاتهم بداخلها وهربوا، بعضهم صوب القلعة وبعضهم صوب البوابة التي يسيطر عليها كونت سان جيل، وفر فريق ثالث نحو البوابة التي يسيطر عليها الدوق جودفري - أي أن كل رجل فر نحو قومه. وفي هذه اللحظة هبت فجأة ريح عاصفة، بحيث لم يكن بمقدور أحد أن يشق طريقه على نحو سليم. وكان بوهيموند الجسور قلقاً للغاية خوفاً على سلامة كنيسة القديس بطرس وكنيسة مريم العذراء وغيرهما من الكنائس. واستمر الخطر في الساعة الثالثة حتى منتصف الليل، واحترق ألفان من الكنائس والبيوت تقريباً، ولكن النار خبت فجأة وانتهى عنفها عند منتصف الليل.

« وبهذه الطريقة كان الأتراك المسيطرون على القلعة يحاربون رجالنا ليلاً ونهاراً، ولم يمنعهم عنا سوى أسلحتنا. وعندما رأى رجالنا أنهم لن يتحملوا أكثر من ذلك (لأن الرجل الذي كان يحمل الطعام لم يكن يجد الوقت ليأكله، ومن يحمل الماء لم يكن يجد وقتاً ليشرب) بنوا سورا من الحجارة والملاط يفصل بيننا وبين الأتراك، وأقاموا برجاً ومجانيق، حتى يكونوا في أمان، وكانت هناك عصابة من الأتراك تسيطر على القلعة، وتهاجمنا، على حين كانت هناك عصابة أخرى تعسكر في وادي قريب من القلعة.

« وفي تلك الليلة ظهرت نار في السماء، قادمة من جهة الغرب، واقتربت ثم سقطت على الجيش التركي، مما أذهل رجالنا وأدهش الأتراك أيضاً. وفي الصباح، هرب الأتراك الذين خافوا النيران مذعورين وذهبوا إلى البوابة التي يسيطر عليها بوهيموند، وعسكروا هناك؛ ولكن أولئك الذين كانوا في القلعة قاتلوا رجالنا ليلاً ونهاراً، وقذفوهم بالسهم ليقتلوا منهم البعض ويجرحوا بعضاً آخر. وكان بقية الأتراك يحاصرون المدينة من جميع النواحي لدرجة أن أحداً من رجالنا لم يجرؤ على الخروج والدخول إلا خفية وتحت جنح الليل. وهكذا حوصرنا وأرهقنا بأبدى أولئك الوثنيين الذين كانت أعدادهم تفوق الحصر. إن أعداء الرب الكفار هؤلاء، حاصرونا بشدة في مدينة أنطاكية لدرجة أن الكثيرين منا ماتوا جوعاً، لأن رغبة الخبز الصغير كان يساوي بيزنت، ولا أستطيع أن أتحدث عن ثمن الخمر. وأكل رجالنا لحوم الخيل والبغال، وكانوا يبيعونه لبعضهم البعض، وكانت الدجاجة تباع بخمسة عشر شلناً، والبيضه باثنين، كما كان كل شيء غالياً. وكانت المجاعة مرعبة لدرجة أن الناس كان يطبخون ويأكلون جنور التين، والكروم والأشواك، وكل أنواع الأشجار. وكان البعض يطبخون جلود الخيول الجافة وكذلك جلود الجمال والبغال والثيران والجاموس ويأكلونها. هذه المتاعب والمشاق وكثير غيرها مما لا أستطيع أن أحكى عنه، قاسيناها في سبيل اسم المسيح ولكي نحرر الطريق إلى القدس؛ وتحملنا هذا الجوع والبؤس والخوف على مدى ستة وعشرين يوماً.

« وحدث قبل الاستيلاء على أنطاكية أن ستيفن الجبان، كونت شارتر، الذي كان كل قادتنا قد انتخبوه قائداً عاماً، تظاهر بالمرض الشديد، وتسلى هاريا بطريقة مخزية إلى قلعة أخرى تسمى الإسكندرونة. وعندما حوصرنا في المدينة، نحتاج إلى النجدة لإنقاذنا، كنا ننتظره يومياً لكي يحضر لنا المساعدة. ولكنه حين سمع أن الأتراك أحاطوا بنا وحاصرونا، ذهب سرا إلى جبل مجاور لمدينة أنطاكية، وعندما رأى خيام الأتراك كثيرة تملكه الفرع وتقهقر بجيشه هاريا

بسرعة. وعندما وصل إلى معسكره أخذ متاعه وعاد أدراجَه بأسرع ما يستطيع، وفيما بعد، عندما قابل الإمبراطور بالقرب من فيلوميليوم، طلب أن يقابله على انفراد وقال «إننى أخبرك بحق أن أنطاكية قد أخذت، ولكن القلعة لم تسقط، ورجالنا محاصرون بشدة، وأتوقع أن يكون الأتراك قد أجهزوا عليهم الآن. ولذا، ينبغي أن ترجع بأسرع ما تستطيع، وإلا عثروا عليك وعلى جيشك». وعندئذ خاف الإمبراطور خوفاً شديداً، ودعا جاي، أخا بوهيموند إلى اجتماع سرى، ومعه عدد آخر من الرجال، وقال لهم «أيها السادة ماذا نحن فاعلون؟ إن كل حلفائنا محاصرون، وربما فى هذه اللحظة بالذات يكونوا قد لقوا حتفهم أو وقعوا فى أسر الأتراك، وفقاً لرواية هذا الكونت اللعين الذى هرب على هذا النحو المشين. فإذا كنتم توافقون، فلنرجع بسرعة، وإلا تعرضنا نحن أيضاً للموت المفاجئ، مثلهم تماماً».

«وعندما سمع جاي، الذى كان فارساً مجيداً للغاية، هذه الأكاذيب بدأ يبكى وينوح بصوت عال هو والرجال الآخرون... [يستطر الكاتب فى وصف حال جاي ورفاقه، ثم عودة الإمبراطور البيزنطى وجيشه].

«أما نحن الذين سمعنا كلمات الرجل الذى أحضر إلينا رسالة المسيح من خلال كلمات أحد حواريه فقد أسرعنا فى الحال إلى المكان الذى تم تحديده فى كنيسة القديس بطرس، وحفر ثلاثة عشر رجلاً من الصباح حتى المساء. وهكذا وجد ذلك الرجل الحرية، كما سبق وأخبرنا، وأخذوها جميعاً فى فرح وسرور، وسرى فى المدينة كلها فرح لا يوصف. ومنذ تلك الساعة اتفقنا على خطة للهجوم، وعقد جميع قائدتنا مجلساً للتشاور لكى يرسلوا مبعوثاً إلى الأتراك أعداء المسيح، لكى يسألهم من خلال أحد المترجمين، لماذا كان صلفهم وغرورهم فيما يتعلق بدخولهم أرض المسيحيين وإقامة معسكرهم هناك ولماذا يقتلون ويعذبون خدام المسيح. وعندما أنهوا مشاوراتهم، جاؤا برجلين هما بطرس الناسك وهيرلويون وقالوا لهما «إذهبا إلى جيش الأتراك الملعون، وأبلغاهم هذه الرسالة كاملة. وأسألاه من السبب فى أنهم مندفعون بهذا الصلف لدخول أرض المسيحيين وأرضنا، وذهب المبعوثان بهذه الرسالة حتى وصلا إلى معسكر الكفار، حيث أبلغا رسالتهم إلى كويوقا والآخرين على النحو التالى : «إن قائدتنا وزعماءنا صدمتهم جسارتكم واندفاعكم لدخول هذه الأرض التى هى ملك للمسيحيين ولهم. وربما (كما نفكر ونعتقد) تكونوا قد جئتم هنا بغرض اعتناق المسيحية. أم أنكم جئتم إلى هنا لمضايقة المسيحيين بأية وسيلة تقدرون عليها؟ وعلى أية حال، فإن قائدتنا جميعاً يطلبون منكم

أن تتسحبوا بسرعة من أرض الرب والمسيحيين، لأن بطرس المبارك كان قد حولها منذ زمن طويل إلى دين المسيح. ولكنهم يمنحونكم الإذن بأن تأخذوا متاعكم، وخيالككم وبغالكم، وحميركم وجمالكم، وأن تأخذوا معكم كل أغنامكم وثيرانكم وكل ما تختارونه من ممتلكاتهم».

«عندئذ ملأ الفرور كربوقا، قائد جيش سلطان فارس، كما ملأ مستشاريه، وأجاب في عنف: نحن لا نريد لا دينكم ولا ربكم، ونحن نبصق عليهما وعليكم. لقد جئنا هنا لأننا أحسبنا بالخرى حين فكرنا في أن أولئك الزعماء والقادة الذين ورد نكرهم يزعمون لأنفسهم الحق في الأرض التي أخذناها من شعب مخطئ. هل تريدون أن تعرفوا إجابتنا؟ عودوا إذن بأسرع ما تستطيعون، وأخبروا زعماءكم أنهم إذا صاروا جميعا من الأتراك^(١)، وأدانوا الرب الذي تعبونه وتركعون له، وتخليتم عن قوانينكم، فإننا سوف نعطيكم هذه الأرض وغيرها، فضلاً عن القلاع والمدن، بحيث لا يبقى أحد منكم من الجنود المشاة. ولكنكم ستصيرون جميعاً من الفرسان مثلاً؛ وأخبراهم أننا سوف نعتبرهم دائماً من أصدقائنا المقربين. وإلا، فليعلموا أنهم جميعاً سوف يذبحون؛ أو يساقون في الأغلال إلى خراسان، حيث يخدموننا ويخدمون أطفالنا طوال الوقت في أسر أبدى».

«وعاد الرسولان بسرعة وحكياً كل ما قاله لهم أولئك الناس الغلاظ القساء. (ويحكى أن هرلوين كان يعرف اللغتين وأنه قام بدور المترجم لبطرس الناسك). وبينما كان هذا كله يجري، لم يكن رجالنا يعرفون ما ينبغي عمله، لأنهم كانوا خائفين، إذ كانوا واقعين بين خطرين؛ عذاب الجوع والخوف من الأتراك.

«وأخيراً وبعد ثلاثة أيام من الصيام والمسيرات من كنيسة لأخرى، اعترف رجالنا بخطاياهم، وتناولوا القربان جماعة، وأعطوا الصدقات ورتبوا صلوات القداش وتم ترتيب ستة صفوف قتال من بين أولئك الذين كانوا داخل المدينة. وفي خط القتال الأول (مقدمة الجيش) كان هيو الكبير ومعه القوات الفرنسية وكونت الفلاندرز؛ وفي الخط الثاني كان اللوق جوففري ورجاله، وفي الثالث كان روبرت النورمانى مع فرسانه؛ والخط الرابع أسقف لوبوى يحمل حرية مخلصنا، وكان معه رجاله ورجال ريمون كونت سان جيل الذى بقى في الخلف لحراسة القلعة خوفاً من أن ينزل الأتراك إلى المدينة؛ وفي الصف الخامس كان تنكرد برجاله؛ أما

(١) يخط الكاتب هنا بين الدين والجنس وإذا استخدم هذه الكلمة بمعنى «إذا صاروا جميعاً مسلمين».

الخط السادس فكان به بوهيموند وجيشه. وارتدى أساقفتنا وقساوستنا مسوحهم المقدسة وجاءوا معنا، يحملون الصليبان، يصلون ويرجون الرب أن ينقذنا ويحفظنا من كل الشرور بينما كان البعض الآخر يقفون فوق البوابة والصليبان المقدسة في أيديهم ، يرسمون علامة الصليب ويباركوننا، وهكذا قاربنا صفوفنا وخرجنا تحمينا شارة الصليب من البوابة المقابلة للمسجد.

« وعندما رأى كربوقا الفيالق الفرنجية ، على هذا القدر من النظام تخرج الواحدة بعد الأخرى، قال «دعهم يأتون بحيث يكونوا جميعاً في متناولنا تماماً»^(١). ولكن بعد أن خرجوا جميعاً من المدينة، ورأى مدى قوة الفرنج ، غشيه خوف كبير، ولذا أخبر الأمير الذي كان يتولى قيادة الجيش بأنه إذا رأى ناراً في المقدمة فعليه أن يجمع الجيش في الحال للانسحاب لأن هذه ستكون علامة على أن جيش الأتراك قد هزم.

« وبدأ كربوقا ينسحب بسرعة صوب الجبل وتبعه رجالنا. ثم انقسم الجيش التركي قسمين: تحرك جناح منهما صوب البحر على حين بقى الجناح الآخر مكانه، لأنهم كانوا يأملون في محاصرتنا وعندما رأى رجالنا هذا فعلوا مثله، وكونوا خطأ سابعاً من قوات جودفرى وكانت نورماندى، وتولى الكونت رينالد قيادة هذا الفيلق الذى أرسل لمواجهة الأتراك القادمين من ناحية البحر. واشتبك الأتراك فى القتال معهم وقتلوا كثيرين من رجالنا بسهامهم. وفى الوقت نفسه تجمعت قوات تركية أخرى بين النهر والجبل الذى يبعد مسافة ميلين، وبدأت القوات تخرج من كلا الجناحين، لكى تحيط برجالنا وتقذفهم بالقذارة، ويرمونهم بالسهام، فيجرحونهم.

« ثم ظهر أيضاً من الجبل جيش لا يحصى من الرجال الذين يمتطون الخيول البيضاء، ويحملون أعلاماً وبيارق بيضاء. وعندما رأى رجالنا هذا ، لم يفهموا ما يجرى ، أو من هم أولئك الرجال حتى أدركوا أن هذه هى النجدة التى أرسلها المسيح، وأن القادة هم القديس جورج والقديس مرقوريوس والقديس ديمتريوس^(٢). وهذا أمر حقيقى تماماً لأن كثيرين شاهدوه.

(١) يحكى المؤرخ المسلم ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٩١ هجرية (الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ ، ص ١٠٢) قصة الحرب باعتبارها حيلة لصحت على أوتار العاطفة الدينية لدى الصليبيين، ويكشف أن الهزيمة أصابت المسلمين بسبب الخلافات والمنازعات التى دبت بى كربوقا، وقادة الجيوش الإسلامية الأخرى التى كانت تحاصر أنطاكية وكيف أن بعض هذه الجيوش انسحبت دون قتال لتترك كربوقا فى موقف حرج.

(٢) القديسون الثلاثة من طراز القديسين الجنود الذين يعتقد التراث المسيحى أنهم يهبون دائماً لنجدة جيوش المسيحيين فى أية ورطة. وتدور حولهم أساطير كثيرة تنوّه خلف ضبابية الغموض.

« فى الوقت نفسه ، حين تأكد الأتراك الذين كانوا فى الجناح الممتد ناحية البحر أنهم لن يستطيعوا الصمود أمامنا أكثر من ذلك، أشعلوا النيران فى العشب، حتى يراها رفاقهم فى المعسكر ويهربوا. وعرفوا الإشارة ، فأخذوا ما خف حمله وغلا ثمنه وهربوا . وكان رجالنا يشقون طريقهم بالقتال تدريجيا صوب الجيش التركى الرئيسى فى المعسكر. وركب الدوق جودفرى وكونت الفلاندرز بحذاء النهر حيث كانت تعسكر أقوى عناصر الجيش التركى، وكانوا أول من يشن هجمة مركزة على العدو بفضل حماية شارة الصليب. وعندما رأت قواتنا الأخرى هذا شنت هجوماً مماثلاً ، وبدأ الأتراك والفرس يصرخون، واستعنا بالرب الحقيقى الحى وركبنا ضدّهم، وخضنا المعركة باسم يسوع المسيح والضريح المقدس وهزمناهم بمساعدة الرب.

« وهرب الأتراك مذعورين وطاردهم حتى معسكرهم ، لأن فرسان المسيح كانوا تواقبن لمطاردتهم أكثر من ميلهم للحصول على الغنائم واستمرت المطاردة حتى جسر نهر العاصى، وفى الإتجاه الآخر حتى قلعة تنكرد. وترك العدو خيامه، وبها الذهب والفضة ومفروشات كثيرة، كما ترك الماشية والثيران والخيول ، والبغال والجمال والحمر ، فضلاً عن الغلال والخمور والدقيق وغيرها من الأشياء التى كنا فى أمس الحاجة إليها.

« وعندما سمع السوريان والأرمن، الذين يعيشون فى هذه الأرض، بأننا انتصرنا على الأتراك اندفعوا إلى الجبال ليقطعوا عليهم خط الرجعة، وقتلوا منهم كل من طالته أيديهم. وعدنا إلى المدينة فرحين تماماً ، نحمد الرب ونباركه لأنه منحنا النصر على هؤلاء الناس.

« وعندما رأى الأمير المسئول عن القلعة هرب كربوقا والآخرين من ميدان المعركة أمام جيش الفرنج، غشبه خوف شديد وجاء بسرعة يطلب راية فرنجية ^(١). وأمر كونت سان جيل الذى كان يتولى الرقابة خارج القلعة بتسليم رايته للأمير الذى أخذها ورفعها فوق برج قلعته. وقال بعض الحاضرين من أهل الجنوب الإيطالى « هذه ليست راية بوهيموند » وسألهم الأمير « راية من هذه؟ » فقالوا « إنها راية كونت سان جيل ». وأعاد الأمير الراية للكونت، وفى لحظتها جاء بوهيموند النبيل وأعطاه رايته، فتقبلها بسرور كبير. واتفق مع سيدى بوهيموند على أن أولئك المسلمين الراغبين فى اعتناق المسيحية ينضمون إلى جيشه، وأن يترك الراغبين فى

(١) علامة على استسلام المدينة، وحتى لا يقتحمها أحد لأنها تحت حماية صاحب الراية.

الرحيل يرحلون سالمين. ووافق بوهيموند على شروط الأمير ووضع أتباعه في القلعة في الحال. وبعد ذلك بأيام قليلة اعتنق الأمير المسيحية ومعه أولئك الذين فضلوا أن يتقبلوا المسيح. وأمر سيدي بوهيموند بحراسة الذين فضلوا البقاء على دينهم حتى يصلوا إلى أرض المسلمين.

« جرت هذه المعركة في ٢٨ يونيو ... »

٢ - رواية ريمون الأجويلري (*)

« وفي الوقت نفسه ، بدأ الرسل يفنون كثيرا ، ويقولون أن العدو يتلقى المساعدات وفضلاً عن ذلك، لم تكن هذه التقارير ترد إلينا من الأرمن واليونانيين فقط، ولكنها وصلت أيضاً من الذين كانوا بالمدينة. فعندما استولى الأتراك على أنطاكية قبل أربعة عشر عاماً، حاولوا الشباب الأرمني واليوناني إلى الإسلام، كما لو كانوا خدماً، وزوجهم. وعندما كان أمثال هؤلاء الرجال يجدون الفرصة للهرب، كانوا يأتون إلينا بالخيول والأسلحة. وحين شاع أمر المساعدة القادمة للعدو، بدأ كثيرون من رجالنا ومن التجار الأرمن يهربون خوفاً وفزعاً. وفي الوقت نفسه، حضر الفرسان الطيبون الذين كانوا مبعثرين في الغابات وأحضروا الأسلحة وأصلحوها. وعندما تخلص جيشنا تدريجياً من الخوف، وحلّت محله الشجاعة . والاستعداد الدائم لمجابهة الأخطار مع الإخوة ومن أجل الإخوة، بعث أحد النصارى الذين اعتنقوا الإسلام في أنطاكية برسالة إلى أمرائنا عن طريق بوهيموند يقول إنه سيسلم المدينة لنا.

« وبناء على ذلك ، وعندما تم الاتفاق على الخطة ، أرسل الأمراء بوهيموند ودوق اللورين وكونت الفلاندرز لمحاولة تنفيذها. وعندما وصلوا إلى تل المدينة في منتصف الليل، وقال لهم مبعوث أرسله من كان سيسلم المدينة «انتظروا حتى يمر الضوء» . لأن ثلاثة أو أربعة رجال كانوا يسيرون على طول أسوار المدينة وهم يحملون المشاعل طوال الليل لإيقاظ الحراس وتثبيتهم. وبعد هذا اقترب رجالنا من الأسوار، ورفعوا سلماً، وبدأوا يصعدون عليه. وكان أول من تسلق الأسوار بجدارة رجل من الفرنج اسمه فولجر، وهو شقيق بودلوس الشارترى؛ وتبعه كونت الفلاندرز الذي أرسل رسالة لبوهيموند والدوق لكي يصعدوا؛ ثم بدأ الجميع يهرولون صاعدين، يحاول كل منهم أن يسبق الآخر. مما أدى إلى كسر السلم. ولكن أولئك

الذين كانوا قد تسلقوا هبطوا داخل المدينة وفتحوا بوابة صغيرة. وهكذا دخل رجالنا، ولم يأسروا أحد ممن وجدوهم. وعندما لاح نور الفجر، صاحوا بصوت عال، وانزعجت المدينة كلها عند سماع هذه الصيحة، وبدأت النساء والأطفال الصغار فى البكاء. أما أولئك الذين كانوا فى قلعة الكونت فقد انتبهوا عند سماع هذه الصيحة الكبرى لأنهم كانوا أقرب إليها، وبدأوا يقولون لبعضهم «لقد وصلتكم المساعدة». وأجابههم الآخرون «إن هذا لا يبدو صوت قوم فرحين». وعندما انبلج ضوء النهار ظهرت راياتنا وبيارقنا فوق التل الجنوبي. وعندما رأى سكان المدينة المنزعجون رجالنا على الجبل من فوقهم، هرب بعضهم من البوابة، بينما انطلق البعض الآخر مهولين. ولم يقاوم أحد؛ فالحقيقة أن الرب قد أطاح بهم وهزمهم. وبعد وقت طويل، تجلى لنا مشهد مفرح، ذلك أن أولئك الذين دافعوا عن أنطاكية ضدنا زمناً طويلاً، غير قادرين الآن على الهرب من أنطاكية. وحتى إذا كان بعضهم قد جرؤوا على الهرب، فإنهم لم يتمكنوا من النجاة من الموت. وحدثت حادثة معينة هناك، كانت مبعث فرح وسرور لنا، ذلك أنه حين ناضل بعض الأتراك بين المرتفعات التى تقسم الجبل إلى قسمين من الشمال، قابلوا رجالنا، وعندما أرغم الأتراك على العودة، كان الهاربون يندفعون بسرعة هائلة بحيث سقطوا جميعاً فى الهاوية، ولكن الحزن انتابنا بسبب ثلاثين حصانا دقت أعناقها فى ذلك المكان.

« وكما كانت الغنائم التى غنمناها من أنطاكية كبيرة لدرجة أننا لا نستطيع أن نحصيها، ويمكنك أن تتصورها بأكثر ما يصل إليه خيالك، ثم تضيف إليه. كذلك لا يمكن إحصاء الأتراك والمسلمين الذين هلكوا؛ فضلاً عن أنه من القسوة أن نشرح الطرق والوسائل المختلفة التى قتلوا بها. وعندما رأى الأعداء الذين كانوا يحرسون القلعة فى التل الأوسط الدمار الذى حل برجالهم، وأن رجالنا عازفون عن محاصرتهم، احتفظوا بقلعتهم. على أية حال، فإن جراشيانوس^(١)، الذى كان قد خرج من منفذ فى السور، قبض عليه وفصلت رأسه بأيدي بعض الفلاحين الأرمن الذين أحضروا رأسه إلينا. واعتقد أن هذا بتدبير الرب المحكم، ذلك أن هذا الرجل الذى تسبب فى قطع رؤوس كثيرين من الأرمن، كان قدره أن تقطع رأسه على أيديهم. وتم أخذ مدينة أنطاكية فى الثالث من يونيو، وكان حصارها قد بدأ قبل أحد عشر يوماً من شهر نوفمبر..

« فى الوقت نفسه، بينما كان رجالنا مشغولين بإحصاء وتصنيف غنائمهم، التى غنموها

(١) يقصد «ياغى سيان» حاكم أنطاكية.

من حصار القلعة العليا، وبينما كانوا يستمعون إلى البنات الوثنيات الراقصات، وهم يحتفلون احتفالاً فخماً ورائعاً، وقد نسوا الرب الذي منحهم هذه البركة الكبرى، وفرض عليهم العدو حصاراً بعد ثلاثة أيام من أخذ المدينة في شهر يونيو نفسه، وهكذا حدث أن أولئك الذين حاصروا الأتراك برحمة الرب طويلاً في أنطاكية، صاروا بتدبير الرب محاصرين الآن بقوات الأتراك. ولكي يزيد خوفنا كان الحصن العلوي، وهو بمثابة قلعة، بأيدي أعدائنا، ومن ثم، تخلى رجالنا تحت وطأة الخوف عن حصار الحصن.

« وعلى أية حال، فإن كربوقا، سيد الأتراك، كان يتوقع أن تدور المعركة هناك، فحضر خيامه على مسافة حوالي ميلين من المدينة، ورتب صفوفه ثم تقدم حتى جسر المدينة. وكان رجالنا قد دعموا حصن الكونت في اليوم الأول، خوفاً من أن يستولى عليه الأعداء الموجودون بالقلعة إذا ما خرجوا للمعركة، أو إذا هجروا الحصن القائم قبالة الجسر واستولى عليه العدو، مما قد يتيح للعدو الفرصة ليقطع علينا خط الرجعة ويسد أي منفذ لخروجنا.

« وكان في الجيش فارس مشهور جداً وعزیز على الجميع هو روجر البارنفيللي، وقد تم أسره أثناء مطاردته لجيش العدو المتقهقر وقطعت رأسه. وقد خيم الحزن والخوف على رجالنا لدرجة أن الكثيرين منهم لجأوا إلى الهرب أملاً في الحياة. ومن ثم فعندما أجبر الأتراك على التقهقر أثناء القتال مرة بعد أخرى، فرضوا حصارهم على الحصن في اليوم الثالث، واستؤنف القتال بضراوة وعنف بحيث لم يكن ممكناً الدفاع عن الحصن وصد هجمات الأعداء سوى بقوة الرب وحده. ذلك أنه عندما كان الأتراك قد استعدوا بالفعل لعبور الخندق المائي بالماء حول الحصن وتدمير الأسوار، تملكهم الرعب، ولا أدرى لماذا، وفروا هاربين لا يلبون على شيء. وحينئذ، وعندما أدركوا أنه ليس هناك سبب لهربهم عادوا يفرضون الحصار بعد أن جروا مسافة قصيرة (١)، وهم يلومون أنفسهم لتخاذلهم؛ وشنوا هجوماً عاتياً كما لو كانوا يريدون تعويض هروبهم، ولكنهم فروا مرة أخرى خوفاً من قوة الرب. وبعد ذلك عاد الأعداء إلى معسكرهم في ذلك اليوم. وفي اليوم التالي، عادوا إلى الحصن ومعهم أعداد كبيرة من آلات الحصار، ولكن رجالنا أضرموا النيران في الحصن وقذفوا بأنفسهم داخل أسوار المدينة وهكذا، عندما تصاعد خوف الفرنج، تصاعدت جسارة العدو وجراته؛ حقا لم يعد لنشئ خارج المدينة، كما استولى الأعداء على الحصن الذي كان بمثابة رأس المدينة. وعلى أية حال، فإن

(١) كانت هذه إحدى وسائل الأتراك السلاجقة وخدمهم العسكرية، فقد تظاهروا بالفرار حتى تطاردتهم قوات الصليبيين وبذلك يسهل استرجاعهم خارج الحصن.

رجالنا الذين عولوا على موقعهم الجيد الحصين، حاربوا ضد العدو وردوه على أعقابهم فى الهجوم الأول؛ ولكنه نسوا خطر المعركة وفكروا فقط فى الغنائم والأسلاب مما جعلهم يلونون بالفرار عندما هاجمهم العدو مرة أخرى. ذلك أن أكثر من مائة رجل اختنقوا من الزحام فى بوابة المدينة، ونفقت خيول كثيرة. وعندئذ حاول الأتراك الذين دخلوا الحصن أن ينزلوا إلى المدينة. لأن الوادى الذى كان يفصل بين رجالنا والحصن لم يكن كبيراً، كما كان فى منتصفه خزان مياه وأرض مستوية صغيرة المساحة. ولم يكن أمام العدو من طريق إلى المدينة سوى من خلال الجبل الذى نسيطر عليه، وهناك حاولوا جاهدين وناضلوا بكل قوتهم لكى يطردونا ويؤيخونا من الطريق. ودارت معركة ضارية من الصباح حتى المساء بشكل لم يسبق له مثيل. وحلت بنا مصيبة مخيفة لا مثيل لها، ذلك أنه فى وسط الوابل المنهمر من السهام والحجارة، والقذائف المتواصلة من المنجنيقات، وموت عدد كبير للغاية، فقد رجالنا وعيهم. وإذا سألت عن نهاية هذا القتال، أقول لك إنه انتهى فى الليل...

« وهكذا ، كما قلنا ، عندما انتاب الذعر رجالنا، وبينما كانوا على حافة اليأس، شملتهم الرحمة السماوية، هذه الرحمة التى ردت أطفال الرب إلى الصواب بعد أن ضلوا، هى التى واستهم بعد أن غشيتهم الحزن، على النحو التالى. فعندما تم الإستيلاء على مدينة أنطاكية، استخدم الرب قوته ورحمته واختار، فلاحاً فقيراً، من البروفنس، ليواسينا من خلاله ، وأرسل الفلاح هذه الكلمات إلى الكونت وإلى أسقف لوبوى:

« إن اندرو حواري الرب وسيدنا يسوع المسيح زارنى حديثاً للمرة الرابعة وأمرنى أن أتى إليك وأن أعيد إليك الحرب التى شقت جنب المخلص ، بعد أن يتم الإستيلاء على مدينة أنطاكية. فضلاً عن ذلك ، فعندما خرجت من المدينة اليوم مع الآخرين لخوض المعركة، وعندما كدت أن اختنق عندما حصرنى فارسان فيما بينهما، جلست حزينا على صخرة، وكدت أفقد حياتى. وعندما كنت اترنح مثل امرأة تكلى من الخوف والحزن، جاعى القديس أندرو مع رفيق له، وهددنى كثيراً إذا لم أعد الحرية لك بسرعة ».

« وعندما سأله الكونت والأسقف أن يحكى بالتفصيل قصة الطم والأمر الرسولى، أجاب : «عند الزلزال الأول الذى حدث فى أنطاكية عندما كان جيش الفرنج يفرض حصاره عليها، داهمنى خوف شديد لدرجة أننى لم أقو على شئ سوى القول «فليساعدننى الرب» . ذلك أن الوقت كان ليلاً وكنت أرقد مسترخياً، ولم يكن فى كوخى أحد يؤازرنى بوجوده، وعندما

استمر اهتزاز الأرض وقتاً طويلاً وازداد خوفاً عن ذى قبل، وجدت رجلين يقفان أمامي في أنصب هيئة. كان أحدهما أكبر سناً ، وشعره أحمر وأبيض، وعيناه سوداوتان، ووجهه ينطق بالرحمة، كما كانت لحيته بيضاء عريضة وكثيفة ، وكان متوسط القامة ، على حين كان الآخر أصغر سناً وأطول قامته ، ووسيماً في هيئة لا يدانيها بنو الإنسان . قال أكبرهما لى: «ماذا تفعل» ؟ وغشيتني خوف عظيم لأننى كنت أعرف أنه لا يوجد أحد، وأجبت «من أنت؟» فأجابنى : «قم ، ولا تخف ، وافهم ما أقوله لك، إننى أندرو الحوارى، اجمع أسقف لوبوى وكونت سان جيل وپطرس ريمون الهويتولى، وقل لهم هذه الكلمات : «لماذا أهمل الأسقف التبشير والوعظ كما أهمل أن يقسم قومه يومياً بالصليب الذى يحمله أمامهم ، ما دام ذلك سيعود عليهم بالخير الكثير ؟» وأضاف « تعال وسوف أريك حرية أبينا يسوع المسيح، وهى التى سوف تعطىها للكونت . لأن الرب أعطاها له منذ يوم مولده».

« ونهضت ، وتبعته إلى داخل المدينة، ولم أكن أرتدى شيئاً سوى القميص . وقادنى إلى داخل كنيسة القديس بطرس الرسول عبر البوابة الشمالية، والتى كان المسلمون قد شيّدوا مسجداً فى مواجهتها . وفى الكنيسة كان هناك مصباحان، وكان يغمران المكان بالضوء كما لو كانت الشمس هى التى تضيئه. وقال لى : «انتظر هنا » ، وأمرنى أن أجلس على عمود، كان هو الأقرب للدرج التى يصعد بها المرء إلى المذبح من ناحية الجنوب؛ ولكن رفيقه وقف على بعد مسافة من درج المذبح. ثم نزل القديس اندرو تحت الأرض واحضر الحربة وأعطانيها فى يدى.

« وقال لى : تأمل الحربة التى اخترقت جنب المسيح حيث خرج خلاص العالم بأسره .» وبينما كنت أمسك بها فى يدى ، وأنا أبكى فرحاً ، قلت له «سيدى ، إذا شئت ، فإننى سأخذها وأعطىها للكونت ». وقال لى : «ليس الآن ، لأنه سيحدث أن تسقط المدينة. وعندها تعال ومعك اثنا عشر رجلاً وابحثوا عنها هنا حيث أخرجتها وحيث أخبرتها الآن» وخبأها.

« وبعد أن جرت هذه الأمور على هذا النحو ، عاد بى عبر الأسوار إلى منزلى؛ وهكذا تركنى الإثنان . وحينئذ فكرت فى فقرى وعظمتكما ، وخفت أن أقترّب منكما. وبعد هذا، حينما خرجت سعياً وراء الطعام فى أحد الحصون بالقرب من الرها ، فى أول أيام الصيف ، عندما لاح الفجر، تجلّى لى القديس أندرو فى نفس الهيئة ومع نفس الرفيق الذى كان قد جاء معه من قبل، وغمز المنزل ضوء عظيم ، وقال القديس أندرو : «هل أنت مستيقظ ؟».

« وهكذا أفقت ، وأجبته « لا يا سيدي ، لست نائما » . وقال لي « هل أخبرت بهذه الأمور التي أمرتك منذ فترة طويلة أن تخبر الناس بها ؟ » وأجبته «سيدي ألم أتوسل إليك أن ترسل أحداً غيري إليهم ، لأنني ترددت في لقائهم خوفا من فقري؟» . وقال « ألا تعرف لماذا قادك الرب إلى هنا ، وكم يحبك ، ولماذا اختارك أنت بالذات ؟ لقد جعلكم تآتون إلى هنا لكي تنتقموا ممن يحتقرونه ولكي تتأروا لشعبه . وهو يحبك حبا شديداً ، لدرجة أن القديسين الذين يعرفون سلفاً ترتيبات الرحمة الإلهية ، ودوا لو أنهم كانوا بشراً يناضلون معكم. لقد اختاركم الرب من بين جميع الشعوب، كما تجمع حبات الغلال من بين الشوفان، ذلك أنكم تمتازون في رضاء الرب عنكم، وتتفوقون على كل من يجيئون قبلكم، أو بعدكم، تماما مثلما يمتاز الذهب على الفضة من حيث القيمة» .

« وبعد هذا انسحبا ، وانتابني المرض لدرجة أنني كنت على وشك أن أفقد نور عيني، وكنت أرتب للتخلص من كل ما أملك، ثم بدأت أتأمل هذه الأمور التي جرت لي بسبب إهمالي للأمر الرسولي، وهكذا، رجعت إلى الحصار بعد أن استرحت . وفكرت ثانية في فقري، وبدأت أخشى أنني إذا ذهبت إليكم ، فإنكم ستقولون إنني كنت عبداً وأنني أحكى هذه القصة لكي أحصل على الطعام؛ ومن ثم سكت ولم أبح بشيء. وهكذا بمرور الوقت، وعندما كنت راقداً في ميناء القديس سمعان في يوم أحد السعف في الخيمة مع سيدي ، وإليم بطرس ، تجلى لي القديس أندرو مع رفيق له . وكان يرغل في ثيابه التي جاء بها من قبل ، وكلمني على النحو التالي : « لماذا لم تخبر الكونت والأسقف الآخرين بما أمرتك ؟ ».

« وأجبته «سيدي ألم أتوسل إليك أن ترسل أحد غيري يكون أكثر حكمة ويمكن أن يسمعوا له؟ فضلا عن أن الأتراك يترصدوننا في كل مكان ويقتلون من يخرج أو يدخل». وقال القديس أندرو « لا تخف فإنهم لن يؤذوك، وقل أيضاً للكونت ألا يخوض في نهر الأردن حين يأتي إلى هناك، ولكن أعبّر النهر في قارب ؛ وبعد أن يعبر يجب أن يكون مرتديا قميصا من الكتان وسروالاً قصيراً ، وبعد ذلك ينبغي أن يرش بماء النهر. وبعد أن تجف ثيابه ، يخلعها ويحفظها مع حربة الرب » . وقد سمع سيدي وإليم بطرس هذا ، على الرغم من أنه لم ير الحوارى.

« وعندما استرحت على هذا النحو ، رجعت إلى الجيش . وعندما أردت أن أخبركم بهذا، لم أستطع أن ألقاكم سوى . وهكذا مضيت نحو ميناء المصيصة . وهناك عندما كنت على وشك الإبحار إلى جزيرة قبرص بحثا عن الطعام ، هددني القديس أندرو بالويل والثبور إذا لم

أرجع بسرعة وأخبركم بما كان قد أمرنى به. وعندما فكرت فى كيفية الرجوع إلى المعسكر، لأن ذلك الميناء كان على بعد ثلاثة أيام من المعسكر ، بدأت أبكى بمرارة بالغة ، لأننى لم أجد وسيلة للرجوع . وأخيراً ، وبخنى سيدى ورفاقى فدخلنا السفينة وبدأ نجذب قاصدين قبرص، وعلى الرغم من أن السفينة مضت طوال اليوم بفعل الريح المواتية والتجذيف حتى الغروب، هبت عاصفة مفاجئة ، وفى غضون ساعة أو ساعتين عدنا إلى الميناء الذى كنا قد تركناه. وهكذا، بعد أن عجزنا عن العبور مرتين وثلاث مرات ، رجعنا إلى الجزيرة فى ميناء القديس سمعان. وهناك سقطت فريسة لمرض خطير. وعلى أية حال، فعندما تم الإستيلاء على المدينة، جئت إليكم . والآن ، إذا كان ذلك يسركم ، أرجو اختبار ما أقول .

« وظن الأسقف أن هذا مجرد لغو فارغ؛ ولكن الكونت صدقه وسلم الرجل الذى قال هذا إلى قسيسه الخاص ريمون ليتولى حراسته .

« وتجلى سيدنا يسوع المسيح فى ذات الليلة التالية لقسيس يدهى ستيفن، كان يبكى خشية موته هو ورفاقه فى ذلك المكان . ذلك أن بعض الذين نزلوا من الحصن زرعوا الرعب فى قلبه، وقالوا إن الأتراك قد بدأوا فعلاً فى النزول من الجبل إلى المدينة ، وأن رجالنا يفرزون هاربين بعد أن نالتهم الهزيمة . ولهذا السبب فإن القسيس ، الذى أراد أن يشهد الرب على موته ، ذهب إلى الكنيسة المكرسة لمريم المباركة فى ثياب الإعتراف ، وبعد أن نال العفو، بدأ فى إنشاد المزامير مع بعض رفاقه . وبينما كان الباقيون يغطون فى النوم ، وبينما جلس هو وحيداً للمراقبة ، بعد أن قال : «رى من هذا الذى سيسكن فى معبدك ، ومن ذا الذى سوف يستقر عند التل المقدس بك ؟ » كان ثمة رجل يقف تجاهه ، يفوق جماله الآخرين جميعاً ، وقال له : «أيها الرجل، من هم القوم الذين دخلوا المدينة ؟ » وأجاب القسيس : «إنهم المسيحيون» فسأله « مسيحيون من أى نوع » .

« إنهم مسيحيون يؤمنون بأن المسيح ولد من العذراء وعانى على الصليب ، ومات ودفن ، وأنه قام فى اليوم الثالث وصعد إلى السماء » . وقال ذلك الرجل « إذا كانوا مسيحيين ، فلماذا يخافون كثرة الوثنيين ؟ » وأضاف « ألا تعرفنى ؟ » . وأجاب القسيس « إننى لا أعرفك، لكنى أرى أنك أجمل من الجميع » . وقال الرجل « أنظر إلى جيداً » . وعندما تفحصه القسيس عن قرب رأى صليباً أكثر تألقاً من الشمس خلف رأسه . وقال القسيس للرجل الذى كان يسأله «سيدى، إننا نقول إن صور المسيح هى التى تأخذ هذا الشكل الذى تتمثل أنت فيه » .

وقال له السيد : « لقد أحسنت القول ، لأننى أنا هو . أليس مكتوباً أننى أنا الرب ، قوى وعظيم فى المعركة ؟ ومن هو السيد فى جيشى ؟ » فأجاب القسيس « سيدى ليس فى الجيش سوى سيد واحد لأنهم يتقون فى الأسقف ».

« وقال السيد « قل هذا للأسقف ، قل له إن هؤلاء القوم قد أبعدونى عنهم بفعالهم الشريرة ، ثم دعهم يخاطبهم كما يلى » الرب يقول : إرجعوا لى حتى أرجع إليكم » ، وعندما يدخلون المعركة فليقولوا : لقد اجتمع أعداؤنا والمجد فى شجاعته ! فلتدمر قوتهم يا ربنا ، ومزق شملهم حتى يعرفوا أنه ليس هناك من يقاتل من أجلنا سواك يا ربنا » . وقال لهم أيضاً « إذا نفذت ما أمركم به ، على مدى خمسة أيام ، فسوف أشملكم برحمتى ».

« وفضلاً عن ذلك ، بينما كان يقول هذا ، اقتربت منه امرأة فائقة الحسن ومشرفة الطلعة ، ونظرت إلى الرب وقالت له « سيدى ما الذى تقوله لهذا الرجل ؟ » فأجاب السيد : « إننى أسأله عن يكون هؤلاء الناس الذين دخلوا المدينة » وحينئذ أجابت السيدة « ياسيدى هؤلاء هم الناس الذين من أجلهم توسلت إليك كثيراً ».

« وعندما هز القسيس رفيقه الذى كان نائماً بالقرب منه ، حتى يكون شاهداً على هذه الرؤيا كانا قد اختفيا عن ناظره .

« وعلى أية حال ، فعندما جاء الصبح تسلق القسيس التل المواجه لقلعة الأتراك ، حيث كان أمراءنا جميعاً هناك فيما عدا اللوق ، الذى كان يتولى حراسة قلعة على التل الشمالى . وهكذا ، بعد أن اجتمعوا حوله ، أخبرهم بهذه القصة ، ولكى يظهر أنها قصة حقيقية أقسم على الصليب . وفضلاً عن ذلك ، أراد أن يرضى المتشككين ، فأعلن استعدادهم للمرور خلال النار ، أو القفز من فوق قمة البرج . وحينئذ أقسم الأمراء أنهم لن يفروا من أنطاكية أو يخرجوا منها ، سوى بموافقة من الجميع ؛ لأن الناس فى ذلك الوقت كانوا يظنون أن الأمراء يريدون الفرار إلى القلعة . وهكذا استراح كثيرون ، بعد أن كان عدد الذين ثبتوا على إيمانهم ولم يفكروا فى الهرب قلة . قليلة فى الليلة الماضية . ولو لم يكن بوهيموند والأسقف قد أغلقا أبواب المدينة ، لما بقى سوى عدد قليل . ومع هذا ، فإن وليم الجراندى منسلى قد هرب ، وكذلك فعل أخوه ، وكثيرون آخرون من القساوسة ومن العلمانيين على السواء . وكثيرون ممن فروا من المدينة فى ظروف بالغة الخطورة ، لاقوا أشد أخطار الموت هولاً على أيدي الأتراك »

« وفي هذا الوقت تجلت لنا أشياء كثيرة من خلال إخواننا ، كما شاهدنا علامة إعجازية في السماء . ذلك أنه كان هناك نجم كبير جداً يتلألأ في السماء فوق المدينة طوال الليل، ثم إنقسم بعد وقت قصير إلى ثلاثة أجزاء وسقط في معسكر الأتراك .

« وإذا هدأت نفوس رجالنا وسكنت إلى حد ما ، قبعوا ينتظرون اليوم الخامس الذي ذكره القسيس. وفي ذلك اليوم، وبعد أن تمت الاستعدادات اللازمة ، تم إخراج الجميع من الكنيسة، ثم بدأ اثنا عشر رجلاً ، ومعهم الرجل الذي تحدث عن الحرية، أعمال الحفر. وكان أسقف أورانج، وريمون قسيس الكونت الخاص وكاتب هذه السطور ، ضمن أولئك الرجال، كما كان هناك الكونت نفسه، وبونتيسوس البلازوني، وفيرالوس الثوارسي. وبعد أن حفرنا من الصباح حتى المساء بدأ البعض يأسسون من العثور على الحرية. وانصرف الكونت، لانشغاله بحراسة القلعة، بيد أننا جئنا بأخرين بدلاً منه وبدلاً ممن أرقهم الحفر. وكان هؤلاء نشيطين بحيث واصلوا العمل بهمة. أما الشاب الذي كان قد تحدث عن الحرية، فإنه حين رأنا منهكين ، تجرد من ثيابه وخلع نعليه، ونزل في الحفر وتوسل إلينا لكي نصلى للرب حتى يمنحنا حريته من أجل تحقيق الراحة والنصر لشعبه. وأخيراً قرر الرب برحمته أن يظهر لنا الحرية. وأنا ، كاتب هذه السطور قمت بتقبيل الحرية عندما لاح طرفها من تحت التراب . ولست بقادر على وصف الفرح والسرور اللذين غشيا المدينة آنذاك. وقد تم اكتشاف الحرية في اليوم الثامن عشر قبل شهر يوليو.

« وفي الليلة الثانية، تجلى القديس أندرو للشباب الذي كان الواسطة التي منحنا بها الحرية، وقال له : « تأمل ، إن الرب أعطى الكونت ما لم يشأ أن يعطيه لأحد أبداً ، وجعله حاملاً لرؤية جيشه طالما بقي حبه للرب.

« وكما قلنا ، عندما هزم رجالنا، وتخلت عنهم شجاعتهم ، وصاروا في مأزق، ظهرت النجدة الإلهية. وعلما أندرو المبارك من خلال الشاب الذي تحدث عن الحرية كيف ينبغي أن نوجه أنفسنا قبل المعركة وأثناءها :-

« لقد هاجمتم جميعاً بقوة ، وقد هزمتهم هزيمة نكراء. وصرختم تستنجون بالرب ، وسمعكم الرب. والآن ليتجه كل منكم إلى الرب بسبب خطاياهم ، وعلى كل منكم أن يقدم خمس صدقات بسبب الجروح الخمسة في جسد الرب . وإذا لم يكن قادراً على هذا، فليصل الصلاة الربانية (آبانا الذي في السماء) خمس مرات . وإذا ما تم هذا، ابدأوا المعركة باسم الرب

سواء في الليل أو في النهار ، وفقاً لتقدير الأمراء لما هو أفضل ، لأن يد الرب ستكون معكم. وإذا كان هناك من يشك في النصر، افتحوا له البوابات ، ودعوه يذهب إلى الأتراك، وسوف يرى كيف سينقذه إله الأتراك. كما أن من يرفض القتال، سيقربن بيهودا الذي خان الرب، والذي تخلى عن الحواريين وباع سيده إلى اليهود. وليحاربوا من أجل القديس بطرس وفي ذهنهم أن الرب وعده بأن يقوم ويتجلى له في اليوم الثالث ، ولأن هذه هي أرض القديس وليست أرض الوثنيين. ولكن سيحتكم في الحرب «ليساعدنا الرب» وسوف يساعدكم الرب حقاً. وكل إخوانكم الذين ماتوا منذ بداية الحملة حاضرون معكم في هذه الحرب، وما عليكم إلا أن تداوموا القسم العاشر من العدو، لأنهم سوف يهاجمون تسعة أقسام بقوة الرب وبأمره. ولا تنهوا المعركة أو تكفوا عن القتال، لأنكم إذا فعلتم، فإن الرب سيقود لكم أعداء كثيرين من الجانب الآخر مثل أعدائكم في هذا الجانب ، وسوف يجعلكم محصورين هنا حتى تلتهموا بعضكم بعضاً. ولكن إعلموا علم اليقين أن الأيام التي وعد الرب بها مريم المباركة والحواريين في متناولنا، إذ قال الرب إنه سوف يقيم مملكة المسيحيين بعد تدمير مملكة الوثنيين وتمريفها في التراب، لا تتحولوا صوب خيامهم بحثاً عن الذهب أو الفضة.

« وعندئذ، تجلت قوة الرب ، ذلك أن الرب الذي أمر بإبلاغنا هذه الكلمات عن طريق حواريه وتلميذه أراح قلوبنا جميعاً لدرجة أن كل امرئ بلغ من إيمانه وأمله أنه بينه وبين نفسه كان كمن انتصر على الأعداء بالفعل . وكانوا يحثون بعضهم بعضاً ، واستعادوا شجاعتهم للقتال. كما أن الجموع التي كانت تبدو في الماضي فريسة للخوف والحاجة، اقتربت آنذاك من الأمراء لتشكوا لهم تأخير المعركة ، وعلى كل حال، فعندما تم تحديد يوم المعركة ، أرسل أمراؤنا رسالة مع بطرس الناسك إلى كريبوقا قائد الأتراك ، لكي يرفع الحصار عن المدينة ، لأنها كانت من أملاك القديس بطرس والمسيحيين. ولكن القائد المغرور أجابهم بأنه سوف يحكم المدينة والفرنج سواء بالحق أو بالباطل . وأرغم بطرس الناسك على أن يركع له ، بعد أن كان يرفض الإحناء.

« وثار سؤال في ذلك الوقت عما يجب أن يتولى حراسة المدينة ضد أولئك الذين داخل القلعة ، على حين يذهب الآخرون إلى القتال. وبنوا حائطاً حجرياً ومنصات على التل المواجه للعدو؛ ودعموها بصخور كثيرة، وأخيراً تركوا الكونت ريمون الذي كان يعاني من مرض قاتل وتركوا معه مائتين من الرجال.

« وحين يوم القتال، وفي الصباح ، أسلم الجميع أنفسهم للرب ، وللموت إذا كانت هذه هي إرادته ، أو لجد الكنيسة الرومانية وجنس الفرنج . كما أنهم اتفقوا بشأن المعركة على ما يلي: تشكيل خطى قتال مزدوجين من جنود الكونت والأسقف ، بحيث يذهب الجنود المشاة قبل الفرسان ويقفون في انتظار أوامر الأمراء ؛ وكان على الفرسان أن يتبعوهم ويتولوا حراسة مؤخرتهم . وتم اتخاذ ترتيبات مماثلة مع جنود بوهيموند وتنكرد ، وكذلك جنود كونت نورماندى والفرنج ، وهو ما حدث أيضاً مع جنود الكونت والبرجنديين، وفضلاً عن ذلك سار ضاربوا الطبول في المدينة يصيحون بأنه يجب على كل رجل أن يبقى مع أمراء قومه. كذلك صدرت الأوامر، بأن يكون هيو الكبير ، وكونت الفلاندرز، وكونت نورماندى أول من يتقدمون للمعركة ، ثم يليهم الدوق ، ومن بعده الأسقف ثم بوهيموند بعد الأسقف، واجتمعوا ، كل تحت رايته ومع بنى جنسه ، داخل المدينة أمام بوابة الجسر.

« كم هو مبارك شعب الرب ، وكم هو مبارك الشعب الذى اختاره الرب وكم كان وجهه ثابتاً! وكيف تبدل الجيش من الحزن إلى التحفز والشغف! فالواقع أنه خلال الأيام الماضية كان الأمراء والنبلاء بجيوبون شوارع المدينة يطلبون مساعدة الرب فى الكنائس، وكان عامة الناس يسيرون حفاة الأقدام يبكون ويضربون صدورهم. وكان الحزن قد تملكهم لدرجة أن الأب لم يكن يحيى الأبن، ولم يكن الأخ يوجه تحيته إلى أخيه، عندما يقابل كل منهما الآخر، كما أن أحداً لم يكن يلتفت وراءه، ولكنك الآن تستطيع أن تراهم مثل الجياد السريعة ، يجلبون بأسلحتهم، ويلوحون بحرابهم ، ولم يستطيعوا إخفاء سعادتهم قولاً وفعلاً . ولكن لماذا أحزن لهذه الأمور الكثيرة ؟ لقد منحوا القوة على الإنطلاق ، وتم انجاز ما اتفق عليه الأمراء فى نظام.

« وفى الوقت نفسه ، كان كربوقا قائد الترك يلعب الشطرنج فى خيمته. وعند تلقى الرسالة التى تخبره أن الفرنج زاحفون للقتال، اضطرب لأن ذلك كان بعيداً عن توقعاته، واستدعى واحداً من الأتراك كان قد فر من انطاكية ، واسمه ميردالين، وهو شخص نبيل نعرفه لشجاعته وقوته الحربية . وقال له « ما هذا ؟ ألم تخبرنى أن الفرنج عددهم قليل وأنهم لن يحاربونا؟ » وأجابه ميردالين «إننى لم أقل إنهم لن يحاربوا ، ولكن تعال وسوف أخبرك إذا كنت تستطيع أن تغلب عليهم بسهولة ».

« وفى ذلك الوقت كان الصف الثالث من رجالنا يتقدمون . وعندما رأى كيفية ترتيب

الصفوف قال ميرالدين لكربوقا « يمكن قتل هؤلاء الرجال ، ولكن لا يمكن إجبارهم على الهرب » وعندئذ قال كربوقا : « ألا يمكن أن نجبر أحداً منهم على التقهقر إطلاقاً ؟ » . وأجاب ميرالدين « إنهم لن يتزحزحوا خطوة واحدة ، حتى لو هاجمهم كل الوثنيين »^(١).

« وحينئذ قام بجمع صفوفه ضدنا على الرغم من اضطرابه . ذلك أنهم عندما كانوا يستطيعون منعنا من الخروج في البداية تركونا نخرج في سلام . وعلى أية حال ، فإن رجالنا ، توجهوا بصفوفهم صوب الجبال خوفاً من أن يحيط بهم الأتراك من المؤخرة . وكانت الجبال على مسيرة ميلين من الجسر . وكنا نسير في تشكيل مفتوح لأن القساوسة أرادوا السير في مسيرة دينية بالتراتيل ، وبالفعل سرنا في مسيرة دينية . لأن القساوسة والرهبان الكثيرين ، الذين كانوا يرتدون المسوح البيضاء ، تقدموا صفوف فرساننا ، وهم ينشدون ويطلبون مساعدة الرب وبركة القديسين ، وعلى العكس من ذلك اندفع العدو ضدنا وأطلق السهام . وكان كربوقا مستعداً آنذاك لأن يفعل ما كان قد رفضه منذ وقت قصير ، فقد أرسل رسالة شفوية إلى امرأتنا يقترح أن يقوم خمسة أو عشرة من الأتراك بقتال عدد مماثل من الفرنج ، وعلى الذين يهزم فرسانهم أن يستسلموا للآخرين . وقد أجاب أمراقنا على هذه الرسالة « لقد رفضت حين كنا نريد هذا ؛ والآن وقد زحفنا للقتال ، فليقاتل كل عن حقه » .

« وعندما قمنا باحتلال السهل كله ، كما قلنا ، ظل جزء من الأتراك خلفنا وهاجموا بعض جنودنا المشاة . ولكن أولئك المشاة ، تمكنوا من صد الهجمة المعادية ببسالة وقوة . وعندما لم يتمكن الترك من دفعهم ، أشعلوا النيران حولهم ، حتى يملك الرعب والخوف من النيران أولئك الذين لم يخشوا السيف . وهكذا أجبروهم على الهرب لأن هذا المكان كان به كميات كبيرة من التبن الجاف .

« وعندما تقدمت الصفوف ، وقف القساوسة حفاة الأقدام في مسوحهم الكهنوتي ، في أسوار المدينة يطلبون من الرب الدفاع عن شعبه ، وأن يقدم شهادة قدسها بدمه ، من خلال انتصار الفرنج . وفضلاً عن ذلك ، وبينما كنا نتقدم من الجسر حتى الجبل ، جابهتنا صعوبة كبيرة بسبب رغبة العدو في الإحاطة بنا . وفي خضم هذا ، انقضت صفوف العدو علينا نحن

(١) واضح من صياغة هذا الحوار أنه لم يكن له وجود سوى في عقل القسيس الكاثوليكي ريمون الذي كتب هذه الرواية ، وهي طريقة كانت مألوفة في صياغة المؤلفات التاريخية آنذاك؛ إذ كان المؤرخ يجعل الشخصيات التاريخية تنطق بانكاره وآرائه هو ، حتى في هذه الصورة غير المنطقية.

الذين كنا في فيلق الأسقف، وعلى الرغم من أن قواتهم كانت أكبر من قواتنا ، فإنهم لم يجرحوا أحداً بفضل حماية الحرية المقدسة التي كانت معنا، كما أنهم لم يصيبوا أحداً منا بسهامهم. وكنت أتأمل هذه الأمور التي أتحدث عنها وأنا أحمل حربة السيد. وإذا قال أحد إن الفيسكونت هيرالكليوس، حامل راية الأسقف ، قد جرح في المعركة ، فليعلم أنه كان قد سلم رايته لغيره وسقط خلف خطوطنا وعلى بعد مسافة منا.

« وعندما تكامل خروج جميع مقاتلينا من المدينة ، ظهرت بيننا خمسة صفوف أخرى. لأن أمراعنا كانوا قد شكلوا ثمانية صفوف فقط، كما ذكرنا ، ولكننا صرنا ثلاثة عشر صفاً خارج المدينة . وفي بداية المسير خارج المدينة للقتال أرسل الرب على كل جيشه رذاذاً مقدساً، كان صغيراً ولكنه مفعم بالبركة. وكل الذين مسهم هذا الرذاذ امتلأوا بالنعمة الإلهية والصبر والجلد، وتقدموا وهم يحتقرون العدو كما لو كانوا دائماً ينعمون بأطياب حياة الملوك. ولم يكن تأثير هذه المعجزة أقل قدراً على خيولنا ، ذلك أن أحداً لم تفشل خيوله حتى انتهى القتال على الرغم من أن هذه الخيول لم تكن قد تنوقت شيئاً سوى العشب أو أوراق الأشجار على مدى ثمانية أيام. وقد أكثر الرب من عدد جيشنا لدرجة أننا كنا نبدو أقل عدداً من العدو قبل المعركة، ولكننا أثناء المعركة صرنا نفوقهم عدداً . وعندما تقدم رجالنا على هذا النحو واتخذوا التشكيل القتالي لاذ العدو بالفرار دون أن يعطينا فرصة الالتحام في القتال. وطاردهم رجالنا حتى الغروب وهناك تجلت معجزات الرب سواء من خلال الرجال أو من خلال الخيول، ذلك أن الرجال لم يكونوا يتركون المعركة بدافع الجشع والطمع، كما أن خيول الأحمال (الجناثب) التي قادها أصحابها إلى ميدان المعركة، كانت تتابع خيول الأتراك الفاتكة السرعة في سهولة ويسر، وبعد أن نالت حظاً قليلاً من الطعام.

« ولكن الرب لم يشأ لنا أن نحرز هذا الفرح فقط ، لأن الأتراك الذين كانوا يحرسون القلعة استسلموا لليأس عندما رأوا فرار قومهم. وسلم بعضهم أنفسهم إلينا مقابل النجاة بأرواحهم فقط، على حين لاذ البعض الآخر بالفرار. وعلى الرغم من أن هذه المعركة كانت مربعة ومخيفة، فإن عدد الذين سقطوا من فرسان العدو كانوا قليلين، ولكن الذين نجوا من جنودهم المشاة كانوا قلة قليلة . وفضلاً عن ذلك ، تم الاستيلاء على جميع خيام العدو، وتم الإستيلاء على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، وكميات هائلة من الغلال والماشية والجمال التي تفوق الحصر...»

٣ - رواية فوشيه الشارترى (*)

« وعندما شاء الرب، الذى استجاب لصلوات شعبه، أن ينهى عمل شعبه الذين كانوا يتوسلون إليه يومياً طالبين العون والمساعدة، منحهم حبه، بحيث تسلم لهم المدينة سرّاً بفضل خيانة هؤلاء الأتراك أنفسهم، وتعود ثانية للمسيحيين، فاستمعوا إلى قصة خيانة، ومع ذلك فهي ليست خيانة.

« فقد تجلى سيدنا لواحد من الأتراك، اختاره بنعمته^(١)، وقال له: « انهض أيها النائم، فأبنتى أمرك أن تعيد المدينة للمسيحيين ». وقد صمت الرجل المندهش عن هذه الرؤيا.

« ومرة أخرى تجلى الرب له وقال « أعد المدينة للمسيحيين، لأننى أنا المسيح حقاً أمرك بهذا ». وثار الرجل فى أمره ولم يدر ماذا يفعل فذهب إلى سيده أمير أنطاكية وأخبره بنبأ الرؤيا، فأجابه بقوله: « هل تريد أيها الرجل أن تطيع شعباً ؟ » فعاد الرجل أدراجه وظل على صمته.

« ثم عاود الرب الظهور له قائلاً: « لماذا لم تفعل ما أمرت به ؟ ليس لك أن تتردد لأننى أنا الذى أمر بهذا سيد الجميع ». وإذا تخلص التركى من شكوكه رتب مؤامرة مع رجالنا بحيث يحصلون على المدينة.

« وعندما تم هذا الاتفاق، أعطى التركى ابنه رهينة للسيد بوهيموند الذى كان أول من عرف بأمر هذه الخطة وأول من تأثر بها. وفى الليلة الموعودة ساعد التركى عشرين من رجالنا على الصعود فوق الأسوار بواسطة سلم من الحبال. وفى الحال تم فتح البوابة دون تأخير، ودخل الفرنج الذين كانوا متأهبين إلى المدينة. وقام أربعون من جنودنا الذين كانوا قد دخلوا المدينة بذبح ستين تركيا وجدهم يحرسون الأبراج. ثم صاح الفرنج جميعاً بصوت عال «الرب يريدنا ». لأن هذه كانت صيحة الحرب التى كنا نطلقها عندما نكون على وشك إنهاء أى مشروع جيد.

(*) Fulcher, pp. 98 - 107.

(١) يشير الكاتب هنا إلى فيروز، أو بيروس Pirus، الذى تشير المصادر الصليبية إليه باعتباره من الأتراك السلاجقة، بينما توضح المصادر العربية أنه كان أرمنياً اعتنق الإسلام بعد أن استولى الأتراك السلاجقة على مدينة أنطاكية. واسمه الأرمنى فيروز يعنى «المنتصر»، وكان من عائلة تشغلت بصناعة السلاح. وهذه الرواية الخيالية تناسب أسلوب فوشيه الذى كان من رجال الكنيسة.

« وعندما سمع الأتراك هذه الصيحة غشبيهم خوف شديد، وسرعان ما بدأ الفرنج يهاجمون المدينة، وبدأت أنوار الفجر تلوح في الأفق . وعندما لاحظ الأتراك راية بوهيموند الحمراء أولاً، تخفق عالية ، وسمعوا الضوضاء التي تشق صمت المكان ، وأصوات طبول الفرنج تدوى فوق أسوار المدينة، على حين أخذ الفرنج يجرون في شوارع المدينة وسيوفهم مشرعة ويقتلون الناس في وحشية ، تملكثهم الحيرة وبدأوا يحاولون الهرب هنا وهناك، وهرب أكبر عدد ممكن من الأتراك صوب القلعة التي كانت قائمة على تل مرتفع .

« واستولى رجالنا، بلا تمييز على كل ما وجدوه في الشوارع والبيوت، ولكن الفرسان الذين كانوا على دراية بأمور الحرب، استمروا في البحث عن الأتراك وقتلهم.

« أما أمير أنطاكية ، المدعو أو كسيانوس ^(١)، فقد قطعت رأسه بيد فلاح أرمنى وهو يحاول الهرب، وقد أحضر الفلاح رأسه إلى الفرنج.

« وحدث بعد الاستيلاء على المدينة أن رجلاً وجد حربة في حفرة في الأرض تحت كنيسة بطرس المبارك ^(٢). وعندما تم اكتشافها أكد الرجل أنها الحربة نفسها طعن بها لونجينيوس الجانب الأيمن للمسيح، كما يقول الكتاب المقدس ^(٣). وقال إن سان اندرو الصوارى هو الذى كشف له عنها.

« وعندما تم اكتشافها وقام الرجل نفسه بإخبار كونت ريمون وأسقف لوبوى، ظن الأسقف أن القصة زائفة، ولكن الكونت كان يأمل في أن تكون قصة حقيقية.

« وعندما سمع الناس كلهم بهذا مجبوا الرب وعظموه. وعلى مدى مائة يوم تقريباً كانت الحربة تحظى بتبجيل شديد ويحملها كبير قساوسة الكونت ريمون الذى تولى حراستها. ثم حدث أن كثيرين من القساوسة والعلمانيين تردوا، وظنوا أن هذه ليست حربة الرب ولكنها حربة أخرى لفقها هذا الرجل المعتوه.

« وبعد هيام وصلوات استمرت ثلاثة أيام أشعلوا النار في كومة من الأخشاب في الميدان

(١) يقصد «ياغى سيان».

(٢) كان فوشيه في ذلك الوقت في الرها ، بيد أن كلماته تكشف عن مدى تشككه في قصة الحربة المقدسة، وكان فوشيه من المعارضين لمحاولة ريمون كونت سان جيل استغلال قصة الحربة لإحراز مكان الزعامة لنفسه.

(٣) جاء في إنجيل يوحنا ١٩ : ٣٤ «لكن واحداً من العسكر طعن جنبه بحربة ، ولوقت خرج دم وماء».

الكائن قبالة مدينة أركاس فى الشهر الثامن بعد الإستيلاء على أنطاكية ^(١)؛ وقام الأساقفة بمباركة النيران، وجرى مكتشف الحربة بسرعة وسط النيران لكى يبرهن على أمانته، بناء على طلبه، وعندما مر الرجل خلال اللهب ثم خرج وجذوه مذبذباً، لأن جلده احترق وعرفوا أنه قد لحق به ضرر مميت داخل جسده، وقد عرف هذا وشاع لأنه مات فى اليوم الثانى عشر مثقلاً بالذنب الذى جنأه.

« ولأن الجميع كانوا يبجلون الحرية حباً وتكريماً للرب، فإنه عندما انتهت المحاكمة عن طريق المحنة تملك الحزن والريبة أولئك الذين كانوا يعتقدون فيها من قبل، ومع هذا فإن الكونت ريمون ظل يحتفظ بها بعد ذلك لفترة طويلة.

« وفى اليوم التالى للإستيلاء على أنطاكية، كما حكينا من قبل، فرض جمع غفير من الأتراك الحصار على المدينة، ذلك أنه بمجرد بأن عرف السلطان، الذى هو ملك الفرس، أن الفرنج يحاصرون أنطاكية حتى أمر بجمع عدد كبير من الرجال وأرسل جيشاً ضد الفرنج. وكان قائد هؤلاء الناس هو كربوقا.

« وظل ثلاثة أسابيع قبالة مدينة الرها، التى كان يحكمها آنذاك السيد بلديون، ولكنه حين فشل فى تحقيق شيء هناك أسرع يحث الخطى صوب أنطاكية لكى ينقذ الأمير أوكسيانوس. « وعندما رأى الفرنج هذه الأمور خارت شجاعتهم من جديد، وكان ذلك عقاباً مضاعفاً لهم بسبب خطاياهم ، لأنهم حين دخلوا المدينة ارتكب الكثيرون منهم جريمة الزنا.

« وحينئذ دخل المدينة حوالى ستين ألف من الأتراك عن طريق القلعة القائمة على جانب التل المرتفع، وبدأوا يطبقون على رجالنا بهجمات متعددة جسورة. ولكنهم لم يبقوا طويلاً لأن الرعب تملكهم وتركوا المدينة لكى يحاصروها من الخارج. وظل الفرنج محصورين داخل أسوار المدينة تحت وطأة متاعب تفوق الخيال.

« وفى الوقت نفسه ، تجلى الرب لكثيرين من الناس، وهى حقيقة رددوها كثيراً واستراحوا حين وعدهم أنهم سوف يفرحون بالنصر عما قريب. ثم تجلى الرب لأحد القساوسة وكان هاريا خشية الموت وقال له «إلى أين أنت ذاهب أيها الأخ؟» فقال « إننى هارب حتى لا أهلك».

(١) هذه المحاكمة التى جرت على الطريقة الجرمانية وقعت يوم ٨ أبريل ١٠٩٩م، فى مدينة عرقة على مسافة حوالى ثلاثة عشر ميلاً شمال شرق طرابلس.

وهكذا هرب الكثيرون خشية لهلاك بأثياب الموت المرعب^(١).

« وأجاب السيد رداً على القسيس » لا تهرب ، ولكن عد بسرعة وأخبر الآخرين أنتي ساكون معهم فى المعركة. لأننى استجبت لصلوات أمى وساكون رحيماً بالفرنج. ولكن لأنهم ارتكبوا الخطايا أوشكوا على الهلاك. وليكن أملهم فى دائماً ، وسوف أجعلهم ينتصرون على الأتراك. وليتوبوا ويكفروا عن خطاياهم وسوف أنقذهم. لأننى أنا السيد الذى أتحدث إليك . وعاد القسيس أدراجه وحكى ما سمعه .

فى الوقت نفسه كان كثيرون من الفرنج يهولون لو نزلوا من الأسوار ليلاً بالحبال وفروا هاربين، خوفاً من الموت بدافع العوز والحاجة أو بحد السيف. وقد ظهر لواحد من هؤلاء الذين كانوا ينزلون على الأسوار، أخوه الذى كان قد مات بالفعل وقال له « إلى أين تهرب يا أخى؟ أبقى ولا تخف لأن الرب سيكون معكم فى نضالكم ، كما أن رفاقكم فى هذه الرحلة والذين سبقوكم فى طريق الموت سيحاربون معكم ضد الأتراك » . واندش عندما سمع كلمات الميت فكف عن الهرب وأخبر الآخرين عما سمعه.

« ولأنهم لم يعولوا قادرين على تحمل مثل هذا الكرب، إذ لم يكن لديهم شيء يأكلونه مما جعلهم هم وخيولهم غاية فى الضعف. وعندما شاء الرب أن ينهى شقاء خدامه ، اتفقوا على صيام ثلاثة أيام مع الصلوات على أمل أن تكون هذه الكفارات والصلوات وسيلة لاسترحام الرب واستعاطفه.

« وفى الوقت نفسه وبعد أن تشاور الفرنج أرسلوا إلى الأتراك بطرس الناسك يقولون إنهم إذا لم يخلوا الأراضى التى كانت ملكاً للمسيحيين فيما مضى بهدوء فإن الفرنج سوف يهاجمونهم بكل تأكيد. وإذا قبل الأتراك ستكون المعركة بين خمسة أو عشرة أو عشرين أو حتى مائة من الفرسان يختارون من كل جانب، حتى لا يموت عدد كبير فى القتال الشامل. والجانب الذى ينتصر رجاله على الآخرين تكون المدينة وحكمها من حقهم نون نزاع.

« كان هذا هو الطلب ، ولكن الأتراك رفضوه . إذ إنهم كانوا واثقين فى أعدادهم الكبيرة وفى قوتهم وظنوا أن بمقدورهم أن يهزمونا ويدمرونا.

(١) هذه ترجمة لبیت شعر كتبه فوشيه تعليقا على روايته ، وهو أمر يتكرر بين الحين والآخر فى تاريخه.

« وكان عددهم يقدر بحوالى ثلاثمائة ألف من الفرسان والمشاة . وكانوا يعرفون أن فرساننا يعانون من الضعف، وأن مشاتنا لا حول لهم ولا قوة.

» ثم رجع بطرس مندوبنا ومعه إجاباتهم، وعندما سمعها الفرنج أعدوا أنفسهم للمعركة دون تردد، وأضعين أملهم كله فى الرب.

« وكان قادة الأتراك كثيرين ويسمون «الأمراء» ^(١)، وكانوا كورباجات، ومالدوكات ^(٢)، وأميسليمات ^(٣)، وكثيرون غيرهم لا مكان لذكرهم.

» أما أمراء الفرنج فكانوا؛ هيو الكبير، وروبرت كونت نورماندى ، وكونت الفلاندرز، والدوق جودفرى ، والكونت ريمون، وبوهيموند ، فضلاً عن كثير من النبلاء الأقل رتبة، وليمنح الرب بركته إلى روح أديمار لوبوى، الذى كان هو نفسه رجلاً رسولياً ، وكان دائماً يواسى الناس ويقويه فى الرب بعطفه وحنانه.

« يا لها من احتياطات تفيض بالتقوى ! ففى الليلة السابقة أمر أديمار نفسه بأنه ينبغي على كل فارس فى جيش الرب أن يعطى جواده أكثر قدر ممكن من الغلال المخصصة له، ومهما غلا ثمنها، خوفاً من أن ينهار الجواد فى اليوم التالى ساعة المعركة، تحت وطأة الضعف والجوع. وصدر الأمر وتم تنفيذه على هذا النحو.

« وهكذا انطلق جميع من كانوا مستعدين للمعركة خارج المدينة مع تباشير النهار فى اليوم الرابع قبل نهاية شهر يوليو ^(٤) . وتم تنظيم المشاة والفرسان فى جماعات وفيالق تتقدمها بيارقها وأعلامها، وكان بينهم القساوسة فى مسحوم البيضاء، وكان هؤلاء ييكون من أجل الشعب كله، ويغنون الرب ويصلون كثيراً من أعماق أرواحهم التقية المتدينة.

» ثم شاهد أمير تركى يدعى أمير داليس ، وهو فارس متميز للغاية، رجالنا يتقدمون ضد الأتراك وراياتهم ترفرف عالية فانتابتهم الدهشة، وعندما رأى بيارق قادتنا وتعرف عليها، تتقدم الواحدة تلو الأخرى فى ترتيب ونظام أدرك أن المعركة قادمة لا محالة عن قريب.

(١) هذه هى تسمية فوشيه الشارترى لكربوقا أتابك الموصل والقائد العام للجيش الإسلامى فى معركة أنطاكية.

(٢) شمس الملوك دقاق حاكم دمشق

(٣) الأمير سليمان بن إيلغازى على الأرجح.

(٤) ٢٨ يوليو ١٠٩٨ م.

« وكان على دراية بأنطاكية كما كان يعرف الفرنج . فأسرع إلى كربوقا وأخبره بما شاهده، وقال : «لماذا تلعب الشطرنج ؟ إنَّتبه إنَّ الفرنج قادمون» وأجابه هذا : «هل هم قادمون للقتال ؟ » فأجاب أميرداليس « حتى هذه اللحظة لست أدري، ولكن انتظر قليلاً » (١).

« وعندما تأكد أمير داليس أن رايات أمراثا كانت محملة في المقدمة بطريقة عسكرية، وأن صفوف الجيش قد اصطفت للمعركة بذكاء خلف الرايات عاد مسرعاً إلى كربوقا وقال «انظر إلى الفرنج » فأجابه «ماذا تظن؟ » فقال « أظن أنه ستتشب معركة ، ولكن انتظر قليلاً ، فإننى لا أتعرف على الرايات التى أراها ».

« وحين دقق النظر تعرف على راية أسقف لوبوى تتقدم الفيلق الثالث
لم ينتظر أكثر من ذلك فقال لكربوقا.

انتبه فالفرنج قادمون ، فلا تهرب وقاتل بشجاعة.

لأننى أرى راية البابا الجبار تتقدم صوب الأمام (٢).

« فاليوم قد يتملك الخوف من أن تهزم على أيدي الذين كنت تظن نفسك قادراً على استئصال شأفتهم».

وقال كربوقا : « سوف أبعث برسالة إلى الفرنج، أوافق على طلبهم الذى طلبوه بالأمس». فقال له أميرداليس «لقد جاء كلامك بعد فوات الأوان». ومع ذلك تقدم كربوقا بطلبه، ولكن طلبه قبول بالرفض. وفى الحال قام أميرداليس.

وانسحب تاركاً سيده، وامتلى صهوة جواده.

وفكر فى الهرب ، ولكنهبقى يحث كل رفاقه.

على أن يحاربوا ويسرعوا فى قذف سهامهم.

« وافرحته ! كان هيو الكبير ، والكونت روبرت النورمانى ، وروبرت كونت الفلاندرن، قادة الصف الأول فى الهجوم . وتبعهم الدوق جودفرى فى الصف الثانى مع الألمان واللوثرنجيين. وبعدهم جاء أسقف لوبوى مع رجال الكونت ريمون والجاكسون والبروقنساليين. وبقي الكونت نفسه فى المدينة لحراستها . وكان بوهيموند يتولى بمهارته حراسة مؤخرة الجيش.

(١) على الرغم من أن فوشيه نقل هذا الفصل تقريباً عن ريمون الأجولرى، فإنه يحاول صياغته وفقاً لأسلوبه الخاص وكنهه نوع من التأليف الأدبى بغض النظر عن الحقائق التاريخية، لاسيما فيما يتعلق بالحوار بين الأمير التركى وكربوقا.

(٢) هذه واحدة من محاولات فوشيه فى صياغة الأحداث شعراً.

« وعندما رأى الأتراك أن الجيش الفرنجى قد اخترق صفوفهم بهجمة قوية، بدأوا يهاجمون فرادى ويطلقون سهامهم مثلما جرت عادتهم. ولكن الخوف الذى سلطته عليهم السماء غشيتهم بحيث ولوا الأدبار هاربين فى فزع كما لو كانت الدنيا بأسرها تطاردهم، وطارد الفرنج الهاربين قدر استطاعتهم.

« ولكن لأن الفرنج كانوا يملكون خيولاً قليلة ضعيفة وجائعة، لم يستطيعوا أن يأسروا عدداً كبيراً من الوثنيين كما كان ينبغى. وعلى أية حال، كانت خيام الأتراك ما تزال باقية فى معسكرهم. وفيها وجد الفرنج أشياء من كل نوع، مثل الذهب والفضة والحبال والملابس والأواني، وأشياء أخرى كثيرة كان الأتراك قد تركوها أو رموها أثناء هربهم المذعور من معسكراتهم. وعلى سبيل المثال كان يوجد هناك الخيول والبغال والجمال والحمير والعمامم الفاخرة والأقواس والسهام فى جعابها.

« وهرب كريبوقا، مسرعاً مثل الفزال، بعد أن كان يهاجم الفرنج كثيراً بالكلمات المحمومة والتهديدات. ولكن لماذا هرب، وعنده مثل هذا الجيش الكبير المدعم بالفرسان؟ لأنه جرد على أن يحتقر الرب فالرب الذى شاهد أبهة كريبوقا من بعيد هو الذى دمر قوته تماماً.

« وأولئك الأتراك الذين كانت خيولهم قوية وسريعة تمكنوا من الهرب. ولكن الضعفاء تركوا للفرنج. وتم أسر كثير من المشاة على نحو خاص. ومن ناحية أخرى، جرح عدد قليل من رجالنا. أما النساء اللاتى وجدن فى خيام الأتراك فإن الفرنج لم يرتكبوا معهم شراً وإنما أدخلوا حرايهم فى بطونهم.

« ثم مجد الجميع الرب بصوت يتهلل فرحاً. فإنه برحمته وعطفه حررهم من أقسى أعدائهم، وعلى الرغم من أنهم كانوا فى كرب وعوز، فإنهم وضعوا ثقتهم فى الرب. ويعظمته بعثر الأتراك مهزومين بعد أن كانوا على وشك إلحاق الهزيمة بالمسيحيين. وعاد رجالنا إلى المدينة يرفلون فى الثراء بفضل الغنائم والأسلاب التى غنموها.

« عندما تم الاستيلاء على مدينة أنطاكية القديمة

. كانت قد مرت ألف ومائة سنة، تنقص سنتين.

على ميلاد سيدنا من العذراء.

« ثم مات الأسقف أديمار فى شهر أغسطس، فلتنعم روحه بالسلام الأبدى. أمين. ثم

رحل هيو الكبير إلى القسطنطينية، بموافقة الأمراء، ومن هناك رحل إلى فرنسا.»

خطاب زعماء الصليبيين إلى البابا إريان الثاني حول الأحداث التي مرت بهم حتى سقوط أنطاكية (*)

كتب هذا الخطاب في ١١ سبتمبر ١٠٩٨م، وهو يدين البيزنطيين والمسيحيين الشرقيين باعتبارهم مراطقة، ويحث البابا إريان الثاني على أن يجعل أنطاكية مقر الكرسي البابوي ومنها يتولى قيادة الصليبيين صوب الضريح المقدس، وهذه الدعوة الغريبة المدمشة كان يمكن أن تؤدي إلى التضحية بالصدقة مع المسيحيين الشرقيين وهي الصداقة التي سعى إليها البابا في كليرمون.

ويبدو أن بوهيموند وراء كتابة هذا الخطاب، وربما يكون كاتبه هو المؤرخ المجهول الذي كتب «أعمال الفرنجة» والذي كان معجباً ببوهيموند، ففي هذا الخطاب تتضح خطة بوهيموند لنقض الإنفاق مع البيزنطيين والاستيلاء على أنطاكية لحسابه الخاص، ولسنا ندري رد فعل البابا تجاه هذا الخطاب الغريب؛ فقد مات قبل أن يتمكن من القيام بأي عمل.

* * *

« إلى السيد المجل البابا إريان؛ من بوهيموند ، وريمون كونت سان جيل، والنوق جودفري أمير اللورين ، وكونت روبرت أمير نورماندى ، وروبرت كونت الفلاندرز والكونت إيستاس البولوني^(١) تحياتنا ، ومثلما يبعث الأبناء إلى أبيهم الروحي : نعلن أننا خدام مخلصون ورعايا حقيقيون في حب المسيح.

« ونحن نرغب أن نحيطكم علما أنه بفضل رحمة الرب العظيمة وبفضل مساعدته الرائعة استطعنا أن نستولى على مدينة أنطاكية ؛ بحيث أن الأتراك الذين سببوا كثيرا من العار لسيدنا يسوع المسيح ، وقعوا ضحية الأسر والذبح ؛ وأننا حجاج المسيح الذاهبون إلى القديس قد انتقمنا للرب العظيم كما أننا حاصرنا الأتراك أولاً ثم وقفنا تحت حصار أتراك آخرين قدموا من خراسان ، والقدس ، ودمشق ، وأماكن أخرى كثيرة ، وكيف نجونا بفضل رحمة يسوع المسيح .

(*) Fulcher, pp. 107 - 112.

(١) إيستاس الثالث ، كونت بولونيا والآخر الأكبر للنوق جودفري وبلدوين الأول. وقد عاد لوطنه بعد الحملة الصليبية.

« فبعد الاستيلاء على نيقية ، انتصرنا على الأعداد الكثيرة من الأتراك الذين قابلونا في شهر يوليو كما سمعتم ، في وادي ضورويوم وهزمتنا سليمان القوى وجردناه من كل أراضيهم وأملاكه وبعد أن حصلنا على رومانيا [آسيا الصغرى] وأخضعناها كلها ، زحفنا لفرض الحصار على أنطاكية . وفي حصارها كابدنا مصاعب ومشاق عديدة ، لاسيما من جراء الهجمات التي كان يقوم بها الأتراك والوثنيون المجاورون الذين كانوا غالباً ما يندفعون نحونا بأعداد كبيرة لدرجة أننا يمكن أن نقول إننا كنّا محاصرين من قبل أولئك الذين حاصروناهم في أنطاكية.

« وأخيراً كسبنا كافة المعارك وارتقت العقيدة المسيحية بفضل هذا النجاح على النحو التالي: فقد اتفقت أنا بوهيموند مع أحد الأتراك وسلمنى المدينة. فقبل الفجر بقليل في الثالث من شهر يونيو وضعت السلالم على سور المدينة ، وهكذا استولينا على المدينة التي كانت تقاوم المسيح . وقد ذهبنا كاسيانوس^(١) طاغية المدينة ، وكثيرين من جنوده، وأبقينا على زوجاتهم وعائلاتهم وكذلك الذهب والفضة وسائر أملاكهم ، غنائم لنا.

« وعلى أية حال، لم نستطع الإستيلاء على قلعة أنطاكية ، التي كان الأتراك قد دهموا تحصيناتها من قبل . ولكن عندما أتممنا استعدادنا للهجوم عليها في اليوم التالي ، شاهدنا أعداداً لا تحصى من الأتراك يتحركون خلال كافة أرجاء الريف. وظللنا عدة أيام نتوقع أن يصلوا ويقاتلونا على حين كنا ما نزال خارج المدينة . وفي اليوم الثالث بعد أن أخذنا المدينة ، فرضوا الحصار علينا ، ودخل أكثر من مائة ألف منهم القلعة المذكورة ، وعلى أمل أن يندفعوا من خلال بواباتها إلى ذلك الجزء من المدينة الذي تقع فيه ، والذي كان قسمة بيننا وبينهم.

« ولكننا ، كنا نعسكر على مرتفع آخر قبالة القلعة ، وتولينا حراسة الممر الذي يربط بين الجيشين والذي ينحدر إلى المدينة بحيث لم يتمكن الأتراك بأعدادهم الكبيرة أن يمسروا من خلاله. وكنا نحارب داخل الأسوار وخارجها ليلاً ونهاراً وأخيراً أجبرنا أعدائنا على الرجوع إلى معسكرهم، عبر بوابة القلعة التي كانت تؤدي إلى داخل المدينة.

« وعندما أدركوا أنهم لا يستطيعون إبداءنا من هذا الجانب أحاطوا بنا من جميع النواحي بحيث أن أحداً لم يكن يقدر على دخول المدينة أو الخروج منها. ولهذا السبب انهارت شجاعتنا

(١) يقصد ياغى سيان.

جميعاً وتخاذلنا لدرجة أن كثيرين منا، كانوا على وشك الموت جوعاً أو إرهاقاً، ذبحوا خيولهم وحميرهم واتهموها على الرغم من أنها هي الأخرى كانت تتضور جوعاً.

« وفي الوقت نفسه، بفضل رحمة الرب العظيم الذي كان يرعانا ويساعدنا، وجدنا حرية الرب التي اخترقت جنب مخلصنا بيد لونجينوس، وقد تم الكشف عنها ثلاث مرات لواحد من خدام الرب على يد القديس أندرو الحواري الذي دله على المكان حيث كانت الحرية مدفونة في كنيسة بطرس المبارك، أمير الحواريين، وإذا استرحنا لهذا الكشف، وبفضل عدد كبير من الرؤى والأحلام المقدسة، قوى ساعدنا لدرجة أننا بعد أن تملكنا التخاذل والتعاس من قبل، صرنا وقتذاك نحث بعضنا بعضاً على القتال في شجاعة وإقدام متناهيين.

« وبعد أن ظللنا تحت الحصار ثلاثة أسابيع وأربعة أيام، اعترفنا بخطايانا ووضعنا أنفسنا تحت تصرف الرب، ثم خرجنا من بوابات المدينة لنخوض المعركة عشية عيد القديسين الرسولين بطرس وبولس، وكنا من القلة بحيث ظن العدو أننا لن نحاربه، وإنما سنفر هاربين.

« وعلى أية حال، عندما أخذنا أهبتنا جميعاً، واصططفت مشاتنا وفرساننا في نظام وترتيب، تقدمنا في جسارة ومعنا حرية الرب صوب مركز أكبر قوة من الأتراك وأجبرناهم على الهرب من موقعهم المتقدم. وبدأوا ينتشرون في كل اتجاه جرياً على عاداتهم، واحتلوا التلال والطرق في كل صوب وحذب ثلثاً منهم أن يحكموا الخناق حولنا، وبذلك كانوا يأملون في ذبحنا جميعاً. ولكننا كنا قد تدريبنا على أساليبهم وحيلهم في عدة معارك، وساعدتنا نعمة الرب ورحمته على أن نقهرهم جميعاً على الرغم من قلة عددهم بالنسبة لهم، وإذا كانت يد الرب اليمنى تقاتل معنا، أجبرنا الأتراك على الهرب وهجران معسكرهم بكل محتوياته.

« وبعد أن تغلبنا على الأتراك وطاردناهم على مدى يوم كامل وقتلنا عدة ألوف منهم، رجعنا إلى المدينة فرحين مسرورين وسعداء، ثم قام أحد الأمراء بتسليم القلعة، التي سبق ذكرها، إلى بوهيموند وبها ألف رجل، وبفضل بوهيموند سلمهم جميعاً للعقيدة المسيحية. وهكذا قام سيدنا يسوع المسيح بتخليص أنطاكية كلها وتسليمها إلى الديانة والعقيدة الرومانية.

« ولأن شيئاً محزناً يحدث دائماً وسط الأفراح، فإن أسقف لوبوى، الذي كنت قد أرسلته نائباً عنك، مات في شهر أغسطس. وكان هذا بعد المعركة، التي كان له فيها دور نبيل، وبعد أن خيم السلام في ربوع المدينة.

« ولذا فإننا أبناءك ، المفجوعون في الأب الذي عينته لنا ، نسألك يا أبانا الروحي ما يلي: بما أنك أنت الذي بدأت هذا الحج وبخطبك ومواعظك جعلتنا جميعاً نترك بلادنا وكل ما فيها ، منذ أن حفرتنا على تتبع المسيح بحمل الصليب ، وبما أنك حرضتنا على أن نرفع عالياً اسم المسيح بتحقيق ما ناديت به ، فإننا نرجوك أن تأتي إلينا وأن تحدث من يمكنه أن يأتي معك ، لأن اسم المسيحية نبع من هنا . فبعد أن توج بطرس المبارك في الكنيسة التي نراها كل يوم ، كان أولئك الذين يسمون الجليليين قبل ذلك أول من تسموا بالمسيحيين . ومن ثم ، فماذا في الدنيا يمكن أن يكون أصح من أنك ، أنت أبورأس العقيدة المسيحية ، تأتي إلى المدينة الرئيسية وعاصمة الاسم المسيحي وتنتهي الحرب ، وهي مشروك ، بنفسك ؟ »

« لقد أخضعنا الأتراك والوثنيين ؛ ولكن الهراطقة من اليونانيين والأرمن والسوريان واليعاقبة لم نستطع التغلب عليهم . ولذا نسألك ونلج في السؤال أن تأتي أنت أيها الأب العزيز أبا ورئيساً إلى مكان سلفك ؛ أنت نائب بطرس المبارك ينبغي أن تجلس على عرشه وتستخدمنا أبناء مطيعين في تنفيذ كل ما هو صحيح ، وحتى يمكنك بقوتك وسلطانك أن تدمر الهراطقات كلها وتقضي عليها أياً كان نوعها . وهكذا تنتهي معنا الحج الذي قمنا به إلى يسوع المسيح بعد أن أعلنت عن بدايته ، وسوف تفتح لنا بوابات أورشليم السماوية والأرضية وتحرر ضريح سيدنا وترفع الاسم المسيحي فوق الجميع . لأنك إذا جئت إلينا وأنهيت معنا الحج الذي بدأناه بك ستكون الدنيا كلها رهن إشارتك . فليدفعك الرب الذي يحيا ويحكم إلى الأبد لفعل هذا . آمين . »

الطريق إلى القدس (أبريل ١٠٩٩ - يوليو ١٠٩٩ م)

بعد أن استولى الصليبيون على قلعة أنطاكية خلصت لهم المدينة تماماً ، ولكن المشاكل التي نشبت بين بوهيموند الذي أدى الحق في حكم أنطاكية ، وريمون كونت سان جيل الذي رفض الاعتراف له بهذا الحق ، ومحاولات القادة الصليبيين الآخرين للتوفيق بين الجانبين، جعلت الصليبيين يمكثون في المدينة أكثر من تسعة أشهر . وانتهى الخلاف لصالح بوهيموند عندما انسحبت قوات ريمون من الأماكن التي تحتلها في المدينة. وقرر الصليبيون جميعاً تجاهل الاتفاق الذي كانوا قد عقده مع الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس الذي كان يطالب بالمدينة لنفسه . وفي خضم هذا الصراع تفرق الجيش الصليبي. وأخذ القادة والفرسان ذوو الرتب الصغيرة يغيرون على المناطق الريفية المجاورة لأنطاكية ، وحاول كل منهم أن يحصل لنفسه على بعض الممتلكات. ولم تلبث القرى والمدن والقلاع المجاورة لأنطاكية أن خضعت للصليبيين بسبب ضعف المقاومة المحلية. ووجد الصليبيون أن المساكن مريحة والطعام لذيذ وبدأ أن إقامتهم سوف تدوم في شمال بلاد الشام. وساد انطباع بأن أنطاكية حلت محل القدس، وأن نهر العاصي حل محل نهر الأردن. ولكن فقراء الفرنج الذين كانت أطعمهم لم تتحقق بعد ، ثاروا في وجه الزعماء وهددوا بحرق أنطاكية .

وأقسم القادة من جديد على عدم نسيان القدس، وبعد أن كفروا عن ذنوبهم وأعلنوا توبتهم تحرك الصليبيون صوب القدس دون مقاومة تذكر ؛ بل إن بعض المدن ساعدت الفرنج بالمؤن والعتاد حتى يتخلصوا من الخطر الصليبي. وهجر المسلمون الذين أخذتهم المفاجأة ميناها والرملة ، مما أوجد للصليبيين منفذاً مباشراً إلى البحر المتوسط فيما بعد. ثم وصل الجيش الصليبي إلى مشارف القدس، واستمر الحصار خمسة أسابيع كاملة (٧ يونيو - ١٥ يوليو ١٠٩٩م) ، ثم سقطت المدينة بأيدي الصليبيين الذين ارتكبوا واحدة من أبشع المجازر في تاريخ البشرية .

والنصوص التالية تحكي هذه القصة بفصولها المتتابة ، ووفقاً لطريقة المؤرخين الصليبيين التي ألفناها من خلال متابعتنا لقصة الحملة الصليبية الأولى منذ البداية.

١- رواية فوشيه الشارترى (*)

« ... وفى الليلة التالية امتلأ مائة من خيرة الفرسان خيولهم ومروا مع ضوء الفجر بالقرب من القدس مسرعين صوب بيت لحم. وكان بينهم تنكرد وبلدوين^(١). وعندما اكتشف المسيحيون الذين كانوا يقطنون هناك من اليونانيين والسوريين أن الفرنج قد وصلوا ، غلبهم الفرح تماماً . وعلى أية حال، فإنهم فى بداية الأمر لم يعرفوا هؤلاء القوم وظنوا أنهم ربما كانوا من الأتراك أو العرب.

« ولكن بمجرد أن أدركوا هويتهم عندما اقتربوا وتأكدوا أنهم من الفرنج غمرهم الفرح ، وفى الحال حملوا الصليبان والرايات وخرجوا لمقابلتهم ، وهم سيكون وينشدون فى تقوى. كانوا سيكون لأنهم خافوا أن مثل هذا العدد القليل من الناس يمكن أن يلقوا حتفهم بأيدى الكثرة من الوثنيين الذين كانوا يعرفون بوجودهم فى البلاد . وكانوا يغنون مرحبين بأولئك الذين كانوا ينتظرون وصولهم منذ زمن طويل والذين كانوا يعتقدون أنهم سيعيدون للديانة المسيحية مكانتها السابقة التى اغتصبها الوثنيون منذ زمن بعيد.

« وبعد أن قام رجالنا بإعلان خضوعهم التقى للرب فى كنيسة مريم المباركة ، وبعد أن زاروا المكان الذى كان المسيح قد ولد فيه وأعطى قبلة السلام للسوريين، عادوا أدراجهم مسرعين صوب المدينة المقدسة ، القدس.

« تأمل ! هناك ظهرت بقية الجيش وهو يقترب من القدس . وعندما رفع حاملو الرايات فى مقدمة الجيش راياتهم عالية ليراهم أهل المدينة ، شن هؤلاء هجوماً عنيفاً ضدهم فى الحال. ولكن أولئك الذين خرجوا مسرعين من المدينة سيقوا بسرعة أكبر ليعودوا أدراجهم داخل المدينة.

وكان شهر يونيو يتوهج بحرارة شمس يومه السابع

عندما أحاط الفرنج بالقدس يحاصرونها . (٢)

(*) Fulcher, pp. 115 - 128 .

(١) هو بلدوين البورجى، وهو من مواطنى بلدوين الأول كونت الرها والذى صار ملكاً على بيت المقدس سنة

١١١٨م.

(٢) محاولة شعورية أخرى من فوشيه.

« تقع مدينة القدس فى إقليم جبلى عار من الأشجار والمجارى المائية باستثناء بحيرة سليمان التى تقع على مرمى قوس من المدينة. وفى بعض الأحيان يكون بها ما يكفى من المياه. وفى أحيان أخرى يقل ماؤها بسبب تسريه. وهذه العين الصغيرة موجودة فى الودى تحت سفح جبل صهيون فى مجرى نهر يفيض عادة زمن الشتاء فى وادى يوشيفاط.

« وهناك العديد من خزانات المياه داخل المدينة تحتفظ بأمطار الشتاء بحيث يكون بها ما يكفى من المياه. وهناك أيضاً آبار خارج المدينة حيث يشرب منها الناس والحيوان.

« ومن المسلم به عموماً أن المدينة قد بنيت فى تناسق بحيث لا تبدو مفرطة فى الصغر أو فى كبر الحجم. وعرضها ما بين السورين يعادل مرمى القوس أربع مرات. وفى ناحية الغرب يوجد برج داود الذى تحيط به أسوار المدينة من الجانبين؛ وإلى جنوب المدينة جبل صهيون على بعد مسافة أقل من مرمى القوس؛ وفى ناحية الشرق جبل الزيتون على بعد حوالى ألف مسافة من المدينة.

« وبرج داود المذكور مبنى من أحجار صلبة، ونصف الطريق إليه يساعد من كتل مربعة ضمت سوياً بمواد منصهرة. ويمكن لخمسة عشر أو عشرين رجلاً أن يصنوا عنه كل هجمات الأعداء إذا توفرت لهم المؤن.

« وفى المدينة نفسها معبد الرب، وهو مستدير الشكل، وقد بنى حيث كان سليمان قد شاد معبده الفخم فى الزمن القديم. وعلى الرغم من أنه لا يمكن مقارنته من حيث الشكل بالمعبد السابق، فإن هذا المبنى معجزة فى فن البناء وله مظهر فخم للغاية^(١).

« أما كنيسة ضريح الرب فهى أيضاً مستديرة الشكل. ولم يتم إغلاقها من سقفها وإنما تركت بها فتحات لكى تسمح للضوء بدخولها دائماً بفضل تصميمات مهندس ماهر.

« إننى لا أستطيع، ولا أجرب، ولا أعرف كيف أعد الأشياء التى تحويها الآن أو التى كانت تحويها فى الماضى حتى لا أخدع أولئك القراء أو المستمعين لهذه الحكاية. وفى منتصف المعبد عندما دخلناه أول مرة، وعلى مدى خمسة عشر عاماً بعد ذلك، كانت هناك صخرة [...] يستمر فى مناقشة وصف المعبد فى ضوء الروايات الواردة فى الكتاب المقدس[.]

(١) هذا المعبد الذى يتحدث عنه فوشيه باعتباره «معبد الرب» Templum Domini هو مسجد قبة الصخرة الجميل الذى بناه الخليفة عبد الملك بن مروان فوق الصخرة التى يعتقد أن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) قد صعد إلى السماء من فوقها فى رحلة الإسراء. وقد حوله الفرنج إلى معبد (كنيسة) بعد إستيلائهم على المدينة.

« وعندما تأمل الفرنج المدينة وتأكلوا أنه سيكون من الصعب الإستيلاء عليها، أمر قادتنا بصنع السلالم الخشبية . وحملوا هذه السلالم إلى أسوار المدينة حيث أقاموها وصعدوها عليها بهمة شديدة إلى قمة السور على أمل أن يدخلوا المدينة بمساعدة الرب.

« هذه السلالم صنعت فى اليوم السابع بعد أن أصدر زعمائنا أوامرهـم بالهجوم . وعندما دوت أصوات الطبول مع مطلع الفجر هاجم رجالنا المدينة من جميع النواحي بحيوية ظاهرة. بيد أنهم واصلوا الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار ولم يتمكنوا من الدخول بواسطة السلالم التى جهزوها لأن عندها كان قليلاً ، أوقفوا الهجوم.

« وبعد المشاورات أمر قادتنا المهندسين بصنع آلات الحرب، وكانوا يأملون أنه عندما يتم تحريك هذه الآلات ناحية الأسوار أن يُحققوا النتائج المرجوة بمساعدة الرب. ومن ثم فعلوا هذا.

« وفى الوقت نفسه ، لم يكن رجالنا يعانون من نقص الخبز أو اللحم. ومع ذلك فبسبب جفاف المنطقة ، وخلوها من المياه ، وعدم وجود مجرى مائى عانى رجالنا وحيواناتهم بسبب نقص مياه الشرب، وإذا ، فإنه عندما كانت الضرورة تقتضى، كانوا يحضرون الماء يومياً إلى الحصار من مسافة تبعد أربعة أو خمسة أميال، ويحملونها بمشقة فى جلود الحيوانات.

« وعندما تم تجهيز الآلات ، وهى منصات الإطلاق والمنجنيقات ، استعد رجالنا مرة أخرى للهجوم على المدينة . وبين هذه الآلات وضعوا برجاً مصنوعاً من قطع الخشب القصيرة لأنه لم يكن بالمنطقة أخشاب طويلة . وعندما صدرت الأوامر نقلوا البرج، مفككاً فى أجزاء ، تحت جناح الليل إلى ركن من أركان المدينة ، ثم أقاموه بسرعة فى الصباح بالقرب من السور فضلاً عن الأسلحة المساعدة الأخرى التى كانوا قد جهزوها . وبعد أن فرغوا من إقامة البرج وحموه جيداً بالأغطية من الخارج ، أخذوا يدفعونه بالقرب من السور ببطء وبالتدريج.

« ثم صعد البرج بعض الجنود ، كان عددهم قليلاً ولكن شجاعتهم فائقة ، عندما صدرت لهم إشارة بالطبول. ومع ذلك كان المسلمون يدافعون ضدهم . وكانوا يرمون كتلاً مشتعلة غمست بالزيت والشحم على البرج والجنود الذين فيه . ومن ثم لقى كثيرون من الجانبين حتقهم بغتة فى هذا القتال.

« وشن الكونت ريمون ورجاله هجوماً عنيفاً بالاتهم من الجانب الذى كانوا يتركزون فيه، وهو جبل سهيون . ومن الناحية الأخرى ، حيث كان الدوق جودرفى وكونت روبرت النورماندى، وروبرت كونت الفلاندرز يتركزون ، ثم شن هجوم أشد عنفاً على الأسوار. وكانت هذه هى حوادث ذلك اليوم.

« وعندما دوت أصوات الطبول فى اليوم التالى كرروا نفس الهجوم ببسالة وعنف أشد. وكانت النتيجة أنهم أحدثوا ثغرة فى السور بالأت النقب. وكان المسلمون قد علقوا لوحين من الخشب قبالة شرفات السور لحمايتهم من الأحجار التى يقذفها المهاجمون، وكانوا يرمطونها بالحبال. ولكن ما فعلوه لحمايتهم تحول إلى نقمة عليهم بفضل العناية الإلهية. لأنه حين حرك الفرنج البرج المذكور إلى السور قطعوا الحبال التى كانت الألواح الخشبية معلقة بها، وبهذه الأخشاب ملوا جسراً فى مهارة ما بين البرج وقمة السور.

« واشتعلت النيران فى أحد الأبراج الحجرية فوق السور ، كان رجالنا العاملون على آلات الحصار قد قذفوه بكتل اللهب، وبالتدريج إلتهمت النيران المواد الخشبية فى البرج، فتتج عنها لهب ودخان كثيف لدرجة أن أحداً من الحراس لم يستطع البقاء هناك.

« ولذا فإن الفرنج دخلوا المدينة فى الحال فى ظهر يوم الجمعة المقدسة Dies Veneris ، وهو اليوم الذى خلص المسيح فيه العالم كله على الصليب^(١). وفى وسط أصوات الطبول، وبينما كان كل شىء يزار عالياً ، واصلوا هجومهم بجسارة وإقدام، وهم يصيحون « ليساعدنا الرب ». وفى الحال رفعوا راية على قمة السور. وتملك الرعب الوثنيين تماماً، إذ تخلوا عن شجاعتهم التى تحلو بها من قبل وفروا هاربين عبر شوارع المدينة الضيقة. وكلما أسرعوا فى الهرب أسرع مطاردهم خلفهم.

« ولم يلاحظ كونت ريمون ورجاله، الذين كانوا يشنون هجوماً عنيفاً فى جزء آخر من المدينة، ما جرى حتى شاهدوا المسلمين يقفزون من فوق الأسوار. وعندما لاحظوا ذلك جرى فرحين بأقصى سرعة ممكنة إلى داخل المدينة وانضموا لرفاقهم فى مطاردة وذبح أعدائهم الأشرار دون توقف.

« وهرب بعض هؤلاء ، من العرب والأثيوبيين^(٢)، إلى برج داود، وأغلق آخرون على أنفسهم

(١) الجمعة التى دخل فيها الصليبيون القدس كانت ١٥ يوليو ١٠٩٩م.

(٢) يشير فوشيه فى هذا المكان من حويلته، وفى أجزاء أخرى منها ، إلى الأحباش (الأثيوبيين) العاملين فى خدمة المصريين، باعتبارهم سود البشرة مرة، وباعتبارهم من المشاة مرة أخرى . والواقع أنه يقصد الجند السودانيين العاملين فى الجيش الفاطمى والذين كانوا يمثلون فرق المشاة الذين قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي أثناء محاولته لتوطيد دعائم حكمه فى مصر بعد وفاة الخليفة الفاطمى الأخير. ولم يكن أولئك «السودانيون» من السودان الحديث ، وإنما كانوا من مناطق متعددة من أفريقيا.

معبد الرب ومعبد سليمان ، وتم هجوم وحشى على المسلمين فى فناء هذين المعبدين. ولم يكن هناك مكان يمكن أن ينجيهم من سيوف رجالنا ،

« وكثيرون من المسلمين الذين كانوا قد تسلقوا قمة معبد سليمان هاريين أصابتهم السهام فى مقتل فسقطوا من فوق السقف، وتم ذبح حوالى عشرة آلاف فى المعبد، ولو أنك كنت موجوداً هناك لغاصت قدماك حتى العقيين فى دماء المنبوحين، ترى ماذا أقول ؟ لم تترك منهم أحداً على قيد الحياة ، ولم ينج حتى النساء والأطفال.

« كم سيكون المنظر مدهشاً لو أنك رأيت فرساننا ومشاتنا ، بعد أن اكتشفوا خداع المسلمين، فشقوا بطون الذين ذبحوهم لكى يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملات الذهبية التى كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء، ولنفس السبب قام رجالنا بعد أيام قلائل بجمع كومة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رماداً حتى يمكنهم أن يجنوا بسهولة الذهب الذى ذكرنا خبره.

« كذلك اندفع تنكرد داخل معبد الرب واستولى على كثير من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، ولكنه أعاد هذه الأشياء ووضعها مرة أخرى داخل المكان المقدس، وكان هذا على الرغم من الحقيقة القائلة من أنه لم تكن هناك أية خدمة مقدسة تؤدى آنذاك، فقد كان المسلمون يمارسون عبادة الأصنام هناك مع الخرافات، كما أنهم لم يكونوا يسمحون للمسيحيين بالدخول^(١).

عندما جرى رجالنا وسيوفهم مشرعة عبر أرجاء المدينة.

ولم يبقوا على أحد حتى أولئك الذين كانوا يرجون الرحمة

سقط الجمع كما تسقط التفاحات العفنة جميعاً

من الأفصان المهزوزة وكما تسقط جوزة البلوط من الأشجار المتعائلة.

« وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا بيوت السكان، واستولوا على كل ما وجدوه فيها، وتم هذا بطريقة جعلت كل من كان يدخل أولاً ، سواء كان فقيراً أو غنياً ، لا يجد من ينارعه من الفرنج الآخرين. وكان له أن يحتل المنزل أو القصر ويمتلكه بكل ما فيه كما لو كان ملكية

(١) الحديث هنا عن المسجد الأقصى الذى استولى عليه الصليبيون.

خالصة له. وهكذا اتفقوا جميعاً على هذا النمط من حقوق الملكية . وبهذه الطريقة صار كثيرون من الفقراء أثرياء.

» ثم توجه القساوسة والعلمانيون إلى ضريح الرب ومعبد المجيد، وغنوا ترنيمة دينية جديدة للرب في صوت يشى بالفرح والبهجة ، وقدموا التقدمة وأعلنوا خضوعهم في تواضع، ثم زاروا الأماكن المقدسة وهم فرحون لأن هذه كانت رغبتهم منذ أمد بعيد.»

٢ - رواية ريمون الأجولري (*)

» في الوقت نفسه استفسر الكونت والأمراء الآخرون من السكان في ذلك الإقليم عن الطريق إلى القدس، وما هو أحسن وأسهل الطرق. لأنه كانت هناك جبال لبنان التي كان يسكن بها حوالى ستين ألفاً من المسيحيين. وكان المسيحيون الذين يسكنون قرب مدينة صور يملكون هذه الأرض والجبال منذ زمن بعيد. ولكن عندما ظهر المسلمون والأتراك بحكم الرب، تعرض أهل صور لضغط شديد على مدى أربعمئة سنة ونيف لدرجة أن كثيرين منهم اضطروا للهجرة من أرض آبائهم وتخلوا عن العقيدة المسيحية. وإذا كان منهم من رفض بفضل نعمة الرب، فإن هؤلاء اضطروا إلى تسليم آبائهم لكي يختنوا ويتحولوا إلى الإسلام؛ أو ينتزعون من أحضان أمهاتهم، بعد قتل الأب والتكثير بالأم. حقاً ، لقد ألهم الشر نفوس أبناء ذلك الجنس لدرجة أنهم حولوا كنائس الرب وقديسيه ، أو دمروا الصورة ، ومزقوا عيون الصور التي لم يستطيعوا تدميرها لضيق الوقت ، أو رشقوها بالسهام ؛ كما أنهم هدموا كل المذابح. وفضلاً عن ذلك حولوا الكنائس الكبرى إلى مساجد. ولكن إذا أراد أى مسيحي من هؤلاء المقهورين أن يقتنى في بيته صورة الرب أو أى قديس، كان عليه إما أن يفتديها بالمال شهراً بعد شهر، أو سنة بعد أخرى، أو تلقى في القذارة وتكسر أمام عينيه. كذلك ، وهو ما يصعب علينا حكايته، كانوا يضعون الشباب في بيوت الدعارة ، ولكي يمعنوا في الخسة ، كانوا يبادلون أخواتهم من البنات بالضمير. ولم تكن أمهاتهم تجرؤن على البكاء علناً بسبب هذه المصائب أو غيرها . ترى ماذا يمكن أن نقول عنهم أكثر من ذلك ؟ من المؤكد أن الناس قد تأمروا ضد الرب وميراثه ، لولا أن الفرنج كان يمكنهم التصدي لهذه الشرور بأمر من الرب

وتوجيهه، لو لم يكن الرب قد سلح الحيوانات الضارية ضد أعدائهم، كما فعل مرة في حضورنا. وهناك الكثير ما يُحكى بهذا الشأن.

« وعندما سئل أهل صور، الذين جاؤا إلى الكونت كما ذكرنا من قبل ، عن أفضل طريق، أجابوا : « إن الطريق عبر دمشق مستو وملى بمصادر الحياة ؛ ولكنكم لن تجدوا الماء على مدى يومين . أما الطريق الآخر عبر جبال لبنان فهو آمن وبه مياه كافية ، ولكنه شاق ووعر بالنسبة لحيوانات الأحمال والجمال . وهناك طريق آخر بحذاء البحر، حيث يوجد ممرات كثيرة وضيقة لدرجة أنه إذا أراد خمسون أو مائة من المسلمين أن يسيطروا عليها ، لأنهم ذلك في مواجهة الجنس البشرى بأسره. ومع ذلك فقد جاء بإنجيل بطرس الذي نملكه ، أنكم إذا كنتم القوم الذين سيستولون على القدس فإنكم ستمرون بحذاء ساحل البحر ، على الرغم من أن ذلك يبدو لنا مستحيلًا بسبب الصعوبات التي تكتنفه، وفضلًا عن ذلك، فإنه مكتوب في الإنجيل الذي نملكه ليس فقط ما فعلتموه، وإنما أيضًا ما ينبغي عليكم عمله إزاء المسيرة وأمور أخرى غيرها».

« وبينما كان البعض يحثوننا بهذه الطريقة ، كان هناك آخرون يعارضون . وعاد وليم هوجو المونتيلي بالصليب الذي ذكرناه من قبل . وفضلًا عن ذلك ، عندما تأمل أصدقاء الكونت هذا الصليب صاروا متحمسين جدًا للمسيرة لدرجة أن خدام الكونت كانوا سيحرقون أكواخهم ليكونوا أول من يترك حصار عرقة لولا مشورة الكونت والأمراء الآخرين. وبسبب هذا تضايق الكونت جدا لدرجة البكاء ولدرجة أنه كره نفسه وقومه . ولكن نوق اللورين على نحو خاص كان يرغب في هذه الرحلة وحث قومه على القيام بها. وبناء على ذلك، تركنا حصار عرقة المخنى والكريه ومضينا حتى وصلنا قبالة طرابلس . وحتى عندما قام الكونت ريمون بالصلوات ومنح الهدايا للنبلاء لكي يحثهم على حصار طرابلس، عارضوه جميعًا.

« وفي هذا الوقت تجلى القديس أندرو لبطرس ديز يديروس الذي ذكرناه من قبل، وقال له: «إذهب وتحدث إلى الكونت وقل له : لا تزعج نفسك أو الآخرين، لأنه ما لم يتم الإستيلاء على القدس أولاً ، فلن نتناول أية مساعدة. ولا تضايق نفسك بشأن حصار عرقة الذي لم يتم، ولا تثقل على نفسك بأن هذه المدينة أو غيرها من المدن التي ستصلون إليها في الرحلة، لم يتم الإستيلاء عليها في الوقت الحاضر، لأنكم ستخوضون حربا تستولون فيها على هذه المدينة وغيرها. وفضلًا عن ذلك، لا تزعج نفسك أو رجالك، ولكن وزع بإسم الرب ما سوف يمنحه لك، وكن رفيقًا وصديقًا طيبًا للاتباع، فإذا فعلت هذا، فإن الرب سوف يمنحك أورشليم

والإسكندرية وبابلليون^(١)، ولكن إذا لم تفعل ، فإنك لن تحصل على الأشياء التي وعد بها الرب، ولا تصلك رسالة منه، حتى يضعك في مأزق ومحنة لا تعرف إلى الهرب منها سبيلاً! وهكذا، تقبل الكونت كلمات القسيس ؛ تقبلها قولاً ولكنه رفضها فعلاً . لأنه حين جاءت ثروته كبيرة من ملك طرابلس، لم يكن لديه أى استعداد لأن يعطى منها شيئاً لأحد، بل إنه كان يتقل على قومه بالضرب والإهانات . ولم يكن هذا هو كل ما أخبرنا به القسيس ولكنه أخبرنا بأمر آخرى كثيرة، أضفنا بعضها إلى هذا الكتاب.

« فذات مرة أردنا أن نرحل عن أنطاكية ، جاء هذا القسيس إلى أنا ريمون، وقال إن شخصاً تجلى له فى رؤيا وقال له « إذهب داخل كنيسة سان ليونتيوس، وسوف تجد هناك الرفات المقدسة لأربعة من القديسين ؛ فخذها وأحملها إلى القدس » . ولما تلك الرؤيا أوضح له مكان الرفات وأخبره بأسماء القديسين، وعندما استيقظ هذا القسيس، وهو لا يصدق الحلم الذى رآه تماماً، بدأ يرجو الرب بالصلوات والتوسلات أن يجعله يتأكد مرة ثانية أنه أوحى له بهذه الرؤيا. وبعد ذلك بعدة أيام كان القديس نفسه يقف أمامه فى الحلم وهدده كثيراً لأنه تجاهل أوامر الرب، وقال إنه إذا لم يأخذ هذه الرفات قبل نهاية اليوم الخامس من الأسبوع، فسيجلب على نفسه وعلى سيده كثيراً من الأذى والضرر وكان سيده الكونت إيسورد أمير ديبى، رجلاً مؤمناً بالرب على ما نعرف ، كما كان يساعد الجميع بسبب حكمته واستقامته.

« وعندما حكى القسيس هذه القصة لى ، أنا ريمون ، أخبرت بها أسقف أورانج وكونت سان جيل وبعض الناس الآخرين، وأخذنا الشموع ودخلنا كنيسة سان ليونتيوس. وقدمنا الشموع وأقسمنا بالإيمان للرب والقديسين فى الكنيسة نفسها، وصلينا نرجو الرب العظيم، الذى قدسهم، ألا ينفرط عقد الحجاج والمنفيين فى سبيل الرب وألا يفرق شملهم . وعندما أصبح الصباح، ذهبنا مع القسيس إلى الأماكن التى كانت الرفات المقدسة محفوظة بها، ووجدنا كل شئ تماماً مثلما جاء به الخبر فى الحلم. فضلاً عن ذلك كانت هناك أسماء القديسين: كيريان ، أوميخيوس، ليونتيوس ، وحناءم الذهب . وكذلك ، وجدنا فى الأماكن التى كانت بها الرفات صندوقاً صغيراً مليئاً بالرفات المقدسة . وعندما سألنا القسيس عنها ، ورفات من القديسين تكون ؟ أجاب بأنه لا يعرف . ولكن عندما سألنا السكان إذا ما كانوا

(١) يقصد القاهرة . وهذا النص يكشف عن أن هدف الصليبيين منذ البداية كان الإستيلاء على المنطقة كلها وليس على بيت المقدس أو فلسطين فقط .

٢٦٠

يعرفون لمن من القديسين هذا الرفات، قال بعضهم إنها رفات القديس مرقيرىوس ،، وقال البعض الآخرين إنها لقديسين آخرين. وقلت له أنا، ريمون، بغضب : فى حضور كل من كانوا هناك : «إذا كان هذا القديس يرغب فى المجئ معنا إلى القدس، فليعرفنا باسمه ورغبته ؛ وإلا فليبق هنا. لماذا نتجشم عناء حمل عظام مجهولة على مدى الطريق؟ » . ولهذا تركنا هذه الرفات مكانها فى ذلك اليوم. ولكن عندما انتهى القسيس من جمع الرفات الأخرى وأنها فى القماش والأغطية ، وبينما كان يرقد فى فراشه فى الليلة التالية ، تجلى له شاب فى حوالى الخامسة عشرة من عمره ، فائق الجمال ، وقال له : لماذا لم تأخذ رفاتى مع الآخرين فى ذلك اليوم؟» .

فأجبه القس : « من أنت ؟ » .

فقال : « ألا تعرف من هو حامل راية هذا الجيش ؟ »

وعندما أجابه القس بالإجابة نفسها للمرة الثانية ، هدده الشاب بشكل مرعب وقال له : «قل لى الحقيقة ؟ »

عندئذ قال له القسيس ك « سيدى ، يقال إن القديس جورج هو حامل راية هذا الجيش».

فأجابه : «لقد أحسنت القول ، أنا هو . ولذا ، خذ رفاتى وضعها مع الآخرين . »

« وعلى أية حال ، فعندما أحجم القسيس عن فعل هذا عدة أيام، جاءه جورج نفسه وأمره بصرامة قائلاً : « لا تتأخر أكثر لما بعد الصباح فى أخذ رفاتى ؛ وبقرىها قنينة صغيرة سوف تجد فيها بعض دماء العذراء والشهيد القديس تكلا ، وخذها أيضاً ، وبعد هذا أئشد صلاة القداس.» ووجد القس هذا كله . وفعل ما أمر به.

« ولكن بعد أن نحكى البقية، لا ينبغي أن ننفل ذكر أولئك الرجال الذين لم يترددوا، حباً منهم فى الحملة المقدسة ، أن يبحروا عبر مياه مجهولة ولسافات طويلة جداً فى البحر المتوسط والمحيط، ذلك أنه عندما سمع الإنجليز بأمر انتقام الرب ضد أولئك الذين يحتلون ، دون وجه حق، الأرض التى شهدت ميلاد المسيح وحواريه، ركبوا سفنهم فى البحر الإنجليزى. ثم داروا حول إسبانيا وعبروا المحيط ثم دلفوا إلى البحر المتوسط ، وبعد جهد جهيد تمكنوا من الوصول إلى أنطاكية وميناء اللاذقية ، قبل أن يصل جيشنا إلى هناك عن طريق البحر. وكانت سفنهم ميزة لنا فى ذلك الوقت، مثل سفن الجنوبية، لأننا أثناء الحصار كنا نتبادل التجارة مع جزيرة قبرص وبقية الجزر بفضل هذه الجزر والأمان الذى وفرته لنا. والحق أن تلك السفن

كانت يومياً تمخر عباب البحر، ولهذا السبب كانت سفن اليونانيين آمنة ، لأن المسلمين كانوا يخشون مواجهتها. ولكن عندما رأى الإنجليز أن الجيش قد انطلق صوب القدس، وأن قوة سفنهم قد تضاعفت بسبب الانتصار الطويل (لأنهم كانوا في البداية يملكون ثلاثين سفينة، ولم يعد لديهم سوى تسع أو عشر سفن) ، تخلى البعض عن سفنهم ، على حين أحرق البعض الآخر السفن وأسرعوا معنا في الرحلة.

« وعندما تأخر أمراءنا أمام طرابلس^(١) ، سلط علينا الرب رغبة شديدة في الذهاب إلى القدس بحيث أن أحداً لم يتمكن من كبح جماح نفسه، أو غيره ، ولكنهم انطلقوا في المساء مخالفين أوامر الأمراء وعادة جيشنا، ومشينا طوال الليل حتى وصلنا في اليوم التالي إلى بيروت. وبعد هذا ، وبعد أن تم فجأة الإستيلاء على الممر الضيق المعروف باسم «الفم الملتوى»، وصلنا في غضون أيام قليلة، وبنينا متاع إلى عكا، وإذا خشى ملك عكا^(٢) أن نفرض الحصار على مدينته، ولأنه كان يأمل في أن ننسحب، قطع على نفسه عهداً للكونت بأننا لو استولينا على بيت المقدس، أو بقينا في إقليم القدس عشرين يوماً ، ولم يشتبك معنا ملك مصر في المعركة ، أو استطعنا أن نتغلب على الملك، فإنه سوف يستسلم هو ومدينته لنا ؛ ولكنه في الوقت نفسه سيكون لنا صديقاً .

« وإذا انطلقنا ساعة الغروب ذات يوم تاركين عكا ، وصلنا إلى المستنقعات المجاورة لقيصرية وأقمنا معسكرنا. وبينما كان البعض يجرون هنا وهناك خارج المعسكر، كما جرت العادة، كلما قضت الضرورة ، وبينما كان البعض الآخر يستفسرون من معارفهم عن الأماكن التي يقيم بها رفاقهم ، سقطت حمالة بتاتير جرح قاتل من صقر في وسط هؤلاء الرانحين والغادين . وعندما التقطها أسقف أجدي وجد خطاباً كانت تحمله . وكان مضمون الخطاب كما يلي:

« من ملك عكا إلى دوق قيصرية : مرُّ بى جيش أحقق بلا نظام يسبب المتاعب، كفضيل من الكلاب الشرسة . ويدافع من حبك لديك حاول بنفسك أو من خلال الآخرين أن تلحق بهم الأذى، وهو أمر سهل إذا أردته . إرسل هذا بدورك إلى المدن والقلاع الأخرى .»

(١) كان حاكم طرابلس آنذاك جلال الملك أبو الحسن على بن محمد عمار، وقد توفي سنة ١٠٩٩م.
(٢) كانت عكا خاضعة لحكم الخلافة الفاطمية في مصر آنذاك، ولم يكن الفاطميون في بداية الأمر يدركون حقيقة الغزو الصليبي فسعوا لعقد محالفة مع الصليبيين.

« وفي الصباح ، وعندما كانت الأوامر تصدر للجيش بالراحة ، اطلع الأمراء على الخطاب، فأنظر كيف أن الرب كان بنا رحيماً عطوفاً، لدرجة أنه حتى الطيور لم تكن تستطيع أن تعبر الأجواء وهي تحمل لنا الضرب والأذى، وأنه هو أيضاً كشف لنا أسرار العدو. وحينئذ قمنا بإسداء الشكر والصلاة للرب العظيم. ثم انطلقنا آمنين ومتحمسين ، وتقدم الجيش كله بهذه الروح؛ مقدمته ومؤخرته على حد سواء.

« ولكن المسلمين القاطنين في الرملة تركوا تحصيناتهم وأسلحتهم حين سمعوا أننا عبرنا النهر القريب ، كما تركوا الحقول عامرة بكثير من الغلال والمحاصيل التي جمعناها . وعندما وصلنا الرملة في اليوم التالي، اكتشفنا أن الرب كان يحارب من أجلنا حقاً . ولذا قطعنا النور على أنفسنا للقديس جورج لأنه جعل نفسه مرشداً لنا، ووافق الزعماء والناس جميعاً على أن نختر أسقفاً في المدينة ، حيث أن هذه كانت أول كنيسة نجدها في أرض إسرائيل(١). وكذلك لكي يكون القديس جورج شفيعنا عند الرب، ويقودنا بإخلاص في الأرض التي لم يكن يُعبد فيها. وفضلاً عن ذلك كانت الرملة تبعد عن القدس حوالي خمسة عشر ميلاً. ولذا عقدنا اجتماعاً هناك .

« وقال البعض : فلنترك الذهاب إلى القدس الآن، ولنتوجه إلى مصر، سوف لا نحصل على القدس فقط، وإنما سنحصل أيضاً على الإسكندرية وبابلليون وممالك أخرى كثيرة. فإذا ذهبنا إلى القدس، وبسبب نقص الماء ، رفعنا الحصار ، فلن نفعل هذا أو غيره فيما بعد .»

« ولكن البعض الآخر قالوا معارضين : لا يوجد في الجيش سوى ما يقرب من ألف وخمسمائة فارس ، كما أن عدد الرجال المسلحين ليس كبيراً ؛ ومع هذا تقترحون أن نذهب إلى مناطق بعيدة ومجهولة حيث لن نكون قادرين على نيل المساعدة من قومنا ، أو على وضع حامية في أية مدينة نستولى عليها، فضلاً عن أننا لن نستطيع العودة إذا دعت الضرورة لذلك، فلنسر على طريقنا، وليساعدنا الرب في الحصار ويعيننا على العطش والجوع وغير ذلك.

« وبناء على ذلك ، تركنا حامية في قلعة الرملة مع الأسقف الجديد ، ووضعنا الأحمال فوق جمالنا وثيراننا، وكل حيوانات حمل المتاع والخيول، ثم سرنا صوب القدس. وعلى أية حال

(١) يتحدث المؤرخ هنا بلهجة التوراة ، ويجب أن نلاحظ أنه كان قسيساً، وإسرائيل هنا تعني أبناء داود الذين أقاموا قديماً في هذه الأرض، وكان المسيحيون يعتبرون أنفسهم ورثة هذه الأرض بعد أن فقد اليهود حقهم فيها حين رفضوا المسيح.

نسبنا الأمر الذي وجهه لنا بطرس بارثولوميو بالأنقرب من القدس إلا ونحن حفاة الأقدام، ولم نعرها أى اهتمام، إذا كان إمرئ بدافع من طموحه فى إحتلال القلاع والقرى، يود لو سبق الآخرين . إذ كانت عاداتنا أنه إذا وصل أحد إلى قلعة أو قرية أولاً ورفع رايته عليها مع بعض الحراس ، لا يمسه أحد من بعده ، ومن ثم ، كان هذا الطموح دافعهم للنهوض فى منتصف الليل ، دون انتظار لرفاقهم ، لكى يستولوا على كافة الجبال والقرى فى مروج الأرض. ومع ذلك ، كانت هناك قلة تأخذ أمر الرب مأخذ الجد، فساروا حفاة الأقدام وهم يتنهون فى أسى لأن القوم احتقروا كلمة الرب؛ إلا أن أحداً لم يستدع رفيقا له من هذا السباق الطموح . كذلك حدث عندما اقتربنا من القدس على هذا النحو المتسرع أن خرج أهل القدس لملاقاة أول من وصل من الرجال وجرحوا عدداً كبيراً من الخيول. كما سقط من هؤلاء الرجال أربعة أو ثلاثة فى ذلك اليوم ، وجرح الكثيرون ..

« وكان الدوق جوفرى وكونت الفلاندرز وكونت نورماندى يحاصرون المدينة من الجانب الشمالى، من كنيسة القديس ستيفن القائمة فى وسط المدينة إلى الجنوب من برج متعدد الزوايا يلى برج داود. أما الكونت ريمون وجيشه، فكانوا يعسكرون فى الغرب وفرضوا حصارهم على المدينة من معسكر الدوق حتى سفح صهيون. ولكن لأن رجاله لم يستطيعوا التقدم لحصار السور بسبب وجود أخنود طبيعى يحول بينهم وبين السور، أراد الكونت أن يحرك معسكره ويغير موقعه. وذات يوم، وبينما كان يقوم بالاستطلاع ، وصل إلى جبل صهيون وشاهد الكنيسة القائمة على الجبل. وعندما سمع عن المعجزات التى أنجزها الرب هناك، قال لقادة جيشه ولرفاقه : «إذا تجاهلنا هذا العرض المقدس، الذى قدمه الرب لنا بكرمه ورحمته ، واحتل المسلمون هذا المكان، فماذا سيبقى لنا؟ ماذا لو أنهم دمروا هذا الأشياء المقدسة وقضوا عليها بدافع من كراهيتهم لنا؟ من يدرى أن الرب لا يمتحننا بهذه الفرصة ويختبر مدى احترامنا له؟ إننى أعرف على سبيل اليقين أمراً واحداً وهو؛ أننا إذا لم نتول حماية هذا المكان المقدس بحرص ، فإن الرب لن يعطينا الأماكن الأخرى داخل المدينة» . وهكذا، أمر الكونت ريمون بتحريك خيامه إلى هذا المكان ، ضد رغبة قادة الجيش الآخرين، باستثناء عدد قليل ممن صحبوه. وعلى أية حال، فإن الكونت كان يصدق كثيراً من المكافآت على أولئك الفرسان والمشاة الذين تولوا حراسة معسكره، والكنيسة تحتوى على هذه الكنوز – مقبرة الملك داود ومقبرة الملك سليمان، إلى جانب مقبرة أول الشهداء القديس ستيفن. وهناك فارقت مريم المباركة هذا العالم؛ كما أن الرب تناول عشاءه هناك، بعد قيامته من بين الموتى، وظهر لتلاميذه وأتوماس. وفى هذه البقعة أيضاً امتلأ الحواريين بالروح القدس.

«وعلى ذلك ، فإنه حين تم فرض الحصار، حدث ذات يوم أن بعض قادة الجيش قابلوا ناسكا فوق جبل الزيتون، وقال لهم : «إذا كنتم ستهاجمون المدينة غداً حتى الساعة التاسعة فإن الرب سوف يسلمها لكم» . وأجابوه : «ولكننا لا نملك الآلات الضرورية لاقتحام الأسوار» فرد عليهم الناسك بقوله: «إن الرب قوى، فإذا شاء ، فإنه سوف يقتحم الأسوار حتى لو لم تكن هناك سلام ، إن الرب يساعد من يعملون في سبيل الحق». وهكذا تم شن الهجوم في الصباح بتلك الآلات التي أمكن صناعتها أثناء ساعات الليل. واستمر هذا الهجوم على المدينة حتى الساعة الثالثة. وأجبر المسلمون على التقهقر خلف الأسوار الداخلية، لأن الأسوار الخارجية انهارت على أيدي رجالنا الذين تسلق بعضهم فوق الأسوار الداخلية نفسها. وعندما كانت المدينة على وشك السقوط، فشل الهجوم في غمار القوضى والرغبة والخوف، وفقدنا عددا كبيرا من الرجال. وفي اليوم التالي لم نقم بأي محاولة للهجوم.

« وبعد ذلك ، تبعثر الجيش كله في مناطق الريف المجاورة لجمع المؤن، ولم يرد حتى ذكر ضرورة تجهيز الآلات اللازمة للإستيلاء على المدينة. فقد كان كل رجل يخدم فمه ومعدته؛ أما ما هو أسوأ من ذلك، فإنهم حتى لم يطلبوا من الرب أن يحررهم من مثل هذه الشرور العظيمة المتعددة ، كما أنهم ابتلوا بالموت، فقبل وصولنا مباشرة ، كان المسلمون قد طمروا عيون الماء، ودمروا الآبار، كما سدوا الينابيع . كما أن الرب نفسه قد حول مجرى الأنهار إلى البرية وحول عيون الماء إلى أرض عطشى بسبب شرور السكان هناك. ومن ثم كان الحصول على الماء يتم بصعوبة بالغة. وهناك نافورة عند سفح جبل صهيون تسمى بركة سيلوم^(٥). وهي في الواقع ينبوع كبير، ولكن المياه لا تنبثق منه سوى مرة كل ثلاثة أيام، ويقول سكان المنطقة إنها في الماضي كانت تفرغ مائها يوم السبت فقط؛ وتظل عامرة بالمياه طوال بقية الأسبوع. ولسنا نعرف كيف نشرح هذا، كما ذكرنا، كانت تستهلك في سرعة ويتزاحم الناس عليها لدرجة أنهم كانوا يدفعون البعض داخلها، كما نفقت أعداد كبيرة من الحيوانات فيها. ولكن عندما امتلأت البركة بالزحام وجثث الحيوانات الميتة، كان الأقوياء يشقون طريقهم عبر الصخرة التي كانت فتحة المياه تخرج منها، بينما كان الضعفاء لا يحصلون سوى على المياه التي تلوثت. وسقط كثيرون من المرضى بجوار العين، وقد تدلت ألسنتهم الجافة بحيث عجزوا عن أن ينطقوا بكلمة واحدة؛ وكانوا يمدون أياديهم وأفواههم مفتوحة تجاه أولئك الذين كانوا يحملون الماء. وفي

(٥) هي «عين سلوان».

الساحة كانت هناك خيول وبغال وماشية كثيرة، ومعظمها قد خارت قواها لدرجة أنه لم تعد تستطيع الحركة. وعندما نفقت بسبب شدة العطش، جافت جثثها بحيث أفسدت الأماكن التي تواجدت بها، وانتشرت في أرجاء المعسكر رائحة نتنه تجلب المرض. وبسبب هذا الموت لم تعد هناك ضرورة لإحضار الماء من مسافة بعيدة، كما لم تعد هناك ضرورة لأن نسوق الماشية إلى أماكن بعيدة لتسقيها. وعندما لاحظ المسلمون أن رجالنا يذهبون إلى أماكن المياه غير مسلحين عبر الممرات الخطرة في التلال، كانوا يعدون لهم الكمائن. وقتلوا منهم الكثيرين واستولوا على حيواناتهم وماشيتهم. وقد بلغ من سوء الموقف أنه عندما كان أي أحد يحضر الماء في الأوعية، كان يمكنه أن يحصل على أي سعر يريده، وإذا أراد أحد أن يحصل على مياه نقية مقابل خمس أو ست نوميسمات، فإن ما يحصل عليه لن يكفي لرى ظمئه يوماً واحداً. كما أن الخمر لم تكن موجودة على الإطلاق، أو لا توجد إلا نادراً. وبالإضافة إلى ذلك، كان الحر والتراب والريح تزيد من عطشهم، وكان ذلك لم يكن شيئاً في حد ذاته. ولكن لماذا نتحدث كثيراً هكذا عن هذه المتاعب؟ فالواقع أنه لم يكن هناك أحد، أو كان هناك عدد قليل، يفكرون في الرب، أو في العمل المطلوب للإستيلاء على المدينة، كما أنهم لم يبذلوا جهداً لكي يقف الرب بجوارهم. وهكذا لم نعرف الرب في خضم البلوى التي حاقت بنا، كما أنه لم يظهر مساندته لمن لم يشكره.

«وفي الوقت نفسه، وصلت الرسل إلى المعسكر، ليعلموا أن سفننا قد وصلت إلى جوبا (١) وأن البحارة يطلبون إرسال حراسة لحفظ برج جوبا ولحمايتهم في الميناء، لأن مدينة جوبا قد دمرت كلها باستثناء القلعة، التي كانت قد صارت خراباً تقريباً، فيما عدا أحد الأبراج. وعلى أية حال، فهناك ميناء، وهو أقرب ميناء إلى مدينة القدس، على مسيرة يوم تقريباً. وابتهج رجالنا جميعاً عندما وصلتهم أخبار السفن، وأرسلوا الكونت جالدمار وكنيته كابيتلوس، وبصحبه عشرين فارساً وحوالي خمسين من المشاة. وفيما بعد، أرسلوا ريمون بيليتوس يرافقه خمسون فارساً ووليم السابرائي وأتباعه.

«وعندما اقترب جالدمار وفرقته من السهول الواقعة بجوار الرملة، قابلوا قوة قوامها أربعمائة من العرب المختارين وحوالي مائتين من الأتراك. ولأن رجال جالدمار كانوا قلة قليلة، فقد رتبهم على أساس أن يكون الفرسان وحملات الأقواس في المقدمة، ووضع ثقته في الرب، ثم

(١) يقصد بالها.

هاجم العدو دون تردد. وظن الأعداء أنهم قادرون على سحق هذه العصابة، فاندفعوا صوبهم يرشقونهم بالسهم. وأحاطوا بهم. وقتل ثلاثة أو أربعة من فرسان جالدمار، بينهم أشارد المونتميرلى، الذى كان شاباً نبيلاً وفارساً ذائع الصيت، وجرح آخرون على حين قتل كل رماة السهام. وعلى أية حال، فقد قتل الكثيرون من أفراد العدو أيضاً. ومع هذا، فإن هجوم العدو لم ينجح بسبب هذا، كما أن شجاعة فرساننا، فرسان الرب، لم تخنهم، فعلى الرغم من عبء الجراح التى تعرضوا لها والموت نفسه، صمدوا فى مواجهة أعدائهم، وكلما اشتدت معاناتهم من الأعداء، اشتدت شراستهم فى مواجهتهم. ولكن عندما كان زعمائنا على وشك الانسحاب، بسبب التعب وليس خوفاً من العدو. ظهرت سحابة من الغبار وهى تقترب. فقد كان ريمون بيليتوس يندفع راساً إلى المعركة برجاله. كما أن رجاله أثاروا غباراً كثيراً لدرجة أن العدو ظن أنهم كانوا كثرة كثيرة من الفرسان. وهكذا، وبفضل نعمة الرب، تم تخليص رجالنا. وتشقت الأعداء وهربوا، وقتل منهم حوالى مائتين، وتم الاستيلاء على كثير من الغنائم والأسلاب. ومن عادة هؤلاء القوم أنهم إذا هربوا، وضيق عليهم العدو الخناق، يبادرون برمي سلاحهم ثم ملابسه، ثم سروج خيولهم. وهكذا حدث فى هذا القتال أن استمر فرساننا فى قتل الأعداء حتى بلغ منهم الأرهاق مده، واحتفظوا بالغنائم التى استولوا عليها من الباقين، حتى أولئك الذين لم يقتلوهم.

«وبعد أن انتهت المطاردة اجتمع رجالنا، وقسموا الغنائم، ثم ساروا إلى جوبا، واستقبلهم البحارة بفرح عظيم وشعروا بالأمان بعد وصولهم لدرجة أنهم نسوا سفنهم وأهملوا فى مراقبة البحر ولكنهم أمدوا الصليبيين بكثير من الخبز والخمور والأسماك التى جلبوها فى سفنهم. ولأن البحارة أهملوا فى تأمين أنفسهم، فلم يضعوا حراسة ليلية، وتحت جنح الليل أحاط بهم العدو بفتة من البحر. وعندما لاح الفجر، أدركوا أن العدو أقوى كثيراً من أن يقاوموه، فهجروا سفنهم حاملين معهم الغنائم فقط. وهكذا، عاد فرساننا إلى القدس بعد أن كسبوا معركة وخسروا أخرى. وعلى كل حال، فإن إحدى سفننا كانت قد خرجت للنهب ولم تقع فى أيدي المسلمين. وكانت عائدة إلى الميناء محملة بقدر كبير من الغنائم عندما شاهدت بقية سفننا يحيط بها أسطول كبير للعدو. واستخدمت المجانيق والشرار فى الهرب إلى اللاذقية وأخبرت أصدقائنا ورفاقنا فى الميناء بما كان يجرى فى أورشليم. وعرفنا أننا كنا نستحق هذا السوء، لأننا لم نشأ أن نصدق الكلمات التى أرسلها لنا الرب. وإذا تملك اليأس من رحمة الرب لقلوب الرجال، ذهبوا إلى وادى نهر الأردن، وجمعوا الصدقات، وتعمدوا فى مياه النهر، وكان

قصدهم الأساسى من هذا أن يتخلوا عن الحصار، فقد شاهدوا القدس وكان قصدهم أن يذهبوا إلى جوبا، ومنها يبحثون عن وسيلة يعبدون بها إلى وطنهم، ولكن الرب كان يتولى العناية بسفن من لا يخلصون له.

« وفى الوقت نفسه ، عقد اجتماع عام، لأن قادة الجيش كانوا يتنازعون فيما بينهم. فقد ساد شعور بعدم الرضا لأن تنكرد احتل بيت لحم ورفع رايته فوق كنيسة الميلاذ، كما لو كانت منزلاً عادياً. كما بذلت الجهود أيضاً لانتخاب أحد الأمراء ملكاً ليتولى حفظ المدينة، وحتى لا يضيع ما تم إحرازه سويًا إذا لم نجد من يهتم بشئون المدينة، وذلك إذا منحنا الرب هذه المدينة. وأجاب الأساقفة والقساوسة على هذا الاقتراح بقولهم «لا ينبغي لكم أن تختاروا ملكاً فى المكان الذى شهد معاناة المسيح وتبويجه بالشوك. ذلك أنه لو كان هناك ملك مجرد من الإيمان والفضيلة، لقال فى قلبه : إننى أجلس على عرش داود وأمسك بزمام مملكتي» ، وربما قضى عليه الرب بالدمار وحل غضبه على المكان وأهله . وكما أن النبوة تقول إنه حين يأتى الرب، سيتوقف العمل الرديء لأن الشعوب جميعاً ستعرف أنه أتى. ولكن يجب أن يكون هناك وصى لحراسة المدينة ويقسم الضرائب والإيجارات فى الإقليم بين من يتولون حراسة المدينة». ولهذا السبب، ولأسباب أخرى كثيرة، توقفت عملية الانتخاب وتأجلت إلى اليوم الثامن بعد الإستيلاء على القدس. ولم تكن أحوالنا على ما يرام فى هذه المسألة فقط، ولكنها كانت سيئة فى أمور أخرى كثيرة، وكانت متاعب الناس تزداد يوماً بعد يوم. ومع هذا، فإن الرب الرحيم الكريم، تكريماً لاسمه، ولئلا يقول أعداؤنا «أين إلههم؟» ويهينون دينه، أرسل لنا رسالة عن طريق السيد أديمار، أسقف لوبوى^(١) تشرح لنا كيف نتقى غضبه ونستجلب رحمته. وعلى أية حال، فإننا دعونا إلى فعل هذا دون ذكر لأوامر الرب، لئلا يتجاهل الناس هذا الأمر من الرب وتحل بهم البلوى، لأنهم حينئذ سيكونون أكثر استحقاقاً للعقاب، ولأن الرب كان رحيماً بنا كان يرسل لنا هذه الرسائل الكثيرة، بيد أن إخواننا هم الذين لم يكونوا ينصتون إليها.

« فقد ظهر الأسقف أديمار أمام بطرس ديزيدير يوس وقال له : «تحدث إلى الأمراء وإلى الناس جميعاً وقل لهم: جئتم من بلاد نائية لكى تعبدوا الرب سيد الجيوش، فطهروا أنفسكم من أثامكم، وليترك كل منكم طريق الشر الذى يسلكه. ثم سيروا بأقدام حافية حول القدس تحثون الرب، ويجب أيضاً أن تصوموا . فإذا فعلتم هذا ثم قمتم بهجوم كبير على المدينة فى

(١) كان أديمار قد مات فى أنطاكية قبل عدة شهور.

اليوم التاسع، فسوف تسقط بأيديكم. أما إذا لم تفعلوا ، فإن الرب سوف يضاعف لكم الشرور التي عانيتم منها».

« وعندما قال القسيس هذا الكلام لوليم هوجو، شقيق الأسقف، واسيده الكونت يسورد، وبعض القساوسة، جمعوا الأمراء وخاطبهم على النحو التالي: «أيها الأخوة، إنكم تعلمون السبب في قيامنا بهذه الحملة ، كما تعرفون ما قاسيناها، وأننا نتصرف بإهمال لدرجة أننا لا نبني الآلات اللازمة للإستيلاء على المدينة. كذلك ، فإننا لسنا حريصين في استمالة الرب إلينا، لأننا نفغضبه بعدة وسائل بأفعالنا الشريرة التي أبعدته عنا. والآن، فإذا كنتم ترون هذا صواباً، فليصالح كل منكم أخاه الذي كان قد أغضبه من قبل، وليكن الأخ كريماً في العفو عن أخيه. وبعد هذا فلتتواضع أمام الرب، ونسرح حول مدينة القدس حفاة الأقدام، ونطلب رحمة الرب بشفاعته القديسين، فهو الذي من أجلنا ترك شكله الإلهي وتجسد في اللحم البشري، وخرج من المدينة في تواضع على ظهر حمار لكي يعاني الموت على الصليب فداءً لخطايانا، فربما جاء لمساعدتنا. وإذا قمنا بهذه المسيرة حول الأسوار من أجل مجد اسمه وشرفه، فسوف يفتح لنا المدينة ويجعلنا حكاماً على أعدائنا وأعدائه، الذين اغتصبوا ملكية مكان معاناته ودفنه، ويدنسونه الآن، وهم الأعداء الذين يسعون لحرماننا من بركة المكان الذي شهد عذاب الرب وخلصنا».

« وكانت هذه الكلمات برداً وسلاماً على الأمراء وعلى الناس جميعاً، وصدرت الأوامر للكافة بأن القساوسة سوف يقودون في يوم الجمعة التالي المسيرة حول المدينة وهم يحملون الصليبان ونخائر القديسين ورفاتهم المقدسة، على حين يتبعهم الفرسان وكل الرجال الأقوياء حفاة الأقدام، تصاحبهم الطبول والبيارق والأعلام، والأسلحة. وقد فعلنا هذا كله وفقاً لأوامر الرب والأمراء. وعندما وصلنا تلك البقعة التي صعد منها الرب من فوق جبل الزيتون إلى السماء بعد قيامته، قيلت الخطبة التالية للناس «الآن ونحن فوق البقعة التي صعد منها الرب، ولا يمكننا أن نفعل ما هو أكثر من ذلك لكي نظهر أنفسنا ، فليسامح كل واحد منكم أخاه الذي آذاه، حتى يسامحنا الرب». وماذا بعد ؟ لقد تصالح الجميع مع بعضهم البعض، وسعينا لطلب رحمة الرب بالهبات الكريمة، حتى لا يتخلى عن شعبه الآن، وهو الذي قادهم بهذا الشكل المجيد والإعجازي إلى هذا الهدف. وهكذا، حصلنا على رحمة الرب، إذ تحول كل شيء كان ضدنا لصالحنا.

« وعلى الرغم من أننا أغفلنا ذكر أمور كثيرة، فإن هذا الأمر ينبى أن نسجله، ذلك أنه بينما كنا نسير حول المدينة التل المسلمون والأتراك على الأسوار ، وسخروا منا بعدة طرق، ووضعوا عدة صليبان على السور فى النّير مكان الحيوانات، وسخروا منها بالضرب، وبأعمال أخرى مهينة، وقمنا نحن بدورنا بتشديد الحصار ليلاً ونهاراً، على أمل أن يساعدنا الرب فى اقتحام المدينة عن طريق هذه العلامات....».

« وفيما بعد، ذهب قومنا جميعاً إلى خربح سيدنا، وقد غمرنا الفرح وأخذنا نبكي من السرور، وقام كل منهم بالوفاء بالنذر الذى فى عنقه، وفى الصباح ، صعد رجالنا فوق سطح المعبد بحذر وهاجموا المسلمين، رجالاً ونساءً وأطاحوا رؤوسهم بالسيوف المسلولة؛ وقفز الباقون داخل المعبد حيث لاقوا حتفهم، وعندما سمع تتكرر بهذا امتلاً غضباً.

« وكان اللوق وكونت نورماندى وكونت الفلاندرز قد عينوا جاستون البيرتى مسئولاً عن الصناعات الذين كانوا يبنون آلات الحصار، وبنوا أبراجاً ومنصات لمهاجمة الأسوار. وقد أنيطت بجاستون مهمة الإشراف على هذا العمل لأنه كان سيداً نبيلاً للغاية، كما كان محل احترام الجميع لمهارته وسمعته. وبمهارة شديدة استطاع أن يسرع فى إنجاز العمل بتقسيمه بين الناس. فقد انشغل الأمراء بإحضار المواد، على حين كان جاستون يشرف على عملية بناء الآلات. كذلك فإن الكونت ريمون، عين وإيم ريكو مشرفاً على العمل الذى كان يجرى فوق جبل صهيون وعين أسقف الباربا مسئولاً عن المسلمين وغيرهم ممن كانوا يتولون إحضار الأخشاب. فقد كان رجال الكونت قد استولوا على عدد كبير من قلاع المسلمين وقراهم، وأجبروا المسلمين على العمل، كما لو كانوا أقتنائاً لديهم. وهكذا كان خمسون أو ستون رجلاً يحملون على أكتافهم لوحاً ضخماً من الخشب لا يمكن لأربعة أزواج من الثيران أن تجره ، وذلك من أجل بناء الآلات عند القدس. ترى ماذا يمكن أن أقوله أكثر من ذلك ؟ لقد كان الجميع يعملون فى سبيل هدف واحد، ولم يكن أحد يتكاسل ، كما أن أحداً لم يبق بلا عمل، كان الجميع يعملون دون أجر، بإستثناء الصناعات الحرفيين، الذين كان أجرهم يدفع من الأموال التى جمعت من الناس. وعلى أية حال، فإن الكونت ريمون كان يدفع لعماله من خزائنه الخاصة. ولا شك فى أن يد الرب كانت معنا تساعد أولئك الذين كانوا يعملون.

« وعندما انتهت جهودنا باستكمال الآلات، عقد الأمراء إجتماعاً وأعلنوا : «على كل الناس أن يعدوا أنفسهم للمعركة يوم الخميس ؛ وفى الوقت نفسه، يجب أن نصلى ونصوم، ونعطى

الصدقات، سلموا حيوانناكم وأولادكم للحرفيين والنجارين ، لكى يحضروا ألواح الخشب، والأعمدة، وجنوع الأشجار وفروعها لصناعة المنصات الواقية، ولصناعة سلم لتسلق السور. لا تترددوا فى العمل من أجل الرب، لأن جهودكم سوف تنتهى فى القريب العاجل». وقد سارع الناس إلى عمل هذا، ثم تقرر تخصيص الجزء الذى سيتولى كل قائد مهاجمته، وتم تحديد المكان الذى سيضع فيه كل منهم الآلة.

« فى الوقت نفسه ، عندما لاحظ المسلمون فى المدينة العدد الكبير من الآلات التى بنيناها، أخذوا فى تدعيم الأجزاء الضعيفة فى السور، حتى لا يمكن قهرهم سوى بمجهودات مستميتة. ولأن المسلمين أقاموا عدداً كبيراً من التحصينات فى مواجهتنا وللتصدى لآلاتنا، فقد أمضى الدوق وكونت الفلاندرز وكونت نورماندى الليلة السابقة على اليوم المحدد للهجوم فى تحريك آلاتهم ومنصاتهم إلى ذلك الجزء من المدينة الذى يقع ما بين كنيسة القديس ستيفن ووادي يوشيفاط. وأنت يا من تقرأ هذا لا يجب أن تظن أن ذلك كان عملاً سهلاً أو هيناً، لأن الآلات حملت أجزاء مفككة لمسافة تقرب من ميل إلى المكان الذى كان سيتم تركيبها فيه. وعندما لاح الصباح ورأى المسلمون أن كل الآلات والخيام قد نقلت أثناء الليل، انتابتهم الدهشة. ولم يكن المسلمون فقط هم الذين أصابتهم الدهشة، وإنما اندهش رجالنا أيضاً، لأنهم أيقنوا أن يد الرب معنا. وقد أجرى هذا التغيير لأن المكان الجديد الذى وقع عليه الاختيار كان مستويا ، ومن ثم كان يسهل عملية تحريك الآلات لمهاجمة أسوار المدينة ، وهو ما لا يمكن القيام به ما لم تكن الأرض مستوية ؛ وكذلك لأن هذا الجزء من المدينة كان يبدو أضعف لعدم وجود أية تحصينات به، لأنه كان بعيداً عن معسكرنا . ويقع هذا الجزء من المدينة فى جهة الشمال.

« وكان رجال الكونت ريمون يعملون أيضاً يجد فوق جبل صهيون، بيد أنهم تلقوا مساعدة كبيرة من وايم ياكو والبحارة الجنوبيين، الذين بالرغم من فقدانهم لسفنهم فى جوبا، كما أسلفنا القول، تمكنوا من الإحتفاظ بالحبال، والمطارق، والقضببان المسننة، والبلط، والفئوس ، التى كانت ضرورية جداً لنا. ولكن لماذا نؤجل رواية القصة ؟ لقد جاء اليوم الموعود وبدأ الهجوم. وعلى أية حال، فإنتى أريد أن أقول هذا أولاً : ذلك أنه وفقاً لتقديرنا وتقدير كثيرين آخرين، كان يوجد بالمدينة ستون ألف مقاتل، دون أن نحسب النساء وغير القادرين على حمل السلاح، ولم يكن هؤلاء كثيرين. وعلى أكثر تقدير لم يكن لدينا أكثر من إثنى عشر ألفاً قادرين على حمل السلاح، لأنه كان هناك كثير من الفقراء والمرضى. وكان جيشنا يضم حوالى ألف

ومائتى فارس أو ألف وثلاثمائة فارس، كما أحصيتهم، ولم يكونوا أكثر من ذلك، إننى أقول هذا لعلكم تدركون أنه لا يمكن لشيء يتم باسم الرب، سواء كان عملاً كبيراً أو صغيراً، أن يفشل، كما تكشف الصفحات التالية.

« وبدأ رجالنا يقوضون الأبراج والأسوار. ومن كل جانب كانت القذائف الحجرية تنهمر من المنجنيقات والمقاليع، وكذلك كانت السهام تنساقط بغزارة وكأنها البرد يسقط من السماء، وقد تحمل خدام الرب هذا فى صبر، وتجلدوا متمسكين بأهداب دينهم، سواء قتلوا أو كتب لهم أن يتغلبوا على عدوهم. ولم تظهر فى المعركة أية بادرة للنصر، ولكن عندما تم سحب الآلات بالقرب من الأسوار، لم يكتفوا بقذف الأحجار والسهام، وإنما أخذوا يقذفون الأخشاب والقش المشتعل، وكان الخشب مغموساً فى الشمع والشمع، والكبريت، ثم يربط بها القش برباط حديدى، وعندما تشتعل تنطلق هذه القذائف النارية من الآلات، وكانت كلها مربوطة سويّاً برباط حديدى، كما قلت، بحيث تظل القذيفة مشتعلة سويّاً حيثما سقطت. مثل هذه القذائف التى تشتعل عند إطلاقها لا يمكن مقاومتها بالسيف أو بالأسوار العالية، بل إنه لم يكن من الممكن المدافعين أن يجدوا الأمان خلف الأسوار. وهكذا استمر القتال منذ شروق الشمس حتى الغروب بطريقة رائعة لدرجة أنه من الصعب أن نصدق أنه قد حدث من قبل شيء مجيد أكثر من هذا. ثم استعنا بالرب العظيم، قائدنا ومرشدنا، وكلنا ثقة فى رحمته، وأسدل الليل ستاره وجلب الخوف للجانبين. فقد كان المسلمون يخافون أن نستولى على المدينة أثناء الليل أو فى اليوم التالى. لأن الأجزاء الخارجية كان قد تم اختراقها، كما ردم الخندق المحيط بالمدينة، بحيث كان يمكن أن نشق لأنفسنا مدخلاً فى السور بسرعة. ومن ناحيتنا، كنا نخشى فقط أن يشعل المسلمون النيران فى الآلات التى حركناها قريباً من السور، وبذلك يتحسن موقفهم. ولذا كانت تلك الليلة بالنسبة للجانبين ليلة مراقبة، وعمل، وبقظة لا تتوانى، وفى ناحية كان هناك أمل أكيد، وعلى الجانب الآخر كان الخوف ممزوجاً بالشك، وقد عملنا بانشرائح للإستيلاء على المدينة تمجيداً للرب، أما هم فكانوا يقاومون جهودنا فى سبيل قوانين محمد، ومن الصعب أن نصدق كم كانت عظيمة تلك الجهود التى بذلت على كلا الجانبين أثناء ساعات الليل.

« وعندما أصبح الصباح، اندفع رجالنا بحماسة صوب الأسوار وسحبوا الآلات إلى الامام، ولكن المسلمين كانوا قد بنوا آلات كثيرة لدرجة أنه فى مقابل كل آلة من آلاتنا كان هناك تسع أو عشر آلات للمسلمين. وهكذا أحبطوا جهودنا إلى حد كبير. وكان هذا هو اليوم

التاسع، الذى قال القسيس إننا سوف نستولى فيه على المدينة. ولكن لماذا أُوْجل القصة طويلاً هكذا؟ لقد دمرت أجزاء من الأتتا بسبب الحجارة التى أصابتها، ونال الإرهاق والتعب من رجالنا. ومع هذا، كانت هناك رحمة الرب التى لا يمكن قهرها أبداً أو التغلب عليها، ولكنها نبع الدعم والتأييد فى أوقات الشدة والضيق. ويجب أن تحذف حادثة واحدة، ذلك أن إمرأتين حاولتا سحر إحدى القاذفات، ولكن حجر سحقهما، كما سحق ثلاثة من العبيد، وهكذا انتهت حياتهم وتجنبنا التعويذة الشريرة.

« وعند الظهر كانت شجاعة رجالنا قد خارت إلى حد كبير. فقد كانوا متعبين وقد نال منهم الإرهاق مداه، وكان ما يزال هناك عدد كبير من الأعداء يتصدون لرجالنا؛ وكانت الأسوار عالية جداً وقوية، كما أن الموارد الهائلة والمهارة الكبيرة التى أبداها العدو فى إصلاح دفاعاته ظهرت لنا أكبر من أن نستطيع التغلب عليها. ولكن عندما كنا قد بدأنا نتردد وتتخاذل، والعدو قد أخذ يعمل على هزيمتنا، ألهمتنا رحمة الرب الغالبة وحولت حزننا وأسفنا إلى سرور، لأن الرب لم يتخل عنا. فبينما كان هناك اجتماع منعقد ليقرر ما إذا كنا سنسحب الأتتا أم لا، لأن بعضها كان قد احترق، وتفسخت الآلات الباقية إلى أجزاء، بدأ أحد الفرسان على جبل صهيون يلوح بسيفه لأولئك الذين كانوا مع الكونت والآخرين، وهو يشير لهم بأن يتقدموا. ولم تكن قادرين على التعرف على هوية هذا الفارس. وعند هذه الإشارة، بدأ رجالنا يتشجعون، وبدأ البعض ينزلون من فوق الأسوار، على حين كان البعض الآخر يصعدون بالسلام والحبال. وأخذ رماتنا يقذفون القذائف النارية، وبهذا قللوا من قوة الهجوم الذى كان المسلمون يشنونونه على الأبراج الخشبية للوق وكونت نورماندى وكونت القلاندرز. وكانت القذائف النارية ملفوفة فى القطن. هذا الوابل المنهمر من النيران أبعد المدافعين من الأسوار. ثم قام الكونت فى سرعة بمد جسر طويل كان يحمى البرج الخشبي المجاور للسور، فارتطم بالسور بعد أن سقط من عل، وتم تثبيتته فى منتصف البرج ليصنع جسراً بدأ رجالنا يدخلون منه إلى القدس فى جسارة وإقدام، وكان بين أولئك الذين دخلوا أولاً تنكرد وبق اللورين، وقد أراقوا من الدماء فى ذلك اليوم كمية لا يمكن تخيلها. وصعد الجميع بعدهم. وعندئذ بدأت معاناة المسلمين.

« ومن الغريب على كل حال، أنه حدث فى ذلك الوقت، عندما كانت المدينة قد سقطت فعلاً فى أيدي الفرنج، أن كان المسلمون ما يزالون يقاتلون فى الجانب الآخر، حيث كان الكونت

يهاجم السور كما لو أن المدينة لن تسقط أبداً. ولكن ما أن استولى رجالنا على السور والأبراج، تجلت علامات مدهشة، فبعض رجالنا (وكانت هذه رحمة بالغة) أطاحوا برؤوس أعدائهم؛ بينما رشقهم البعض الآخر بالسهم، بحيث سقطوا من الأبراج، على حين عذبهم البعض فترة طويلة بأن قذفهم في النار أحياء. وكانت أكوام الرؤوس والأيدي والأرجل تسترعى النظر في شوارع المدينة. وكان المرء يشق طريقه بصعوبة بين جثث الرجال والخيول. ولكن هذه كانت أموراً صغيرة إذا ما قورنت بما جرى في معبد سليمان، وهو مكان تتم فيه عادة الخدمة الدينية. ترى ما الذي حدث هناك ؟ إذا ذكرت الحقيقة ، فإنها ستعدي قدرتكم على التصديق. ولذا يكفي أن أقول إنه في معبد سليمان كان الرجال يخوضون في الدماء حتى ركبهم وحزام ركابهم. وإلواقع أنه كان حكماً عادلاً ومحترماً من الرب أن يمتلئ هذا المكان بدماء الكفار، لأن هذا المكان طالما عانى من دنسهم. وامتلات المدينة بالجثث والدماء، واحتسى بعض الأعداء في برج داود، وتوسلوا إلى الكونت ريمون أن يحميهم وسلموا له البرج.

« والآن تم الاستيلاء على المدينة ، وهي جديرة بكل أعمالنا السابقة والمصاعب التي واجهناها لثرى إخلاص الحجاج في الضريح المقدس، كم كانوا سعداء تفرهم البهجة وهم يغنون للرب أغنية جديدة ! لأن قلوبهم كانت تسدى صلاة الشكر الرب ، وهم ظافرون منتصرون ، وهو ما تعجز الكلمات عن تصويره»

رواية الفارس المجهول (*)

« ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى ركب رجالنا ضد طرابلس، وانقضوا على الأتراك والعرب والمسلمين خارج المدينة. وقد أربعهم رجالنا وأجبروهم على الفرار بعد أن قتلوا كثيرين من أعيان المدينة. وكانت دماء القتلى من الوثنيين من الكثرة لدرجة أن المجرى المائي الذي يدخل المدينة أحمر لونه وأفسد المياه في خزانات سكان المدينة، وهو الأمر الذي أصابهم بالحزن واللوعة، وتملكهم الخوف بحيث لم يجرؤ أحد منهم على الخروج من بوابة المدينة.

« وفي يوم آخر ساق رجالنا إلى ما وراء سيم، فوجدوا الثيران والماشية والحمير وحيوانات أخرى كثيرة، كما جلبوا معهم ما يقرب من ثلاثة آلاف جمل. وذهبنا لحصار عرقة لمدة شهرين ثلاثة تنقص يوماً واحداً، واحتلفنا هناك بميد الفصح في ١٠ أبريل. وعندما كان الحصار

قائماً، أُرست سفننا في ميناء قريب ^(١)، وكانت محملة بالمؤن الوفيرة، من القمح، والنبيد، والحم، والزبد والشعير، وهو ما وفر للجيش كله ما يحتاج من مؤن. وقد استشهد كثيرون من رجالنا منهم أنسلم الريمونتي ووليم بيكاردي وكثيرون لا أعرف أسماعهم. وقد أرسل ملك طرابلس عدة رسائل إلى قادتنا، يطلب منهم رفع الحصار وعقد معاهدة معه. وعندما سمع النوق جودفري وريمون كونت سان چيل وروبرت النورماندي وكونت الفلاندرز بهذا، ورأوا أن موسم الحصاد قد جاء، لأننا كنا نأكل فول الربيع في منتصف مارس والغلال في منتصف أبريل، تشاوروا سوياً وقرروا أنه سيكون من الأحسن أن يتموا الرحلة إلى القدس في وقت الحصاد.

« ومن ثم رحلنا عن القلعة حتى وصلنا طرابلس في يوم الجمعة الثالث عشر من مارس، وهناك مكثنا ثلاثة أيام. وأخيراً عقد ملك طرابلس معاهدة معنا يطلق بمقتضاها في الحال ثلاثمائة حاج كان قد أسره، وأن يعطينا خمسة عشرة ألف بيزنط وخمسة عشر جواداً أصيلاً. كما أنه باع لنا الكثير من الخيول، والحمير، والمؤن، بكميات كافية لتموين جيش المسيح كله. كذلك قررت المعاهدة أننا إذا استطعنا هزيمة الجيش الذي كان أمير القاهرة ^(٢) يجهزه ضدها، وأن نستولى على بيت المقدس، فإن ملك طرابلس سيقوم عندئذ باعتناق المسيحية، ويحكم بلاده لحساب زعمائنا. كانت هذه هي الإتفاقية القانونية.

« ورحلنا عن المدينة في أحد أيام الاثنين في شهر مايو وسافرنا طوال الليل والنهار، عبر ممر ضيق منحدر حتى وصلنا إلى قلعة تسمى بيتلون ^(٣)، ومنها وصلنا إلى مدينة على الساحل تسمى جبيلون ^(٤)، حيث عانينا كثيراً من العطش لدرجة أننا عندما وصلنا إلى النهر المسيحي برايم ^(٥) كان الإرهاق قد حل بنا. وبعد هذا قضينا الليل واليوم التالي في عبور التلال التي يخرقها ممر ضيق للغاية، وكنا نتوقع أن نجد أعداءنا في كمين، ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على الاقتراب منا بفضل الرب. ثم سبقنا فرساننا، لكي يخلوا لنا الطريق، ثم وصلنا

(١) كان هذا هو الأسطول الجنوى الذي كان قد وصل من قبل إلى ميناء (القديس سمعان) أنطاكية.
 (٢) يقصد الأفضل شاهنشاه قائد الجيوش المصرية، والذي كان صاحب السلطة الفعلية في مصر آنذاك بسبب ضعف الخليفة الفاطمي، وكان قد انتهن فرصة وجود الصليبيين في بلاد الشام لكي يستولى على بيت المقدس من حاكمها التركي الذي كان تابعاً لأرتق في يوليو سنة ١٠٩٨ م.
 (٣) بطرون.
 (٤) هي جبيلوس القديمة وجبيل الحالية.
 (٥) نهر إبراهيم.

إلى مدينة تسمى بيروت تقع على الساحل، ومن هناك وصلنا إلى مدينة أخرى تسمى ساجينا^(١)، ثم إلى مدينة تسمى حيفا، ثم عسكرنا فيما بعد بالقرب من قيصرية حيث احتفلنا بعيد العنصرة في ٢٠ مايو. ومن هنا توجهنا إلى مدينة الرملة التي كان المسلمون قد أدخلوها خوفاً من الفرنج. وبالقرب من الرملة تقع كنيسة جديدة بالتبجيل والاحترام، لأن بداخلها يرقد جسد القديس جورج، الذي عانى مجد الشهادة المباركة هناك من أجل اسم المسيح على أيدي الوثنيين الخونة. وبينما كنا هناك تشاور زعمائنا سويًا ثم اختاروا أسقفًا لحماية هذه الكنيسة وبنائها، ودفعوا له العصور وأغدقوا عليه الذهب والقضة والخيول وغيرها من الحيوانات، حتى يمكن له ولأهل بيته أن يعيشوا عيشة دينية هائلة.

« وقد مكث هناك في سرور، ولكننا وصلنا في غمرة الفرح والبهجة إلى بيت المقدس في يوم الثلاثاء ٦٠ يونيو، وفرضنا على المدينة حصاراً شاملاً للغاية. وقد اتخذ روبرت النورمانى مواقعه في الشمال، فيما يلي كنيسة القديس ستيفن أول الشهداء، التي كانت مبنية في ذلك المكان باسم المسيح، واستقر روبرت كونت الفلاندرز في الموقع الذي يليه، وكان النوق وتتركز يحاصران المدينة من جهة الغرب، أما كونت سان جيل فكان في الجنوب، أي فوق جبل صهيون، بالقرب من كنيسة القديسة مريم أم سيدنا، حيث شارك الرب حواريه العشاء الأخير.

« وفي اليوم الثالث ذهب بعض رجالنا - ريمون بيليه وريمون التورنى وكثيرون غيرهم - للقتال ووجدوا مائتين من العرب. وحارب فرسان المسيح ضد أولئك الكفار، وهزمهم هزيمة نكراء بفضل الرب، وقتلوا منهم الكثيرين واستولوا على ثلاثين جواداً. وفي يوم الاثنين^(٢) شددنا الضغط على المدينة بهجوم عنيف بلغ من حدته أنه لو كانت السلاط جاهزة لاستولينا على المدينة. وقد قمنا فعلاً بتدمير السور الخارجى، وأقمنا سلماً على الحائط الكبير، وصعد فرساننا عليه وقاتلوا قتالاً متلاحماً ضد المسلمين والمدافعين عن المدينة، مستخدمين السيوف والحراب. وفقدنا عدداً كبيراً من الرجال، ولكن خسائر العدو كانت أكبر. وخلال هذا الحصار لم نكن نستطيع شراء الخبز لمدة تقرب من عشرة أيام، حتى جاءنا رسول من سفننا^(٣)، كذلك عانينا كثيراً من العطش لدرجة أننا كنا نضطر لأخذ جيادنا والحيوانات الأخرى مسافة ستة

(١) صيدا الحالية.

(٢) ١٣ يونيو ١٠٩٩م.

(٣) أسطول جنوى.

أميال حيث يوجد الماء، وتحمل كثيراً من الرعب والمخاطر أثناء الطريق. وكانت بركة سيلوم الواقعة عند سفح جبل صهيون تساعدنا على الإستمرار ، ولكن الماء كان يباع بأسعار غالية جدا في الجيش.

« وبعد وصول الرسول المبعوث من سفنتا، تشاور قادتنا وقررنا إرسال بعض الفرسان لحماية الرجال والسفن التي كانت راسية في ميناء يافا. وعند الفجر انطلق مائة فارس من جيش ريمون، كونت سان جيل. وكان بينهم ريمون بيليه، وأشارد المونتمبرلى، ووليم السابراى، وساروا في ثقة صوب الميناء. ثم انفصل ثلاثون من فرساننا عن الآخرين، وأشتبكوا مع سبعمائة من العرب والأتراك المسلمين^(١) من جيش الأمير. وهاجم الفرسان المسيحيون الأعداء بشجاعة، ولكنهم كانوا قوة ضخمة بالقياس إلى فرساننا بحيث أحاطوا بهم وقتلوا أشارد المونتمبرلى وبعض الجنود المشاة الفقراء، وبينما كان رجالنا محاصرين بهذا الشكل وقد توقعوا الموت جميعاً، وصل رسول إلى الآخرين وقال لريمون بيليه «لماذا تمكثون هنا بفرسانكم ؟ انظروا إن رجالنا جميعاً وقعوا في فخ نصبه لهم العرب والأتراك، وربما يكونون في عداد الموتى هذه اللحظة ، انجسهم ». وعندما سمع رجالنا هذا انطلقوا بأسرع ما يمكن، ووصلوا إلى المكان الذى كان الآخرون يخوضون فيه القتال. وعندما رأى الوثنيون الفرسان المسيحيين، انقسموا قسمين ، ولكن رجالنا استجدوا باسم المسيح وهاجموا هؤلاء الكفار بعنف شديد لدرجة أن كل فارس أطاح بمن كان يواجهه. وعندما رأى الأعداء أنهم لا يستطيعون الصمود إزاء هجوم الفرنج الجسور، أداروا ظهورهم، وتملكهم الذعر، وطاردهم رجالنا لمسافة تقرب من أربعة أميال، وقتلوا منهم الكثيرين، ولكنهم أبقوا حياة رجل واحد لكى يمدهم بالمعلومات. كما استولوا على مائة وثلاثة خيول^(٢).

« وأثناء هذا الحصار، قاسينا كثيراً من العطش لدرجة أننا كنا نخطط جلود الثيران والجاموس ونحمل فيها المياه من مسافات تقرب من ستة أميال. وكنا نشرب المياه من هذه القرب، على الرغم من تغير رائحتها، وقاسينا كثيراً من المتاعب والمخاطر بصورة يومية للحصول على المياه القذرة وخبز الشعير، لأن المسلمين اعتادوا أن يكمنوا لنا الكمائن بالقرب

(١) هذه هي الصيغة التي يفضلها الكاتب لتوصيف «الأعداء». ومن غير المحتمل أن يكون الأتراك ضمن الجيش المصرى فى سنة ١٠٩٩، لأن الفارس المجهول يقصد بكلمة «الأمير» ، الأفضل شاهنشاه قائد الجيش المصرى آنذاك.

(٢) قارن هذه الرواية برواية ريمون الاجويلرى.

من كل نبع وبركة ماء، حيث كانوا يقتلون رجالنا ويمزقونهم إرباً إرباً؛ كما كانوا يأخذون الحيوانات إلى كهوفهم وأماكنهم الخفية بين الصخور.

« وحينئذ قرر زعمائنا أن يهاجموا المدينة بالآلات، فربما دخلناها لتتعبد في ضريح منقذنا ومخلصنا، وصنعوا برجين خشبيين من أبراج الحصار وآلات أخرى مختلفة، وملا الدوق جودفري برجه بالآلات، وكذلك فعل الكونت ريمون، ولكن كان عليهم أن يحصلوا على الأخشاب من مكان بعيد. وعندما رأى المسلمون رجالنا يصنعون هذه الآلات، بنوا سور المدينة وأبراجها أثناء الليل، بحيث زادوا من قوتها، وعلى أية حال، فعندما عرف رجالنا أضعف نقطة في دفاعات المدينة، نقلوا إحدى الآلات وأحد الأبراج إلى الجانب الشرقي في مساء يوم السبت^(١). وأقاموا هذه الآلات عند الفجر، وقضوا أيام الأحد والإثنين والثلاثاء في تجهيز برج الحصار وإعداده على حين كان كونت سان جيل يجهز معداته على الجانب الجنوبي. وفي هذا الوقت كنا نعاني بشدة من نقص الماء لدرجة أن المرء لم يكن يستطيع أن يشتري ما يروى ظمأه مقابل قطعة من النقود.

« وفي يوم الأربعاء والخميس قمنا بشن هجوم عنيف على المدينة، طوال الليل والنهار، ومن جميع النواحي، ولكن قبل أن نقوم بالهجوم، خطب فينا قساوستنا وأساقفتنا، وطلبوا منا أن نمضي في مسيرة دينية حول القدس تمجيداً للرب، وأن نصلي وتتصدق ونصوم كما ينبغي للرجال المؤمنين أن يفعلوا. وفي يوم الجمعة، وساعة الفجر، هاجمنا المدينة من جميع الجوانب، ولكننا لم نحقق شيئاً، مما جعلنا جميعاً متخاذلين وغشيناء الخوف، ولكن عندما حلت الساعة التي اختار الرب أن يعاني فيها من أجلنا على الصليب، كان عدة فرسان يقاتلون بجسارة فوق برج الحصار، يقودهم الدوق جودفري وأخوه إيستاس. وفي هذه اللحظة نجح أحد فرساننا، وأسمه ليتولد، في تسلق السور. وبمجرد أن وصله هرب كل المدافعين على طول السور وعبر أنحاء المدينة، وطاردهم رجالنا، يقتلون ويمزقونهم حتى معبد سليمان^(٢) حيث جرت هناك مذبحه بلغ من عنفها أن رجالنا كانوا يخوضون في دماء أهدائهم حتى أعقابهم.

« وكان الكونت ريمون يقترب بجيشه ويأخذ أبراج الحصار من الجنوب لكي يصل إلى

(١) ٩ يوليو ١٠٩٩م. ولم يكن المدافعون عن المدينة يتوقعون الهجوم من ناحية الشرق بسبب شدة إنحدار الصخور في هذه الجهة.

(٢) مسجد الصخرة الذي بناه عمر بن الخطاب.

السور، ولكن ثمة أخدود كان يفصل بين السور والبرج. وناقش زعمائنا كيفية سد هذا الشق العميق، وأعلنوا أن كل من يحضر ثلاثة أحجار ويلقيها في الأخدود سيأخذ قطعة من النقود. واستغرق الأمر ثلاثة أيام بلياليها، وعندما امتلأ تم سحب البرج إلى جوار السور. وكان المدافعون يقاتلون رجالنا في شجاعة مذهلة، ويقذفون الأحجار والنيران. ولكن عندما سمع الكونت أن الفرنج في المدينة قال لرجاله «لماذا تبطئون هكذا؟ انظروا أن جميع الفرنج الآخرين قد دخلوا المدينة بالفعل»، ثم استسلم الأمير الذي كان يدافع عن برج داود للكونت، ثم فتح له البوابة التي كان الحجاج يدفعون الضرائب عندها^(١)، وهكذا دخل رجالنا المدينة، وأخذوا يطاردون المسلمين ويقتلونهم حتى معبد سليمان، حيث احتفى به المسلمون وقتلوا ضد رجالنا بضراوة على مدى يوم كامل، لدرجة أن المعبد كله كان يفيض بدمائهم. وقد قتلوا من اختاروا قتلهم، وأبقوا على حياة من شاءوا إبقائهم أحياء. وفوق سطح المعبد كان هناك زحام من الوثنيين من كلا الجنسين منحهم تنكرد وجاستون البيرنى رايتهما^(٢).

« ويعد أن اندفع رجالنا في أرجاء المدينة كلها، يستولون على الذهب والفضة، والخيول والبغال، والمنازل العامرة بكل صنوف البضائع، وأقبلوا جميعاً فرحين وهم ييكون من شدة الفرح لكي يتعبدوا في ضريح يسوع مخلصاً، وهناك أوفوا بنذورهم له، وفي اليوم التالي توجهوا بحذر إلى سطح المعبد وهاجموا المسلمين، نساء ورجالاً، وقطعوا رؤوسهم بسيوفهم، وقذف بعض المسلمين بأنفسهم من أعلى المعبد. وانتاب تنكرد غضب شديد عندما شاهد ذلك.

« ثم تشاور رجالنا وأمرنا بأن يتصدق الجميع وأن يصلوا للرب لكي يختار بنفسه من يريده أن يحكم الآخرين ويحكم المدينة. كما أمرنا بأن ترمى جميع جثث المسلمين خارج المدينة بسبب الرائحة المرعبة، لأن المدينة كلها تقريباً كانت ملأى بالجثث. وهكذا قام الأحياء من المسلمين بسحب الأموات إلى خارج المدينة أمام البوابات وكوموهم في أكوام كبيرة بحجم البيوت. ولم ير أحد من قبل أو يسمع عن قتل مثل هذا العدد من الوثنيين، لأنهم أحرقوا في أكوام مثل الأهرامات، ولا يعرف أحد غير الرب كم كان عددهم. وعلى أية حال، فإن الكونت ريمون، أمر بأن يذهب الأمير^(٣) ومن معه أحياء إلى عسقلان سالمين آمنين».

(١) هي البوابة التي تؤدي إلى طريق يافا. وكان الحجاج المسيحيون يدفعون رسوما لدخول المدينة عند هذه البوابة.

(٢) أي أنهم فرضوا عليهم الحماية بحيث لا يجوز لأحد من الصليبيين أن يتعرض لهم بأذى.

(٣) هو الأمير افتخار الدولة حاكم المدينة حاكم الدولة الفاطمية في مصر آنذاك.

أهم مصادر ومراجع الكتاب

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

(١) المصادر :

- ١ - ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الواحد الشيباني):
- الكامل في التاريخ ، ج ١٠ ، دار صادر - بيروت ، ١٩٦٥ م.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (تحقيق عبد القادر طليمات) ، القاهرة ١٩٦٢ م.
- ٢ - ابن العديم (كمال الدين عمرو بن أحمد):
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، جزآن (تحقيق سامي الدهن) ، دمشق، ١٩٥٤ م.
- ٣ - ابن الفلانسى (حمزة بن القلانسى) :
- نيل تاريخ دمشق (نشرة أمديون) ، بيروت ١٩٠٨ م.
- ٤ - ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى):
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٥ - طبعة دار الكتب المصرية.
- ٥ - المقرئى (تقى الدين أحمد بن علي):
- إتحاف النفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. (تحقيق محمد حلمى محمد أحمد)،
القاهرة ، ١٩٧١ م.
- المواظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، القاهرة ، ١٢٧٠ هـ.

(ب) المراجع :

- ١ - اسحق مبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشسيوس حتى الفز اللاتينى لمدينة قنسطنطين ٨٦٩ -
١٢٠٤ م، القاهرة ١٩٧٢ م.
- ٢ - براور ، يوشع ، عالم الصليبيين (ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة) ، القاهرة ١٩٨١ م.
- ٣ - بيريل سمالى ، المؤرخون في المصور الوسطى (ترجمة قاسم عبده قاسم) ، القاهرة ١٩٧٩ م.
- ٤ - جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، الإسكندرية ١٩٦٣ م.
- ٥ - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٧١ م.

- ٦ - عبد الفتى محمود عبد المعطى، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور أليكسيوس كومنين ١٠٨١ - ١١١٨ م، القاهرة ١٩٨٣ م.
- ٧ - قاسم عبده قاسم ، «الاضطهادات الصليبية ليهود أوروبا من خلال حواشيه يهودية، الظاهرة ومغزاها»، نشرة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الأول، ص ١٣٧ - ص ١٦٦، القاهرة ١٩٨٢ م.
- ٨ - قاسم عبده قاسم ، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية ، دراسة عن الحملة الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩ م، القاهرة ١٩٨٣ م.
- ٩ - نورمان ف. كانتور ، التاريخ الوسيط : قصة حضارة البداية والنهاية (جزءان) ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة ٨٠ - ١٩٨٤ م.

ثانياً : المصادر الأجنبية :-

1. Albert of Aix, "Historia Hierosolymitana", RHC, Oc., IV, (Paris 1879).
2. Alexiad of Anna Comnena, (Transl. by E.R.A. Sewter), Penguin 1979.
3. Baldric of Dol, "Historia Jerosolimitana", RHC, Oc., IV, (Paris 1879).
4. Anonymous, Deeds of the Franks and the other pilgrims to Jerusalem, (ed. R. Hill), (London 1962).
5. Ekkehard of Aura, "Hierosolymitana", RHC., Oc. V, (Paris 1886).
6. Fulcher of Charters, A history of the expedition to Jerusalem, (ed. H. Fink). (Knoxville 1969).
7. Guibert of Nogent, "Historia quae Dicitur Gesta Dei per Francos", RHC, Oc. IV. (Paris 1879).
8. Raymond of Aguilers, "Historia Francorum qui ceperunt Iherusalem", RHC., Oc. III. (Paris 1866).
9. Robert the Monk, "Historia Iherosolimitana", RHC., Oc., III (Paris 1866).
10. William of Tyre, A History of the Deeds done beyond the see, (transl. by: E. A. Babcock and A. C. Krey) (New York 1943 - 47).
11. ALO: Archives de l'Orient Latin, 2 toms. (eds. P. Riant et H. Hagenmeyer) (Paris 1884).

ثالثاً : المراجع الأجنبية :-

1. Alphandery, P., La Chrétienté et l'Idée de Croisade. (Paris 1954).
2. Archer, T. A., The Crusades (London 1919).
3. Atiya, A. S. The Crusades, Historiography and Bibliography. (London 1962).
4. Bishop, M., The Penguin Book of the Middle Ages. (London 1971).
5. Bloch, M., Feudal Society (English transl. by : Mnyou) 2 vols. (Chicago 1968).
6. Boase, T. S. R., Kingdoms and Strongholds of the Crusaders. (London 1971).
7. Bradford, E., The Sword and the Scimitar _ The Saga of the Crusades. (London 1974).
8. Bréhier, L., Les Croisades. (Paris 1928).
9. Chalandon F., Essai sur la reigne d' Alexie 1er Comnène, 1081-1118. (Paris 1900).
10. _ Histoire de la Première Croisade, 3 toms. (Paris 1925).
11. Le Duc de Castries, La Conquête de la Terre Sainte par les Croisés. (Paris 1973).
12. Duggan, A., The Story of the Crusades. (Lodon 1963).
13. Duncalf, F., "The First Crusade, Clermont to Constantinople", in Setton (ed.), History of the Crusades, Vol. I, pp. 253-79. (Philadelphia 1953).
14. Edward Peters (ed.), The First Crusade - The Chroinicle of Fulcher of Chartres and other source materials. (Univ. of Pennsylvania Press 1971).
15. Edward Pognon (ed.), L'An mille - oeuvres de: Luitprand, Raoul Glaber, Ademar de Chabranne Adelborn, et Helgaud. (France 1974).
16. Frederick H. Russel, The Just War in the Middle Ages. (Combridge 1973).
17. Hans E. Mayer, The Crusades, (transl. from German by: John Gillingham) (Oxford 1972).
18. Painter, S., A history of the Middle Ages (Enland 1955).
19. Runciman, S., A History of the Crusades, 3 Vols. (New York 1964).
20. Riley-Smith, Louise and Jonathan, The Crusades-Idea and Reality. (London 1981).

محتويات الكتاب

| | |
|----|--|
| ٣ | الإهداء |
| ٥ | تمهيد |
| | القسم الأول : ما قبل الحركة |
| ٤١ | الحج إلى الأراضى المقدسة - رودلف جلابير |
| ٤٣ | * الأخبار والرؤى الإعجازية والأفكار الألفية والأخروية - جلابير |
| | * الصراع بين الكنيسة والدولة : |
| ٤٩ | - البابا نيقولاى الثانى، مرسوم الإنتخاب البابوى سنة ١٠٥٩م. |
| ٥٠ | - الإملاء البابوى (الإرادة البابوية) سنة ١٠٧٥م. |
| ٥٢ | - خطاب مجمع ورمس إلى البابا جريجورى السابع، يناير ١٠٧٦م. |
| ٥٤ | - البابا جريجورى السابع يخلع هنرى الرابع من عرشه وفبراير ١٠٧٦م. |
| | - خطاب من جريجورى السابع إلى الأمراء الألمان يصف خضوع هنرى الرابع فى |
| ٥٥ | كانوسا، ١٠٧٧م. |
| | * التنظيم والمثل الإقطاعية : |
| ٥٧ | - ملحمة رافول الكامبرى |
| ٦٦ | * حركة السلام |
| ٦٦ | - سلام الرب فى مجمع شارو ٩٨٩م |
| ٦٧ | - هدنة الرب، أسقفية تيروان ١٠٦٣م. |
| ٦٨ | * حياة القن فى العصور الوسطى، |
| | القسم الثانى : الدعوة إلى الحملة الصليبية |
| ٧٣ | * البابا إربان الثانى فى مجمع كليرمون، نوفمبر ١٠٩٥م |
| ٧٣ | - رواية فوشيه الشارترى |
| ٧٦ | - رواية المؤرخ المجهول |
| ٧٧ | - رواية روبرت الراهب |
| ٨١ | - رواية جيورجى التوجنتى |
| ٨٥ | - رواية بلديك الدوالى |
| ٨٩ | * خطابات إربان للدعوة إلى الحملة الصليبية |
| ٨٩ | - إلى كوتتات بيسالو - وأمبورياس ، وروسيلون، وسردانيا، وفرسانهم |
| ٩٠ | - إلى كل المؤمنين فى الفلاندرز |
| ٩٠ | - إلى أتباعه فى بولونيا |
| ٩١ | - إلى جماعة الرهبان فى دير فالومبروسا |
| ٩٢ | * شاعر مجهول يعبر عن حب الصليبي للرب |

القسم الثالث : الحملة الشعبية

- * بطرس الناسك ٩٨
- رواية جيوبيرت النوجتى ٩٨
- رواية فوشيه الشارتري ٩٩
- رواية وليم الصورى ١٠٠
- * والتر المفلس ١٠٣
- رواية وليم الصورى ١٠٣
- رواية ألبرت الايكسى ١٠٥
- * حملة بطرس الناسك ١٠٧
- رواية ألبرت الايكسى ١٠٧
- رواية وليم الصورى ١٠٩
- * فولكار وجوتشوك ١١٤
- رواية ألبرت الايكسى ١١٤
- رواية إيكهارد الأوى ١١٦
- رواية وليم الصورى ١١٦
- * أميكى ١١٨
- رواية إيكارد الأوى ١١٨
- رواية ألبرت الايكسى ١٢٠
- * نهاية الحملة الشعبية ١٢٢
- رواية أنا كومنينا ١٢٣
- رواية المؤرخ المجهول ١٢٥
- رواية ألبرت الايكسى ١٢٧

القسم الرابع : حملة الفرسان - الطريق إلى القدس

- * الرحلة إلى القسطنطينية ١٣٦
- رواية فوشيه الشارتري ١٣٦
- رواية المؤرخ المجهول ١٣٨
- رواية وليم الصورى ١٣٩
- * رحلة روبرت كونت نورماندى - فوشيه الشارتري ١٤٠
- * رحلة بوهيموند النورمانى - المؤرخ المجهول ١٤٣
- * رحلة ريمون أمير تولوز وأنيمار المندوب البابوى - ريمون الأجويلرى ١٤٦
- * رحلة جودفرى البويونى - وليم الصورى ١٥٠
- * الصليبيون فى القسطنطينية: ١٥٠
- * هيو الكبير الأمير الفرنجى - أنا كومنينا ١٥٦
- * جودفرى البويونى - المؤرخ المجهول ١٥٨
- * جودفرى البويونى - ألبرت الايكسى ١٥٨

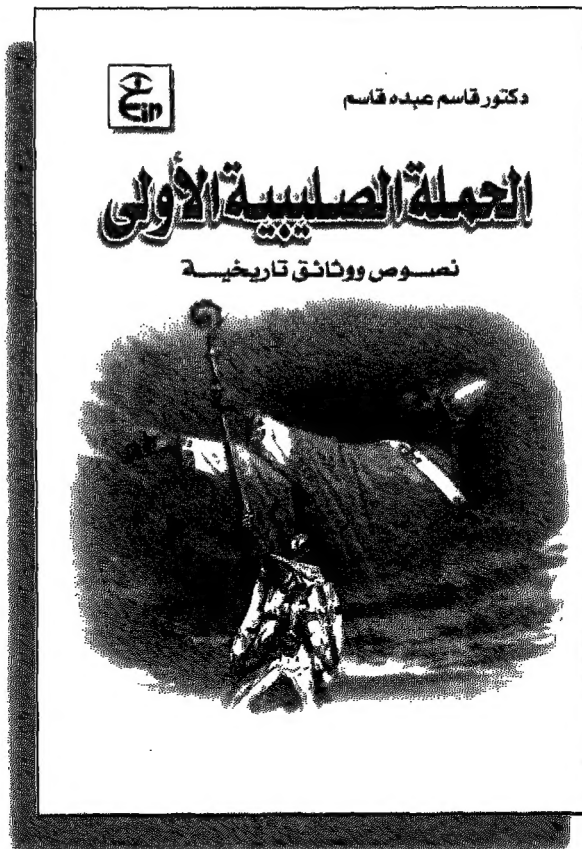
- ١٦٤ * جودفرى البويونى - أنا كومنيننا
- ١٦٨ * بوهيموند - المؤرخ المجهول
- ١٧٠ * بوهيموند - أنا كومنيننا
- ١٧٣ * ريمون أمير تولوز وأديمار المندوب البابوى - ريمون الأجويلرى
- ١٧٤ * ريمون كونت تولوز - المؤرخ المجهول
- ١٧٥ * ريمون كونت تولوز - أنا كومنيننا
- ١٧٧ * حصار نيقية وسقوطها (مايو - يونيو ١٠٩٧ م)
- ١٧٧ - رواية المؤرخ المجهول
- ١٨٠ - رواية فوشيه الشارترى
- ١٨٢ - رواية ريمون الأجويلرى
- ١٨٤ - رواية أنا كومنيننا
- ١٩٠ * رسالة الإمبراطور البيكسيوس كومنينوس إلى مقدم مونت كاسينو حول سقوط نيقية
- ١٩٢ * الطريق إلى أنطاكية (يونيو ١٠٩٧ - يوليو ١٠٩٨ م)
- ١٩٢ * معركة صوروليوم - المؤرخ المجهول
- ١٩٤ * معركة صوروليوم - فوشيه الشارترى
- * حصار أنطاكية
- ١٩٦ - رواية المؤرخ المجهول
- ١٩٩ - رواية ريمون الأجويلرى
- ٢٠٢ - رواية فوشيه الشارترى
- ٢٠٤ * معاناة الصليبيين حول أنطاكية
- ٢٠٤ - رواية المؤرخ المجهول
- ٢٠٧ - رواية ريمون الأجويلرى
- ٢١١ - رواية فوشيه الشارترى
- ٢١٣ * سقوط أنطاكية وهجوم كريبوقا الفاشل
- ٢١٣ - رواية المؤرخ المجهول
- ٢٢٧ - رواية ريمون الأجويلرى
- ٢٤٠ - رواية فوشيه الشارترى
- ٢٤٧ * خطاب زعماء الصليبيين إلى البابا إريان الثانى حول أحداث أنطاكية
- ٢٥١ * الطريق إلى القدس (أبريل ١٠٩٩ - يوليو ١٠٩٩ م)
- ٢٥٢ - رواية فوشيه الشارترى
- ٢٥٧ - رواية ريمون الأجويلرى
- ٢٧٣ - رواية المؤرخ المجهول
- ٢٧٩ أهم المصادر والمراجع

رقم الإيداع ١٥١١٤ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى 2 - 067 - 322 - 977 I.S.B.N.

دار روتابرينت للطباعة ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES